تيسير خلف

تاريخ الجولان المفصّل



تاريخ الجولان المفصّل

تيسير خلف

تاريخ الجولان المفصّل

تيسير خلف



الفهرسة أثناء النشر – إعداد مركز حرمون للدراسات المعاصرة
تيسير خلف
تاريخ الجولان المفصّل
540 ص، 24 سم.
يشتمل على بيليوغرافيا وفهرس عام وملحق صور.



العنوان بالإنكليزية
Golan's History in Details
Taissier Khalaf

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز حرمون للدراسات المعاصرة

الناشر



هاتف
الدوحة، قطر: 996 885 44 974+
غازي عنتاب، تركيا: 5112 326 342 90+

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

الطباعة والتوزيع



هاتف
الدوحة، قطر: 996 885 44 974+
غازي عنتاب، تركيا: 5885 326 342 90+

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
27000 غازي عنتاب، تركيا

البريد الإلكتروني: info@darmaysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.darmaysaloon.com

الطبعة الأولى
غازي عنتاب، آذار/ مارس 2017

المحتويات

تمهيد

لوحة ثقافية

بدأ الاستيطان البشري في الجولان منذ عشرات الآلاف من السنين، وعرف مراحل التطور المختلفة في العصور القديمة؛ فقد كشفت عمليات التنقيب عن مواقع كثيرة تعود إلى العصر الباليوليتي (الحجري القديم)، بمراحله الثلاث:

الأولى والوسيطة والعليا، إضافة إلى مواقع العصر الحجري الحديث التي عُثر فيها على مركز الثقافة اليرموكية في جنوبي الجولان، إذ انتشرت في مناطق عدة من بلاد الشام.

واستمر الوجود البشري في الجولان في العصر الحجري - النحاسي (الكالكوليت) الذي يغطي المدة من عام 4500 إلى 3200 قبل الميلاد. واستمر في العصرين: البرونزي (من 3200 إلى 1200 قبل الميلاد)، والحديدي (من 1200 إلى 550 قبل الميلاد)، وفي العصور الكلاسيكية إلى يومنا هذا.

وبدأت المدن والقلاع تظهر في الجولان، ابتداءً من العصر الحديدي، من مثل مدينة بيت صيدا (جولياس)، وبانياس، وسوسيا (هيبوس)، وفيق، وقلعة السنام (جمالا)، وغير ذلك.

وكانت منطقة الجولان طوال العصور الكلاسيكية جزءًا من ممالك وإمارات عربية، انتشرت في جنوبي بلاد الشام ووسطها، من مثل إيطوريا ومملكة الغساسنة؛ حتى الفتح الإسلامي عام 636 م.

وقد احتفظت منطقة الجولان بطابعها المسيحي؛ حتى نهاية الخلافة الأموية، إذ تضافر الزلزال المدمر، عام 749، للميلاد مع نزعة العباسيين الانتقامية في القضاء على آخر مواقع الحضارة في المنطقة التي بقيت أطلالها شاهدة على مجدها الأثيل.

واحتلت منطقة الجولان أهمية استثنائية خلال الحروب الصليبية، إذ كانت ساحة تجاذب، وموقعًا لبعض المعارك المهمة، وثغرًا من ثغور المجابهة.

وبعد تراجع الوجود الصليبي، خصوصًا في عهد الظاهر بيبرس، ومن بعده في عهد قلاوون وأبنائه وأحفاده، شهدت منطقة الجولان ازدهارًا غير مسبوق، تشهد عليه كتب الدواوين المملوكية التي تتحدث عن مئتي قرية مأهولة تتبع بانياس، ومئة وستين قرية تتبع نعران.

وعبد الجولانيون القدماء الإله حدد؛ فقد عُثر في بيت صيدا في سهل البطيحة، على تمثال بازلتي لهذا الإله، له رأس ثور وجسم إنسان، وعلى رأسه قرنان في شكل هلال الألوهية، يتوسطه قرص الشمس، يتمنطق سيفًا قصيرًا، ويعود إلى العصر الحديدي[1].

كذلك حظي حرمون في العصرين: البرونزي المتأخر والحديدي، باهتمام من الحثيين والمصريين القدماء؛ إذ أشهدوه مع الآلهة على معاهدة السلام والتحالف التي وقعها كل من الإمبراطورين: الحثي حاتو شيلي الثالث، والمصري رعمسيس الثاني عام 1272 ق.م[2].

---

[1] تقارير البعثة الاستكشافية في موقع التل (بيت صيدا) جامعة نبراسكا.

[2] أديب باغ، الجولان، دراسة في الجغرافية الإقليمية، ص 251.

وقد قدس الكنعانيون والآراميون والإغريق والرومان هذا الجبل، واحتل المرتبة الأولى بعدد المعابد الموجودة فيه، موازنة مع المناطق الأخرى في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولعل أهم هذه المعابد معبد قمة حرمون، ومعبد الإله بان في بانياس الجولان، وهو إله الرعاة والغابات، ويرمز -بجلاء- إلى ثقافة ما قبل الميلاد في الجولان.

لقد لعب حرمون دورًا كبيرًا في الثقافات القديمة، وفي بلورة مضامين هذه الثقافات وفلسفتها، وما يزال هذا الجبل الشامخ مقياسًا في التنبؤ الجوي حتى اليوم، عند شريحة واسعة من أبناء المنطقة.

وعُثر في الجولان على مجموعة واسعة من الآثار واللقيات من العصور والثقافات المختلفة، بعضها مستورد من مسافات بعيدة؛ إذ شكلت منطقة الجولان -بحكم موقعها الجغرافي وخصائصها الفريدة- نقطة تلاقٍ للحضارات والثقافات المختلفة.

إن وجود لقيات تجسد التأثير الإقليمي في هذه المنطقة؛ الرافدي، والحثي، والمصري القديم، لأهم دليل مادي حسّي على التفاعل الحضاري، وقد أوضحت دراسة آثار الجولان اهتمامًا مبكرًا لإنسان هذه المنطقة بفلسفة الحياة وجوهر الوجود، ومسألة المعرفة عمومًا، وأكدت رهافة الحس الفني لهذا الإنسان، وقدرته الكبيرة على التعبير عن المشاعر وتجسيدها، بدلالة الأعمال الفنية الرائعة التي أبدعها أبناء هذه المنطقة خلال العصور المتعاقبة، من المجسمات الحجرية والمعدنية والعاجية؛ إلى الزخارف والنقوش على الصخور والأبنية، ولا سيما دُور العبادة التي استمد الفنان معظم رموزها من البيئة المحلية، ومن العالمين: النباتي والحيواني.

الفصل الأول
عصور ما قبل التاريخ

1- العصور الحجرية

في ظل غياب التدوين خلال العصور الحجرية، يصبح علم الآثار مصدرًا وحيدًا لكتابة التاريخ، وعليه؛ فقد أفادت عمليات التنقيب، والدراسات الخاصة باللقيات الأثرية، أن محيط بِركة رام (مسعدة)، هو أقدم مواقع العصر الحجري القديم، المكتشفة -حتى الآن- في هذه المنطقة، إذ قُدّر عمر لقياته بنحو ربع مليون عام.

وقد وُجدت آثار هذا الموقع ولقياته مطمورة تحت طبقات الرواسب البركانية، وهذا يعني أن إنسان هذا الموقع شهد ثورات البراكين الأخيرة في المنطقة، وربما قضت هذه البراكين على حضارته[3].

وعرف إنسان الجولان الثقافتين: الآشولية والموستيرية، وهي ثقافات العصر الحجري القديم، ولاحقًا عرف الثقافات الخيامية، والكبارية، والنطوفية، وهي ثقافات المرحلة الانتقالية، من الجمع والالتقاط إلى الإنتاج (من 19000 إلى 8000 ق.م)، وعلى أرضه نشأت الثقافة اليرموكية التي تنتمي إلى ثقافات العصر الحجري الحديث (من 8000 إلى 4000 ق.م)، حيث انتشرت هذه الثقافة وسط بلاد الشام، من جُبيل، على الساحل الشمالي في لبنان، إلى عين غزال، في منتصف الساحل الفلسطيني.

---

[3] هضبة الجولان، عنبر وشيلر، ص 47.

ويبدو أن الثقافة اليرموكية التي أخذت اسمها من وادي اليرموك، حيث عُثر على الموقع الرئيس لها قرب قرية التوافيق، على الطرف الشرقي لسهل الأقحوانة، في المنطقة المجردة من السلاح، جنوبي غربي الجولان المحاذي لحوض اليرموك.

تمثل هذه الحضارة المرحلة الأولى لصناعة الأدوات الفخارية، وهي أقدم من فخاريات أريحا، ولقد تميزت الحضارة اليرموكية التي قُدّر عمرها بستة آلاف عام قبل الميلاد، بفخّار مُحزَّز، ومزخرف بالزخرفة المسماة بـ «زخارف عظام ظهر السمك» والمطلي -أحيانًا- باللون الأحمر القانئ، وتماثيل محفورة في الحصى، وبأدوات صوانية، أشكالها مختلفة، منها المناكيش والأزاميل والمخارز وشفرات المناجل ورؤوس السهام [4].

ومن الاكتشافات اللافتة في الموقع تماثيل طينيةَ، تصوّر نساءً جالسات، وأحيانًا رجالًا. وقد فتحت هذه التماثيل نقاشًا علميًا حول مدلولات رموزها التي عُدَّت مكرسة للخصب، ولعلها من الإشارات المبكرة لعبادة الأم[5].

وضم الموقع -أيضًا- تماثيل من الحجارة الكلسية، يتراوح طولها بين 4 سنتيمترات و32 سنتيمترًا، وتزن بين 30 غرامًا و6 كيلوغرام. إضافة إلى ثلاثين تمثالًا مُحزّزًا من البازلت، جرى تقطيعها بطرق هندسية مختلفة، بخطوط متوازية مرة، ومتقاطعة مرة أخرى، تشبه الأنماط الهندسية للأختام الطينية المعاصرة لها التي عُثر عليها في أكثر من مكان شرقي المتوسط، وشمالي بلاد ما بين النهرين.

---

[4] الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثاني ، المجلد الثاني، ص 45.

[5] Y. Garfinkel, The Yarmukian Culture. Paleorient 19/1 (1993) 115-134.

ومثل المجموعة السابقة، أثارت هذه التماثيل نقاشًا حول مدلولاتها، وهل هي جزء من طقوس الخصوبة، أم إنها أشكال استُعملت في بعض طقوس العبادة، أم لوسم الحيوانات المدجّنة؟

وقد بينت دراسة الفخاريات وقطع الصوان والتماثيل عدم وجود آثار واضحة لهندسة معمارية، وهذا يعطي انطباعًا بأن أصحاب هذه الثقافة كانوا مجتمعًا رعويًا نصف بدوي، عاشوا في حفر أرضية وأكواخ مستديرة، صُنعت من موادَّ لا تصمد أمام عوامل الزمن؛ ما عزز احتمال أن يكون هذا الموقع مركزًا لقرى وتجمعات أخرى، كانت تعيش في المنطقة المجاورة.

وقد أُثيرت مجموعة كبيرة من التساؤلات حول مغزى وجود هذه المجموعة الكبيرة والمتنوعة من التماثيل والأدوات في مكان واحد؛ وهو ما أجابت عنه الاكتشافات الحديثة في الموقع؛ إذ كشفت عمليات التنقيب عن بناء من العصر النيوليتي (الحجري الحديث)، هو الأول من نوعه حتى الآن، عائد إلى الألفية السادسة قبل الميلاد، في منطقة جنوبي بلاد الشام، مكون من غرفة مستطيلة، عرضها متر واحد وستون سنتيمترًا، وطولها ثلاثة أمتار، أرضيتها مرصوفة بقطع من حجارة البازلت المستوية، وأمام الغرفة، من جهة الشمال، فسحة مفتوحة تشبه فناء البيوت، وفيها هاونان كبيران، وتمثال حجري واحد، وقد وُجد أكثر من موقع مشابه لهذا الموقع في الجولان، ولكن هذه المواقع تعود إلى العصر الكالكوليتي (الحجري- النحاسي) (6).

(6) C. Epstein, 1988. Basalt Pillar Figures from the Golan and the Huleh Region. Israel Exploration Journal 38:205-223

وعُثر بالقرب من هذا المبنى على زاوية بناء كبير، بقي منه جداران، عرض الجدار الواحد متر تام، جرى تتبّع ثمانية أمتار منه، وعُثر -أيضًا-على تمثال حجري، هو الأكبر في مجموعة التماثيل التي عُثر عليها في الموقع، وهذا يعزز الفرضيات القائلة بأن لهذا البناء العام المذهل وظائف دينية طقوسية، ولعله المعبد الأول الذي يُعثر عليه في عموم منطقة جنوبي المشرق العربي.

2- العصر الحجري النحاسي

ويبدو أن المعتقدات الدينية، والطقوس والشعائر البدائية، قد تطورت في الجولان -خلال العصر اللاحق- إلى رموز أكثر وضوحًا وتعبيرًا عن قوى الطبيعة؛ إذ أكدت الدراسات الآثارية أن إنسان الجولان بلور في العصر الحجري- النحاسي (4000-3200 ق.م) معتقدات دينية، تجسدت في التماثيل، التي وُجدت في مواقع جولانية عدة، وهي تماثيل بازلتية، بعضها يحمل قرونًا، يُرجح بأنها ترمز إلى القوة التي تسيطر على المراعي، وبعضها بلا قرون، ويُرجح بأنها ترمز إلى القوة التي تسيطر على الزراعة، وتمثل هذه التماثيل شكلًا من أشكال الإجابة عن تساؤلات، طرحها الإنسان القديم حول القوة التي تسيطر على الكون والحياة، وتعبر عن مرحلة من مراحل تطور الفكر البشري.

وقد كُشف عن 20 موقعًا أثريًا، يعود تاريخها إلى العصر الحجري- النحاسي وسط الجولان، وموقع واحد في وادي السمك جنوبي الجولان.

وعُثر في بعض هذه المواقع على بذور القمح والعدس والبازلاء والزيتون، إضافة إلى ثلاثين نوعًا من أنواع حطب الأشجار المحروقة، وبخاصة حطب أشجار الزيتون الذي عُرف في الجولان منذ أقدم العصور، وشكّل مصدر دخل رئيس للسكان. أما الأدوات التي استخدمها الإنسان لعصر الزيتون، فتشبه الأدوات التي يستخدمها إنسان العصر الحديث.

ووُجدت في الأماكن الأثرية جميعها التي تعود إلى ذلك العصر كميات لا بأس بها من الآنية الفخارية والحجرية البازلتية، وحجر الصوّان المصنوع. وقد جُبلت عجينة الآنية الفخارية من التربة البركانية المحلية التي صُنعت منها الآنية الخزفية الخاصة بالسوائل الكبيرة والصغيرة، وكانت -غالبًا- باللون الأحمر الداكن، وعلى كل إناءٍ من هذه الآنية الفخارية ثمة شعارات خاصة بالمنطقة المصنوعة فيها من رسوم ونقوش ملونة وزاهية.

واستُخدمت المادة الفخارية في صناعة أدوات الزينة للنساء، والمكاييل الخاصة بالحبوب والفواكه، وأطباق الطعام المستخدمة في البيوت.

ومن بين الأدوات المنزلية التي عُثر عليها في البيوت العائدة إلى العصر الحجري- النحاسي أدوات الإراقة الشعائرية، والكؤوس، والقدور، وأحجار التسلية والزينة، والمطارق، والمكاييل، إضافة إلى الفؤوس والسكاكين الصوانية والمبارد، والأدوات الحجرية المثقوبة التي تشير الدلائل إلى استخدامها في الحياكة ودبغ الجلود، إذ عُثر عليها في المواقع التي تنتمي إلى هذا العصر في الجولان[7] جميعها.

---

[7] - عنبر وشيلر، هضبة الجولان، ص 52.

وعُثر في الجولان على تجمعات بشرية تعود إلى ذلك العصر، يضم كل تجمع نحو 40 وحدة سكنية، وقد أفادت الدراسات بوجود مدخل مشترك لهذه الوحدات، في الاتجاه الجنوبي؛ ما أثار تساؤلات حول دلالة هذه الظاهرة[8]، ونرجح أن إنسان الجولان، وعى -في هذا الوقت المبكر- أهمية الاتجاه في البناء، فجعل المدخل جنوبيًا؛ ليتفادى وطأة رياح الجولان في الشتاء، وهي رياح باردة، قوية، ماطرة.

ودلت الآثار على وجود بساتين للأشجار المثمرة، مثلما هو الحال في خربة رسم خريوش، المبنية في شكل سلسلة من الأبنية؛ ما يدل على أن ساكني هذه القرية هم من العائلات الكبيرة.

وعُثر على بيوتٍ بعضها متباعد عن بعض، منها ما مبني بحجر اللبن الترابي، وأخرى بحجر البازلت، من دون أي مادة إضافية للبناء.

أما توزيع غرف المباني، فكان متشابهًا؛ فهناك غرفة ضيقة على طول الجانب الشمالي من المبنى، ومخزن ضيق، وربما مخزنان أو ثلاثة، بعضها ملتصق ببعض من الجانب الغربي، ومكان للسكن، كان يقع في الجانب الشمالي الغربي قرب المخازن. وكانت الغرف الصغيرة بمساحة لا تزيد على مترين ونصف المتر.

وتفيد الدراسات بأنه لم يطرأ تغيير يُذكر على العالم النباتي في الجولان خلال هذا العصر، على الرغم من أن مساحة الغابات كانت أكبر مما هي عليه الآن،

---

[8] - المصدر السابق ، ص 53.

وخصوصًا في القطاع الشمالي، وكانت المناظر الطبيعية شبيهة -إلى حد كبير- بالمناظر الطبيعية الموجودة -الآن- في منطقة البطيحة.

وتشير الدلائل إلى أن جائحة ما، أو كارثة طبيعية، أدت إلى انقراض ثقافة العصر الحجري- النحاسي في الجولان، وانتهائها، ومن المرجح أن سكان البلاد قد نزحوا؛ لسبب غير معروف حتى اليوم، لا علاقة له بالحروب أو الدمار الزلزالي. علمًا أن آخر ثوران للبراكين في المنطقة حدث في منطقة اللجاة، قبل نحونحو ستة آلاف سنة، أي في المدة التي انقرضت فيها حضارة العصر الحجري- النحاسي في الجولان. والغريب هو بقاء حاجات المنازل، بما في ذلك أدوات العمل والزراعة الثقيلة؛ والتماثيل، وعُثر -أيضًا- في أحد البيوت على رماد يعود إلى 4140 سنة قبل الميلاد، وحبات قمح محروقة، يعود تاريخها إلى 3700 سنة قبل الميلاد[9].

3- العصر البرونزي

وتنتشر في الجولان الآلاف من قبور الدولمن، تعود إلى العصر البرونزي في مراحله المختلفة، وهي قبور سطحية، أي: ما فوق أرضية، وحجرية، وتُعدّ شواهد حية على جوانب من معتقدات إنسان الجولان القديم؛ فقد وُجدت في بعضها عظام حيوانات، إضافة إلى بقايا العظام البشرية، وحاجات فخارية وأسلحة، وأدوات معدنية صغيرة كالدبابيس، ويجسد هذا -بوضوح- نظرة الإنسان إلى الحيوان، ودور الحيوان وأهميته -في ذلك العصر- في حياة الإنسان ومماته، ويؤكد

[9] - المصدر السابق، ص 54-55.

وجود فلسفة، تقوم على الاعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت الجسدي، وهو اعتقاد مهم في تاريخ الفكر؛ إذ يمكن عدّه بداية الفكر الميتافيزيقي.

وكلمة «دولمن» تتكون من مقطعين في لغة مقاطعة بريتانيا الفرنسية، المقطع الأول «دول» ومعناه طاولة، والثاني «من» ومعناه حجر. وقد أطلق هذه التسمية على قبور ما قبل التاريخ رحالةٌ وسياح أوروبيون في القرن التاسع عشر، وازنوا بينها وبين أضرحة بلادهم.

وجرى التعرف إلى سبعة نماذج متميزة من الأضرحة المكتشفة[10]. ويبلغ حجم الأضرحة السطحية الصغيرة 2.2 م، وتتزايد تدرّجًا؛ بحيث تشكل غرفًا ضخمة، عُرفت بـ «غرف التخزين»، وثمة إجماع بين العلماء على أن الكمية الأكبر من الأضرحة يمكن أن يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأول، في المدة الواقعة بين (3150 و3000) ق م.

إذ استندت هذه التقديرات إلى العظام والآنية الفخارية التي عُثر عليها داخل هذه الأضرحة، بما في ذلك الأسلحة البدائية.

وتشير الأدوات الفخارية والمعدنية التي اكتُشفت في هذه الأضرحة، إلى أنها تنتمي إلى العائلة الشمالية التي كانت معروفة في سورية[11].

وتشير النماذج المختلفة لهذه الأضرحة إلى أن للذين بنوها تقاليد معينة ومفهومات حول الموت؛ حتى إن بعض العلماء الذين درسوها، أشاروا إلى أن

---

[10] Epstein, Claire, 1985 «Dolmens Excavated in the Golan.» Atiqot 17: 20-58. Epstein, Claire, and Shmaria Gutman.

[11] عنبر وشيلر ، ص 57-58-59.

تشابه الأضرحة في منطقة معينة، يشير إلى تقاليد عائلية أو قبلية؛ إذ إن لكل عشيرة أسلوبها في بناء الأضرحة.

وتشترك قبور الدولمن في الجولان في أنها مبنية من حجارة البازلت الكبيرة، ووفقًا لأسلوب البناء الجاف الخالي من أي مادة مضافة.

وبُنيت هذه القبور بالألواح الحجرية بناءً منسقًا، وفقًا لحجم الضريح الذي يبدو ضيقًا من المدخل، ويتسع في الداخل، وهو أمر ينطبق على ارتفاع الضريح، فمنها الأضرحة ذات السقوف العالية، ومنها ذات السقوف المنخفضة المغطاة -عادة- بحجر كبير مسطح. ويبنى السقف -أحيانًا- بناءً مدببًا، كما هو الحال في الأضرحة المسماة «الدبابة»؛ إذ يصل ارتفاع هذا النوع من الأضرحة إلى ثلاثة أمتار، وطوله سبعة أمتار، علمًا أن وسطي أبعاد هذه الأضرحة يتراوح بين مترين وثلاثة أمتار.

وهناك نوع من هذه الأضرحة يصل طوله إلى عشرة أمتار، وعرضه لا يتجاوز مترًا ونصف المتر.

وقد يجد المرء جدارًا كبيرًا وقويًا مبنيًا حول الضريح، بهدف إخفائه، وقد يكون الإخفاء داخل كومة كبيرة من الحجارة، يصل طولها -أحيانًا- إلى 20 مترًا، وبارتفاع مترين، ويحدث -أحيانًا أخرى- أن يوجد الضريح فوق كومة من الحجارة؛ بحيث يشاهَد من بعيد.

ويحدث -أحيانًا- أن تقام الأضرحة في خرائب الأبنية المنشأة منذ العصر الحجري بالاستعانة بالحجارة الضخمة، وذلك؛ بسبب توفر الحجارة المطلوبة الكبيرة التي يزيد وزنها -أحيانًا- على طن واحد، ولا يمكن تحريكها أو نقلها من

مكان إلى آخر إلا باستخدام عتلات الرفع، وعدد كبير من الناس، وبخاصة رفع الحجر الكبير الذي يشكل سقف الضريح.

وتشترك قبور الدولمن في الجولان، عامةً، بوجود دائرة حجرية تحيط بالضريح، وقد تحيط دائرة كبيرة بمجموعة من الأضرحة، كما هو الحال في منطقتي بريقة وبيرعجم؛ إذ شاهدنا وجود هذه الظاهرة التي لاحظها -قبل ذلك- المهندس الألماني، غوتليب شوماخر، عندما درس الجولان في ثمانينيات القرن التاسع عشر[12].

وفي الجولان موقع مميّز من العصر البرونزي الأول (3200 قبل الميلاد)، وهو موقع رجم الهري الذي يُعدّ واحدًا من أعظم أسرار الجولان، ويتكون من خمس حلقات (دوائر حجرية) حول بناء مركزي ضخم، يضم قبور دولمن، وقد اختلفت آراء الباحثين حول طبيعة هذا الموقع ودوافع إقامته، فمنهم من رأى فيه مرصدًا فلكيًا لتقويم زراعي يخص جنوبي بلاد الشام، ومنهم من ذهب إلى أنه موقع ديني.

إضافة إلى رُجم الهري، هناك موقع أساسي واحد من العصر البرونزي الأول، نُقّب فيه، وهو موقع لاوية، أحد المواقع الكثيرة العائدة إلى ذلك العصر في الجولان، وتُعرف -عمومًا- باسم «أسيجة الجولان»، تقع -هذه كلّها- وسط الجولان، ويتوضّع معظمها على مواقع استراتيجية، ومحصنة بجُدُر حجرية ضخمة. إن تصميم هذه المواقع، بوصفها أسوارًا، أثار حَيرة العلماء، في ما يتعلق بوظيفتها، وشكك بعضهم في استيطان تلك الأسوار؛ إذ عدّوها مناطق تجمع أساسية للقطعان، بينما عدّها آخرون مواقع مسورة بمنزلة مستوطنات محصنة.

---

(12) G. Schumacher, THE JAULAN. 123-130

وقد أثبتت الاكتشافات الحالية أن أسوار الجولان أو سياجاته، كانت تُستخدم للسكن[13]، وقد أثمرت التنقيبات في لاوية عن بقايا الاستيطان في العصر البرونزي الأول «أينما ضربت معاول المنقبين الأرض».

وبتناقض حاد مع المواقع الأثرية، جنوب وادي اليرموك، لم تُعرف مستوطنات من العصر البرونزي الوسيط الأول (2200ـ 2000) قبل الميلاد في الجولان، وكان -على الرغم من ذلك- ثمة وجود بشري واسع في الجولان في أثناء هذه الحقبة، مثلما بينت بقايا مصنوعات العصر البرونزي الوسيط الأول التي نُقّب عنها في عدد من ركام الأضرحة والمدافن في المنطقة.

وكانت بقايا المواد المتفرقة من العصر البرونزي الوسيط الثاني (2000ـ1500) قبل الميلاد موجودة في الجولان؛ وفي رجم الهري أيضًا، ومع ذلك -اعتمادًا على المعلومات المتاحة- لا نستطيع إدعاء معرفة أي شيء عن طبيعة الاستيطان في الجولان في العصر البرونزي الوسيط الثاني، وعن كثافته.

أما ما نعرفه عن العصر البرونزي المتأخر في الجولان، فيمكن تلخيصه ببضع جمل: حتى الآن كان من المعتقد أن لا استيطان في الجولان في العصر البرونزي المتأخر، على الرغم من بقايا المواد المنتشرة العائدة إلى هذا العصر في مواقع كثيرة، وردت عنها تقارير، وفي كثير من الأضرحة التي نُقّب فيها؛ ففي السنوات الأخيرة اكتُشف خزف مستورد، يعود إلى العصر البرونزي المتأخر.

ويبقى السؤال مطروحًا: هل بُنيت أضرحة بناءً منتظمًا في الجولان في أثناء هذه الحقبة؟

---

[13] Kochavi,1989 ((The Land of Geshur Project: Regional Archaeology of the Southern Golan.

الفصل الثاني

من رسائل تل العمارنة إلى تغلات فلاصر الثالث

أولى المدونات التي وصلتنا، وذُكر فيها اسم الجولان، أو صيغة صوتية قريبة من اللفظ الذي نستخدمه اليوم؛ هي ألواح تل العمارنة التي ذكرت مدينة باسم جيلوني[14]التي لم يحسم العلماء إشكالية موقعها بالضبط،أتقع في جنوبي لبنان أم في الجولان؟ غير إن رسائل تل العمارنة بين الفرعونَين: أمنحوتب الرابع، ووالده أمينوفيس الثالث، خلال الأعوام (1390- 1352 ق.م)، وحُكّام الولايات الصغيرة في شرق المتوسط التي كانت تحت هيمنة المصريين، تذكر اسمًا لموقع آخر يقع في الجولان، وهو موقع جيشور، تلك المملكة الآرامية التي كانت تمتد من وادي اليرموك جنوبًا، إلى منحدرات الحرمون شمالًا، ومن وادي الأردن غربًا، إلى جهة غير محددة في الشرق، قد تشمل معظم منطقة حوران الكبرى.

ويسود -الآن- اعتقاد، في بعض الأوساط الأكاديمية، بأن مدينة بيت صيدا، التي حُدّد موقعها في تل عامر، غرب سهل البطيحة في الجولان، كانت عاصمة مملكة جيشور الآرامية.

وقد ذُكرت جيشور في العهد القديم في أكثر من موضع، أهمها أن الملك داود تزوج معكة ابنة تلماي ملك جيشور، وأنجبت له ابنه أبشالوم، وأن هذا الأخير

(14) أورمان، والاقتباس مأخوذ عن المجلد الثاني من ألواح تل العمارنة لميرسر، تورونتو 1939.

لجأ إلى أخواله في جيشور في أثناء صراعه مع أشقائه[15]، وذُكر اسم ملك آخر لهذه المملكة، اسمه عمي حدد.

وعلى الرغم من أن كتاب العهد القديم (التوراة) لا يمكن اعتماد معلوماته، بوصفها وقائع تاريخية، إلا أن المكتشفات الأثرية الحديثة أثبتت وجود مملكة آرامية في موقع التل في البطيحة. ويبدو أن هذه المملكة، سواء أكان اسمها جيشور أم غير ذلك، ازدهرت أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وأوائل الألف الأولى قبل الميلاد، وجرى تدميرها خلال حملة تغلات فلاصر الثالث على المنطقة، عام 734 قبل الميلاد، إذ عُثر على سورٍ قوي للمدينة، وبوابةٍ معقدةٍ تضم أقسامًا عدة، وعلى قصرٍ ملكي، ومبانٍ عامة، وبيوتٍ سكنية.

وكسائر الممالك الآرامية، عبدت هذه المملكة الإله حدد الذي عُثر على تمثال له محطمًا، يمثل رأس ثور وجسد إنسان، وعلى رأسه هلال الألوهية الذي يحضن شمسًا. وقد عُثر على نسختين مماثلتين لهذا التمثال، ولكن بحجم أصغر، في موقع تل الأشعري في محافظة درعا، وفي قرية عوس في محافظة السويداء؛ ما يؤشر إلى امتداد عبادة هذا الإله في حدود مملكة جيشور الافتراضية التي سبق تحديدها.

ويبدو أن مملكة جيشور الآرامية لم تتعاف، بعد ضربة تغلات فلاصر الثالث، تعافيًا تامًا، على الرغم من استمرار الحضور البشري في بيت صيدا، لكنه كان حضورًا هامشيًا تابعًا للمملكة البابلية.

---

[15] الكتاب المقدس، العهد القديم، صموئيل 2، 3:3.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الجزء الشمالي من الجولان، أي: منطقة بانياس، كان يتبع مملكة آرام معكة التي كانت تمتد على سفوح جبل الشيخ الغربية، وفي البقاع الجنوبي، وكانت "أبل" أهم مدنها.

وبعد سقوط بابل، منتصف القرن السادس قبل الميلاد، انتقل الجولان إلى السيطرة الفارسية، واستمرت حتى عام 332 قبل الميلاد.

وقد عُثر في تل بيت صيدا على عملة، تعود إلى العام 450 ق.م، أي: إلى المدة الإخمينية، وهو ما يعني أن الحضور البشري فيها لم ينقطع خلال هذه الحقبة، على الرغم من غياب معطيات مدونة حول وقائع تاريخية محددة.

الفصل الثالث
الإسكندر وخلفاؤه

في سنة 334 ق.م عبرت جيوش الإسكندر الأكبر مضيق الدردنيل، واستولت على آسيا الصغرى، وحققت انتصارين على قوات الإمبراطورية الفارسية: الأول على ضفة نهر غرانيكوس، والثاني في إيسوس، وهي مدينة قديمة تقع في لواء إسكندرونة.

ولم يكن بالإمكان السيطرة على بلاد الشام كاملةً، إلا باقتحام مدينة صور التي امتنعت على جيوش الإسكندر، فحاصرها، وتوغل في جبل لبنان، وأنتي لبنان، أي: جبل الشيخ، للانتقام من العرب الذين هاجموا مؤخرة جيشه، وليس من المستبعد أن تكون قوات الإسكندر قد وصلت إلى شمالي الجولان في ذلك الوقت.

وقد طُرحت قضية هؤلاء العرب، ممن ذكرهم مؤرخو حملة الإسكندر، على طاولة البحث لسنوات في المحافل العلمية، ويبدو أن هؤلاء العرب هم الإيطوريون سكان جبال لبنان الشرقية والغربية، وسيتردد ذكرهم كثيرًا في الحقبة الهلنستية في ما بعد[16].

[16] The Arabs in Antiquity, Jan Retso. p 263 -266.

وبعد الانتصار على مدينة صور وعرب جبال لبنان، غدت بلاد الشام، ومنها الجولان، من توابع الإمبراطورية اليونانية التي ما لبثت أن قُسمت بين قادة الإسكندر بعد وفاته المفاجئة عام 323 ق.م، حين عاد من أواسط آسيا وبلاد السند.

تدل المعطيات الآثارية على أن سكان الجولان -في تلك الآونة- كان معظمهم من الإيطوريين الذين وطدوا وجودهم منذ قرون في شمالي الجولان، أي: في محيط بانياس وسفوح الحرمون الشرقية، ومنطقة القنيطرة الحالية. أما الساحل الشرقي لبحيرة طبريا، فقد طُرحت نظريات كثيرة حول هوية سكانه خلال تلك الحقبة، ولكنها لا تخرج عن الهوية العربية الشمالية – الآرامية، وكانت مدن بيت صيدا وسوسيا مراكز استقرار راسخة لهذا الوجود الذي منح الأسماء للأمكنة -معظمها- في الجولان، وما تزال كما هي حتى اليوم[17].

وفي داخل الجولان، كانت القبائل العربية قد اعتادت منذ قرون بعيدة على عدّ المراعي الخصبة من أراضيها؛ فكانت قبيلة داسم، إحدى قبائل العرب البائدة، قد اتخذت من الجولان مستقرًا لها منذ أقدم العصور. يقول المسعودي: «وداسم كانت ديارهم بالجولان، وجازر من أرض نوى من بلاد حُورَان والبثنية، وذلك بين دمشق وطبريا من أرض الشام»[18].

إذن؛ كانت منطقة الجولان، عندما دخلت القوات اليونانية إلى شرق المتوسط، جزءًا لا يتجزأ من التكوين الثقافي الآرامي- العربي الذي ميز جنوبي سورية، ومنحها هُويتها الراسخة.

---

[17] ما يزيد على 90 بالمئة من أسماء القرى الجولانية عربي شمالي- آرامي دون تحوير.

[18] المسعودي، مروج الذهب، المجلد الثاني، الصفحة 141.

لقد انشغل خلفاء الإسكندر وخلفاؤهم بسلسلة من الحروب، استمرت أكثر من قرن، كانت منطقة الجولان ساحة من ساحاتها الكثيرة، وكان حظ الجولان، وجنوبي سورية عمومًا، من نصيب دولة البطالمة في القسمة الأولى بين سلوقس وبطليموس، ذلك؛ كونها خط دفاع مصر الأول منذ أيام الفراعنة الذين أدركوا أهمية هذا الموقع منذ عصر «تل العمارنة»، والصراع بعده مع الحثيين. فالجولان -منذ تلك الأوقات- كان معبرًا مهمًا، ونقطة التقاطع لمعظم الطرق القديمة التي تصل مصر بالشام عبر فلسطين.

كان البطالمة حريصين على ملكية جنوبي سورية، وفي القلب منها منطقة الجولان، كونها ملتقى شبكة الطرق إليهم، وإلى الجزيرة العربية، كما أسلفنا، إضافة إلى غناها بالأخشاب؛ إذ كانت غابة السنديان تغطي معظم منطقة وسط الجولان وشماليه. أما جنوبي الجولان، فقد اشتهر منذ قرون طويلة بإنتاج زيت الزيتون، وقد عُثر فيه على عشرات المعاصر القديمة، يعود تاريخ بعضها إلى العصر الحجري- النحاسي[19].

هذا ما كان من أمر البطالمة. أما السلوقيون، فقد حرصوا على امتلاك جنوبي سورية لأسباب أخرى، تتعلق بسعيهم إلى السيطرة على الموانئ والطرق التجارية، بعد فقدانهم السيطرة على جنوبي العراق، وما يليه من الشرق، حيث الطرق التي تربطهم بأواسط آسيا والصين.

---

[19] عنبر وشيلر ، ص 52.

ولذلك؛ اندلعت بينهم -خلال القرن الثالث قبل الميلاد- خمسة حروب؛ للسيطرة على جنوبي بلاد الشام، سميت بالحروب السورية، كانت آخرها الحرب التي وقعت على أرض الجولان.

فالحرب الأولى وقعت عام 276-272 ق. م، شنها بطليموس الثاني ضد أنطيوخس الأول السلوقي الذي صد المصريين واحتفظ بدمشق، وعقد صلحًا، اتفق -بموجبه- الطرفان على أن يحتفظ البطالمة بفينيقيا، وما إلى الجنوب من دمشق، بما في ذلك الجولان.

والحرب الثانية وقعت عام 260- 255 ق.م، شنها أنطيوخس الثاني؛ لاسترداد ما حصل عليه البطالمة في الصلح السابق، وكان من نتيجة الحرب خسارة البطالمة جزءًا من الساحل السوري من جبلة إلى صيدا، وقد بقيت -نتيجة لذلك- منطقة الجولان -بكاملها- تحت سيطرة البطالمة.

واندلعت الحرب الثالثة عام 246- 241 ق.م بعد تولي بطليموس الثالث عرش مصر، الذي طمع في السيطرة على بلاد الشام بأسرها، ونجح في الوصول إلى أنطاكية، واحتل سلوقية عند مصب نهر العاصي.

وفي عام 219- 217 ق.م اندلعت الحرب الرابعة بين الجانبين، بعد أن نجح أنطيوخس الثالث باستعادة سلوقية، واتجه جنوبًا لاستعادة الأقاليم التي خسرتها مملكته في الحرب الثالثة، ووصل إلى رفح، حيث كانت جيوش البطالمة المعززة بالفيلة في انتظاره، فهُزم أنطيوخس الثالث، وعادت السيطرة على سورية المجوفة للبطالمة.

أما الحرب الخامسة، عام 202- 200 ق.م، فقد اندلعت بعد أن أعاد أنطيوخس الثالث الكرة من جديد، وهاجم البطالمة، والتقى الجيشان في بانياس شمالي الجولان، عند منابع الأردن، وانتصر أنطيوخس واستعاد بلاد الشام بأسرها؛ إذ أصبحت جزءًا من المملكة السلوقية[20]، وهي المرة الأولى التي تخضع فيها منطقة الجولان للسلوقيين الذين بنوا فيها مدينة ما تزال تحتفظ باسمها حتى اليوم.

مستوطنات هيلينية

كان السلوقيون يعدّون أنفسهم ورثة الإسكندر، وبرنامجه القاضي بتوحيد العالم في بوتقة الثقافة الهيلينية (الإغريقية)، ولذلك؛ أبدوا دأبًا واضحًا في إنشاء المدن؛ لتكون مراكز إشعاع للثقافة الهيلينية، فطوروا مدينة بانيون (بانياس)، وحولوها إلى مركز ديني مكرس لإله المراعي والغابات (بان)، وبنوا مستوطنة عسكرية هيلينية في بيت صيدا في سهل البطيحة، إذ دلت المكتشفات الأثرية الحديثة على حدود هذه المستوطنة وتفاصيلها العمرانية، كذلك أسسوا مدينة مركزية في موقع مدينة سوسيا، بالقرب من الساحل الشرقي لبحيرة طبريا، دعوها هيبوس، وأطلقوا على عموم منطقة جنوب الجولان اسم هيبينة؛ وكانت تتبع لها جميع القرى في هذه المنطقة. أما داخل الجولان، فقد بنو مدينة، أسموها سلوقية.

لقد كانت كثافة المواقع العمرانية الكبيرة في جنوبي الجولان أعلى منها في شماليّه؛ بسبب الغابات التي كانت تغطي معظم أراضي الشمال، وبينت عمليات

---

[20] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 144-145.

المسح الأثري وجود 75 موقعًا من الحقبة الهيلينية تتوزع على أنحاء الجولان المختلفة[21].

وقد أقيمت المدن والقرى في الأماكن الزراعية الخصبة، وفيرة المياه، وبالقرب من الينابيع التي تنبثق من الجروف الصخرية والأودية التي أقيمت حولها الحصون والقلاع، وخصوصًا في عهد أنطيوخس الرابع وسلوقس الرابع، خلال المدة الواقعة بين 187- 163 ق.م، بما في ذلك حصن سوسيا (هيبوس)، وحصن السنام (جملا)، حيث عُثر هناك على أقنية مائية، كانت تصل إلى هذين الحصنين الكبيرين اللذين سيطرا على الطرق الرئيسة هناك.

إضافة إلى العثور على ستة حصون أخرى وسط الجولان، على التلال المشرفة على شبكات الطرق القديمة، وقد دلت الدراسات الأثرية على أن هذه الحصون تعود إلى القرن نفسه، أي: القرن الثاني الميلادي، بدليل الفخاريات والطلاء البراق المعروف في ذلك العهد[22].

لقد كان المجتمع اليوناني يتركز في المدن والمستوطنات العسكرية، وما هو خارج ذلك بقي محتفظًا بخصوصيته الثقافية واللغوية، لذلك؛ انتشرت اللغة اليونانية في بانيون (بانياس) وبيت صيدا، وهيبوس التي كانت مدينة هيلينية، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، أي: اعتماد القانون اليوناني وتقسيمات المدينة الإغريقية، وكان يعيش في هذه المستوطنات الإغريقية طبقة أرستقراطية من الموظفين الذين يملكون ثروات طائلة، والتجار، اليونانيين والعرب المتهلينين. وفي

---

[21] الجولان في الحقبتين الرومانية والبيزنطية، دان أورمان، ص140.

[22] عنبر وشيلر، ص 61.

المستوطنات العسكرية، مثل سلوقية وهيبوس، وربما بيت صيدا، كانت تعيش جماعة الجند، وفي مقدمتهم الضباط الذين يتقاضون مرتبات كبيرة وهدايا، وهم في المرتبة الثانية بعد الأرستقراطية، أما الموظفون العاملون في خدمة الدولة، فقد كانوا من المتهلينين أيضًا، وهؤلاء أصحاب مهن وأطباء ومحامون ومعلمون، وقد عُثر على عيادة طبيب هيليني في موقع التل (بيت صيدا).

وفي موازاة ذلك، كانت هناك أسر عربية تقيم مجتمعًا موازيًا للمجتمع الهيليني، إذ كان السكان من العنصر المحلي، ولم يكن مضطرًا للتعامل مع القانون اليوناني أو اللغة اليونانية، لذلك؛ نجد أن الإيطوريين العرب في شمال الجولان، حافظوا على خصوصيتهم وتجمعاتهم السكنية واستقلالهم الاقتصادي؛ حتى في ظل حكم السلوقيين، على الرغم من تبنيهم الثقافة الهيلينية، ودلت المكتشفات الأثرية على وجود 43 موقعًا أثريًا، ينتمي إلى العرب الإيطوريين في القرن الثاني قبل الميلاد، في شمال شرقي الجولان، وقد تميزت هذه المواقع الأثرية بتأقلمها مع شرطها الجغرافي، إذ كانت المنطقة كلها مغطاة بالغابات، لذلك؛ اضطر سكان هذه القرى إلى إقامة تجمعاتهم السكنية في أماكن صغيرة، لا تتعدى مساحتها الدونمات الخمسة، كما هو الحال في خربة الزامل التي عُثر فيها على مبنى من الحجر، يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، خصص مخزنًا لعلف الحيوانات، وعلى مجمع سكني في محيط بركة رام (مسعدة)، يعود إلى الإيطوريين أيضًا، عُثر في أحد منازله على طاولة حجرية وحطام فرن، ورماد بكميات كبيرة، وأدوات منزلية[23].

---

[23] عنبر وشيلر، ص61.

ومع ذلك رسخت اللغة اليونانية نفسها في الجولان قرونًا طويلة تالية، بوصفها لغة الثقافة، حتى في العصر الروماني الذي لم تجد لغته اللاتينية أي فرصة لها في الولايات السورية.

لقد شهدت منطقة الجولان نوعًا من الازدهار الاقتصادي في الحقبة الإغريقية، بسبب زراعة المحاصيل الإستراتيجية في ذلك الزمن، مثل زيت الزيتون والخمر اللذين عُثر على معاصر عدة لهما في الجولان، وكذلك بسبب الحاجة إلى أخشاب الغابات التي كانت تغطي معظم أراضي الجولان. وقد زار وزير المال البطلمي، زينون، أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، الولايات الشامية التابعة لسلطة البطالمة، ووضع تقارير مفصلة عن أحوال هذه الولايات، ومنها الجولان وحوران والبقاع، ودوَّن زينون -كان معه 78 موظفًا، عشرة منهم بأسماء سامية- كل ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي وأثمان السلع وأنواعها[24].

إن الاستقرار والرخاء الاقتصادي سوف يشهد مزيدًا من النمو في الجولان، خلال المرحلتين: الرومانية والبيزنطية؛ بسبب زيادة عدد السكان والتجمعات الاستيطانية؛ رخاء أدى إلى حصول البلاد على نوع من الحكم اللامركزي، أتاح لها هامشًا من الحرية، لم تكن تتمتع به في ظل حكم الإغريق الطبقي الصارم.

[24] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص160.

الفصل الرابع
من بومبي إلى الحارث

باتت سورية -بكاملها- ولاية رومانية عام 63 ق.م، أي بعد عامين من تصفية الدولة السلوقية الهزيلة التي لم تكن تحتاج إلى خوض معركة لإنهاء وجودها في سورية.

وبدأ بومبي بوضع تنظيم جديد للمنطقة، نالت منطقة الجولان استقلالًا نسبيًا بموجبه؛ نتيجة وقوع جزء من أراضيها ضمن تحالف المدن العشر (الديكابوليس) التي أقر بومبي بما كان بينها من تعاون قوي، دفاعي واقتصادي، إضافة إلى احتفاظها بهويتها الثقافية الهيلنستية.

ومن المدن العشر في الجولان مدينة هيبوس (سوسيا) التي كانت تتبعها قرى كثيرة في منطقة الزوية من جنوبي الجولان، ومساحات واسعة من ضفة اليرموك. أما الحمّة، فكانت تتبع مدينة جدارا (أم قيس).

والحقيقة أن بومبي أعاد بناء مدينة هيبوس، بعد أن استغل القائد اليهودي، ألكسندر يناي، مرحلة الفوضى أواخر العهد السلوقي (ما بين 83-80 ق.م)، ودمّر المدينة التي لم ينجح في تغيير هويتها الوثنية، ودمر -أيضًا- حصن جملا؛ علمًا أنه هاجم مدينة بانياس أيضًا، لكنه جوبه بمقاومة من سكانها العرب الإيطوريين[25].

---

[25] عنبر وشيلر، ص70.

هيرود الأدومي وأبناؤه

وبعد سنوات، (ما بين 30 و20 ق.م)، حدثت نقلة نوعية في تاريخ الجولان، عندما أصبح تابعًا للملك الأدومي العربي، هيرود، وكان ملكًا على ولاية اليهودية الرومانية، إذ خضعت له مناطق الجولان وحرمون والبثنية جميعها.

والأدوميون عرب من منطقة أدوم جنوبي فلسطين، وهناك تداخل كبير بينهم وبين العرب الأنباط.

وفي الجولان بنى هيرود هيكلًا لأغسطس قيصر في بانياس، التي منحه إياها بعد الوفاة المفاجئة لزينودوروس، أمير الدويلة الإيطورية المستقلة في شمالي الجولان، وصلت حدودها إلى جنوب القنيطرة، وبنى -أيضًا- قصرًا ملكيًا ما تزال آثاره بادية للعيان قرب النبع، وأسكن في المدينة -إلى جانب العرب الإيطوريين- ثلاثة آلاف من العرب الأدوميين[26]، مبتدئًا -بذلك- عهد مدينة بانياس؛ بوصفها إحدى أهم مدن الشرق القديم.

وقبل وفاته بأيام، أي: عام 4 ق.م، عين هيرود ابنه فيليب حاكمًا (تتراخًا) على جولانيتس (الجولان) وتراخونيتس وباتانيا (البثنية)، وجزء من أورانيتس (حوران)، وقد أقرّ الإمبراطور أغسطس قيصر بهذه الوصية، وثبت فيليب حاكمًا على المناطق التي أوصى له بها والده.

كانت بانياس، في تلك الأيام، على المحور الذي يربط أراضي هيرود، في الأجزاء الشمالية من غربي فلسطين، مع الأراضي الجديدة التي منحها إياه أغسطس

---

[26] المصدر السابق، ص73.

قيصر في باتانيا (البثنية) وتراخونيتس، ولذلك؛ بنى فيها المعبد والقصر الملكي اللذين يؤسسان مدينة كبيرة في ذلك الزمن.

وقد سرع فيليب العملية التي بدأها والده، ووصل بها إلى نهايتها؛ فخلال حكمه أصبحت بانياس مدينة مركزية، وغير اسمها إلى قيصرية؛ تكريمًا لأغسطس قيصر، وكانت إحدى عواصم ولايته.

ويُجمع علماء العملات على أن النقود التي سكّها فيليب، كانت جميعًا في بانياس التي أصبحت واحدة من أهم عواصم الشرق القديم.

وبحسب ميشورر (Meshorer)، فإن أغريبا الأول جعل عاصمته بانياس في بداية حكمه، وفيها سكّ نقوده الأولى.

وخلال عامي 53- 54 للميلاد، انتقلت بانياس، مثلها مثل المنطقة بكاملها، إلى سلطة أغريبا الثاني، وبحسب قول جوزيفوس فلافيوس، وسّع أغريبا -هذا- قيصرية فيليبي، وأعاد تسميتها نيرونياس؛ تكريمًا لنيرون، بينما يدعي سيريغ في مقالته التي بعنوان «تاريخ أغريبا الثاني» أن إعادة تأسيس أغريبا الثاني المدينة حدث عام 62، في حين يحدد ميشور ذلك بعام 61 للميلاد[27].

وبحسب رواية جوزيفوس، فإن فيسباسيان وتيتوس اختارا بانياس في بعض مراحل قمع التمرد اليهودي في فلسطين ضد الرومان، مكانًا للراحة والاستمتاع، سواء لنفسيهما أم لقواتهما؛ إذ أجبرا الأسرى اليهود على مصارعة الحيوانات المفترسة؛ ما يعني -بالضرورة- وجود مسرح روماني ومبان للهو والتسلية، على غرار المدن

---

[27] الجولان في الحقبتين: الرومانية والبيزنطية، ص156.

الرومانية[28]، وهذا ما لم يُكتشف حتى الآن، وهو ما يضع رواية جوزيفوس موضع التشكيك والتساؤل.

هذا ما كان من أمر بانياس. أما بيت صيدا التي كانت مستوطنة عسكرية هيلينية، بدليل العثور على حي هيليني فيها، فقد رفعها فيليب إلى مرتبة مدينة، وسمّاها جولياس على اسم ابنة أغسطس قيصر، وزاد في سكانها، وقوّى تحصيناتها. وتجدر الإشارة إلى أن جوزيفوس يذكر أن فيليب لقي حتفه في بيت صيدا.

وقد أصبحت كل من قيصرية فيليبي (بانياس) وجولياس (بيت صيدا) من المدن المهمة في سيرة السيد المسيح؛ إذ يرد ذكرهما في بعض الأناجيل التي تؤكد أن خمسة من تلاميذ يسوع ولدوا في بيت صيدا.

ولا شك في أن هيبوس التي أظهرت عمليات التنقيب أنها مدينة إغريقية-رومانية، بما تعنيه الكلمة من معنى، كانت تحتل مكانة متميزة في ذلك العصر؛ إذ أشار جوزيفوس إلى أنها كانت عاصمة لمقاطعة تحمل الاسم نفسه.

وترد عند جوزيفوس أسماء مدن أخرى من المرحلة الرومانية في الجولان، مثل جملا، وسوغان، وسلوقية، وذلك عند حديثه عن التمرد اليهودي ضد الرومان، من سنة 66 إلى 74 ميلادية، ويذكر جوزيفوس أن اليهود (الذين لجؤوا إلى الجولان؛ هربًا من بطش الرومان) تجمعوا في حصن جملا، وأُبيدوا هناك عن بكرة أبيهم، وقد قدر عددهم بتسعة آلاف؛ أربعة آلاف قتلهم الرومان، وخمسة آلاف انتحروا بإلقاء أنفسهم من الجروف العالية للحصن. ولكن الموقع المفترض أنه حصن جملا، وسط الجولان في تل السنام، لا يتسع لعُشر العدد الذي يذكره

---

[28] المصدر السابق، ص 157.

جوزيفوس؛ علمًا أن كثيرًا من المؤرخين لا يأخذون أرقام هذا القائد العسكري، الذي تحول إلى مؤرّخ، على محمل الجد، ويعدّونها ضربًا من المبالغات.

الموروث المسيحي

احتلت منطقة الجولان أهمية خاصة في الموروث المسيحي، فقد نفّذ يسوع فيها، بحسب ذلك الموروث، سلسلة من المعجزات، التي وردت في الأناجيل، منها معجزات خاصة بالطبيعة، من مثل تهدئة العاصفة العاتية في بحيرة طبريا، والمشي على سطح مياه هذه البحيرة، ومنها معجزات تتعلق ببعض الحالات المرضية، من مثل معالجة حماة بطرس وشفائهم، والرجل الأعمى في بيت صيدا، والمشلول على الطريق إلى بيت صيدا، ونازفة الدم البانياسية، والرجل الأصم من أبناء الديكابولس، وطرد الشياطين من الرجلين الممسوسين إلى الخنازير في جرجيسا (الكرسي)، وغرق هذه الخنازير في بحيرة طبريا.

ومنها معجزات خاصة بالجوع والشبع، فقد أشبع خمسة آلاف رجل في بيت صيدا، ما عدا الأولاد والنساء، بخمسة أرغفة وسمكتين فقط، وأشبع في أحد مواقع الديكابولس أربعة آلاف رجل، ما عدا الأولاد والنساء أيضًا، بسبعة أرغفة وبضعة سمكات.

ويبدو أن هذا الموقع، يقع على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا؛ إذ يقول إنجيل متى: «ولكن يسوع دعا تلاميذه إليه، وقال: إني أشفق على الجمع، لأنهم ما

زالوا معي منذ ثلاثة أيام، وليس عندهم ما يأكلون، ولا أريد أن أصرفهم صائمين، لئلا تخور قواهم في الطريق»[29].

ويتابع ليقول: «ثم صرف يسوع الجموع، وركب القارب، وجاء إلى نواحي مجدان»[30]

ويرجح هذا كله أن يكون الموقع قرب بحيرة طبريا، وعلى شاطئها الشرقي تحديدًا، ونميل إلى أن الموقع قد يكون هو الكرسي، أو موقع في المنطقة التابعة لهيبوس.

كنائس وأديرة

ويبدو أن المسيحية انتشرت في الجولان تدرّيجًا، ولكن بسلاسة، وهنا، لابد من الإشارة إلى الدور الكبير الذي أداه ملوك وأمراء الغساسنة النصارى على هذا الصعيد، فقد بنوا الكنائس والأديار، وحمل أحدها اسم الملك الغساني الأول «دير جفنة»، ويقع شمال شرق القنيطرة[31].

وقد ارتفعت الكنائس والأديرة العامرة، في أرجاء الجولان المختلفة، وتشير أسماء بعض المواقع في هذه المنطقة، إلى جذورها المسيحية، فهناك مواقع كثيرة تبدأ أسماؤها بكلمة دير، أو دوير (تصغيرًا لكلمة الدير)، من مثل مواقع: دير عزيز، دير قروح، دير مفضل، دير سراس، دير الراهب، دوير بان، تل الدوير، دوير اللوز،

---

(29) مت 32/5

(30) مت 39/15

(31) وثائق عثمانية حول الجولان، ص 17.

دير جفنه، دير سيرقان، دير قوفان، دير فطم الحصى، ودير فيق الذي كان مأهولًا بالرهبان، في أيام ياقوت الحموي (1179 – 1229م)، أي: في العصر الأيوبي، وقد عدّه بعضهم أقدم الأديار، ويُعتقد أن هذا الدير، أقيم في موقع مر به يسوع المسيح في طريق عودته من منطقة الديكابولس، وقد كشفت عمليات التنقيب عن مواقع أخرى، كانت تضم أديارا، بمثل دير الكرسي.

إن وجود هذا العدد من الأديرة في الجولان، يعبر عن كثافة عالية نسبيًا، على الرغم من أنها لا تعبر عن الحقيقة؛ إذ نرجح أن منطقة الجولان كانت تضم أديرة أُخَّر، لم تُعرف مواقعها حتى الآن، وتوضح هذه الكثافة مدى انتشار المسيحية في هذه المنطقة، فالأديرة دلالة تجذّر، وهي -بطبيعتها ووظيفتها- أقل عددًا من الكنائس.

وأفادت الدراسات أن عددًا من المواقع القديمة في الجولان، كانت تضم كنائس رائعة، منها -على سبيل المثال لا الحصر -: الكرسي، ورعبنة، والحمة، وخسفين ، وسوسيا، والجويزة، والرفيد، والصرمان، ونعران، الرمثانية، وبريقة، وبانياس التي احتلت صدارة هذه المواقع بأبرشيتها وقديسيها.

وكذلك في هذا الموروث، أن بولس الرسول أحس بالتعب والإرهاق خلال رحلاته التبشيرية، وبدأت صحته تضعف، فقرر زيارة الحمة، على الرغم من أنها مكان للمتعة الوثنية، ونزل في بركة الفقراء؛ لأنه لم يكن يملك قيمة رسم الدخول إلى البرك الأخرى، وأحس بالتحسن حالًا، فرغب في أن يؤدي صلاة الشكر، غير أنه لم يستطع؛ إذ فقد القدرة على الكلام، حتى انبثق نبع بارد من المياه العذبة، داخل البركة الساخنة، فشرب منها، وعادت قواه، وقد حمل هذا النبع اسمه منذ

ذلك الوقت، وهو نبع صغير يقع في الشمال الغربي من الموقع، وتبلغ حرارة مياهه نحو 25 درجة مئوية، وتوحدت مياهه -لاحقًا- مع مياه النبع الحار، المعروف باسم عين البلسم[32].

سجلات الكنيسة الملكية الأرثوذكسية

وتبين لنا سجلات الكنيسة في القرن الخامس الميلادي، وجود أبرشية في بانياس، كانت تتبع لها ثلاث قرى. وهذه الأبرشية كانت ضمن منطقة فينيقيا الساحلية، بحسب التقسيم الإداري الذي اعتمده البيزنطيون.

وتظهر في منطقة فلسطين الثانية أبرشية في هيبوس (سوسيا)، تتبع لها قريتان، بينما كانت الحمة تتبع أبرشية جدارا[33]. والملاحظ أن هذه الأبرشيات تابعة للكنيسة البيزنطية الملكية، بينما الكنائس المونوفيسية غير مذكورة في هذا السجل، علمًا أن الغالبية الساحقة من مسيحيي الجولان كانوا يقولون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، أي: منوفوفيسيين.

---

[32] خلف وسطاس، المسيح في الجولان، ص 18-21.

[33] الموسوعة الفلسطينية، ج 2، ص204.

رموز مسيحية جولانية

أنجبت منطقة الجولان شخصيات مهمة في التاريخ المسيحي، منها خمسة من تلاميذ السيد المسيح، وهم:

* سمعان بن يونا: أخ لأندراوس، ولد في بيت صيدا، في العام الأول قبل الميلاد، و أحد ثلاثة من تلاميذ الحلقة الداخلية التي قربها المسيح إليه، واعترف سمعان أن يسوع هو المسيح، وأنكره خلال المحاكمة، ثم تاب، وهوأحد قادة الكنيسة في القدس (أورسالم)، أول رئيس على الكنيسة، رئيس الرسل. توجه من القدس إلى أنطاكية، فروما؛ حيث استشهد عام 67 في عهد نيرون، ويقال إنه صُلب مكبوبًا، كتب رسالتيه: الأولى والثانية، أطلق عليه يسوع لقب بطرس، أي: الصخرة باليونانية، وكيفا، أي: الصخرة بالآرامية.

* أندراوس بن يونا: أخ لبطرس، ولد في بيت صيدا، كان صيادًا، تميز بالتلهف على الإتيان بآخرين إلى يسوع، قبل شهادة يوحنا المعمدان عن يسوع، أخبر بطرس عن يسوع، ونقل مع فيليب إلى يسوع رغبة اليونانيين في رؤيته، مات مصلوبًا على خشبتين، على شكل إشارة الضرب، أو حرف إكس X، الذي يُعرف بصليب القديس أندراوس.

* يعقوب بن زبدي: أخو يوحنا، ولد في بيت صيدا، كان صيادًا، لقبه يسوع مع أخيه بابن الرعد، وهو أيضًا أحد أفراد الحلقة الداخلية، وعُرف بيعقوب الكبير، أو الأكبر، وهو أول تلميذ يستشهد في القدس نحو عام 44.

* يوحنا بن زبدي: أخو يعقوب، ولد في بيت صيدا، كان صيادًا تميز بالطموح، ثم أصبح رسول المحبة، وهو التلميذ الثالث في الحلقة الداخلية، خصه يسوع بالمحبة، وأوصاه أن يعتني بأمه بعد غيابه، فلقب بالحبيب، وهو أحد قادة الكنيسة في القدس، كتب إنجيل يوحنا، ورسائله الثلاث، وسفر الرؤيا، يقال إنه نُفي إلى جزيرة بطمس اليونانية، ثم انتقل إلى أفسس، ويُرجح أنه مات عام 100.

* فيليب: من مواليد بيت صيدا، كان صيادًا، تميز بموقف المتسائل، أخبر نثائيل عن يسوع، وبلّغ مع أندراوس يسوع رغبة اليونانيين في رؤيته، استشهد نحو 80 م.

وثمة شخصيات أخرى، كان لها تأثير في مسيرة الصراع الفكري الذي اندلع حول طبيعة السيد المسيح، مثال: مكسيموس، الحكيم الجولاني (المعترف)، المولود في خسفين في جنوبي الجولان، عاش خلال المدة من580 إلى662 م، وهو علم من الأعلام في تاريخ الكنيسة، برع في الفلسفة والخطابة، وشغل مناصب رسمية في الإمبراطورية البيزنطية، إذ تألق نجمه في القسطنطينية، ولجأ إلى أفريقيا حين اقتحم الفرس القسطنطينية عام 606، ثم انطلق إلى روما، وفي روما ألقي القبض على مكسيموس عام 653، وحُكم عليه بقطع لسانه ويده اليمنى؛ ليحرم من الكلام والكتابة في آن واحد، ونُفي إلى تراقيا، ومن ثم إلى القفقاس، حيث توفي في 13 آب عام 662 م، ونُقل رفاته إلى القسطنطينية بعد المجمع المسكوني السادس عام 681. كان من أشد المناهضين لفكرة المشيئة الواحدة، وهو الذي قال في معرض الدفاع عن عقيدته وإيمانه: «إن صوت الحق يأبى السكوت أمام الباطل».

وترد في تاريخ الكنيسة أسماء حضرت المجامع المسكونية، ممثلة لأبرشية بانياس، وهي:

* الأسقف فيلوكالوس البانياسي: حضر مجمع نيقية المسكوني الأول عام 325، ممثلًا لأبرشية بانياس.

* الأسقف نرقيس: حضر مجمع أنطاكية سنة 324م، كان من كبار الأساقفة في مجمع نيقية عام 325، واشترك في تكريس كنيسة إنطاكية المثمنة، وشارك في مجمع إنطاكية المحلي عام 341 ، من أعضاء الوفد الخماسي، أرسله مجمع إنطاكية عام 342 إلى الإمبراطور قسطنديوس؛ من أجل نقل دستور إنطاكية الرابع إلى سرميوم، ثم شارك في مجمع سلفكية أيصورية، بقرب الساحل الكيليكي عام 359.

* الأسقف مرتيريوس: كان أسقفًا إبان الردة الوثنية ضد المسيحية، التي ترأسها الإمبراطور يوليانوس الجاحد [363-360م] الذي حطم تمثالًا للسيد المسيح في بانياس، وأقام مكانه تمثالًا لنفسه، إضافة إلى أنه أحرق الأسقف مرتيريوس.

* باروخيوس: حضر مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني عام 381.

* أوليمبوس: حضر مجمع خلقيدونية المسكوني الرابع عام 451.

وثمة عدد من القديسين، منهم:

* القديس أراستس: من التلاميذ السبعين، قال عنه بولس الرسول إنه كان «خازن المدينة» [رو 23/16]، ربما مدينة كورنثوس أو مدينة القدس، بحسب

مصادر أخرى، وصار -في ما بعد- أسقفًا لبانياس، تقيم له الكنيسة البيزنطية تذكارًا في العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر.

* القديس بروكوبيوس البانياسي المعترف: قاوم بشدة هرطقة لاون الإيصوري في حرب الأيقونات، تعرض لأشد العذاب، وسُجن في سبيل الإيمان، وخرج منه بعد أن مات الملك، وتذكاره في السنكسار البيزنطي في السابع والعشرين من شباط/ فبراير.

الغساسنة والكنيسة السريانية الغربية

شكلت مملكة الغساسنة واحدة من المحاولات الجدية الأولى لبناء كيان عربي مستقل في التاريخ، ذلك قبل الدولة العربية الإسلامية بنحو قرن كامل، وربما قرنين. ولكن محاولتها -هذه- انتهت بالفشل، نتيجة إصرار الأباطرة البيزنطيين المتعاقبين على تحطيم هذا الحلم -على الأقل- منذ عهد الحارث بن جبلة؛ حتى عهد حفيده النعمان، مرورًا بعهد المنذر الذي شهد أكبر عملية تمرد على الإمبراطورية البيزنطية، وكان لخروجه من معادلة الصراع الرومي- الفارسي أكبر الأثر في الكيان البيزنطي بمجمله؛ إذ تعرض لأكبر عملية اجتياح من الفرس، وصلت إلى حدّ احتلالهم سورية وفلسطين بين عامي 613 و614 م، قبل أن يستعيدها هرقل منهم.

لقد شعر العرب المسيحيون منذ عهد الملكة ماوية، وربما في عهد زوجها المجهول الذي نعتقد أنه نفسه الفيلارخ الغساني Malechus Podosacis (مالكوس بودوساكس)، بوجود تمايزات روحية بينهم وبين الروم، لذلك؛ أصروا

على الاستقلال الديني عن كنيسة القسطنطينية، وحاولوا، مع أشقائهم السريان، تأسيس مرجعية خاصة في كنيسة أنطاكية، تمخضت عن المذهب الأرثوذكسي اللاخلقيدوني (المونوفيسي) القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، بالشراكة مع بطريركية الإسكندرية للأقباط الأرثوذكس.

ومن الخطأ عدّ العرب الغساسنة يعاقبة، فهم قد وقفوا على الحياد بشخص ملكهم، الحارث بن جبلة، ، في أثناء النزاع بين القديس يعقوب البرادعي وبطريرك أنطاكية، بولس، وكانوا عامل تقريب ومصالحة بين الرجلين، وظلوا على الدوام مخلصين لهذه المهمة، وخصوصًا بعد اندلاع الخلاف مجددًا بين المثلثين واليعاقبة؛ إذ وقف المنذر موقف المقرب بين الجانبين، وكذلك الأمر في النزاع بين بطريرك أنطاكية بطرس، وبابا الإسكندرية دوميان، حين عُقد مؤتمر المصالحة الفاشل في جابية الجولان، برعاية الحاكم الغساني، نحو عام 587 م.

لا شك في أن الغساسنة كانوا جزءًا أساسًا من سكان الجولان في العصر البيزنطي، إذ تحفل منطقة وادي الرقاد بالآثار التي تُنسب إليهم، بل إن مقر مملكتهم ومركز أبرشيتهم المسيحية كان في هذه المنطقة بالذات[34].

وتكتسب وثيقة رؤساء الأديرة العرب الذين عقدوا مجمعًا كنسيًا في داريا قرب دمشق، أوائل عام 570 م، في بداية عهد المنذر بن الحارث بحسب ما يرجح نولدكة، أهمية استثنائية على صعيد الطبوغرافيا التاريخية التي نستطيع من خلالها تحديد أماكن نفوذ مملكة غساسنة الشمال.

---

[34] تيسير خلف، كنيسة العرب المنسية، ص 25.

وقد حظيت هذه الوثيقة المنشورة في أكثر من مكان، باهتمام المستشرقين منذ القرن التاسع عشر، ودرسها عدد منهم؛ أبرزهم: الأب آي بي شابو، والمستشرق الألماني الشهير ثيودور نولدكة الذي حاول تحديد المواضع المذكورة؛ فأصاب في بعض الأماكن، وأخطأ في كثير منها.

ولعل السبب في ذلك عدم الاعتماد على المصادر الجغرافية العربية، وتغير لفظ الكلمات عند نقلها من السريانية إلى اللاتينية، ثم إلى الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية؛ ما أضاع كثيرًا من مخارج الحروف، ولا سيما الحلقية منها.

وكان لاعتماد بعض الباحثين العرب، وهم قلة على العموم، وأبرزهم الأب متري هاجي أثناسيو، على النص اللاتيني المترجم عن الأصل السرياني، بعض السلبيات؛ إذ كرر اقتراحات المستشرقين، على الرغم من أنه حاول جاهدًا إرجاع بعض الأسماء المعاصرة إلى جذر يعود إلى تلك الحقبة، فحالفه الحظ حينًا، وجافاه أحيانًا.

ولعل الملاحظة الجديرة بالاهتمام في قائمة رؤساء الأديرة العرب، هي عدم ذكر أي أبرشية جنوب وادي اليرموك، وتَركُّز هذه الأبرشيات إلى الشمال من الوادي، وخصوصًا في منطقة الجولان التاريخي، أي: ضفتي وادي الرقاد: الشرقية، بما فيها منطقة الجيدور والزوية الشرقية والغربية التي تضم منطقة الشعراء في الشمال والزوية الغربية في الجنوب، ثم إلى جبل حوران ووعرة اللجاة، وامتدادها إلى مرج دمشق وغوطتها، ووصولها إلى سلسلة لبنان الشرقية والبقاع؛ وحتى جبل القلمون (سنير) [35].

---

[35] المرجع السابق، ص 191.

وقد بلغ عدد الذين وقعوا على هذه الوثيقة 137 رجل دين، معظمهم من الحاصلين على لقب رئيس دير (أرشمندريت) منهم نحو 26 رئيس دير في الجولان لوحده، وهذه الأديرة هي:

1- دير جبل الحارة (طورا حرثا)، وهو نفسه جبل حارث الجولان في الموروث العربي، وكان مقر رئيس الأبرشية.

2- دير آطو، وهي بلدة حيط في الجولان الشرقي.

3- دير بت أرعا، وهو دير بيترة في الجولان الشرقي.

4- دير عقربا، وهي بلدة عقربا شرقي القنيطرة.

5- دير كفر بسطوس، في خربة بسطاس، وسط الجولان.

6- دير جفنة، قرب خان أرنبة.

7- دير ماكر قرب سعسع.

8-ودير داوود في حينا في جبل الشيخ.

9- دير لوقاد، في وادي الرقاد.

10- ودير مار سرجيس في جابيثا، وهي قرية الجابية.

11- دير مار ثيودور في بريقة.

12- دير بلدة الصرمان.

13- 14- دير بلدة قسطرا ودير نهر قسطرا، في القنيطرة،

15- دير شورا، قرب سعسع.

16- دير برجا حارف، أي كفر حارب في جنوب الجولان.

17- ودير مار فيلبس في أوفانيا، قرب جباتا الخشب.

18- دير بيت صلما في بلدة حينا، في جبل الشيخ.

19- دير مار إيليا في حينا

20- دير الموجد في قرية دربل، في جبل الشيخ.

21- دير كفر حور، في جبل الشيخ.

22- دير بيت تيما، في جبل الشيخ.

23- دير العقبة، قرب فيق، وقّع ممثلًا عن هذا الدير القس أوسطث، كاهن البطريق المنذر الأمجد ومحب المسيح، بحسب الوثيقة.

24- دير بلدة كفر أوشة، البلدة التي نُرجّح أنها العشة، في وادي الرقاد.

25- دير أرعبانيا، في رعبنة شمالي الجولان.

26- دير كفر زعورا، في شمالي الجولان.

الجولان في الموروث العربي الإسلامي

يزودنا الشعر الجاهلي، وكتب الجغرافيين والبلدانيين العرب، بقائمة صغيرة لمدن الغساسنة في الجولان الذي كان يمتد إلى الشرق، أكثر مما هو عليه اليوم، إذ كانت منطقة الجيدور في ذلك الزمن مقاطعة من مقاطعات الجولان، ومن المواضع المذكورة في الشعر الجاهلي:

* الجابية: وهي مندثرة الآن، ولم يجرِ التنقيب والبحث عنها، وتقع -بحسب ما يذكر ياقوت الحموي- قرب تل الجابية، وقد سميت جابية الملوك؛ نسبة إلى ملوك الغساسنة، واسمها السرياني جابيتا، بمعنى مورد الماء، وهو المعنى نفسه بالعربية. ذُكرت هذه المدينة في الشعر الجاهلي كثيرًا باسم جابية الجولان، وقد سُمي أحد أبواب دمشق السبعة باسمها، وباتت هذه المدينة مستعمرة عسكرية إبان الفتوحات الإسلامية، ويبدو أنها كانت قائمة حتى العصر الأموي، إذ أصبحت إحدى المدن المهمة في ذلك العصر.

* عقرباء: وتسمى أيضًا عقرباء الجولان؛ لتمييزها عن مواقع أُخَر بالاسم نفسه، وواضح من صيغتها أنها سريانية الأصل، بمعنى العقرب، ويذكر ياقوت الحموي أنها مدينة الجولان، وهي كورة من كور دمشق، كان ينزلها ملوك غسَان.

* صيداء: وهي بيت صيدا التي نرجح أن فيها قبر الحارث بن جبلة.

* حارب: وهي المعروفة اليوم باسم كفر حارب، وتشرف على شاطئ طبريا الشرقي، وقد ورد ذكرها في الشعر الجاهلي مترافقة مع صيداء، اللتين عدّهما الهمداني في كتابه، صفة جزيرة العرب، من ديار الغساسنة.

* فيق: أو أفيق، وتقع قرب شاطئ بحيرة طبريا الشرقي، وترد في سياق الحديث عن ديار الغساسنة أيضًا، وقد ذكرها الشاعر حسان بن ثابت.

* جاسم: وتقع في ناحية الجيدور التي كانت تابعة للجولان، وذكرها حسان بن ثابت كذلك.

المعطيات الآثارية في المرحلتين: الرومانية والبيزنطية

تتنوع المعطيات الآثارية العائدة إلى الحقبتين: الرومانية والبيزنطية في الجولان، من مراكز استيطان (مدن وقرى)، إلى حصون وقلاع وشبكات طرق.

وقد كانت هذه المعطيات المادة الأساس للمؤرخين الإسرائيليين، في سعيهم لإثبات يهودية الجولان خلال هذه المرحلة، إضافة إلى المواد المساعدة التي تتكون من كتب الهلاخا، أي: الشريعة اليهودية، على الرغم من إقرار بعضهم بأن نصوص الهلاخا مغرقة في خيالاتها.

وتتميز الأبنية العائدة إلى تلك الحقبة بأنها مبنية وفقًا للطراز الحوراني المميز بسقوفه البازلتية، وقناطره المتينة داخل البيوت، والمبنية لتضمن رفع السقوف الثقيلة.

واكتُشفت هذه الأبنية في مواقع الجولان، معظمها، من مثل قرية نعران التي يعود تاريخ بنائها إلى الإمبراطور فيليب العربي الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، وكذلك في قرية الفرج ودير قروح وخسفين. وفي قرية الفرج عثروا على بقايا زرائب حيوانات، يظهر أنها استُخدمت لتربية الخيول[36].

وفي بريقة وبئر عجم والرفيد، في الجانب المحرر من الجولان، يمكن العثور على قرى قديمة، تعود إلى المرحلة البيزنطية، ومبنية على النمط الحوراني.

وعثر المنقبون وسط الجولان على بعض المكتشفات من العصر الروماني، مثل التماثيل الحجرية في كفر نفاخ والخشنية والعال، وأماكن تقديم وذبح القرابين في العال وكفر حارب وصفورية، وتماثيل تعود إلى عهد الأنباط.

وعُثر في مقابر سكوفيا وخسفين على بعض الأدوات والحاجات الصغيرة، المصنوعة من العاج والفضة والذهب والزجاج، تعود إلى العهد الروماني.

وعمومًا؛ فإن نمط بناء القرى ودور السكن شبه الموحد بين حوران وشرقي الأردن والجولان، والمسمى النمط الحوراني، الذي يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

وكان اعتماد هذا النمط في البناء ناتجًا عن حضور البازلت وغياب الكلس، حيث يجري تقطيع حجارة البازلت بطول يتراوح بين 50 و80 سم، وعرض 20 سم؛ لبناء السقوف القوية، واستخدام القناطر في وسط البيوت؛ لحمل هذه السقوف.

---

[36] عنبر وشيلر، ص 64.

وعُثر في شرقي وجنوبي الجولان على فيلات -في بعض القرى- من طبقتين، بُنيت على الطراز الحوراني، إذ استُخدمت الطبقة العليا للنوم، والغرف السفلى مخازن للعائلة.

أما الأدوات الفخارية العائدة إلى العهدين: الروماني والبيزنطي، فقد صُنعت في الجولان، وقليل منها استورد. ومن المكتشفات الأخرى العائدة إلى تلك الحقبة، أنواع من الزجاج، والطاولات المصنوعة من الفخار الأحمر المستورد من شمالي إفريقيا وقبرص[37].

وقد أثبتت المكتشفات الآثارية أن العرب الإيطوريين عاشوا في شمالي الجولان طوال العصور الكلاسيكية، بدليل اكتشاف الآنية الفخارية الخاصة بهم، وعُثر على عدد كبير من الكنائس المسيحية في منطقتهم، مثل: رعبنة وكفر نفاخ وباب الهوى والصرمان والجويزة، وهي قرى واقعة على طريق بانياس وجسر بنات يعقوب والقنيطرة؛ ما يدل على تحول الإيطوريين إلى المسيحية.

وتميز نمط بناء الكنائس القديمة في الجولان بنمطين رئيسين: نمط عُثر عليه في خسفين وسوسيا، حيث بُنيت الجُدُر من الحجارة، مع صفين من الأعمدة الحجرية التي حملت القناطر والأقواس؛ لتقسيم المبنى إلى أقسام صغيرة وقاعة كبيرة. وفي الطرف الشرقي من هذه الكنائس رُصفت الأرضيات بالفسيفساء الدائري. وهناك نوع آخر من الكنائس عُثر عليها في دير قروح ودير اللوز والرمثانية، وهي مبنية على الطراز الحوراني، وعلى أسكفاتها كتابات يونانية دينية عليها صلبان.

---

(37) عنبر وشيلر، ص 68.

إضافة إلى الكنائس التي تدعم وجودها نصوص تاريخية دامغة، تتحدث البعثات الأثرية الإسرائيلية عن عثورها على أكثر من عشرين كنيسًا يهوديًا في منطقة صغيرة، شمال شرق بحيرة طبريا، وهو ما يعدّونه دليلًا على أن سكان هذا الموقع من الجولان، كانوا يهودًا في العصر البيزنطي.

إن المعضلة الجوهرية في هذه الادعاءات أنها ظنّية، تعتمد على الحدس والرموز أكثر من اعتمادها على أدلة دامغة.

فالكُنس العشرون المزعومة أبنية عادية، لا يوحدها اتجاه، علمًا أن أحد المباني المندثرة في قرية نعران صُنف كنيسًا؛ لأن واجهته تتجه نحو القدس وحسب!!. وعُثر قرب بعض هذه الكنس المزعومة على زخارف لرموز نباتية وحيوانية، كانت شائعة في ذلك الزمن، مثل عقدة هيراكليس أو إكليل الغار أو حمامة وأفعى وقرط عنب؛ وهي رموز يمكن أن نجدها في أي من المنازل أو الكنائس في المنطقة، وعُثر -أيضًا- على قطع فخارية، قيل بأن أسماء متبرعين لبناء تلك الكنس منقوشة عليها. أما الشمعدانات، فلها شُعب مختلفة العدد، ثلاثية وخماسية وتساعية، وتعد على أصابع اليد الواحدة، إضافة إلى ذلك، فهي موجودة في كنائس مسيحية إلى جانب الصلبان، وهو ما يثير شكوكًا حول وظيفتها ورمزيتها، حتى إن الباحثين باتوا على قناعة بأن الشمعدان كان رمزًا مسيحيًا في المرحلة البيزنطية. وهناك زخارف، قيل إنها شمعدانات، ثم تبين أنها عبارة عن شجرة زيتون مقدسة إلى جانب الصليب. وهذا ما بدا واضحًا في الأسكفة التي تحدث عنها شوماخر في قرية بريقة، وادعى أنها شمعدان يهودي فوق صليب مسيحي، بينما هي -في الواقع- رمز شجرة الزيتون المقدسة عند المسيحيين، وهذا الكلام ينطبق على الكنيسة

المسيحية في قصرين التي جرى تحويلها إلى كنيس أثري، من دون أي دليل دامغ على ذلك، وقد جرى ترميمها بطريقة توحي بأنها كنيس حقًا، عبر إضافة مقاعد حجرية، تحيط بالجُدُر من الداخل.

والأمر نفسه ينطبق على المبنى العام في قلعة السنام، أو جملة كما يسمونها، فقد رُممت القاعة الكبيرة بالطريقة نفسها، أي: بإضافة مقاعد حجرية تحيط بالجُدُر، والدليل الذي اعتُمد على يهودية هذه القلعة، عملة معدنية لا يوجد لها أي مثيل في العالم، كُتب عليها «من أجل عزة أورشليم».

أما كنيس الحمّة، فقد اعتُمد في تحديده على لوحة فسيفسائية لأسدين، قيل إنهما يشبهان أسدي كنيس بيت ألفا في فلسطين، من دون وجود أي دليل آخر سوى كتابة باللغة الآرامية، تتحدث عن أسماء المتبرعين لبنائه، وليسوا جميعهم من سكان الحمّة، بعضهم من كفر عاقب في منطقة البطيحة، وآخرون من سوسيا وكفر ناحوم وعمواس وأربل. وما يلفت النظر أيضًا -بحسب تأكيدات البعثة الأثرية الإسرائيلية- عدم وجود رموز أو شعارات أو عبارات لها علاقة باليهودية، بل إن ما يزيد الأمر استغرابًا وجود لقب لأحد المتبرعين هو القمّص[38]، وهو لقب مسيحي قبطي معروف.

وإذا سلمنا -جدلًا- بأن هذه الكنيسة المسيحية هي كنيس يهودي، فقد بُني لخدمة اليهود القادمين؛ للاستجمام بالمياه المعدنية من خارج الحمة.

وقد أدى اعتماد المصادر الهلاخية (الشرعية) في تحديد هُوية بعض القرى الجولانية، على أنها يهودية، إلى خيبة أمل الباحثين الإسرائيليين الذين أقروا بأن

[38] عنبر وشيلر، ص 192.

القرى التي يرد ذكرها في كتب الهلاخا، وهي: عينوش (التي قيل إنها العوانيش)، وعينحارة (؟)، ودمبر (؟) وعيون، ويعروت (؟)، وكفار يحريب (التي قيل إنها كفر حارب)، ونوب (التي قيل إنها ناب)، وخسفيه (التي قيل إنها خسفين)، وسمخ، لم يُعثر في أي منها على أي أثر يهودي، بل عُثر على آثار مسيحية[39]، بينما قالوا إنهم عثروا على رموز يهودية في قرًى لم تصنف في الهلاخا بأنها يهودية!.

وكأمثلة يستخدمها بعض الباحثين الإسرائيليين؛ للتدليل على هوية منطقة ما في الجولان بأنها يهودية، نذكر المثال الآتي الوارد في كتاب «الجولان في الحقبتين الرومانية والبيزنطية» لدان أورمان، الذي دلل على أحد افتراضاته بما ورد في مدراش تناعيم في سفر التثنية: «قالوا: عندما انطلق هدريان على الطريق الصاعد إلى الحمة، وجد شابة من إسرائيل، قال لها: ما أنت؟ فقالت له: أنا من بنات إسرائيل، فنزل عن جواده في الحال وركع أمامها». ومع أن الباحث يقر بأسطورية هذا المدراش، إلا أنه يعدّه مؤشرًا يدعم فكرته[40].

ويستشهد الباحث نفسه بنص حاخامي؛ يحاول أن يثبت من خلاله أن بيت صيدا كانت يهودية، والمثال يرد في اليروشالمي شيكاليم، ونصه: «تقول تعاليم الحاخام شمعون بن غمائيل قال: ذهبت مرة إلى صيدان (بيت صيدا) فجُلب أمامي ثلاثمائة نوع من الأسماك على صينية واحدة». وعلى الرغم من إقرار الباحث بأن الأبحاث دلت على عدم وجود أكثر من 18 نوعًا من الأسماك في بحيرة طبريا، إلا أنه يعدّ ذلك دليلًا غير مباشر على افتراضه[41].

---

[39] عنبر وشيلر، ص71.

[40] الجولان في الحقبتين الرومانية والبيزنطية، ص 168.

[41] المصدر السابق، ص 200.

إن عبثية محاولات الباحثين الإسرائيليين، تتجلى في بحثهم عن مدة ازدهار افتراضية للاستيطان اليهودي في الجولان، في المرحلة البيزنطية التي تُعدّ ذهبية -بالمقاييس كلها- للديانة المسيحية، ليس في الجولان، وفلسطين، وعموم منطقة شرق المتوسط، فحسب، بل في العالم القديم أجمع.

شبكات الطرق الرومانية

مع ترسّخ الاستقرار في الجولان خلال المرحلة الرومانية، شقت أراضيه شبكة من الطرق التي تعود إلى قياصرة مختلفين، عبرت بشكل ما عن أهمية الجولان، بوصفه ملتقى حضارات، ونقطة تقاطع بين دول المشرق والمغرب.

وأول باحث حاول تتبع الطرق الرومانية في الجولان، كان المهندس الألماني غوتليب شوماخر، أواخر القرن التاسع عشر؛ إذ أحصى عشر طرق، أرجعها إلى المدة الرومانية، وهي:

1- دمشق- سعسع- أوفانية- وادي بقعاتا- مسعدة- بانياس.
2- دمشق- سعسع- القنيطرة- سكيك- زعورة- عين فيت- بانياس.
3- دمشق- سعسع- العليقة- نعران- جسر بنات يعقوب. ويعدّه طريق فيا ماريس الشهير.
4- دمشق- الحارة- جسر سويسة- الخشنية- نعران- جسر بنات يعقوب.
5- من حوران عبر نوى على الرفيد، ومن هناك إلى الطريق رقم 4.

6- دمشق- الحارة- جسر سويسة- خان الجوخدار- خسفين- وهنا، ينضم إلى الطريق رقم 7.

7- تبدأ من حوران، وتمر عبر نوى إلى تسيل، ومن هناك عبر جسر الرقاد الجنوبي إلى خسفين، ومن هذه النقطة يواصل الطريقان 6 و7 مسارهما في طريق واحدة، هي الطريق 8.

8- إلى العال- فيق- كفر حارب- خان العقبة- سمخ.

9- جزء الطريق التي تربط الطريق رقم 4 في محيط الخشنية، عبر تل الجوخدار مع جسر الرقاد الجنوبي.

10-طريق تمتد على طول شاطئ بحيرة طبريا الشرقي، من سمخ- السمرة- الكرسي- البطيحة- إلى مصب نهر الأردن، لكنه لا يصفها بطريق رومانية.

ويذكر شوماخر أنه لم يشاهد مقاطع حقيقية من طرق قديمة مرصوفة بالحجارة، إلا على الطريق رقم 1، بين أوفانية وبقعاتا، وعلى الطريق الثاني[42].

وفي نهاية الأربعينيات، وضع الباحث آفي يوناه دراسة حول الطرق الرومانية في فلسطين، في فصل من كتابه «الجغرافيا التاريخية لفلسطين». وقد قبل في الجولان الشمالي المسارات (1) و(2) و(3) التي حددها شوماخر، ويضيف إليها طريقًا لم يرسمها شوماخر في خريطته، وهي الواصلة بين بانياس وجسر بنات يعقوب. وقد عثر يوناه على صوّة (حجر علّام) لا تحمل كتابات عن هذه الطريق.

ولا يرسم آفي يوناه طرقَ وسط الجولان (4) و(6)، ويرسم بخطوط مفردة مسار طريق من سلوقية عبر الأحمدية إلى جسر بنات يعقوب، وكذلك مسار الطريق بين

---

[42] G. Schumacher, THE JAULAN. (61-65)

القنيطرة وجسر الرقاد الجنوبي التي يتداخل جزء منها مع الطريق رقم (9) في خريطة شوماخر.

في جنوبي الجولان يشير يوناه إلى الطريقين رقم (7) ورقم (8) من طرق شوماخر، ويقول إنهما طريقان عامتان، يمكن مشاهدة وصلات أصلية منها، ويشير إلى طريق فرعية، تصل كفر حارب بسوسيا، وافتراضيًا بالحمّة. أما الطريق رقم (10)؛ فيشير إليها يوناه بخط مفرد[43].

بعد احتلال الجولان، وقيام سلطات الاحتلال بعمليات المسح الأثري عام 1968، كتبت س غوتمان عن شبكة الطرق في الجولان ما يأتي:

«بحسب الرأي الشائع، كان الفرع الشرقي في طريق فيا ماريس من حاصور، يعبر المخاضات بالقرب من جسر بنات يعقوب، ويصعد من تلك النقطة في مسار مستقيم إلى دمشق. وبما أنه لم تكشف مستوطنات على هذه الطريق في هضبة الجولان، لابد من الافتراض بأن الطريق لم تمر عبر الهضبة العليا، غير أن وجود مستوطنات كثيرة على طول نهر اليرموك، في جنوب الجولان، يبين أن الطريق القديمة إلى دمشق كانت تمر جنوب بحيرة طبريا، وتصعد باتجاه الشرق على طول مجاري اليرموك ووادي الرقاد المنحدرة، وتشمل شبكة طرق الجولان في الجنوب جانبين رئيسين، ويبدآن كلاهما من تقاطع الجرنية وتل الجوخدار، حيث تلتقي الطرق القادمة من الشرق والجنوب الشرقي. تستمر الطريق الجنوبية من تقاطع الجرنية عبر لاوية والضفة الجنوبية لوادي دير عزيز؛ حتى شاطئ بحيرة طبريا. تصعد الطريق الشمالية، من تل الجوخدار باتجاه الشمال، عبر الخشنية

---

(43) الجولان في الحقبتين الرومانية والبيزنطية، ص 144-145.

والرمثانية؛ حتى السنديانة، حيث ينقسم إلى فرعين: باتجاه الغرب، نحو جسر بنات يعقوب، وباتجاه الشرق عبر كفر نفاخ وزعورة وبانياس»[44].

وفي عام 1973، عُثر على صوّتين (حجري تأشير) في قرية طرنجة، وقد كشفت قراءة ما كُتب على إحداهما أن الصوة تعود إلى أيام حكم ماركوس أورليوس، تحديدًا عام 162 ميلادية. ويبدو أن هذه الصوة نُقلت من مكانها على طريق دمشق- بانياس، إلى هذا المكان القريب. نظرًا لعدم عثور المنقبين على أي أثر لطريق في مكان الصوة[45].

وعام 1976، نشر واي رول مقالة شاملة حول شبكة الطرق الرومانية في فلسطين، وقد أهمل رول مساري الطريق (1) و (2) من طرق شوماخر، ويرسم، بدلًا من ذلك، طريقًا واحدة بين بانياس ودمشق، تمر جنوب وادي سعار وبركة رام (مسعدة) باتجاه طرنجة، ومن هناك بمحاذاة الهضاب الواقعة عند سفوح الحرمون باتجاه دمشق. ويرفض رول وجود طريق على مسار دمشق- سعسع – القنيطرة- العليقة- نعران- جسر بنات يعقوب. أي: الطريق رقم 3 عند شوماخر.

وفي وسط الجولان وجنوبيّه تختلف شبكة الطرق التي رسمها رول عن تلك التي يذكرها شوماخر، ويرسم رول طريقين: أولاهما تمتد من الشمال إلى الجنوب، على طول مسار بانياس- عين فيت- زعورة- القلع- سمّاقة- واسط- كفر نفاخ- السنديانة- الرمثانية- الخشنية- الفحّام- الفرج- تل الجوخدار- جسر الرقاد الجنوبي- بصرى.

---

(44) غوتمان، المسح الأثري للجولان، ص 246-247.

(45) الجولان في الحقبتين الرومانية والبيزنطية، ص 147.

والطريق الثانية تمتد من الغرب إلى الشرق، من منطقة الشيخ خضر، عبر لاوية- عمرة الفريج- رسم البلوط- الجرنية- وادي الرقاد.

وتتداخل هاتان الطريقان مع الطرق التي يذكرها غوتمان، باستثناء الفرع الذي يتفرع عن الطريق الثانية باتجاه جسر بنات يعقوب[46].

من المعطيات السابقة جميعها نصل إلى نتيجة عامة، تقول: إن الطرق الرومانية الرئيسة التي تمر في الجولان ثلاث طرق:

1- طريق شمالية، تصل بانياس بدمشق في المرحلة الرومانية، مرصوفة في بعض المواضع، ومحطاتها غير محددة الملامح، ولكن إحداها طرنجة، عُثر فيها على صوة تؤرخ لعملية تجديد، أو إعادة بناء، في عهد ماركوس أوسليوس.

2- طريق جنوبية عامة، تمر بالقرب من الحدود الجنوبية للجولان في العهد الروماني، وكانت تصل بين طبريا وجدارا، وتواصل من تلك النقطة، باتجاه الشرق نحو جسر الرقاد الجنوبي. وقد حُفظت من آثار هذه الطريق صوة، تعود إلى مدة حكم ماركوس أورليوس، تشهد على تجديد هذه الطريق في عهده. ولم يُعثر على أجزاء مرصوفة من هذه الطريق.

3- طريق عامة ثالثة، تمر بالحدود الغربية للجولان خلال العهد الروماني، وقد حُفظت من هذه الطريق أقسام مرصوفة بالحجارة، وصوى لا تحمل كتابات، إلى الجنوب والشمال من سوسيا. ويمكن الافتراض بأن هذه الطريق كانت تصل إلى بيت صيدا وبانياس والحمة؛ نظرًا لاستمرار السكن في هذه المواقع منذ المدة

[46] المصدر السابق، ص148-149.

الرومانية. أما الطريق الثالثة من طرق شوماخر، التي ظن أنها طريق فياماريس، فيبدو أنها طريق أنشئت في عصر آخر، كما سيرد في فصول لاحقة.

إذن؛ عاش في الجولان سكان في مراحل العصور الحجرية وتفرعاتها جميعها، وكان مأهولًا في العصر الحجري- النحاسي، وعلى أرضه قامت الحضارة اليرموكية في القرن السابع قبل الميلاد، وحضارة الدوائر أو السياجات، في العصر البرونزي، التي منحته اسمه الذي نستخدمه اليوم. وقامت على أرضه مملكة آرامية في العصر الحديدي، إلا أنه عانى التدهور في أثناء مدة الحكم الفارسي، سرعان ما تجاوزها عبر مرحلة مديدة من الاستقرار، خلال العهود الهيلينية والرومانية والبيزنطية، وبدأ الاستيطان فيه بالتصاعد، كلما اقتربنا من المرحلة البيزنطية، والسبب في ذلك انهيار سد مأرب في القرن الأول الميلادي، وتدفق هجرة عربية كبيرة إلى بلاد الشام، نال الجولان حصته منها، وتجسدت بقيام مملكة الغساسنة، وإقامة ملوكها على أرضه، هذه المملكة التي لعبت دورًا كبيرًا في نشر المسيحية بين العرب.

وكانت أرضه قد شهدت محطات مهمة من حياة المسيح، وأنجبت إحدى مدنه القديمة خمسة من تلاميذ يسوع.

ويزعم جوزيفوس فلافيوس في كتابه «حروب اليهود» أن القائد اليهودي، ألكسندر يناني، دمّر في أثناء تمرد المكابيين مدن الوثنيين الواقعة إلى الشرق من بحيرة طبريا، مثل مدينة هيبوس وجملا، التي يعود جوزيفوس نفسه إلى القول: إنه حصّنها لمقاومة الرومان في التمرد الذي قاده باركوسبا. ولكن هذا الوجود الطارئ انتهى، بحسب رواية المؤرخ اليهودي جوزيفوس فلافيوس، بمذبحة رومانية في جملا، ذهب ضحيتها اليهود الهاربون إلى الجولان جميعهم، وعددهم تسعة آلاف

نسمة، نجا منهم امرأتان. ولعل تناقضات جوزيفوس ومبالغاته بحاجة إلى بحث مستقل للوقوف عليها؛ نظرًا إلى أنها تُعدّ لدى كثير من المؤرخين في الغرب بمنزلة المسلمات التي لا جدال فيها.

أما محاولات الباحثين الإسرائيليين المعاصرة؛ لتأكيد وجود يهودي كثيف في الجولان خلال العهد البيزنطي، فأمر يعتريه كثير من المشكلات العلمية؛ نظرًا لاعتماد هؤلاء الباحثين على الحدس والظن والأدلة العقلية المستندة إلى نصوص الشريعة اليهودية من جهة، وإلى أدلة آثارية هزيلة غير دامغة، لا تصمد أمام محكمة العقل العلمي البارد.

وفرضت الثقافة اليونانية نفسها في الجولان، وترسخت إلى حين الفتوحات الإسلامية، فكانت لغة الدين والثقافة والأدب، وكان العرب الذين شكلوا غالبية سكان الجولان في الحقبتين: الرومانية والبيزنطية، يستخدمونها على نطاق واسع، إلى جانب تخاطبهم باللغة العربية.

وقد تركت العصور التي مر ذكرها جميعها آثارًا مهمة في الجولان، من مثل المستوطنات البشرية الأولى، والحضارات الحجرية، والمدن الكبيرة، والقرى الصغيرة، والحصون والقلاع، وشبكة طرق يلتقي عندها المشرق بالمغرب.

الفصل الخامس
الجولان وعصر الأجناد

معركة اليرموك ويوم الواقوصة

قبل فتح بلاد الشام؛ قسَّم الخليفة أبو بكر البلاد إلى خمسة أجناد، راعى فيها -إلى حد ما- التقسيمات التي كانت سائدة في المرحلة البيزنطية، فسمى لأبي عبيدة بن الجراح جند حمص، وليزيد بن أبي سفيان جند دمشق، ولشرحبيل بن حسنة جند الأردن، وهو نفسه ولاية فلسطين الثانية في التقسيمات البيزنطية، ولعمرو بن العاص ولعبد الرحمن بن علقمة الكناني جند فلسطين، وهو ولايتي فلسطين الأولى والثالثة، لكن عمرو بن العاص ترك عبد الرحمن بن علقمة وسار إلى مصر.

وهذا الخبر الذي يورده ابن عساكر، يؤكد أن قرار فتح الشام كان قرارًا استراتيجيًا، اتخذه الخليفة، بالتزامن مع انتهاء حروب الردة وقرار فتح العراق، وليس كما يورد بعض الإخباريين العرب بأن قرار الفتح أتى عفو الخاطر، أو بسبب نصيحة أحدهم[47]. فنشر الإسلام بين العرب كان أولوية لدى الخليفة، تلت التخلص من جيوب المرتدين.

ولا يحيد الخليفة الأول عن نهج الرسول محمد (ص) في ذلك، حيث تذكر الروايات أنه (ص) أرسل إلى الملك الغساني جبلة بن الأيهم رسولًا، يدعى شجاع

[47] كمثال على ذلك رواية أبي مخنف التي زعم فيها أن قرار فتح الشام أتى بناء على نصيحة من المثنى بن حارثة الشيباني.

بن وهب، يدعوه إلى الإسلام، وكان منزله الجولان من أعامل دمشق، بحسب تعبير ابن عساكر الذي يقول إن آخر ملوك غسان أسلم، ثم تنصر، ولحق ببلاد الروم، ثم يختم بقوله: «وقيل: إنه لم يسلم قط»، وهو الأرجح على الروايات التي تنسج قصة أدبية مشوقة، وحوارًا دراميًا بينه وبين الخليفة عمر بعد فتح إيلياء (القدس)، تجعل الأخير أسير ندمه طوال حياته على تضييع هذا الملك العربي؛ بسبب الجزية[48]، متجاهلة (أي: القصة) أن جبلة بن الأيهم قاتل المسلمين، على رأس جيش من العرب النصارى، في معركة اليرموك الفاصلة، تحت قيادة قائد أرمني يدعى فاهان، وقائد بيزنطي خصي لهرقل يدعى الصقلان، وأنه غادر -بعدئذٍ- إلى الروم بصحبة ثلاثين ألفًا من العرب النصارى، الذين فضلوا الهجرة على الدخول بالإسلام.

ويذكر البلاذري في فتوح الشام أن المعركة وقعت في السنة الثالثة عشرة للهجرة [634م]، ويقول: إن نعي أبا بكر أتى في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة والمسلمون بالياقوصة[49]. والياقوصة، أو الواقوصة، موضع في أقصى جنوب الجولان، يشرف على وادٍ إلى الجنوب الشرقي من مدينة فيق.

ويذكر الطبري وابن عساكر، ومعظم الذين أرخوا لهذه المعركة الفاصلة، أن تاريخ وقعة اليرموك كان في السنة الخامسة عشرة للهجرة [636م]، وأن ألفًا من الصحابة شهدوا اليرموك، منهم نحو من مئة من أهل بدر. ويروي ابن عساكر عن

---

[48] انظر قصة عمر مع جبلة بن الأيهم في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، والتي يغلب عليها الطابع الأدبي.

[49] فتوح البلدان للبلاذري، الفقرة 317.

سعيد بن عبد العزيز أن «المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفًا، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح. والروم عشرون ومئة ألف، عليهم باهان [فاهان] والصقلان يوم اليرموك».

ويذكر ابن عساكر أن هرقل «بعث الصقلان، خصيًا له، فسار في مئة ألف مقاتل، معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفًا عليهم جرجة، ومعهم من المستعربة من غسان، وتلك القبائل اثنا عشر ألفًا، عليهم جبلة بن الأيهم الغساني، وسائرهم من الروم، وعلى جملة الناس الصقلان، خصي هرقل. وسار المسلمون إليهم وهم أربعة وعشرون ألفًا، عليهم أبو عبيدة بن الجراح، فالتقوا باليرموك في رجب سنة خمس عشرة، فاقتتل الناس قتالًا شديدًا؛ حتى دخل عسكر المسلمين، وقاتل نساء من قريش بالسيوف حتى دخل العسكر، منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام؛ حتى سايفن الرجال».

وقد اجتمع أمراء الأجناد، عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وأبو عبيدة في خباء يزيد بن أبي سفيان، وهم بالجابية يسمعون خبر عين لهم من قضاعة، يخبرهم بكثرة الأعداء ومنزلهم على نهر الرقاد ومرج الجولان.

وبناء على اقتراح من أبي سفيان أمّر قادة الأجناد خالد بن الوليد عليهم، وتظاهروا بالفرار، حتى نزلوا خلف اليرموك، وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم، ونزلت الروم في ما بين دير أيوب إلى ما يليها من نهر اليرموك، بينهم النهر، فعسكروا هنالك أيامًا.

وبعد معارك، يسترسل مؤرخو فتوح البلدان بوصف أدق تفاصيلها، ترتبك قوات الروم وتصل إلى «مكان مشرف على أهوية، فيأخذون بالتساقط فيها، وهم لا

يبصرون، وهو يوم ذو ضباب. وقيل: كان ذلك في الليل. فأخذ آخرهم لا يعلم ما يلقى أولهم، يتساقطون فيها؛ حتى سقط فيها نحو من ثمانين ألفًا، فما أُحصوا إلا بالقصب». وسميت تلك الأهوية بـ«الواقوصة» من يومئذ حتى اليوم؛ لأنهم وُقصوا فيها.

ويجعل بعض الرواة عدد الروم الذين هووا في الواقوصة مئة وعشرين ألفًا؛ ثمانين ألف مقترن، وأربيون ألف مطلق، سوى من قُتل في المعركة.

وعندما فتحت بيت المقدس سنة خمس عشرة أو ست عشرة للهجرة [637م]، بحسب رواية ابن عساكر، قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الجابية في الجولان، وعاد إليها في سنة ثمانية عشرة [639م]، وتؤكد الروايات أن عمر رضي الله عنه اجتمع بأمراء الأجناد الأربعة في «جابية الجولان» وخطب فيها خطبته الشهيرة عن تقسيم الغنائم [50].

وينبغي أخذ جانب الحذر عند التعامل مع الروايات المختلفة لفتوح الشام، وخصوصًا وقعة اليرموك. فبحسب الطبري وابن عساكر ومعظم الإخباريين العرب، وقعت اليرموك في السنة الخامسة عشرة للهجرة، بعد وقعة أجنادين وفحل وفتح دمشق وفتح حمص؛ بينما في إحدى روايات البلاذري وقعت بعد فتح بصرى ومؤاب وأجنادين، في السنة الثالثة عشرة للهجرة، أي قبل وقعة فحل وفتح دمشق وحمص.

وأيًا تكن الرواية والموعد الذي تحدده لموقعة اليرموك، فالثابت أن أوعار الجولان وأوديته السحيقة أسهمتا في انتصار المسلمين المبين في المعركة التي

---

[50] ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص141 إلى 173.

كانت الواقوصة عنوانها البارز. ومن خلال المدونات العربية المتعددة عن هذه المعركة، ومقاطعة الروايات مع بعضها مع بعض، نستطيع أن نقول إن عبقرية خالد بن الوليد هي التي أوصلت إلى هذا النصر الحاسم، وهانت بعده الفتوح كلها.

كانت أهوية الرمادة، التي أصبح اسمها الواقوصة أو الياقوصة، هي القاسم المشترك للروايات العربية التي أرّخت لمعركة اليرموك جميعها، وقد مهدت هذه المعركة للفتوح التي أتت بعدها، وكانت -بحق- فتح الفتوح؛ إذ إن ما تبقى من قوات الروم تحولت إلى فلول مهزومة، لم تستطع إيقاف التقدم الإسلامي في دمشق، والقدس، وحمص، وحماة، وحلب، وغيرها من مدن الشام التي فُتح كثير منها صلحًا.

ويخبرنا البلاذري أن شرحبيل بن حسنة فتح مدن الأردن وحصونها جميعها، فتحًا يسيرًا بغير قتال، ففتح سوسية وفيق والجولان[51]. وقد أمَّن شرحبيل الناس على كنائسهم ومنازلهم وأبنائهم، إلا ما خلّوه بأنفسهم.

وبما أن جيشًا من العرب النصارى شارك في معركة اليرموك، وانهزم، ومن الطبيعي أن يكون جزءٌ منه من أبناء الجولان، فإن هجرة نحو الشمال قد حدثت، وأشار المؤرخون إلى أنها بلغت ثلاثين ألفًا، على رأسهم جبلة بن الأيهم. وهذا يعني أن جزءًا من الجنود المسلمين الفاتحين أخذوا أملاكهم، وأقاموا في بيوتهم، واستقروا في الجولان استقرارًا نهائيًا، جريًا على عادة جيوش الفتوحات في تلك الأزمنة، ولكن المسلمين، على الرغم من ذلك، لم يشكلوا أغلبية في الجولان خلال البقية الباقية من العصر الراشدي، وطوال العصر الأموي، إذ احتفظ الجولان

[51] البلاذري، فتوح البلدان، الفقرة 321.

بشخصيته المسيحية؛ حتى بداية العصر العباسي، ومن خلال المعطيات الإخبارية الشحيحة، يمكن القول بأن الجيش الذي أُرسل لفتح الشام أقام لنفسه قاعدة عسكرية مركزية في الجابية، في منطقة الجولان؛ إذ كانت شبه عاصمة لملوك الغساسنة، كذلك كانت الرملة قاعدة أخرى لجيوش فتح فلسطين، ولكن الجابية والرملة لم تصلا، من حيث الاتساع والازدهار، ما وصلت إليه مثيلتاهما في العراق: البصرة والكوفة؛ لأن العرب الذين أتوا فاتحين إلى الشام فضلوا السكن في المدن المعروفة، من مثل دمشق وحمص وحلب وطبريا وبيسان والقدس وسواها[52].

أما تقسيم الأراضي وتوزيعها، فتؤكد المصادر الإخبارية العربية أنه جرى في عهد الخليفتين: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وقد أتى الخليفة عمر إلى الجابية في الجولان؛ لكي يحسم الرأي في أمر الأراضي التي فُتحت عنوة، وتقسيمها بين المسلمين، أما الأراضي والأملاك التي جلا عنها أصحابها، فقد أقطعت للمسلمين، وعُدّت أراضي عشرية، أي تخضع لضريبة العُشر، ومنها الأراضي التي جلا عنها أصحابها العرب النصارى في الجولان، إذ توجهوا إلى بيزنطة.

وتضن علينا المصادر بأخبار عن هجرات عربية تلت الفتح إلى الشام عمومًا، والجولان خصوصًا، بعكس الوضع في العراق الذي شهد مثل هذه الهجرة الكبيرة، والسبب -على ما يُفهم- هو ترسُّخ الهوية العربية للشام عامة، وللجولان خاصّة، قبل الفتح الإسلامي.

[52] الموسوعة الفلسطينية، ج 2، ص 273.

ولعل الملاحظة الجديرة بالتوقف عندها، عند الحديث عن فتح الجولان، هي أن أيًا من مؤرخي الفتوح لم يذكر وجود يهود في هذه المنطقة، وإنما تحدثوا عن وجود مسيحيين فحسب، في حين تحدثوا عن وجود يهود في أمكنة أخرى من فلسطين وبلاد الشام، مثل القدس، التي حُرّم عليهم دخولُها؛ بناء على طلب المسيحيين، وحمص ودمشق، وغيرها من المدن.

الفصل السادس
العصران: الأموي والعباسي- الفاطمي

معقل أموي

توزعت أراضي الجولان في الدولة الإسلامية الفتية بين جُندَيْ دمشق والأردن، واستمرت الأمور على هذه الحال طوال مدة الخلافة الأموية التي أولت الجولان أهمية واضحة، نستشفها من بعض المدونات الإخبارية العربية التي تحدثت عن وجود حاضرات عربيات مهمة، معظمها في أنحاء الجولان، وخصوصًا الشاطئ الشرقي من بحيرة طبريا، أي منطقة البطيحة التي تذكر بهذا الاسم، وكذلك كفر عاقب وسوسية وأفيق.

ويخبرنا المسعودي أن الخليفة مروان بن الحكم أدار معركة الخلافة من الجابية في الجولان؛ إذ كانت بمنزلة عاصمة صيفية للخلفاء الأمويين.

فعندما مال معظم المسلمون، كما يروي المسعودي، إلى مبايعة عبد الله بن الزبير للخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية سنة 64 للهجرة [683م]، أراد مروان بن الحكم أن يبايعه أيضًا، ويلحق به، ويضاف إلى جملته، فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد عند لحاقه بالشام، وقال له: إنك شيخ بني عبد مناف فلا تعجل، فتوجه مروان بن الحكم إلى الجابية، من أرض الجولان، بين دمشق والأردن، ومن هناك أدار معركة الخلافة التي انتهت إليه، وإلى أبنائه من بعده[53].وفي أيام عبد

[53] المسعودي، مروج الذهب، م3، ص94.

الملك بن مروان الذي خلف والده، خرج في إحدى قرى حولة بانياس مدعي نبوة، اسمه الحارث الكذاب، ويروي ياقوت الحموي في مادة الحولة قصته[54].

تمرد الجراجمة

وفي أيام الخليفة عبد الملك بن مروان أيضًا، كاتَبَ الإمبراطورُ البيزنطي أنباطَ جبل لبنان واللكام، بعدما أظهر أنباط الجبال الساحلية تبرمًا بالمسلمين؛ فخرج الجراجمة، فعسكروا بالجبل. وأرسل «طاغية الروم» قلقط البطريق في جماعة من الروم [البيزنطيين] في البحر، فسار بهم حتى أرسى على الساحل الشامي، وصعد وجماعته إلى جبل لبنان، وبثّ قواده في أقصى الجبال الساحلية؛ حتى بلغ أنطاكية، وغيرها من الجبل الأسود، فانعدم أمن المسلمين بالساحل، ولم يستطع أحد منهم التحرك إلا بالسلاح.

وغلب الجراجمة على الجبال كلها، من لبنان وسنير [جبال القلمون] وجبل الثلج [جبل الشيخ] وجبال الجولان.

ويبدو أن الجراجمة احتلوا مساحات واسعة من الجولان، حتى وصلوا إلى وادي الرقاد وعقرباء، في أقصى شرقي الجولان؛ فبعث إليهم عبد الملك بن مروان بالأموال يسترضيهم، ريثما يفرغ لهم، وكان مشغولًا بقتال أهل العراق ومصعب بن الزبير وغيره. ثم كتب عبد الملك إلى سحيم بن المهاجر في مدينة طرابلس، يتوعده ويأمره بالخروج إليهم، ولجأ سحيم إلى الخديعة، وتنكر بزي بطريق منهم، وبدأ

[54] ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص316-319.

بالإجهاز على قادتهم فردًا فردًا، حتى فشلت هذه الحملة، وعاد الروم [البيزنطيين] إلى سفنهم، ورجع أنباط الجبل إلى قراهم[55].

وفي عام 126 للهجرة [744م]، عندما ثار أهل جند الأردن على يزيد بن الوليد، طلب محمد بن سعيد بن حسان الأردنيّ -الذي كان يومئذ متوليًا خراج الأردنّ- من سليمان بن هشام أن يوجه معه خيلًا؛ ليشنّ غارة على طبريا، وبعد أخذ ورد، أرسل سليمان بن هشام معه خمسة آلاف جندي، فخرج بهم ليلًا؛ حتى أنزلهم البطيحة في الجولان على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا، فتفرّقوا في قرى الجولان التابعة لجند الأردن، وسار محمد بن سعيد في طائفة منهم نحو طبريا، وكتبوا إلى عسكرهم فقال أهل طبريا: علام نقيم والجنود تجوس منازلنا وتحكم في أهالينا! ومضوا إلى حجرة يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك؛ فانتهبوهما، وأخذوا دوابّهما وسلاحهما ولحقوا بقراهم ومنازلهم، فلما تفرّق أهل جند الأردنّ، خرج سليمان بن هشام؛ حتى أتى الصنبرة جنوب بحيرة طبريا، مقابل عقبة فيق، وكان فيها قصرًا ملكيًا، وأتاه أهل جند الأردنّ؛ فبايعوا ليزيد بن الوليد، فلما كان يوم الجمعة توجّه سليمان إلى طبريا في مركب[56].

ولعل الخلاصة المهمة التي يمكن استخلاصها من القصة السابقة، التي يرويها الطبري في تاريخه، هي كثافة وجود أمراء بني أمية في طبريا، وما حولها من القرى والبلدات، ونعرف أن أهمها يقع على الضفة الشرقية من البحيرة ضمن أراضي

---

[55] ابن عساكر، ج20، ص144-146.

[56] تاريخ الطبري، م7، ص 267-268.

الجولان، بمثل البطيحة وسوسية وكفر عاقب وغيرها، وفي هذا مؤشر إلى المكانة التي كانت للجولان في العهد الأموي التي تراجعت تراجعًا لافتًا في العصر العباسي.

وكان لتسامح الأمويين مع المسيحيين، بل عدم تشجيعهم على دخول الإسلام، دور كبير في استمرار مدن مهمة من العصرين: الروماني والبيزنطي في الحياة والازدهار، مثل مدينة بانياس، التي وُلد فيها، في بدايات النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، أواخر أيام الأمويين، القديس غريغوريوس البانياسي الديكوبوليتي، الذي لُقب بالديكوبوليتي، نسبة إلى المدن العشر [الديكابولس].

أو مدينة سوسيا (هيبوس) التي عُثر فيها -أخيرًا- على آنية معدنية مصنوعة في العصر الأموي، إضافة إلى عملات إسلامية أموية.

أو مدينة بيت صيدا في سهل البطيحة، التي حج إليها رئيس أساقفة بافاريا، إيخستات الأول، عام 725 ميلادي [107 هجري]، في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ووصفها بأنها مدينة بطرس وأندراوس، حيث شاهد كنيسة في مكان بيتِهم[57].

وقد غاب أي ذكر للمدينة بعد ذلك، والمؤكد أن زلزال عام 749 ميلادي [132 هجري] قد أتى على ما تبقى من هذه المدينة، مثلما فعل بكثير من المدن القديمة في الجولان. ومن غريب الاتفاقات أن هذا الزلزال وقع في العام نفسه الذي سقطت فيه الخلافة الأموية بيد العباسيين، لتبدأ مرحلة حالكة من تاريخ الجولان، وبلاد الشام عمومًا، تمثلت بتحولها من مركز الإمبراطورية العربية الإسلامية إلى

[57] هذه الإشارات مأخوذة من كتاب المسيح في الجولان، خلف وسطاس.

طرف من أطرافها، بل إلى طرف مغضوب عليه، يعاني التجاهل والإجحاف، إذ تشير بعض المصادر العربية إلى أن العباسيين هدموا صروحًا كثيرة بناها الأمويون.

بين العباسيين والفاطميين

محاولة اغتيال المتنبي في الجولان

تضن علينا المدونات التاريخية العربية بالأحداث المتعلقة بالجولان، خلال القرون الثلاثة التي تمثل ازدهار الخلافة العباسية وانحدارها، باستثناء ما يذكره الطبري من أن عبد الله بن علي كان في سنة 135هجرية [752م]، أي: في السنة الثالثة للخلافة العباسية، أميرًا على الجولان، من ضمن مناطق كثيرة كانت بإمرته، مثل حمص وقنّسرين وبعلبك والغوطة وحوران والأردنّ[58].

ويخبرنا المتنبي في إحدى قصائده أن «كافورًا الإخشيدي» حاول اغتياله في قرية كفر عاقب، الواقعة في أرض الجولان، على الساحل الشرقي لطبريا[59]، ولعل في ذلك إشارة إلى استمرار الوجود السكاني في الجولان، على الرغم من إهمال العباسيين.

وفي أثناء الصراع الفاطمي- العباسي على بلاد الشام، وقعت في سهل الأقحوانة جنوبي غربي الجولان، عام 420 هجري [1028 م]، معركة بين القائد الفاطمي،

---

[58] تاريخ الطبري، م7، ص 467.

[59] ياقوت الحموي، معجم البدان، م20، ص290.

أتاني وعيدُ الأدعياء وأنهــم   أعَدوا ليَ السودان في كفر عاقبِ

ولو صدقوا في جدهم لحذِرتهم   فهل في وحدي قولهم غير كاذب

أنشتكين الدزبري، الشهير بمنتجب الدولة، بمؤازرة زعيم الكلبيين، رافع بن أبي الليل؛ وبين الحلف البدوي، بقيادة حسان بن المفرج بن الجراح الذي انضاف إليه صالح بن مرداس، أمير بني كلاب.

وقد انهزم الحلف البدوي أمام الفاطميين، وقُتل صالح بن مرداس، ففر حسان، ومن معه إلى جبال الجولان بعد أن قُتل منهم كثير. وكانت هذه المعركة فاصلة في وضع حد للعبث والتخريب الذي ساد في عموم بلاد الشام؛ إذ استقرت الأمور لأكثر من 40 سنة تالية.

سنوات الخراب

ويخبرنا ابن القلانسي، في «ذيل تاريخ دمشق»، أن زلزلة عظيمة حدثت بفلسطين سنة 460 للهجرة [1068م]، هلك فيها أناس كثيرون، وفي بانياس وحدها مات تحت الردم نحو مئة نفس[60].

لقد أدت حالة الفوضى التي سادت بلاد الشام برمتها، أواسط القرن الخامس الهجري، إلى خراب المدن الكبرى، وفراغ الأرياف من سكانها، فبدأ قادة الجند بتعيين أنفسهم ولاة بالإكراه، ومن ذلك ما يرويه ابن القلانسي في أحداث سنة 461 للهجرة [1069م]؛ إذ ولي دمشق الأمير حصن الدولة، معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي، قهرًا وغلبةً، وقسرًا من غير تقليد، وبعد أن أتاه التكليف الرسمي

---

[60] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص94.

من القاهرة، بالغ في المصادرات والجور. ويبدو أن دمشق وأعمالها خربت في عهده وهجرها أهلها، وخلت الأماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها[61].

ولما استولى أتسز بن أوق الخوارزمي[62] على الرملة والبيت المقدس، بدأ بمحاصر مدينة دمشق، فلما عاد عنها صار يقصد أعمالها كل سنة عند إدراك الغلات، فيأخذها ويقوي عسكره ويضعف أهل دمشق وجندها، فلما كان رمضان، عام سبعة وستين، سار إلى دمشق فحاصرها وأميرها المعلى بن حيدرة الخليفة المستنصر الفاطمي، فلم يقدر عليها؛ فانصرف عنها في شوال، فهرب أميرها المعلى[63]، وقصد ناحية بانياس في الجولان، يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة عام 467 للهجرة [1075/8/9م]، فأقام فيها خمس سنوات، وعمر ما عمره من الحمام وغيره فيها، ثم خرج منها أوائل سنة 472 للهجرة [1079م]؛ خوفًا من العسكر المصري أن يدركه فيها، فيأخذه منها، فذهب إلى صور عند ابن أبي عقيل القاضي المستولي عليها، ثم غادر من صور إلى طرابلس، وأقام فيها عند زوج أخته، جلال الملك بن عمار مدة، إلى أن اعتُقل وسيق إلى مصر، فهلك في الاعتقال قتلًا[64].

ولما هرب المعلى بن حيدرة من دمشق، اجتمع المصامدة، وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي، المعروف برزين الدولة، وغلت الأسعار فيها؛ حتى أكل بعض الناس بعضهم، بحسب ما يذكر ابن الأثير في تاريخه.

---

[61] المصدر السابق، ص 95-96.

[62] يرد أيضا في بعض المصادر أقسيس.

[63] ابن الأثير، الكامل في التاريخ م8، ص256.

[64] ابن القلانسي، ص 96.

ووقع الخلاف بين المصامدة وأحداث البلد، وعرف أتسز ذلك؛ فعاد إلى، فنزل عليها في شعبان من هذه السنة فحصرها، فعدمت الأقوات، وبيعت الغرارة، إذا وجدت، بأكثر من عشرين دينارًا، فسلموها إليه بأمان، وعوض انتصار بن يحيى المصمودي عنها بقلعة بانياس في الجولان، ومدينة يافا من الساحل، ودخلها -هو وعسكره- في ذي القعدة، وخطب بها يوم الجمعة لخمس بقين من ذي القعدة للخليفة العباسي، المقتدي بأمر الله[65].

وصف الجولان في العصرين الأموي والعباسي- الفاطمي

لا تزودنا المؤلفات التاريخية العربية بكثير من المعطيات العمرانية حول الجولان، إلا ما ندر، ولكن مؤلفات التراث الجغرافي، وكتب الرحلات، تسد ثغرة حول التقسيمات الإدارية، وشبكات الطرق والمسالك.

وقد شهد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ولادة نوع جديد في المدونات العربية، يسمى «الأدب الجغرافي»، أو علم «المسالك والممالك»، ويبرز ابن خرداذبة، بوصفه واحدًا من أوائل الجغرافيين والبلدانيين المسلمين الذين أرسوا قواعد هذا النوع من الكتابة عند العرب، وتحدّث في مؤلفه الرائد «المسالك والممالك» عن الطرق التي تصل بلدان العالم القديم، في الشرق والغرب، والتقسيمات الإدارية للدول المعروفة في ذلك الزمن، وكان واحدًا من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين ذكروا الجولان في مؤلفاتهم.

---

[65] ابن الأثير، م8، ص256.

فقد حدد ابن خرداذبه في نصه عن الشام أربع كور تخص إقليم الجولان التاريخي، وهي الجولان والجابية وجدَر وسوسية، وفيما تتبع كورتا الجولان والجابية جند دمشق، نجد أن كورتيّ جدر وسوسية تتبعان جند الأردن.

ولعل ابن خرداذبه أول جغرافي مسلم يحدد محطات طريق دمشق- فلسطين القديمة التي بقيت مستعملة حتى عصرنا الراهن، بمراكزها عينها: دمشق، الكسوة، جاسم، فيق، طبريا.

ويفيدنا نص ابن خرداذبه في تحديد طول «جبل الثلج» بثلاثة وثمانين ميلًا، وهذا يعني أن «جبل الثلج» جبل حرمون بكامله، وليس القمة التي تسمى «جبل الشيخ»، كما يُظن للوهلة الأولى.

وفي تحديده لأسماء مدن جند الأردن وحصونه، يذكر البلاذري أن الصحابي شرحبيل بن حسنة فتح «مدن الأردن وحصونها جميعها، على هذا الصلح فتحًا يسيرًا بغير قتال، ففتح بيسان، وفتح سوسية، وفتح فيق، وجرش، وبيت رأس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها». ومن أصل سبع مدن يذكرها البلاذري، وتكوِّن جند الأردن، هناك ثلاث مدن منها تقع في الجولان، وهي سوسية وفيق والجولان. وهنا نلمح غموضًا ليس من السهل فهمه، حول نسبة الجولان، أهي إلى جند الأردن كما يقول البلاذري، أم إلى جند دمشق، كما يقول ابن خرداذبة؟ علمًا بأن هذا الخلط سيتكرر عند كثير من البلدانيين والجغرافيين العرب والمسلمين اللاحقين، والمرجح أن السبب في ذلك

يعود إلى تقسيم الجولان نفسه إلى جزأين: أحدهما يتبع لجند الأردن والآخر لجند دمشق[66].

ولكن ابن الفقيه الهمذاني، المعاصر لابن خرداذبة والبلاذري، المتوفى سنة 290 هجرية (903 ميلادية)، لا يذكر شيئًا عن الكور الجولانية التي تتبع جند الأردن، ويقتصر في حديثه على ثلاث كور ومدن تخص الجولان، وتتبع جند دمشق، وهي كورة الجولان ومدينة الجابية وكورة الحولة، ولعل السبب في ذلك؛ أن كتاب «البلدان» نفسه لم يصلنا، بل وصل مختصره الذي وضعه علي بن جعفر الشيرازي سنة 413 هجرية (1022 ميلادية).

ويزودنا اليعقوبي المتوفى سنة 292 هجرية (905 ميلادية)، في كتابه «البلدان» بمعلومات أكثر تحديدًا ودقة من «المختصر» السابق الذي وصلنا من كتاب الهمذاني، وخصوصًا حول الجولان الذي يذكره بوصفه إقليمًا له مدينة اسمها بانياس.

يحدد اليعقوبي في كتاب «البلدان» الجولان إقليمًا تابعًا لجند دمشق، له مدينة اسمها بانياس، ولعلها المرة الأولى في المصادر العربية التي تذكر فيها مدينة بانياس بصفتها عاصمة للجولان. ويقول اليعقوبي: إن سكان الجولان قبائل عربية من بني مرة القيسيين، وبعض أهل اليمن. ويذكر محطات طريق دمشق- فلسطين، بتحديد أدق من ابن خرداذبه، على الرغم من أنه لا يأتي على ذكر الكسوة التي تقع إلى الجنوب من دمشق، بوصفها محطة أولى على هذه الطريق، بل يبدأ بجاسم أولًا، ثم خسفين، ثم أفيق، ثم طبريا.

---

[66] تيسير خلف، صورة الجولان، ص 35-39.

ولكن اليعقوبي عندما يحدد أقاليم جند الأردن لا يذكر أي كورة أو مدينة من مدن الجولان، مثل سوسية وجَدَر؛ وحتى عندما يسمي «فيق ذات العقبة المذكورة» لا يذكر أنها من مدن جند الأردن.

وفي كتابه «صفة جزيرة العرب»، يحدد الهمداني أماكن وجود قبيلة لخم، فيذكر الجولان من جملة الأماكن التي سكنتها في جنوبي بلاد الشام[67].

ويذكر أن صيداء وحارب اللتين تقعان في الجولان، من ديار غسان، ويقول: إن حارث الجولان جبل لهم أيضًا.

ويمدنا قدامة بن جعفر في كتابه «الخراج وصناعة الكتابة» بمعلومات مهمة عن طرق المواصلات والبريد والسكك في ذلك العصر، على الرغم من أن بعضها منقول عن مصادر سابقة.

يكرر قدامة بن جعفر تعداد محطات طريق دمشق- طبريا، كما ذكرها ابن خرداذبة حرفيًا، مع تجاهل محطة خسفين. ويقول: «من دمشق، فالطريق المستقيم، ومن دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلًا، ومن الكسوة إلى جاسم أربعة وعشرون ميلًا، ومن جاسم إلى أفيق أربعة وعشرون ميلًا ومن أفيق إلى طبريا ستة أميال». إضافة إلى أنه ينقل عن البلاذري نص فتوح مدن الأردن «بيسان وأفيق وجرش وبيت رأس وقدس والجولان وعكا وصور وصفورية»، فيذكر أفيق والجولان من دون أن يأتي على ذكر سوسية وجدر[68].

---

[67] المصدر السابق، ص 40-41.

[68] المصدر السابق، ص 43.

ويثبت ابن حوقل على خارطته موقع مدينة بانياس، ما يشير إلى أهميتها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وفي الكتاب -أيضًا- ذكر للطريق من طبريا إلى صور، على ساحل البحر المتوسط التي يحدد مسافتها بمرحلة واحدة. أما المسافة منها -أي طبريا- إلى ما بعد فيق على ديار بني فزارة مشرقًا فدون المرحلة. وفي موضع آخر، يحدد ابن حوقل المسير من طبريا إلى صور بيوم واحد، ومنها إلى عقبة فيق بمرحلة.

ويزودنا المقدسي البشاري المتوفى عام 380 هجرية (990 ميلادية) عن 45 عامًا، في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بمعلومات قيمة جدًا عن الجولان في ذلك العصر، ويوضح كثيرًا من الغموض والملابسات التي ترد في نصوص مَنْ سبقه.

يقسم المقدسي جند دمشق إلى ستة رساتيق أو نواحٍ، وهي الغوطة وحوران والبثنية والجولان والبقاع والحولة، ومدن دمشق هي صيدا وبيروت وأطرابلس وعرقة، وأما جند الأردن فقصبته طبريا، ومن مدنه: قدس وصور وعكا واللجون وكابل وبيسان وأذرعات.

ويصف المقدسي مدينة بانياس بأنها «على طرف الحولة وحد الجبل، أرخى وأرفق من دمشق، وإليها انتقل أكثر أهل الثغور لما أُخذت طرسوس، وزادوا فيها، وهي كل يوم في زيادة، لهم نهر شديد البرودة، يخرج من تحت جبل الثلج، وينبع وسط المدينة، وهي خزانة دمشق، رَفِقة بأهلها بين رساتيق جليلة، غير أن ماءها رديء. والحولة معدن الأقطان والأزهار، وهي أغوار وأنهار».

وفي وصفه لخط سير نهر الأردن يذكر المقدسي أنه «ينحدر من خلف بانياس فيتبحّر بازاء قَدَس ثم ينحدر إلى طبريا ويشق البحيرة ثم ينحدر في الأغوار إلى البحيرة المقلوبة».

ثم يميز المقدسي بين حمام طبريا الذي تنبع مياهه من مكان قريب من المدينة، وبين الحمة التي تقع إلى الجنوب من مدينة فيق في الجولان، وهذا التمييز بين الحمتين نادر في ذلك الزمن، وحتى في الأزمنة اللاحقة نجد بعض الرحالة والبلدانيين يخلطون بين الحمتين.

ويعدد المقدسي مدن الغور وقراه من الجنوب إلى الشمال على النحو الآتي: «ويلة (أيلة) وتبوك وصغر وأريحاء وبيسان وطبريا وبانياس».

ولعل المقدسي هو أكثر الجغرافيين العرب تفصيلًا في موضوع الطرق والمسالك التي تربط بين كور ومدن إقليم الشام، فهو يذكر طريقًا من دمشق إلى بانياس، تأخذ يومين يومين، ويحدد محطات الطريق من دمشق إلى طبريا بالآتي: من دمشق إلى الكسوة بريدين، ثم إلى جاسم مرحلة، ثم إلى أفيق مثلها ثم إلى طبريا بريدًا. ويذكر أن المسافة من بانياس إلى قدس، أو إلى جب يوسف بريدين بريدين. ويحدد المسافة من طبريا إلى اللجون، أو إلى جب يوسف، أو إلى بيسان، أو إلى عقبة أفيق، أو إلى جش أو إلى كفرلا، مرحلة مرحلة.

ويعدد المقدسي محطات «طريق المدارج» التي تبدأ من جب يوسف، إلى الشرق من صفد، وتنتهي ببعلبك؛ فتأخذ «من جب يوسف إلى قرية العيون مرحلتين، ثم إلى القرعون مرحلة، ثم إلى عين الجر مرحلة، ثم إلى بعلبك مرحلة. ثم يذكر المقدسي أطوال المسافات بين بعض مدن جندي دمشق والأردن، فيذكر

أن المسافة بين الجش، التي تقع شمال صفد، وصور مرحلة، ومن صور إلى صيدا مرحلة، ومن صور إلى قدس أو إلى مجدل سلم بريدين، ومن مجدل سلم إلى بانياس بريدين[69].

أما الحسن بن أحمد المهلبي، صاحب الكتاب العزيزي، والمعاصر للمقدسي البشاري؛ فيعدد محطات الطريق من بانياس إلى دمشق، ومن بانياس إلى جب يوسف، فيقول: إن «بانياس في لحف جبل الثلج، وهو مطل عليها، والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه صيفًا ولا شتاء. وفي رأس الجبل ضيعة تعرف بصردا، ومنها إلى ضيعة تعرف بكفرلا بوادي كنعان (غور الأردن) ثمانية عشر ميلًا، ومن كفرلا إلى جب يوسف اثنا عشر ميلًا. ومن بانياس إلى ضيعة تعرف ببيت سابر، على وادي يعرف ببيت جن ثمانية عشر ميلًا، ومنها إلى قرية كالمدينة تعرف بداريا من غوطة دمشق خمسة عشر ميلًا، ومنها إلى دمشق ثلاثة أميال[70].

ويطالعنا الشابشتي، من رجال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، في مصنفه «الديارات» بمعلومات قيمة عن «دير فيق» الذي يُعدّ أول دير في تاريخ المسيحية، ولا يذكر الشابشتي شيئًا عن أديرة الجولان الأخرى، كالدير الأسود، ودير سراس، ودير راهب، على الرغم من قدمها.

يحدد الشابشتي موقع دير فيق الشهير، «في ظهر عقبة فيق في ما بينها وبين بحيرة طبريا، في جبل يتصل بالعقبة، منقور في الحجر». ويذكر أنه «دير عامر بمن فيه ومن يطرقه من النصارى لجلالة قدره عنده، وغيرهم يقصده للتنزه والشرب

---

[69] المصدر السابق، ص 46- 48.

[70] المهلبي، الكتاب العزيزي ، ص 67.

فيه». ويقول: إن «النصارى يزعمون أنه أول دير عُمل للنصرانية، وأن المسيح صلى الله عليه، كان يأوى إليه، ومنه دعا الحواريين. وفيه حجر ذكروا أن المسيح كان يجلس عليه. فكل من دخل الموضع كسر قطعة من ذلك الحجر تبركًا به. وعمل هذا الدير في الموضع على اسم المسيح عليه السلام»[71].

التقسيمات الإدارية والطرق

من كل ما سبق؛ يتضح لنا أن الجولان كان معروفًا بهذا الاسم عند بعض الجغرافيين العرب، بوصفه إقليمًا يضم شمالي الجولان ومدينته بانياس، بما فيها سهل الحولة، ويتبع لجند دمشق، أما جنوبي الجولان، فكان يتوزع بين سوسية وجدر، ويتبع جند الأردن، وشرق الجولان هناك كورة الجابية، وتتبع جند دمشق. ونقرأ مصطلحات كورة، أي: ناحية إدارية، ورستاق، وتأتي بالمعنى نفسه، وكذلك نقرأ مصطلح مدينة؛ للتعبير عن بانياس والجابية وفيق.

أما الطرق، فهي كالآتي:

1- طريق تبدأ من دمشق – الكسوة- جاسم – خسفين –فيق- طبريا.

2- طريق يبدأ من دمشق- داريا- بيت سابر- بانياس- كفرلا- جب يوسف.

3- طريق المدارج من جب يوسف-[كفرلا]- العيون (مرجعيون)- القرعون - عين الجر (عنجر)– بعلبك.

[71] تيسير خلف، صورة الجولان، ص 49.

هذه الطرق هي الطرق القديمة التي كانت معروفة من المرحلة الرومانية، وظل استعمالها قائمًا حتى في العهود الإسلامية، وهو ما يؤشر إلى أن طريق دمشق - القنيطرة - جسر يعقوب، لم تكن معروفةً، أو على الأقل لم تكن مستخدمة في المرحلتين: الأموية والعباسية.

ويلاحَظ أن بعض الجغرافيين العرب يُغفلون بعض المحطات التي يذكرها آخرون، ولكنها جميعًا تؤكد أن المسافة المعتادة بين محطات الطرق كانت بوجه عام 12 ميلًا، وهذا لا يمنع من وجود محطات فرعية، أي: نصف هذه المسافة، أو ضعفها. ومن الطبيعي -في ذلك الزمن- أن تُستخدم هذه الطرق، إضافة إلى السفر والتجارة، أيضًا بوصفها محطات بريد.

أما المسافات، فكانت تقاس بالميل، وهو 1.6 كيلو متر، وبالمرحلة وبالبريد. ويمكن القول بموازنة المسافات، إن المرحلة تعادل 24 ميلًا، و4 بُرد، لأن البريد يعادل ستة أميال.

ومن اللافت للنظر أن المسافات بين المحطات تكاد تكون شبه دقيقة، وهو ما يدل على أن المواقع السكنية التي أقيمت في هذه المحطات، أقيمت بسبب هذه الطرق، ربما منذ المرحلتين: الرومانية والبيزنطية.

السكان

وتزودنا كتب الجغرافيين العرب بشيء عن سكان الجولان الذين يبدو أنهم من العرب، ففي بانياس وإقليمها يتكون السكان من بني مرة القيسيين وبعض اليمنيين، وهناك بنو لخم والغساسنة اليمنيون، وهم قدماء في الجولان، وعلى دين النصرانية. أما بنو فزارة، فقد استقروا في شرقي الجولان ووسطه بعد الفتوحات الإسلامية، ونجد موقعًا باسم جنوب القنيطرة حتى اليوم. هذا ما يتعلق بالقبائل العربية، المستقرة قبل الفتوح وبعدها. أما السكان غير المنتمين إلى القبائل، فلا توجد معلومات واضحة حولهم.

وثمة وصف لتركيبة مدينة بانياس السكانية عند المقدسي البشاري؛ إذ يقول: إن «أكثر أهل الثغور أتوا إليها لما أُخذت طرسوس، وزادوا فيها، وهي كل يوم في زيادة»[72]. ومن المؤكد أن هذه الإشارة تعني هجوم البيزنطيين على الثغور الإسلامية الشمالية سنة 354 للهجرة (965 ميلادية)، عندما استغلوا حالة الفوضى التي سادت بلاد الشام إبّان الغزوات القرمطية، والصراع الفاطمي-العباسي، واستعادوا طرسوس والمصيصة من المسلمين.

ويبدو أن هذه السنة، أي: 354 هجرية قد شهدت هجرة من تبقى من المسيحيين الأرثوذكس في بانياس؛ لأن الشائع في ذلك العصر، كما تذكر المصادر العربية[73]، أن يجري الانتقام من أتباع المذهب الأرثوذكسي إن حدثت هزيمة أمام البيزنطيين، أو سقطت مدينة من مدن الثغور.

---

[72] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص187

[73] للاستزادة راجع خطط المقريزي الجزء الثاني ص 169، والجزء الثالث ص 12، والجزء الرابع، ذيل تاريخ البطاركة، ص 207.

ولذلك؛ جرى تهجير مسيحيي بانياس الأرثوذكس، وربما تدمير أبرشيتهم، وإسكان المسلمين الفارين من طرسوس والمصيصة والثغور الشمالية في منازلهم. وكان هؤلاء، بحسب رواية الرحالة المهلبي، صاحب الكتاب العزيزي (المسالك والممالك)، ممن سماهم بالنواصب (أي غلاة السنة) الذين تغلبوا على طرسوس، ثم انهزموا أمام الروم[74]، لأنهم كانوا يشتمون آل البيت، بحسب اعتقاد المهلبي!.

ونلمح من خلال ترجمة ابن عساكر للفقيه نعمة بن هبة الله بن محمد أبو الخير الجاسمي، نسبة إلى قرية جاسم من عمل الجولان، أن كفر عاقب البلدة الجولانية، التي يتردد ذكرها كثيرًا في مدونات العقود الإسلامية الأولى، كانت شيعية المذهب في القرن الرابع الهجري[75]، شأنها في ذلك شأن جميع القرى والبلدات المحيطة ببحيرة طبريا، كما يشير إلى ذلك المقدسي البشاري، ومن خلال الترجمة السابقة نلمح شكلًا من أشكال الصراع السني- الشيعي بين كفر عاقب وبانياس، أو بين شمالي الجولان وجنوبيّه، إذ يتمنى شيخ من كفر عاقب أن تنشق الأرض لتبلع بانياس.

ولا شك في أن المراكز المسيحية كانت قد حافظت على نفسها، مثل فيق التي احتفظت بديرها ورهبانها طوال الحقبة الأموية، وكذلك بانياس التي خرج منها قديس في العصر الأموي، هو غريغوريوس البانياسي الديكوبوليتي. أما وجود العملات الأموية في سوسيا، فيؤكد أن هذه المدينة ظلت على مسيحيتها طوال العهد الأموي؛ إذ دلت الحفريات الأثرية على أن كنائسها الأربعة دمرت بفعل

---

(74) المهلبي، ص 96-99.

(75) ابن عساكر، ج62، ص 137-139.

الزلزال المدمر الذي وقع مع نهاية العصر الأموي، وهو ما ينطبق على بيت صيدا أيضًا.

أما في المرحلة الفاطمية؛ فإن الأمر اختلف جذريًا، كما أسلفنا، إذ كانت الحرب مع البيزنطيين دولة، وقد استخدم فيها الجانبان الوسائل الممكنة جميعها لإيلام الخصم، بما في ذلك ارتكاب الفظائع، وحملات التهجير، وهدم الأماكن المقدسة، ومنها هدم كنيسة القيامة في فلسطين، وهدم مسجد القسطنطينية، وتهجير المسيحيين الأرثوذكس إلى بلاد الروم، والمسلمين خارج طرسوس والمصيصة.

العمران

لم تزودنا المصادر العربية بمعلومات وافية عن بناء منشآت عمرانية في الجولان خلال المرحلتين: الأموية والعباسية- الفاطمية، والسبب -بحسب رؤيتنا- هو وجود هذه الأبنية التي لم تُدمَّر عند الفتح، فجرى استخدامها من الأمويين وغيرهم، وحتى من الجند الذين قرروا الاستقرار في بيوت الجولانيين الهاربين إلى الروم مع جبلة بن الأيهم بعد معركة اليرموك. ولذلك؛ احتفظ الجولان بالمنشآت التي بُنيت خلال المرحلتين: الرومانية والبيزنطية لقرون طويلة، مثل قصر الجابية الذي بناه الغساسنة، وظل مستخدمًا من الأمويين، بوصفه قصرًا صيفيًا لخلفائهم، بينما كان قصر الصنبرة، الواقع على الضفة الغربية من نهر الأردن، مقابل عقبة فيق، قصرًا شتويًا، ومع ذلك؛ نلمح بعض المعطيات التي زودنا بها علم الآثار الحديث، إذ بينت الكتابات في القاعة الرئيسة في حمامات الحمة أن الخليفة الأموي الأول معاوية، رمم هذه الحمامات التي ظلت مستخدمة -كما يبدو- حتى نهاية العصر الأموي. أما خرابها، فقد حدث بسبب زلزال عام 749 ميلادي على الأغلب، وهو الزلزال الذي دمر حواضر الجولان معظمها، نظرًا لأن الرحالة المقدسي البشاري لا يذكر شيئًا عنها في أواسط القرن الرابع الهجري، سوى إشارة عابرة إلى وجودها فحسب.

ونلمح إشارة لدى المقدسي البشاري تقول: إن من المدن التي بناها الأمويون مدينة بانياس، أي جددوها بعد اضمحلال حصل لها، أما الإشارة المؤكدة التي أثبتتها الحفريات الأثرية، فهي قيام الفاطميين ببناء سور للمدينة، أصغر من السور الروماني القديم، وقد نسب المؤرخون بناء حمام بانياس الأثري للوزير الفاطمي

المعلى بن حيدرة الذي هرب من دمشق وأقام ببانياس خمس سنوات وعمر ما عمره من الحمام وغيره فيها، بحسب ما جاء عند ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق.

ولا نعرف إن كان المعلى هذا هو الذي بنى قلعة بانياس، التي تقع داخل سور المدنية، ولكنها كانت موجودة عندما تسلمها الوزير انتصار بن يحيى المصمودي سنة 467 للهجرة [1075م]، بعد خروج المعلى منها مباشرة.

الحياة الفكرية

قبل فتح الشام في عهد الخليفتين: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، ينقل لنا الرواة أحاديث بسند متصل تتحدث عن حثّ بعض صحابة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، على سكنى الجولان، ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن أبي الحسين محمد بن عبد الله الرازي بسنده، عن سفيان الثوري، عن طعمة بن عمرو الجعفري عن عبد الرحمن بن سابط الجمحي حين قال: «قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: إن لي رحمًا وقرابة، وإن منزلي قد نبا بي بالعراق والحجاز. قال: أرضى لك ما أرضى به لنفسي ولولدي، عليك دمشق، عليك دمشق، ثم عليك بمدينة الأسباط بانياس، فإنها مباركة السهل والجبل، يعيش أهلها بغير الحجرين: الذهب والفضة، نقل الله عنها أهلها حين بدلوا، تطهيرًا لها، وإن البركة عشر بركات خص الله بانياس من ذلك ببركتين، لا يعيل ساكنها، يعيش

من برها وبحرها، وإذا وقعت الفتن كانت بها أخف منها في غيرها، فاتخذها وارتدْ بها، فوالله لفدان بها أحب إلي من عشرين بالوهط. والوهط بالطائف» [76].

ويبدو أن هذه الأحاديث التي رواها سفيان الثوري عن مدينة بانياس، قد شجعت تلاميذه وأتباعه على التوجه إليها منذ القرن الهجري الثاني. وقد بنى هؤلاء في بانياس أكواخًا من أخشاب الغابة، وكانوا يتقوتون بالبلوط الذي يقطفونه من أشجار الغابة أيضًا، ويحلّونه بالماء، ثم يجففونه ويطحنونه ويصنعون منه خبزًا، ولذلك؛ سمّوا بـ«البلوطيين». وكان هؤلاء قد قرروا اعتزال العالم والتفرغ للعلم ورواية الحديث، على خطا إمامهم سفيان الثوري الذي كان من صنف المجتهدين، أصحاب الحديث، لأن عنايتهم تنحصر في تحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص، وهؤلاء لا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبرًا أو أثرًا [77].

وتزودنا مدونات التراجم العربية بأسماء فقهاء كثر استوطنوا أكواخ بانياس، خلال مدد زمنية مختلفة، مثل أبي إسحاق البلوطي، وأبي علي القيسراني، وجميل بن يوسف المادرائي، وزيد بن عبد الله التنوخي البلوطي، وعبد الله بن بكر بن محمد الطبراني الزاهد، ومحمد بن أحمد بن سهل بن نصر، وأبو بكر الرملي الشهيد، المعروف بابن النابلسي، الذي تحفظ لنا كتب التاريخ قصته مع الوزير الفاطمي، جوهر الصقلّي[78]، ومجاهرته بالقول: إن الفاطميين أسوأ من الروم البيزنطيين، ولو كان معه عشرة سهام لرمى تسعة على الفاطميين وواحدًا على

---

[76] ابن عساكر، ج1، ص 249.

[77] الشهرستاني، الملل والنحل، م1، ص206.

[78] للتوسع راجع كتاب «الجولان في مصادر التأريخ العربي»، لتيسير خلف.

الروم، فما كان من جوهر إلا أن اقتاده إلى القاهرة، وأمر يهوديًا بسلخه، وحشوه قطنًا، والطواف به في شوارع القاهرة.

ويشير وجود ضريح للمتصوف الشهير، السلطان إبراهيم بن أدهم البلخي، في بانياس حتى اليوم، إلا أن هذا الرجل الإشكالي، وصديق سفيان الثوري، الذي تخلى عن عرشه وساح في البلدان متصوفًا، قد عاش آخر أيامه في بانياس التي فارق فيها الحياة، علمًا بأن بعض كتاب التراجم يتحدثون عن وجود مقام له في جبلة على الساحل السوري، وهذا أمر عادي، أي أن تقام مقامات عدة لقطب ديني.

حروب الفرنجة

ظلت الأمور دولة بين قادة الجند الترك الذين كانوا يدعون في المساجد، مرة للعباسيين، ومرة للفاطميين. وهذه المدة الطويلة من الانحطاط والفوضى، وانعدام الأمن، ونقص العلماء، وخراب المدن والقرى، لم تشهدها بلاد الشام طوال تاريخها إلا في العهد التعس، لذا لم يكن غريبًا أن تسقط في يد الفرنجة مدن الساحل القريبة من القدس سنة 485 هجرية [1092م]، مثل عكا والرملة ويافا، ثم القدس نفسها نحو سنة 491 للهجرة. وما إن أتى عام 500 للهجرة؛ حتى كان معظم الساحل الشامي تحت حكم الصليبيين.

ولم يتوقف طمع الغزاة الفرنجة عند ذلك، فبدؤوا التحرش بمدن وأعمال الداخل، مثل الجولان وحوران وسواد طبريا على الضفة الجنوبية لوادي اليرموك.

الأتابك طغتكين

وفي ذلك الزمن لمع نجم الأتابك ظهير الدين طغتكين، بوصفه أول قائد مسلم يقرر التصدي للصليبيين الفرنجة، وكان قد استقر في دمشق منذ حين، فبدأ بجمع العسكر من العرب، ومن انضم إليه من التركمان؛ لقتال الصليبيين. ويخبرنا ابن القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق» أنه قاد حملة عسكرية، وخيم في السواد على الضفة الجنوبية لليرموك، من ناحية عجلون، وكان والي صور، الأمير عز الملك أنوشتكين الأفضلي، قد أغار على حصن تبنين التابع للإفرنج، فهاجمه وقتل من كان فيه ونهب وغنم. واتصل الخبر ببغدوين ملك الإفرنج؛ فنهض إليه من طبريا، فانتهز الأتابك ظهير الدين طغتكين ذلك، وشن هجومًا على حصن صغير بالقرب من بحيرة طبريا من ناحية الجولان، فيه جماعة من فرسان الفرنجة، فقاتله وملكه، وقتل من كان فيه، وانكفأ إلى المدّان، على الضفة الشمالية من وادي اليرموك قرب مزيريب، وعاد الإفرنج إليه[79]، لكن قوات ظهير الدين عادت لمهاجمة الفرنجة، وانتصرت عليهم، ودمرت الحصن، في حين فر الناجون إلى طبريا، ثم إلى عكا، وكان ذلك عام 500 هجري [1106 م].

وفي الجولان -الآن- قرب قرية العال بقايا موقع قديم يسمى «قصر بردويل»، يُعتقد أنه ذلك الحصن الصغير الذي لم يكتمل بناؤه.

وفي سنة 505 للهجرة [1111م]، جمع الملك الصليبي، بغدوين، من أمكنه جمعه من الإفرنج، وقصد ثغر صور، فبادر عز الملك، واليه، وأهل البلد، بمراسلة ظهير الدين في دمشق، يستصرخونه ويستنجدون به، ويبذلون تسليم البلد إليه،

---

[79] ابن القلانسي، ص 151

فبادر الأتابك ظهير الدين بإرسال جماعة من الجند الأتراك -بالعُدد الكاملة- إلى صور، وشرع في إرسال مجموعات أخرى. فحين عرف بغدوين ما تقرر بين طغتكين وأهل صور، بادر إلى النزول عليها فيمن جمعه وحشده في اليوم الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة 505 هجرية [1111/12/30م]، وتقدم بقطع الشجر والنخل وبنى بيوت الإقامة عليها، وزحف إليها، فقاتلها دفعات عدة، لكنه عاد خاسرًا، لم ينل منها غرضًا، وقيل إن أهل صور رشقوا الصليبيين في يوم واحد بعشرين ألف سهم.

وخرج ظهير الدين طغتكين من دمشق حين عرف نزولهم على صور، وخيم في بانياس في الجولان، وبث رجاله في أعمال الإفرنج، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والإخراب والحرق؛ طلبًا لإزعاجهم وترحيلهم عنها [80]. وفي سنة 506 للهجرة [1112م]، اشتد خوف أهل صور من الإفرنج، فجمعوا أمرهم مع عز الملك، الوالي فيها، على تسليمها إلى ظهير الدين؛ بحكم ما سبق من نصرته لهم في تلك النوبة، ومعاضدته إياهم في تلك الشدة، وندبوا رسولًا وثقوا به وسكنوا إليه في الحديث مع ظهير الدين طغتكين في هذا الباب، ووصل إلى بانياس في الجولان وواليها، الأمير سيف الدولة مسعود، فتحدث معه وسار الأمير مسعود مع الرسول إلى دمشق؛ لتقرير الحال بمحضر منه، فاتفق أن ظهير الدين طغتكين كان قد توجه إلى ناحية حماة؛ لتقرير الحال في ما بينه وبين فخر الملوك رضوان، صاحب حلب، فخشي الأمير مسعود أن يتأخر الأمر إلى حين عودة ظهير الدين من حماة، فيبادر بغدوين بالنزول على صور، ويفوت الغرض المطلوب فيها، فقرر مع ابن

---

[80] ابن القلانسي، ص 178.

طغتكين، تاج الملوك بوري، النائب عن أبيه في دمشق، المسير إلى بانياس في الجولان، وانتهاز الفرصة في تسليم صور إليه، فوافقه الرأي ورافقه إلى بانياس.

وتوجه مسعود إلى صور، ومعه من يعتمد عليه من العسكر، ولم ينتظر وصول الأتابك ظهير الدين، ووصل إليها ودخلها بيسر، وانتهت الأخبار إلى الأتابك، فأرسل فرقةً كبيرة من الأتراك إلى صور؛ تقويةً لها، فوصلت إليها واستقرت الأمور على ما كانت عليه للفاطميين، وكتب ظهير الدين إلى الأفضل بمصر يعلمه: أن بغدوين قد جمع وحشد للنزول على صور، وأن أهلها استنجدوا به؛ فبادر لحمايتها، وأنه مستعد لتسليمها لمن يتولى أمرها ويذب عنها، من الولاة الذين يرسلهم الفاطميون، وطلب مساعدة عسكرية من الأفضل.

وكان جوسلين، صاحب تل باشر، قد اختلف مع خاله بغدوين الرويس، صاحب الرها، وصار مع بغدوين، صاحب بيت المقدس، وأقطعه طبريا، واتفقا على أن يراسل جوسلين ظهير الدين، ويعرض عليه الهدنة، ويسلم إليه حصن ثمانين [لعله تبنين] وجبل عاملة، ويتعوض عن ذلك بحصن الحبيس في عجلون ونصف السواد، ويضمن عن بغدوين الوفاء بذلك، والثبات على المودة والمصافاة، وترك التعرض لشيء من أعمال دمشق، ولا يعرض هو لشيء من أعمال الإفرنج. فلم يقبل ظهير الدين بهذا العرض، ونهض من دمشق بجيشه؛ للقاء الأمير مودود، والاجتماع به على الجهاد، فاجتمعا بمرج سلمية، واتفق رأياهما على قتال بغدوين. وقد استصحب الأتابك جميع العسكر، ومن كان في حمص وحماة ورفنية، ورحلا منها إلى عين الجر [عنجر] بالبقاع، ثم منها إلى وادي التيم، ثم

نزلا بانياس في الجولان، ونهضت فرقة من العسكر، فقصدت ناحية ثمانين [تبنين] فلم تفلح بأخذها، وعادت[81].

وفي سنة 518 للهجرة [1124م]، لما سمع الفرنجة بانصراف الأمير مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وحدثوا نفوسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها، فسمع واليها، المعين من الفاطميين الخبر، فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنجة عنها؛ لقلة من فيها من الجند والذخائر والمؤن، فأرسل إلى الآمر بذلك، فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغتكين، صاحب دمشق، فأرسل إليه بذلك، فملك ظهير الدين صور ورتب فيها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية.

وسار الفرنجة إليهم ونازلوهم في ربيع الأول من هذه السنة، وحاصروا المدينة، فقلّت الأقوات وسئم الناس القتال، وضعفت نفوسهم، وسار الأتابك ظهير الدين إلى بانياس؛ ليكون أكثر قربًا منهم ويذب عن البلد، وعندما رأى الفرنجة قربه منهم لم يتحركوا، ولزموا الحصار. فأرسل طغتكين إلى مصر يستنجدهم، فلم ينجدوه، وتمادت الأيام، وأشرف أهلها على الهلاك، واستقر الأمر على تسليم مدينة صور للفرنجة، مقابل تمكين من فيها من الجند والرعية من الخروج منها، بما يقدرون عليه من أموالهم ورجالهم وغيرها [82].

---

[81] السابق، ص 182-184.

[82] ابن الأثير، م8، ص 694.

قلعة للإسماعيلية

وفي سنة 520 للهجرة [1126م]، سلّم الأتابك ظهير الدين طغتكين لداعي الإسماعيلية، بهرام الأسدأبادي، ثغر بانياس في الجولان، بناء على اقتراح من الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني، بحجة أن خطره بات في دمشق كبيرًا، وشرع بهرام في تحصين بانياس وترميم ما تهدم من حصنها، وبث دعاته في سائر الجهات؛ فتبعه خلق كثير من فلاحي الضياع المجاورة[83].

وكان الأمير الضحاك بن جندل يمد سلطته على أعمال وادي التيم، وبعض نواحي الجولان، وكان أهل هذه النواحي على مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية، فسار إليهم بهرام سنة 522 للهجرة [1128م]، وحصرهم وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكر بهرام، فوضع السيف فيهم وقتل منهم مقتلة كثيرة، وقُتل بهرام، وانهزم من سلم، وعادوا إلى بانياس بأقبح صورة.

وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلًا من أعيان أصحابه، اسمه إسماعيل، فقام مقامه وجمع شمل من عاد إليه منهم، وبث دعاته في البلاد وعاضده المزدقاني أيضًا، وقوّى نفسه على ما عنده من الامتعاض بهذه الحادثة والهم بسببها.

ثم إن المزدقاني أقام في دمشق عوض بهرام رجلًا اسمه أبو الوفاء، فقوي أمره، وعلا شأنه، وكثر أتباعه، وأصبح نفوذه أقوى من نفوذ تاج الملوك، ابن الأتابك طغتكين الذي خلف والده في حكم دمشق.

---

[83] ابن القلانسي، ص 221-225.

وراسل المزدقاني الفرنجة؛ ليسلمهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر بينهم الميعاد يوم جمعة ذكروه، فبلغ الخبر تاج الملوك، فاستدعى المزدقاني وقتله وعلق رأسه على باب القلعة، وقتل من الإسماعيلية الكثير. ولما تمت هذه الحادثة في دمشق، خاف إسماعيل والي بانياس، فراسل الفرنجة، وعرض عليهم تسليم بانياس والانتقال إلى بلادهم. فأجابوه، وسلم القلعة إليهم وانتقل، هو ومن معه من أصحابه، إلى بلاد الفرنجة[84].

استعادة بانياس

وفي سنة 527 للهجرة [1036م]، أي بعد خمس سنوات من سقوطه، استعاد شمس الملوك بن تاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق، حصن بانياس من الفرنجة؛ وسبب ذلك أن الفرنجة استضعفوه وطمعوا فيه، وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم، فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرر القول فيه، فلم يردوا شيئًا، فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن يجمع عسكره ويتأهب، دون أن يعلم أحد قصده.

ثم سار أواخرَ المحرم من هذه السنة، ونزل على بانياس أول صفر، وقاتلها لساعته، وزحف إليها زحفًا متتابعًا، وكان الفرنجة فيها غير متأهبين، واقترب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه جنوده من الخيالة والراجلين، ووصلوا إلى السور

---

[84] ابن الأثير، م9، ص 16-17.

فنقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان من جند الفرنجة إلى الحصن وتحصنوا به، فقتل من الفرنجة الكثير وأسر الكثير، ونُهبت الأموال، وقاتلت القلعة قتالًا شديدًا ليلًا ونهارًا؛ فملكها في الرابع من صفر، وعاد إلى دمشق، فوصلها في السادس منه.

وأما الفرنجة فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس في الجولان، جمعوا جنودهم لقتاله، فلما وصلهم خبر فتحها عدلوا عن ذلك[85].

محاولات عماد الدين

وفي سنة 532 للهجرة [1138م]، وصل الأتابك عماد الدين زنكي في عسكره إلى حماة، ورحل عنها متوجهًا إلى ناحية البقاع؛ فملك حصن المجدل من أيدي الدمشقيين، ودخل في طاعته إبراهيم بن طغرت، والي بانياس المعيّن من صاحب دمشق[86].

وفي سنة 533 للهجرة [1139م]، أغار الإفرنج على ناحية بانياس، ونهض شهاب الدين مع جنوده في إثرهم، فلم يدركهم وعاد إلى البلد[87].

وفي سنة 534 للهجرة [1140م]، ورد الخبر بفراغ الأتابك عماد الدين زنكي من ترتيب أمر بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها، وشروعه في التأهب للنزول على مدينة دمشق لمضايقتها، وورد عُقيب ذلك الخبر برحيله عنها في العسكر

(85) المصدر السابق، ص42-34.

(86) ابن القلانسي، ص 263.

(87) المصدر السابق، ص 268.

ونزوله في البقاع، في ربيع الأول منها، وأنفذ رسوله إلى الأمير جمال الدين محمد، حفيد طغتكين صاحبها، في التماس تسليم البلد إليه، ويعوضه عنها بما يقع الاختيار والاقتراح عليه، فلم يحصل على ما رغب فيه، فرحل عن البقاع، ونزل في داريا بظاهر دمشق، ثم نزل بعذراء [عدرا]؛ فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين، ورحل حين تحقق نزول الإفرنج بالمدان على وادي اليرموك قرب مزيريب في جموعهم.

لقد انقضت العقود الخمسة الأولى من الاحتلال الصليبي لأجزاء واسعة من بلاد الشام، والجولان ساحة القتال الرئيسة، فكان احتلال ثغر بانياس أو استرجاعه المؤشر الحقيقي إلى قوة القائد المسلم الذي كان يتصدى للجهاد، وكان حصن بانياس محوريًا في المؤامرات التي كانت تحاك في المعسكرين: الصليبي والإسلامي، نظرًا إلى موقعه الاستراتيجي المتوسط لمدن الصليبيين وحصونهم. وكان لابد من وصول قائد من نوعية نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي، بعد أن اختمرت فكرة جهاد الصليبيين لدى قطاعات واسعة من الناس؛ نتيجة خمسين سنة من الاحتلال، وتخاذل كثير من القادة والولاة ومقدمي الجيش، نستثني منهم ظهير الدين طغتكين، وابنه تاج الملوك بوري، وعقدهم الأحلاف مع الفرنجة؛ طمعًا بمكاسب أنانية.

الدولة النورية

تسليم بانياس للفرنجة

كان نور الدين محمود مؤمنًا بفكرة جهاد الفرنجة الصليبيين؛ لطردهم من ديار المسلمين في الشام، وكان يؤمن بحكم تجربة والده عماد الدين زنكي الطويلة في قتالهم؛ أن ذلك لن يتحقق من دون وحدة بلاد الشام ومصر، ولكن حياته لم تسعفه ليرى بعينيه حلمه، وقد تحقق على أرض الواقع!.

ترسخت قناعة نور الدين محمود بضرورة أخذ دمشق من ملكها الضعيف، مجير الدين أبق، في سنة 543 للهجرة [1148م]، إذ حاصر ملوك أوروبا -كونراد الألماني ولويس السابع الفرنسي، إضافة إلى بغدوين الثالث ملك القدس، دمشق التي صمدت بضعة أيام. وكان معين الدين أنر قد كاتب نور الدين محمود، صاحب حلب، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، يستنجدهما، ولكن المفاوضات حول تسليم المدينة لم ترق للأتابك معين الدين، ولا لملك دمشق مجير الدين أبق، آخر ملوك الدولة الأتابكية، فاتفقا مع الإفرنج أن يكون في جملة المبذول لهم، مقابل عودتهم عن دمشق المحاصرة، انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طغرت، وتسليمها إليهم، فاتفق أن إبراهيم بن طغرت كان قد توجه إلى ناحية صور للإغارة عليها، فصادفه ريمند صاحب أنطاكية الذي قدم بجيش من الإفرنج لإنجاد حليفه صاحب دمشق، فالتقيا؛ فقُتل ابن طغرت في الوقعة، ومعه نفر يسير من أصحابه، وعاد من بقي منهم إلى بانياس في الجولان، فتحصنوا بها وجمعوا إليها رجال وادي التيم وغيرهم، ومن أمكن جمعه من الرجال؛ للذب

عنها والمراماة دونها، فنهض إليها الأتابك معين الدين أنر في عسكر دمشق، ونزل عليها، وحارب بانياس بالمنجنيقات، ومعه فريق وافر من عسكر الإفرنج، ولم تزل بانياس على حالها في المضايقة والمحاصرة إلى أن نفدت منها الميرة، وقل قوت المقاتلة، فاستسلمت لمعين الدين أنر، وعوض عنها متوليها الذي يبدو أنه عقد صفقة الاستسلام، بما أرضاه من الإقطاع، وسلمها إلى الإفرنج، ووفى لهم بالشروط، ورحل عنها منكفئًا إلى دمشق، ظافرًا بأمله، خامدًا لعمله في أواخر شهر شوال [88].

إفساد الفرنجة في الجولان

وفي آخر سنة 543 للهجرة [1149م]، وصلت الأخبار إلى نور الدين بإفساد الفرنجة في الجولان بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم، وكتب إلى من في دمشق (معين الدين ومجير الدين) يعلمهما ما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي منهما المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه، مع مقدم يعوّل عليه، وكان صاحب دمشق قد عاهد الإفرنج أن يكونوا يدًا واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج على طلب نور الدين، وامتنع عن تلبيته، بل وطلب معونة الفرنجة. فلما عرف نور الدين ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض عسكره بيعفور (إلى الغرب من دمشق)، فلما قرب من دمشق عرف متوليها خبره، ولكنه لم يعلم مقصده. وكان الإفرنج قد استجابوا لطلب صاحب دمشق، ووصلت

---

[88] المصدر السابق، ص 272-273.

أوائلهم إلى بانياس في الجولان. وعرف نور الدين ذلك، فقال: لا أنحرف عن جهادهم[89].

وفي آخر شعبان من السنة، ورد الخبر من ناحية بانياس بأن فريقًا وافرًا من التركمان أغاروا على ظاهرها، وخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه لقتالهم، فانتصر التركمان عليهم، وقتلوا منهم وأسروا، ولم يفلت منهم غير الوالي ونفر يسير، واتصل الخبر بمن في دمشق، فأنكر مثل هذا الفعل؛ بحكم انعقاد الهدنة والموادعة، وأنهض إليهم من العسكر الدمشقي من صادف بعض التركمان متخلفًا عن رفقتهم، فأخذوا ما كان بأيديهم وأسروا ثلاثة أنفار منهم [90].

وفي سنة 548 للهجرة [1153م]، اتفق صاحب دمشق، مجير الدين أبق، مع نور الدين سلطان حلب والشام على القتال معًا، بعد أن حاول مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين.

وبعد أن ملك ابن زنكي حصن أفليس، وقتل من كان فيه من الإفرنج، جمع عسكره وعسكر دمشق، ونهض طالبًا ثغر بانياس في الجولان، ونزل وجنده عليه يوم السبت في التاسع والعشرين من صفر، وقد خلا من حماته، وتسهلت أسباب تحريره، ولكن خلافًا وقع بين عسكر نور الدين وعسكر مجير الدين صاحب دمشق، حال دون تحقيق الهدف، وعاد مجير الدين إلى دمشق، فيما مضى نور الدين إلى حمص[91].

---

[89] المصدر السابق، ص 308.

[90] المصدر السابق، ص 317.

[91] المصدر السابق.

وفي العشر الأواخر من ذي الحجة من السنة، نقض الصليبيون ما كان استقر من الموادعة والمهادنة مع دمشق؛ بحكم وصول عدة وافرة من الفرنجة في البحر، وقويت شوكتهم بهم. وفي تفصيل القصة، كما يرويها ابن القلانسي، أن الفرنجة نهضوا إلى ناحية الشعراء في الجولان المجاورة لبانياس، وقد اجتمعت فيها من جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل [ثيران] الفلاحين-فلاحي الضياع- ومواشي الجلابين والعرب الفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى. ويبدو أن الفرقة العسكرية التركمانية المكلفة بحفظ الأمن في الشعراء، قد حصل منها تراخ وتقصير، فنقض صاحب بانياس الصليبي الهدنة المستقرة، وانتهز عسكر الصليبيين الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم[92].

ومن الواضح أن هذه الحادثة هي التي يرويها الأمير الفارس أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» ، عندما ذهب إلى ملك الفرنجة، فلك بن فلك؛ ليطالب بما نهبه عسكر بانياس الصليبيين، وهو نقض للهدنة التي كانت سائدة بين الجانبين[93]، وأشرف بنفسه مع الأتابك معين الدين أنر على عقدها معهم.

ولعل هذه الحادثة وغيرها، وتخاذل مجير الدين في قتال الفرنجة، بل تحالفه معهم في كثير من الأوقات، إضافة إلى ظلمه وسوء حكمه، واحتلال عسقلان، وتهديد الفرنجة لدمشق بعد وصول حملة صليبية جديدة، كل ذلك جعل نور

---

(92) المصدر السابق، ص 320-321.

(93) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص87-88.

الدين يسرع بفتح عاصمة الأمويين ويجعلها مقر حكمه، وينهي حكم سلالة الأتابك طغتكين، وهو ما تم له عام 549 للهجرة [1154م].

فتح بانياس

وفي سنة 552 للهجرة [1157م]، تصدى نصرة الدين أمير ميران، شقيق نور الدين محمود، للفرنجة الذين توجهوا إلى ناحية بانياس؛ لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال، وكان عددهم سبعمئة فارس من فرسان الاسبتارية والسرجندية والداوية، سوى الجنود الراجلين، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وهزمهم، ولم ينج منهم إلا قليل سُيق إلى الأسر.

وفور ذلك طلب نور الدين من القائد أسد الدين شيركوه الذي عينه واليًا على بعلبك، جمع قواته للإغارة على الصليبيين، والبدء ببانياس في الجولان، وقد تطوع للجهاد كثير من الشباب والفقهاء والصوفية والمتدينون، ونزل السلطان العادل نور الدين على بانياس في عسكره، وحاصرها، وقصفها بالمنجنيق، وأتت الأخبار -بالحمام الزاجل- أن الإفرنج أنهضوا سريةً من أعيان مقدميهم، تزيد على مئة فارس، سوى أتباعهم، لكبس المهاجمين؛ ظنًا منهم أنهم في قلة، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم، وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها -بحسب تعبير ابن القلانسي- فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب ولم يفلت منهم إلا اليسير ووصل الأسرى ورؤوس القتلى والخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق.

وأتت الأخبار بافتتاح مدينة بانياس بالسيف، بعد نقب أحد الأبراج وإطلاق النار فيه وسقوطه، ثم دخول جيش المسلمين إلى المدينة، وقتل من فيها من الإفرنج، وانهزام من سلم منهم إلى القلعة[94] وانحصارهم فيها.

ووصلت معونات من الصليبيين؛ لإنقاذ الهنفري، صاحب بانياس، ومن معه من أصحابه الإفرنج، المحصورين في قلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، ولم تفلح.

وبدأ الفرنجة يرسلون إلى نور الدين الرسائل؛ لتسليم القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه.

ووصل ملك الفرنجة في جمع من الفرسان من ناحية الجبل، على حين غفلة، فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها، يئسوا من عمارتها بعد خرابها، وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر.

ولم يكتف نور الدين بنصر بانياس، فبعد أن أقام فيها أيامًا عدة، تابع هجومه، في التاسع من جمادى الأولى، على معسكر الإفرنج القائم في بلدة الملاحة، شرق صفد وجنوب سهل الحولة، بين طبريا وبانياس، ونهض في عسكره من الأتراك والعرب، وجدّ في السير، وهاجمهم وانتصر عليهم نصرا مؤزرًا [95].

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين، أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين؛ فأنهد إليهم عسكرًا

---

[94] المقصود هنا قلعة بانياس التي تقع داخل سور المدينة وهي غير قلعة الصبيبة التي لم تكن قد بنيت بعد، التي تقع إلى الشرق من مدينة بانياس وتشرف عليها.

[95] ابن القلانسي، ص 337-342.

كثيفًا، فأوقع بهم، وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين؛ حتى نزل على بانياس وحاصرها أشد الحصار؛ حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأول، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس[96].

وفي رواية ابن الأثير لفتح بانياس أن نور الدين محمودًا، لما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريا، فجعل من بقي من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين، قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أعد لك؛ لتمنيت ذهاب الأخرى.

وجدّ نور الدين في حصار بانياس، فسمع الفرنج بذلك، فجمعوا جنودهم فلم تتكامل عدتهم؛ حتى فتحها. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالًا، ووصل خبر ملك حارم وحصر بانياس إلى الفرنج، فصالحوا شيركوه، وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلاّ وقد ملكها، ولما عاد منها إلى دمشق، كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر، وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه، فسقط من يده في شَعْراء بانياس، وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه، علم به؛ فأعاد بعض أصحابه في طلبه، ودلهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه، وقال:

---

[96] أبو شامة، كتاب الروضتين، ج1، ص340-345.

أظن هناك سقط. فعادوا إليه فوجدوه، فقال ابن منير يمدحه ويهنئه بهذا النصر، ويذكر «الجبل» خاتم الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك بأنك الـ	مهديّ مطفي جمرة الدجّـالِ
فلعودة الجبـل الذي أضــللتـه	بـالأمس بين غياطل وجبـــالِ
لم يعطــها إلا سليـــمان وقد	الربـا بمـوشـــك الأعجـــالِ
رحـرحى لسريـر ملكـك إنّـه	كسريره على كل حد عـــالِ
فلو البحـار الســبعة استهوينه	وأمرتهنّ قذفنه في الحـــــالِ

ولما فتح الحصن كان معه ابن معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الفرنج، فقال له: للمسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان، فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن اليوم برّد الله جلد والدك من نار جهنم[97].

---

[97] ابن الأثير، م9، ص310-312.

الدولة الصلاحية

حصار بانياس

لما توفي نور الدين محمود بن زنكي سنة 569 للهجرة [1173م]، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان صغير السن، اجتمع الفرنجة وساروا إلى قلعة بانياس وحاصروها، فجمع الأتابك شمس الدين محمد بن المقدم العسكر عنده بدمشق، وراسل الصليبيين ولاطفهم بدايةً، ثم أغلظ لهم القول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس؛ فنحن على ما كنا عليه، وإلا فنرسل إلى سيف الدين غازي، صاحب الموصل، ونصالحه ونستنجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده، ونقصد بلادكم من جهاتها كلها، ولا تقومون لنا. وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن قد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع. فاقتنعوا بدعواه، ووقعت بينه وبينهم الهدنة، بعد أن دفع لهم شيئًا من المال، وأطلق بعض الأسرى الفرنجة.

فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه، وكتب إلى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، والأمراء الذين معه، يقبّح لهم ما فعلوه، ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنجة ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح، وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام؛ ليتملك البلاد.

والأمراء الشاميون إنما صالحوا الفرنجة خوفًا منه، ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية، وخافوا منه أن يعبر إلى الشام،

فرأوا صلح الفرنجة أصلح من أن يجيء هذا من الغرب، وهذا من الشرق، وهم مشغولون عن ردهم[98].

وفي عام 570 للهجرة [1174م]، استقر الأمر في دمشق لصلاح الدين الذي وحد بلاد الشام ومصر تحت قيادته، من دون أن يخلو له الأمر من متاعب؛ بسبب من بقي من الأمراء الزنكيين، ومحاولات الإسماعيليين اغتياله.

هدم حصن مخاضة بيت الأحزان

وفي سنة 574 للهجرة [1178م]، في مدة مقام السلطان صلاح الدين على حصن بعلبك، واشتغاله به، انتهز الفرنجة الفرصة، فبنوا حصنًا على مخاضة بيت الأحزان، عند جسر [بنات] يعقوب اليوم، فراسل السلطان صلاح الدين الفرنجة في هدمه، فأجابوا أنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطيهم كلفة بنائه. فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار، فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار- كان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات؛ لقطع الطرقات على قوافل المسلمين-، فأشار عليه ابن أخيه وقائد جنده، تقي الدين عمر، ببذل هذا المال لجنود المسلمين الذين سيخرجون إلى الحصن ويهدموه، ففعل.

ويروي أبو شامة، نقلًا عن العماد الأصفهاني، أن صلاح الدين لما ودَّع أخاه ورجع، أغار في طريقه على بلاد الإفرنج، وقصد الحصن الذي بنوه، ورجع بالأسرى والغنائم، وخيّم السلطان بمروج الشَّعْراء في الجولان، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم

---

[98] المصدر السابق، 398

يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرّد فرسان الجِلاد والقهر، ويسيِّرُ قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت؛ حتى يحصدوا غلات العدو، ولا يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها؛ حتى خف زرع الكفار. ثم دخلت سنة 575 للهجرة [1179م]، والسلطان صلاح الدين نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية القادة على أن يقتحموا على الفرنجة ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد، ثم يرجعوا فيرحلوا صوب البقاع[99].

وأرسل صلاح الدين جماعة من عسكره مع جالبي الميرة، فلم تشعر إلا والفرنجة مع ملكهم قد خرجوا عليهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر، فسار في العساكر مجدًّا؛ حتى وافاهم في القتال، فقاتل الفرنجة قتالًا شديدًا، ودافع الصليبيون بشراسة في هجمات عدة، لكن النصر كان في النهاية حليف صلاح الدين الذي قتل منهم مقتلة كبيرة، ونجا ملكهم فريدًا، وأسر منهم كثير، منهم ابن البيرزان، صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنجة محلًا بعد الملك، وأسروا - أيضًا- أخا صاحب جبيل، وصاحب طبريا، ومقدم الداوية، ومقدم الأسبارتية، وصاحب جنين، وغيرهم من مشاهير فرسانهم، فأما ابن البيرزان، فإنه فدى نفسه بمئة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين.

ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة، وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن (مخاضة الأحزان) ومحاصرته، فسار إليه في ربيع الأول وأحاط به، وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبث العساكر في بلد الفرنجة؛ للإغارة ففعلوا

---

[99] أبو شامة، ج3، ص 26-27.

ذلك، وجمعوا من الأخشاب والزرجون شيئًا كثيرًا؛ ليجعله متارس للمجانيق، فقال له جاولي الأسدي، وهو مقدم الأسدية وأكابر الأمراء: الرأي أننا نجربهم بالزحف أول مرة، ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم، فإن استضعفناهم، وإلا فنصب المجانيق ما يفوت.

فقبل رأيه وأمر، فنودي بالزحف إليه، والجد في قتاله؛ فزحفوا واشتد القتال وعظم الأمر، فصعد رجل من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن، وقاتل على السور لما علاه، وتبعه غيره من أضرابه، ولحق بهم الجند، فملكوا الباشورة، فصعد الفرنجة حينئذ منها إلى أسوار الحصن، ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنجة قد جمعوا حشودًا في طبريا، فألح المسلمون في قتال الحصن؛ خوفًا من وصول الفرنجة وإزاحتهم عنه، وأدركهم الليل، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا فلما كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه، فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري، يكون الذراع ذراعًا ونصفًا، فانتظروه يومين ليسقط فلم يسقط، فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لستٍ بقين من ربيع الأول، ودخل المسلمون الحصن عنوة، وأسروا كلّ من فيه، وأطلقوا من كان فيه من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيرًا من أسرى الفرنجة، وأدخل الباقين إلى دمشق، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض[100].

---

[100] ابن الأثير، م9، ص 439-441.

معركة حطين

وفي سنة 583 للهجرة [1187م]، كانت موقعة حطين التي كانت مقدمة لفتح بيت المقدس، واستنقاذه من أيدي الصليبيين. ثم سار صلاح الدين إلى قلعة طبريا فأخذها، وقد كان الفرنجة الصليبيون يقاسمون بلاد حوران والبلقاء والجولان بالنصف، فأراحهم الله من تلك المقاسمة[101].

ويخبرنا بهاء الدين ابن شداد، صاحب «النوادر السلطانية»، أن السلطان صلاح الدين أقام في دمشق؛ حتى دخل في ربيع الأول سنة خمس وثمانين ثلاثة أيام. ووصله في أثناء ربيع الأول رسل الخليفة الناصر لدين الله، يأمره بالخطبة لولده ولي العهد، فخطب له وحرر عزمه على قصد شقيف أرنون، وهو موضع حصين قريب من بانياس، وكان تبريزه بعد صلاة الجمعة في الثالث، فسار حتى نزل في بريج الفلوس[102]، وأصبح يوم السبت راحلًا؛ حتى أتى مرج برغوث[103] وأقام به ينتظر العساكر، وأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها؛ حتى أتى مرج عيون. فخيم به، وهو قريب من شقيف أرنون، بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب، وكان وصوله بمرج عيون في سابع عشر ربيع الأول المذكور[104].

---

[101] ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 285.

[102] يرد خطأ باسم مرج فلوس، وهو خطأ من الناسخ الصحيح خان البريج البريد الأول في الطريق المتجه من دمشق إلى صفد، وموقعه الآن بلدة خان الشيح في منتصف المسافة تقريبًا بين دمشق وسعسع.

[103] مرج يقع إلى الشرق من خان أرينبة الذي كان البريد الثالث على طريق دمشق- صفد قبل بناء خان القنيطرة في القرن التاسع الهجري.

[104] بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية، ص181-182

الدولة الأيوبية

خلافات الورثة

لما توفي صلاح الدين في دمشق سنة 589 للهجرة [1193م]، كان معه بها ولده الأكبر، الأفضل نور الدين علي، وكان حلّف أمراء الجند جميعًا، أكثر من مرة في حياته، على الولاء لابنه، فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين، وتبنين، وجميع الأعمال إلى الداروم[105].

واستقرت الأمور في مصر للملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين. وفي حلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن صلاح الدين، وفي الكرك والشوبك والأقاليم الشرقية الملك العادل أبو بكر بن أيوب، شقيق صلاح الدين، وفي بصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين.

وقعت الخلافات بين أبناء صلاح الدين الذين لم يكونوا بقوة والدهم؛ فآلت الأمور إلى عمهم الملك العادل.

ففي سنة 591 للهجرة [1194م]، أعطى الملك الأفضل، صاحب دمشق، الجولان وبيسان وحصن كوكب لعز الدين جرديك النوري، بدلًا من القدس[106].

---

(105) ابن الأثير، م10، ص 120.

(106) المقريزي، السلوك، للمقريزي، ج1، م1، ص126.

وفي سنة 597 للهجرة [1200م]، توجه الأمير فخر الدين جركس لحصار بانياس، وأخذها من أميرها حسام الدين بشارة، بأمر من الملك العادل الذي كان قد استولى على مصر، وأخذها من حفيد أخيه صلاح الدين[107].

زلزال كبير

وفي السنة نفسها يخبرنا النويري، صاحب «نهاية الأرب»، بحدوث زلزال كبير، تهدمت فيه بانياس وهونين وتبنين. ويروي النويري تفاصيل الأضرار التي حدثت، فيقول: «خرج قوم من بعلبك يجمعون الريباس من جبل لبنان، فالتقى عليهم الجبلان، فماتوا بأسرهم. وتهدمت قلعة بعلبك - مع عظم حجارتها. وامتدت إلى حمص، وحماة، وحلب، والعواصم. وأُحصي من هلك في هذه السنة، بسبب هذا الزلزال، فكانوا ألف ألف إنسان، ومائة ألف. وكانت قوة الزلزال، في مبدأ الأمر، بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف. ثم دامت بعد ذلك أيامًا. حكى ذلك أبو المظفر يوسف سبط بن الجوزي في تاريخه «مرآة الزمان». وقد ذكرت زلزلة أيضًا في شعبان، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وذكر مما حدث بسببها نحو هذا. فالله أعلم: هل هي هذه، أو هما اثنتان؟» [108].

---

[107] ابن الأثير، م10، ص 172.

[108] النويري، نهاية الأرب للنويري، ج29، ص 28-30.

وفاة الملك العادل في الجولان

وفي سنة 614 للهجرة [1217م]، قدم الإفرنج من وراء البحر، وأوقعوا بالملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو نازل على بيسان، فانهزم منهم إلى خسفينَ في الجولان، فعاد الإفرنج إلى عكا، فأقاموا فيها أيامًا، وخرجوا إلى الطور [طابور] فحاصروه، وكان قد عمر فيه الملك المعظم ابن الملك العادل قلعة حصينة، غرم فيها مالًا وافرًا، فحاصروه مدة، فقتل فيه أمير من أمراء المسلمين، يعرف ببدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري، وقُتل كُند [كونت] من أكناد الفرنجة كبير مشهور فيهم، فتشاءموا بالمقام على الطور [طابور] ورجعوا إلى عكا واختلفوا هناك، فقال ملك الهنكر (الهنغار): الرأي أنا نمضي إلى دمشق ونحاصرها، فإذا أخذناها فقد ملكنا الشام. فقال الملك النوام الذي سمي بذلك؛ لأنه كان إذا نازل حصنًا نام عليه حتى يأخذه، أي إنه كان صبورًا على حصار القلاع، واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش؛ لأن أعلامه كانت الريش، فقال: نمضي إلى مصر؛ فإن العساكر مجتمعه عند العادل ومصر خالية، فأدى هذا الاختلاف إلى انصراف ملك الهنكر مغاضبًا إلى بلده، فتوجه باقي عساكرهم إلى دمياط، فوصلوها في أيام من صفر سنة 615 للهجرة [1218م]، والعادل نازل على خربة اللُصوص، عند عقبة فيق في الجولان، وقد وجه بعض عساكره إلى مصر، وكان ابنه الملك الأشرف موسى نازلًا على مجمع المروج بين سَلَمية وحمص، خوفًا من عادية تكون منهم من هذه الجهة، واتفق خروج ملك الروم، ابن قليج أرسلان، إلى نواحي حلب وأخذ منها ثلاثة حصون عظيمة، هي رعبان وتل باشر وبرج الرَصاص، كلها في ربيع الأول من السنة، وبلغ عسكره إلى حدود بُزاعة، وانتهى ذلك إلى الملك

الأشرف؛ فجاء فيمن انضم إليه من عساكر حلب، فاشتبك معه بين منبج وبُزاعة، فكسره وأسر أعيان عسكره، ولما استرجع الملك الأشرف هذه الحصون الثلاثة، رجع قاصدًا حلب، وفور وصوله إليها ورد عليه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بمنزلة «خربة اللصوص» قرب فيق في الجولان، في يوم الأحد، السابع من جمادى الأولى سنة 615 للهجرة [1218م]، فكتم ذلك ولم يظهره إلى أن نزل بظاهر حلب، وخرج الناس للعزاء ثلاثة أيام[109].

ويروي المقريزي في أحداث سنة 614 للهجرة [1217م]، أن العادل بعد أن وصل إلى بيسان؛ تجنبًا للقاء الفرنجة الذين برزوا له من عكا، وبعد أن تبعه هؤلاء إلى بيسان، لم يطق لقاءهم، لقلة من معه، فاندفع من بين أيديهم على عقبة فيق، وكتب بتحصين دمشق، ونقل الغلات من داريا إلى القلعة، فزحف الفرنجة على بانياس، وبذلوا في أهلها السيف، ونازلوها ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا[110].

ويذكر ابن كثير في أحداث السنة نفسها أن الفرنجة عندما وردوا إلى بيسان، نهبوا ما كان فيها من الغلات والدواب، وفتكوا وأسروا أشياء كثيرة، وعاثوا في الأرض فسادًا، يقتلون وينهبون ويسبون، ما بين بيسان إلى بانياس، وخرجوا إلى أراضي الجولان، إلى نوى وخسفين وغير ذلك من الأراضي[111].

[109] ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص605-606.

[110] المقريزي، ج1، م1، ص 186-187.

[111] ابن كثير، ج13، ص 66.

العزيز عثمان ملك الجولان وباني الصبيبة

وبعد وفاة الملك العادل، أبو بكر بن أيوب، في خربة اللصوص في الجولان سنة 615 للهجرة، كما يذكر ياقوت الحموي، استقر أمر الجولان بيد ولده، الملك العزيز عثمان الذي استقر في بانياس، وكانت له حصون تبنين وهونين وأعمال ذلك، وأماكن عدة من بلد دمشق، مثل خسفين في الجولان ونوى وغيرها، وكان في خدمة أخيه الملك المعظم صاحب دمشق.

وفي رواية النويري: لما آلت الأمور -بعد وفاة الملك العادل- إلى ابنه الملك المعظم، أقرّ أحوال دمشق، على ماهي عليه في أيام والده، بقية جمادى الآخرة. فلما استهل شهر رجب، أعاد المكوس وأطلق الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان إلا أن أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنجة.

ثم سار إلى بانياس، وراسل الأمير صارم الدين التبيني في تسليم الحصون التي بيده، فأجاب إلى ذلك، وسلمها، فأخرب الملك المعظم بانياس وتبنين. وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جهاركس لأخيه الملك العزيز عثمان، وزوجه ابنة جهاركس. ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون، فأكرمهم الملك المعظم وأحسن إليهم، وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفاً من استيلاء الفرنجة عليها[112].

---

[112] النويري، ج29، ص 84-86.

عقبة فيق نقطة الحدود

وفي سنة 625 للهجرة [1228 م]، وبعد نزاعات على المُلْك، اتفق الملك الأشرف والملك الكامل، ابنا الملك العادل، على انتزاع دمشق من ابن أخيهما، الناصر داود، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون، وهو الفتح الصلاحي[113].

ففارق الناصر داود نابلس، لما بلغه اتفاق الأشرف مع الكامل عليه، وعاد إلى دمشق، فبلغ الأشرف، وهو بتل العجول قرب غزة ذلك، فسار ليدركه، فوافاه بقصير ابن معين الدين في غور الجولان، تحت عقبة فيق[114].

وفي سنة 630 للهجرة [1223م]، كانت وفاة الملك العزيز فخر الدين عثمان بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان صاحب بانياس وتبنين وهونين والحصون، وهو الذي بنى قلعة الصبيبة[115].

وفي أحداث سنة 650 للهجرة [1252م]، وبعد أن انتهت السلالة الأيوبية في مصر بمقتل الملك المعظم تورانشاه، وتسلم الملك المعز أيبك الحكم تسّلمًا تامًا، يخبرنا المقريزي أن الخليفة العباسي أرسل من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد أبي الحسن بن أبي سعد البدرائي رسولًا؛ للإصلاح بين الملك المعز أيبك التركماني الصالحي، أول ملوك المماليك البحرية، والملك الناصر يوسف صاحب دمشق. فتلقاه القاضي بدر الدين الخضر بن الحسن السنجاري في قطيا، ومعه جماعة، وتحدث معه في ذلك؛ فأراد الناصر أن تقام له الخطبة بديار مصر،

---

(113) المقريزي، ص 227.

(114) المصدر السابق، الصفحة 229.

(115) النويري، ج29، ص 190.

فلم يرض الملك المعز، وزاد بأن طلب أن يكون بيده مع مصر من غزة إلى عقبة فيق[116].

وصف الجولان أيام حروب الفرنجة

على الرغم من أن الجولان تحول إلى ثغر من ثغور مقاومة الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الرحالة من زيارته، وكتابة مشاهداتهم التي تصف جوانب من الحياة البرية والاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الأيام.

ويقدم لنا الأمير والديبلوماسي العربي المعروف، أسامة بن منقذ، الذي أدرك صلاح الدين وهو في الثمانين من عمره في كتابه «الاعتبار»، روايات طريفة وممتعة عن قصص الصيد التي يروي في إحداها خروجه لصيد اليحامير والطيور والغزلان في غابات الجولان؛ برفقة شهاب الدين محمود بن تاج الملوك.

ونستخلص من نص أسامة بن منقذ معلومات نادرة عن الحياة البرية في غابة الجولان، التي كانت تسمى الشّعْراء، حيث كانت تعيش فيها قطعان الغزلان وحمر الوحش والطيور والوحوش والحيوانات المتسلقة، كالسناجب وغيرها.

وفي هذا الكتاب يروي لنا أسامة بن منقذ قصة تعدي الصليبيين على قطعان أهل الجولان، عندما كانت قلعة الصبيبة وبانياس تحت احتلالهم. ويقول: إنه حاكمهم مرة على قطعان غنم، أخذها أمير بانياس الصليبي من أراضي الشعْراءْ، في إحدى مراحل الصلح بين المسلمين والصليبيين.

---

[116] المقريزي، ج1، م2، ص 382-383.

ويذكر أسامة بن منقذ أنه قال للملك فلك بن فلك: «هذا تعدٍ علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها، وردها علينا بعد أن أتلفها. فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: قوموا واعملوا له حكمًا. فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا؛ حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلس الملك، فقالوا: قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم. فأمر الملك بالغرامة».

ويقول أسامة بن منقذ: إن صاحب بانياس الصليبي توسل إليه، وثقّل عليه وسأله؛ حتى نجح في تخفيض الغرامة إلى أربعمئة دينار. و«هذا الحكم بعد أن يعقده الفرسان، ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغّيره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم».

وفي موضع آخر من الكتاب، يروي قصة طريفة حدثت لعسكر الإفرنج في بانياس، حيث ضربوا خيمة كبيرة، جعلوها كنيسة يصلون فيها، يتولى خدمتها شماس منهم، «وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش فكثرت البراغيث، فوقع لذلك الشماس أن يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث. فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة، فتركتها رمادًا».

وفي القرن السادس الهجري يزور أبو الحسن الهروي المتوفى سنة 611 هجرية [1214 ميلادية] جنوبي الجولان ، ويقدم لنا وصفًا للحمة التي يميز بينها وبين حمام طبريا.

وفي كتاب «الإشارات» الذي عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل – طومين، وصدر في دمشق عام 1953 عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية، يذكر الهروي

أسماء المزارات التي تقع في الطريق بين طبريا وبانياس، وهي «قصر يعقوب وبيت الأحزان وجب يوسف»، وعند حديثه عن «حمام طبريا» يفند الهروي الالتباسات التي لحقت بهذا الحمام جميعها؛ إذ اختلط لدى كثيرين مع الحمة التي تقع في الجولان، ويوضح الهروي ذلك بصريح العبارة «حمام طبريا التي يقال إنها من عجائب الدنيا، ليست هذه التي على باب طبريا على جانب بحيرتها، فإن مثل هذه كثيرًا رأينا في الدنيا». أما المكان المقصود، «فهو موضع من أعمال طبريا تمر في قرية يقال لها الحسينية في واد، وهو عمارة قديمة». ويصف الهروي المكان، ويذكر عدد الينابيع التي تنتشر فيه، ووصفه لا يختلف كثيرًا عن ينابيع الحمة، كما نعرفها اليوم: «وهذا الموضع يقصده أصحاب الأمراض والعاهات والزمنى والرياح، فيغتسلون فيه، وعيونه تصب في موضع كبير حسن، يسبح الناس فيه ومنتفعته ظاهرة».

وتقدم لنا رحلة ابن جبير المتوفى سنة 614 هجرية [1217 ميلادية]، وصفًا نادرًا لمدينة بانياس و«محرثها»، سهل الحولة، قل أن نقرأ مثله في ذلك العصر المشغول بأخبار الحروب مع الفرنجة الصليبيين.

إن أكثر ما يلفت النظر في وصف ابن جبير لمدينة بانياس «الصغيرة»، إشارته إلى وجود سور يحيط بها، وذكره لوجود أبواب كثيرة لها، أحدها ذلك الذي يصل إليه النهر الملتف حول حصن المدينة، ولعل أكثر الإشارات الأخرى أهمية في حديث ابن جبير عن بانياس، هي وجود حصن داخل سور المدينة، مازالت آثاره موجودة حتى اليوم، وهو غير قلعة الصبيبة التي تشرف عليها، وكثيرًا ما خلط

الباحثون والجغرافيون بين حصن مدينة بانياس، وحصن الصبيبة؛ حتى ليخال المرء أنهما شيء واحد.

ويذكر ابن جبير أن الأراضي الزراعية التابعة لمدينة بانياس شاسعة، تصل إلى حصن هونين. وتفيدنا رحلة ابن جبير في تحديد الطريق الشمالية التي تربط دمشق بعكا على الساحل الفلسطيني الشمالي عبر الجولان، وهي غير الطريق التي تمر عبر سعسع، فالقنيطرة فجسر يعقوب.

تبدأ رحلة ابن جبير إلى الجولان من قرية داريا المجاورة لدمشق، ثم بعد مسير يوم كامل بين الجبال يصل إلى قرية بيت جن، ويتابع طريقه الجبلية إلى بانياس، فتصادفه في منتصف الطريق «شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح»، يخبره أهل المنطقة أنها تُعرف بشجرة الميزان. وفي شرح ذلك يقول: «هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع». ثم يصف مدينة بانياس بأنها «ثغر بلاد المسلمين، وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة، وله مصب تحت أرحاء (طواحين)، وكانت بيد الإفرنج، فاسترجعها نور الدين رحمه الله».

بعد ذلك يتحدث ابن جبير عن سهل الحولة من دون أن يسميه، ويقول: إن لبانياس «محرث واسع في بطحاء متصلة، يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ».

ثم يحدثنا ابن جبير عن طبيعة الحياة في هذا «الثغر الإسلامي»، إذ تسود اتفاقات محترمة من الجانبين، تسمى حدود المقاسمة، «فهم يتشاطرون الغلة على

استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها»، ثم يتابع رحلته إلى عكا، حيث يسافر في البحر عائدًا إلى بلاده.

ويحفل معجم ياقوت الحموي، المتوفى سنة 626 هجرية [1229 ميلادية]، بمعلومات قيّمة عن كثير من المدن والقرى الواقعة في الجولان، من الواضح أنه استمد معظمها من مراجع الذين سبقوه، مؤرخين وأدباء.

في «معجم البلدان» يذكر ياقوت كثيرًا من المواضع والمدن الجولانية القديمة التي حاولنا الإحاطة بها قدر الإمكان، ومن الأماكن التي يعددها ياقوت في معجمه «الأردن»، بوصفه اسم منطقة تضم الأجزاء الجنوبية من الجولان، واسم نهر بعض منابعه في الجولان، ويذكر وقائع فتح «جند الأردن»، نقلها عن مؤرخي فتوح البلدان.

وعن مدينة أفِيق يذكر ياقوت أنها «قرية من حوران في طريق الغور، في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق، والعامة تقول فيق، تنزل في هذه العقبة إلى الغور، وهو الأردُن، وهي عقبة طويلة نحو ميلين».

والغريب أن الحموي لا يذكر شيئًا عن مدينة بانياس، بل يعرّف بأحد الأماكن التابعة لها، ويسمى «الأكَوَاخُ»، أو «أكواخ بانياس» التي سكنها بعض الزهّاد ورواة الحديث.

ويذكر أن «الجَابيَةُ» قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدوُر من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمالي حوران.

ومن الأماكن التي يرصدها ياقوت في معجمه «جَبَا البِرَاقِ» التي تسمى اليوم جبا، وتقع شرق مدينة القنيطرة.

وحول موقع الكرسيّ المقدس عند المسيحيين، يقول إنه قرية في طبريا [على شاطئها الشرقي] يقال: إن المسيح جمع الحواريين فيها، وأنفذهم منها إلى النواحي، وفيها موضع كرسي، زعموا أنه جلس عليه عليه السلام.

وينقل ياقوت المعلومات المتعلقة بالجولان عن سابقيه، فلا يضيء مظلمًا، ولا يضيف جديدًا.

والأمر نفسه ينطبق على كلامه المتعلق بصيداء وحارب. وفي حديثه عن مدينة دمياط المصرية يذكر «خربة اللصوص» و«خسفين» الواقعتين في جنوب الجولان. ويفيد ياقوت بأن وفاة الملك العادل كانت بخربة اللصوص، وهي منزلة تقع بعد عقبة أفيق، ويذكر شيئًا عن «دير فيق» منقولًا عن الشابشتي، لكنه يقول: إنه كان عامرًا بالرهبان في زمنه، أي القرن السابع الهجري، وتعريفًا مبهمًا لسوسية، دون أن يحدد موقعها بالضبط، و«الصمّان» و«عقرباء» و«كفر عاقب» و«الوَاقُوصَةُ». وعمومًا لا جديد في معلومات ياقوت عن هذه المواضع التي يبدو أنه لم يعرف كثيرًا منها، واكتفى بالنقل عن مراجع الذين سبقوه(117).

وعلى الرغم من قلة المعطيات، فإن استخلاصات كثيرة، يمكن الخروج بها من النصوص السابقة.

(117) تيسير خلف، صورة الجولان، ص 53-58.

التقسيمات الإدارية والطرق

يبدو أن عصر الأجناد قد ولى إلى الأبد مع دخول الفرنجة إلى البلاد، وبات الحديث عن الجولان -كلًا واحدًا- يقع مركزه في بانياس.

ونلمح للمرة الأولى حديثًا عن ولاية الشعراء التي تضم القطاعين الأوسط والشمالي من الجولان في التقسيمات الحالية، وذلك في إشارة أسامة بن منقذ إبان الدولة الأتابكية. أما الجزء الجنوبي، فيبدو أنه احتفظ باسم عمل الجولان، وقد ظهر اسم عمل الجيدور، بوصفه عملًا تابعًا لناحية الجولان. أما عمل الحولة، فكانت مدينته بانياس.

ومن جملة المعطيات السابقة؛ نستنتج أن فيق كانت نقطة الحدود بين المملكتين: الشامية والمصرية، حيث برزت فيق نقطة حدود أيام خلافات أبناء الملك العادل على تقاسم مملكة أبيهم، ويبدو أن هذا الحد استمر حتى عهد أول سلاطين المماليك البحرية، عز الدين أيبك.

أما طرق المواصلات، فالواضح أن طريقًا واحدة كانت تستخدم، هي الطريق الشمالية التي سلكها ابن جبير. والتي حدد محطاتها كالآتي:

* دمشق-داريا- بيت جن- بانياس- المسية- تبنين- ضيعة من ضياع عكا- عكا.

ومع انعدام الإشارات للطريق الجنوبية التي تربط الجولان بفلسطين عن طريق فيق، نستنتج أن هذه الطريق تعطلت؛ بسبب الاحتلال الصليبي. ولأن المسافة التي يقطعها المسافر تمر في بلاد تحت سيطرة عدة إمارات إفرنجية، بينما الطريق الشمالية أقصر، ولا تعقيدات كثيرة فيها.

ولاة بانياس

ويزودنا ابن شداد بجدول حول ولاة بانياس، منذ الدولة الأتابكية؛ وحتى عهد الظاهر بيبرس. ولكن هذه القائمة تظل ناقصة؛ لأنها لا تضم الأسماء التي ترد في متون بعض الأخبار التي سنثبتها في الجدول التالي. ويلاحَظ أن ابن شداد يخلط بين قلعة بانياس وقلعة الصبيبة، والسبب أنه لم يزر المكان ليدرك خطأ خلطه هذا.

ولاة بانياس وحكامها

الرقم	اسم الحاكم	الدعاء في المسجد	مدة الحكم
1-	المعلى بن حيدرة	للفاطميين	من 1075إلى 1079 م
2-	انتصار المصمودي	للفاطميين	من 1079
3-	ينال التاجي	للعباسيين	من 1107 إلى 1112م
4-	سيف الدين مسعود	للعباسيين	من 1112 إلى 1126م
5-	تاج الملوك بوري	للعباسيين	حتى 1126 م
6-	بهرام الأسد أبادي	إسماعيلي	1126 م
7-	إسماعيل	إسماعيلي	1128 م
8-	رينار بروس	صليبي	1129إلى 1136 م
9-	إبراهيم بن طغرت	للعباسيين	1136إلى 1148 م
10-	رينار بروس	صليبي	1148 م

-11	هومفري	صليبي	حتى 1157 م
-12	نور الدين الشهيد	للعباسيين	حتى 1173 م
-13	إسماعيل بن نور الدين	للعباسيين	حتى 1174 م
-14	الأفضل بن صلاح الدين	للعباسيين	1194 م
-15	عز الدين جرديك	للعباسيين	من 1194 حتى 1200 م
-16	حسام الدين بشارة	للعباسيين	من عام 1200 م
-17	فخر الدين جركس	للعباسيين	من عام 1200 حتى 1211م
-18	ابن فخر الدين جركس	للعباسيين	حتى عام 1218 م
-19	العزيز عثمان بن العادل	للعباسيين	من 1218 حتى 1223 م
-20	الظاهر بن عثمان	للعباسيين	1223 م
-21	السعيد بن عثمان	للعباسيين	من 1224إلى 1246 م

التركيبة السكانية

تكونت التركيبة السكانية للجولان في زمن حروب الفرنجة من العناصر الآتية:

1- فلاحو الضياع، وهؤلاء هم الذين يعيشون في القرى، ولا يمارسون سوى الزراعة، وهم من العرب.

2- العرب الفلاحون، أي أنصاف البدو الذي استقرت بهم الأمور في رعي المواشي وزراعة بعض المحاصيل.

3- التركمان، وهؤلاء استقروا في الجولان منذ أيام السلاجقة كما يبدو، وكانت مهنتهم تربية الخيول ورعي الماشية، وهي غالبًا أغنام.

ولا توجد لدينا معطيات كافية حول الوضع الديني، وإن كانت إشارة ياقوت الحموي إلى استمرار دير فيق على ما هو عليه، تدل على وجود مسيحيين، في الجولان في ذلك الزمن، إضافة إلى تمركز الإسماعيليين -سنوات قليلة- في بانياس، وتركز دعوتهم في شمالي الجولان. وثمة إشارة من ابن القلانسي إلى وجود نصيرية ودروز في وادي التيم الذي يتصل بأراضي شمالي الجولان.

الزراعة وتربية الماشية

يذكر أسامة بن منقذ أن غابة الجولان التي تسمى الشعراء كانت تؤوي حيوانات متوحشة، مثل السناجب واليحامير والغزلان. ومن الطبيعي، والحال كذلك، ألا تكون صالحة للزراعة، وهذا يعني أن مساحات واسعة من الجولان، تقدر بثلثي مساحته، إذا أخذنا في الحسبان مساحة الشعراء، كانت خارج الاستثمار الزراعي، ولذلك؛ هي أماكن للرعي.

أما جنوبي الجولان، فكان يزرع الحبوب التي كان الفرنج يقاسمون أهلها أو يقومون بنهب الغلال. ومنطقة بانياس بما فيها الحولة، كانت أراضيَ زراعية ممتازة، امتدحها ابن جبير.

ومن خلال الإشارات التي بين أيدينا، نستطيع أن نقول: إن مساحات واسعة من أرض الجولان كانت تستغل للرعي، وذلك؛ من خلال إشارة ابن القلانسي الذي ذكر أنواع الرعي التي كانت سائدة في الجولان، وهي:

1- جشارات خيول الجند والرعية، وهي مراعٍ خاصة، كانت تشرف عليها الدولة. وهي مراعٍ محددة في أماكن معينة.

2- عوامل [ثيران] فلاحي الضياع، وهي الثيران المعدة للفلاحة.

3- مواشي الجلابين، وهي المواشي التي يجلبها أصحابها من مناطق أخرى؛ للرعي في مراعي الجولان، وأغلبها الأغنام.

4- مواشي العرب الفلاحين، وهي للرعاة الجولانيين، وأغلبها من الأبقار.

الحياة العمرانية

تزودنا الأدبيات العربية خلال مدة حروب الفرنجة بمعطيات مهمة حول البنية والمنشآت العمرانية التي تم بناؤها وهي الآتي:

* مدينة بانياس وحصنها: لا توجد إشارات قبل ابن القلانسي، تتحدث عن وجود قلعة داخل مدينة بانياس، وعليه؛ فالمرجح أن بانيها هو الوزير المعلى بن حيدرة، الذي يذكر ابن القلانسي صراحة أنه بنى الحمام الذي ما تزال آثاره موجودة حتى اليوم، وعمائر أخرى لا يسميها، ولعل القلعة إحداها، إذ يرد ذكر القلعة مع خروج المعلى من بانياس وتسلم انتصار بن يحيى المصمودي لها. ويبدو أن القلعة تعرضت للتهديم قبل تسلمها من بهرام داعي الإسماعيلية، حيث رمم ما تهدم من حصنها، وقوى دفاعاتها.

وبحسب المصادر الغربية، فإن الصليبيين أضافوا -خلال احتلالهم بانياس- أبنية جديدة للحصن وتقوية السور، وربما بنوا كنيسة، إذ أشار أسامة بن منقذ عندما زارهم بأنهم بنوا كنيسة موقتة.

وعندما استعاد نور الدين بانياس من الفرنجة رمم القلعة والسور، حسبما يرد في أحد النقوش الموجودة في المبنى المتبقي من قلعة بانياس، وتوجد كتابات أخرى باسم الملك العزيز عثمان، نجل الملك العادل.

* **قلعة الصبيبة:** يسميها العامة اعتباطاً قلعة النمرود، وقد ورد أول ذكر لها في ترجمة العزيز عثمان ابن الملك العادل، حيث ورد أنه هو باني الصبيبة. وهو ما تؤكده الكتابات المنقوشة في الصخر الموجودة في القلعة.

وتُعدّ هذه القلعة العظيمة واحدة من أهم منجزات فن بناء الحصون في العصور الوسطى، ولم يدخل الصليبيون هذه القلعة قط، على الرغم من محاولات بعضهم الخلط المتعمد بينها وبين قلعة بانياس.

هدمت قلعة الصبيبة على يد المغول، بقيادة كتبغا، وأعاد بناءها الظاهر بيبرس، مثلما سنرى.

- **قصر الخربة (خربة اللصوص):** قد يكون هذا القصر، الذي يرد أن الملك العادل قد توفي فيه، هو نفسه قصر حارب المنسوب إلى الملك الغساني، النعمان بن عمرو بن المنذر، إذ تفيد كلمة خربة المعنى نفسه الذي لكلمة حارب باللغة السريانية. أما موقع هذا القصر، بعد عقبة أفيق للقادم من طبريا، فإنه يزيد تأكيد ذلك؛ لقربه من قرية كفر حارب.

وفي جنوب فيق -الآن- قصر مخرب، يدعى قصر العلية، تتوفر فيه مواصفات قصر خربة اللصوص جميعها، ويبدو أن الملك العادل كان قد أعاد تأهيله، وظل قصرًا ملكيًا مستخدمًا طوال عصر المماليك.

- **قصر البردويل:** قد تكون البقايا الموجودة في موقع قصر البردويل قرب العال، هي الحصن الصغير الذي بناه الصليبيون في غفلة من قوات المسلمين شرق طبريا، ولكن ظهير الدين طغتكين هدمه قبل الانتهاء من بنائه. أما حصن علعال الذي يظن كثيرون أنه يخص الجولان، ومنهم الدكتور شاكر مصطفى، فهذا خطأ؛ لأن حصن علعال موجود في جبال عجلون في شرقي الأردن. ولا علاقة له بقرية العال في الجولان.

- **جسر الرقاد الجنوبي ورباط خسفين:** تشير سيرة قايماز النجمي، الذي كان يدير شؤون صلاح الدين، بأنه بنى القنطرة التي تصل نوى بخسفين، وهي ما يعرف -الآن- بجسر الرقاد الجنوبي، وبنى رباطًا (خانًا) في خسفين للمسافرين.

الفصل السابع
الجولان تحت حكم المماليك

عام الخراب

في سنة 657 للهجرة [1259م]، احتل هولاكو قلعة حران وسائر تلك النواحي، وعزم على أخذ حلب التي كانت تحت حكم الناصر يوسف؛ فتفرقت العساكر، وبقي الناصر في طائفة من الأمراء، ونزل هولاكو على البيرة (شرق حلب) وأخذ قلعتها، وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز عثمان بن العادل، وله بها تسع سنين في الاعتقال، وولاه الصبيبة وبانياس، ونزل على حلب[118].

وفي المحرم من سنة 658 هجرية [1260م]، نزل هولاكو على مدينة حلب، وراسل متوليها، الملك المعظم تورانشاه، ابن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه، وأبى إلا محاربته.

فحصرها التتار سبعة أيام، وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقًا كثيرًا، وأسروا النساء والذرية، ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام، استباحوا فيها دماء الخلق؛ حتى امتلأت الطرقات من القتلى.

---

[118] المصدر السابق، ص 420.

وجمع الزين الحافظي، من أهل دمشق، أموالًا جزيلة، واشترى بها ثيابًا، وقدمها لكتبغا نائب هولاكو، ولبيدرا وسائر الأمراء والمقدمين من التتر، وواصل حمل الضيافات إليهم كل يوم، ثم خرج كتبغا وبيدرا إلى مرج برغوث في الجولان.

ووصل الملك الأشرف، صاحب حمص، من عند هولاكو، وبيده مرسوم أن يكون نائب السلطة بدمشق والشام، فامتثل ذلك كتبغا، وصارت الدواوين وغيرها تحضر إلى الأشرف.

ثم بعد أيام سار الأمير بدر الدين محمد بن قرمجاه إلى قلعة دمشق، هو والأمير جمال الدين بن الصيرفي، وأغلقا أبوابها.

فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار، وحصروا القلعة في ليلة السادس من ربيع الآخر.

وبحسب رواية المقريزي، بعث الله مطرًا وبردًا مع ريح شديدة ورعود وبروق، وزلزلة سقط منها عدة أماكن، وبات الناس بين خوف أرضي وخوف عال، فلم ينالوا من القلعة شيئًا، واستمر الحصار عليها بالمجانيق، وكانت تزيد على عشرين منجنيقًا، إلى ثاني عشري جمادى الأولى.

عند ذلك اشتد الرمي، وخرب من القلعة مواضع، فطلب من فيها الأمان، ودخلها التتر فنهبوا سائر ما كان فيها، وحرقوا مواضع كثيرة، وهدموا من أبراجها عدة، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد.

وساروا إلى بعلبك، فخربوا قلعتها، وسارت طائفة منهم إلى غزة، وخربوا بانياس، وأسعروا البلاد خرابًا، وملؤوها قتلًا ونهبًا[119].

معركة عين جالوت

وانهزم التتار في معركة عين جالوت، وقُتل كتبغا، وأُسر الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب قلعة الصبيبة وبانياس، الذي كان يقاتل معهم، وضربت عنقه[120].

وكان نائب السلطنة بالأعمال البعلبكية، الأمير ناصر الدين محمد البتيني، فعندما بلغ أهل البلد منازلة التتر لحلب، سألوه المقام عندهم والذب عنهم وتدبير أمورهم، فأجابهم، وأصعد إلى القلعة شيئًا كثيرًا، فلما بلغه أخذ حلب، وتوجه التتار إلى الملك الناصر بدمشق، رجع عن الصعود إلى القلعة، وسافر إلى جهة بانياس والصبيبة، وكانت تحت نظره وولايته[121].

---

[119] المصدر السابق، ص 422-426.

[120] المصدر السابق، ص 441.

[121] اليونيني، ج1، ص 352.

فأر عظيم

وفي هذه السنة خرج على الغلال بأرض حوران وأعمالها، والجولان وأعمالها، فأر عظيم أكل الغلال، فكان الذي أكله ثلاثمئة ألف غرارة قمح، غير الشعير، وبيعت الحنطة في هذه السنة المكوك منها بأربعمئة درهم، واستأصل الفرنجة أموال المسلمين في ثمن الغلال[122].

لقد فرط أبناء الملك العادل، أبي بكر بن أيوب، وأحفاده بمعظم ما حققه عمهم صلاح الدين، وبدا أن همهم الأول والأخير المحافظة على ممالكهم، وليس طرد الصليبيين، فبدؤوا بعقد الصفقات المريبة، ووقف بعضهم مع الأعداء ضد الأخوة وأبناء العم، وكأن الأمور عادت إلى سيرتها الأولى في السنوات الخمسين الأولى من الحروب مع الغزاة الصليبيين، فكان لابد من ظهور قائد جديد من ضمن الأرستقراطية العسكرية المتشكلة في مصر، أي: «طبقة المماليك» التي أخذت مشروعيتها من دحرها لقوات التتار الغازية، وطردها لبقايا الصليبيين طردًا نهائيًا عن بلادنا. وكان خير من يمثل هذه «الأرستقراطية» العسكرية الفذة، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بن عبد الله البندقداري.

---

(122) العيني، عقد الجمان، م1، ص277.

الملك الظاهر بيبرس

يلخص لنا بدر الدين العيني صورة الأوضاع المأسوية التي كانت تعيشها دول المشرق العربي في بداية تسلم الظاهر بيبرس مقاليد السلطة، فيقول: استهلت هذه السنة سنة 659 للهجرة [1260م]، وأولها يوم الإثنين لأيام خلون من كانون الأول، وليس للمسلمين خليفة، وبغداد خراب وبلادها غير آمنة تحت ظلم وجور من التتار، طائفة جنكزخان.

وسلطان الديار المصرية والشامية الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، وشريكه في دمشق وبعلبك والصبيبة وبانياس الأمير علم الدين سنجر الحلبي الملقب بالملك المجاهد[123].

معركة بين الفرنجة والتركمان

ويذكر العيني من جملة أحداث السنة أن معركة وقعت بين الفرنج وإحدى فرق التركمان ببلاد الجولان، وكان التركمان قد أووا إلى بلد الساحل، جافلين من التتار، وانتقلوا إلى بلد الجولان فأقاموا بها، وكانت صفد بيد الفرنج؛ فقصدوا الإغارة على التركمان، وتبييتهم على غرَّةٍ منهم، فشعروا بما أراده الفرنج، فتأهبوا لهم وتيقظوا، فلما جاؤوا إليهم كسروا الفرنج كسرة شديدة، وأسروا من كنودهم جماعة، فبذلوا لهم مالًا يشترون به نفوسهم، ويفدون به رؤوسهم، فقبلوه منهم، وخلوا عنهم، ولم يطلعوا على ذلك أحدًا من النواب السلطانية؛ ظنًا منهم أن الأمر

(123) المصدر السابق، ص 287.

يخفى ولا يظهر، فأطلع السلطان بيبرس على ذلك، وعلم التركمان بذلك، فخافوا غائلة إيقاعه، فرحلوا من البلاد، وتوجهوا إلى الروم(124).

وفي سنة 663 للهجرة [1264م]، قدمت منجنيقات من قلعة الصبيبة؛ لدعم حصار قلعة قيسارية الصليبية التي هدمها الملك الظاهر بيبرس بيديه(125).

ويروي لنا المقريزي من أحداث سنة 665 للهجرة [1266]، أن فرنجة صور قتلوا أحد مقدمي رجال قلعة الصبيبة في الجولان، يسمى السابق شاهين، فقرر الظاهر بيبرس عليهم ديته خمسة عشر ألف دينار صورية، وسألوا الصلح، فأجابهم، وكتبت هدنة لمدة عشر سنين لصور وبلادها، وهي تسعة وتسعون قرية، وقررت الهدنة مع بيت الأسبتار على حصن الأكراد والمرقب(126).

ترميم الصبيبة

وفي هذه السنة أمر الظاهر بيبرس بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهي قلعة دمشق وقلعة الصلت وقلعة عجلون وقلعة صرخد وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة الصبيبة في الجولان وقلعة حمص(127).

وفي ثالث عشر شوال استدعى الملك الظاهر أولاد بدر الدين، صاحب الموصل، وعرفهم مكانة الأمير بدر الدين الخازندار عنده ومحله منه، وطلب منهم

(124) المصدر السابق، ص 318.

(125) المقريزي، ج1، م2، ص 527-528.

(126) العيني، م2، ص 7-8-9.

(127) المقريزي، ج1، م2، ص 446.

أن يزوجوه بأختهم، فبذلوا جهد الاستطاعة في السمع والطاعة، فعقد عقده وملّكه بانياس والصبيبة في الجولان بعقد البيع الشرعي، وجعل ذلك مكافأة لخدمته له ومصابرته معه في حالتي الشدة والرخاء، وذكر هذه الأمور بمحضر من أكابر دولته يوم العقد[128].

خربة اللصوص

وفي سنة 667 للهجرة [1268م]، خرج السلطان الظاهر بيبرس من دمشق، وودع الأمراء كلهم وسيرهم إلى مصر، ولم يتأخر عنده من الأمراء الكبار سوى الأمير الأتابك والمحمدي والأيدمري وابن أطلس خان وأقوش الرومي.

فسار بهم إلى قلعة الصبيبة، ثم إلى الشقيف وصفد، وكتب بحضور الأثقال إلى «خربة اللصوص» قرب عقبة فيق في الجولان من أرسوف، فأحضرها الأمير آقسنقر الفارقاني الأستادار وقدم السلطان إليها، فأقام بها أيامًا.

وخطر للسلطان أن يتوجه إلى ديار مصر خفية، فكتم ذلك، وكتب إلى النواب بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته، ورتب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه وتخرج علائم على بياض تكتب عليها الأجوبة.

فلما كان في رابع عشره، أظهر السلطان أنه تشوش في بدنه، واستدعى الحكماء، ووقع احتفال في الظاهر بتوعكه، وأصبح الأمراء، فدخلوا عليه وشاهدوه مجتمعًا على هيئة متألم، وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة. وتقدم السلطان إلى

[128] اليونيني، ج1، ص 452-453.

الأمير بدر الدين الأيدمري والأمير سيف الدين بكتوت جرمك الناصري بالتوجه إلى حلب على خيل البريد وصحبتهما بريدي، فتوجهوا إليه السبت سادس عشره، و كان السلطان قد أوصاهم إنهم إذا ركبوا يأتون خلف الدهليز؛ حتى يتحدث معهم مشافهة، وجهز السلطان الأمير آقسنقر الساقي على البريد إلى مصر، وأعطاه تركاشه (جعبته) وأمره أن يقف خلف خيمة الجمدارية (الحرس السلطاني) من وراء الدهليز، فوقف حيث أمر، ولبس السلطان جوخة مقطعة وتعتم بشاش دخاني عتيق، وقصد أن يخرج به الحراس، فوجد قماش نوم لبعض المماليك، فاستدعى خادمًا من خواصه وقال: أنا خارج بهذا القماش احمله وامش قدامي، فإن سألك أحد فقل هذا معه قماش بعض الصبيان، حصل له مرض ولا يستطيع حضور الخدمة الليلة، وخارج إليه بقماشه. فخرج السلطان بهذه الليلة ولم يفطن به أحد، وكان قد أسرّ إلى الأمير شمس الدين الفارقاني أنه يغيب مدة أيام.

ولما خرج السلطان من الدهليز مشى إلى الجهة التي واعد آقسنقر الساقي إليها، وكان قبل ذلك قد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل، سيرها مع الأمير بهاء الدين أمير أخور (أي أمير الاصطبلات) وأمره أن يقف بها في مكان، فأخذ أقسنقر الخيل وسير بهاء الدين أمير آخور إلى التل، فوجد الأيدمري ورفقته، فصار إليهم السلطان واختلط بهم في السوق، وهم لا يعرفونه، فلما طال سوقهم قال السلطان للأيدمري: تعرفني فقال: إي والله، وأراد أن ينزل عن فرسه ليقبل الأرض؛ فمنعه[129].

---

[129] المصدر السابق، ص 574-575.

مرج برغوث

وفي سنة 668 للهجرة [1269م]، توجه السلطان الظاهر بيبرس جريدة إلى الشام، وكان الفرنج بعكا اعتمدوا أشياء لا يصبر عليها، منها أن أربعة من مماليك السلطان هربوا ودخلوا عكا، فلما طلبهم منهم، طلبوا العوض عنهم، فأنكر السلطان ذلك عليهم، فنصروهم، وكان ذلك في سنة سبع وستين؛ فكتب السلطان إلى النواب بوقوع فسخ الهدنة، فأغار عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي، فقتل وأسر منهم جماعة.

واتفقت حركة للسلطان إلى الحجاز، فأطلق الذين أسروا، وعوق رسل الفرنج على إحضار المماليك، وأطلق منهم وزير الأسبتار خاصة، لأنه كان يخدم السلطان. وفي هذه السنة بلغ السلطان الظاهر أن سفنًا كثيرة وصلت لدعم الفرنجة من جهة الردراكون، أحد ملوك الغرب، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه، يقول فيها: إنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه بالبلاد الإسلامية، وأنه واصل لمواعدته، من جهة سيس، في سفن كثيرة، فاعترضته ريح مزعجة كسرت عدة من سفنه. وأما فرنجة عكا، فإنهم خرجوا، هم ومن وصل إليهم من الغرب، إلى ظاهر عكا وخيموا وصاروا يركبون، وتوجهت طائفة منهم إلى عسكر جنين وعسكر صفد، وبلغهم أن السلطان وصل جريدة، فتوهموا أنه لا يقصدهم. واتفق أن السلطان الظاهر بيبرس خرج متصيدًا إلى جهة الحارسة، وعاد مسرعًا وتوجه على أنه يتصيد في مرج برغوث في الجولان. ولما وصل في أثناء الطريق إلى بريج الفلوس، سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاحدار لإحضار السلاح، وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس عنده في

مرج برغوث في بكرة نهار الثلاثاء الحادي والعشرين في شهر ربيع، وركب وساق ووصل جسر يعقوب عشية النهار، فساق فأصبح الصبح وهو بأول المرج. وكان قد وجه الأوامر إلى الأمير جمال الدين الشمسي مقدم عسكر عين جالوت، والأمير علاء الدين إيدغدي، مقدم عسكر صفد، بالإغارة في يوم الأربعاء ثاني وعشرين، وأن يتظاهروا بالهزيمة أمام الفرنجة. فكان ما أمر به السلطان وخرجت جماعة من الفرنجة مقدمهم كند لوفير المسمى زيتون، وفيهم أقارب الريداركون وغيرهم، وعندها نصب السلطان الكمين فعندما خرج الفرنجة لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. وسار أمام السلطان الأمير شمس الدين إيتمش السعدي، والأمير علاء الدين كندغدي الظاهري، ومعهما مقدمو الحلقة، وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارسًا اسمه ريموند كوك. وأما السلطان ومن كان أمامه من الأمراء، فما إن وصلوا إلى الأمراء المقدمين إلا والعدو قد انكسر، فلم يحصل لهم اختلاط. وكان القتال شديدًا تماسكوا فيه بالأيدي، وأكمن زيتون فجال العسكر بينهم، وأخذوا عليه وعلى أكابر الفرنجة حلقة، وقتل أخو زيتون وابن أخت الريدراكون، وجماعة من الخيالة، ونائب فرنسيس بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين ألطونبا الفائزي. وعاد السلطان ورؤوس القتلى بين يديه إلى صفد، وتوجه منها إلى دمشق، فدخلها في يوم الأحد سادس وعشرين الشهر، والأسرى والرؤوس بين يديه[130].

---

[130] النويري، م30، ص 321-323.

وفي سنة 670 للهجرة [1271م]، خرج السلطان الظاهر بيبرس من دمشق في ثالث جمادى الأولى، ومعه عساكر مصر والشام لمفاجئة فرنجة عكا، فتكاثرت الأمطار عليه في مرج برغوث في الجولان، وزاد الأمر عن الوصف، فكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلون به، فرد السلطان عسكر الشام، وسار إلى مصر فدخل قلعة الجبل في ثالث عشرينه[131].

وفاة الظاهر بيبرس

وتوفي السلطان الظاهر بيبرس بن عبد الله أبو الفتح ركن الدين في سنة 676 للهجرة [1277م]. ويروي اليونيني، في تعداده لمنجزات الملك الظاهر، أن قلعة الصبيبة في الجولان كان التتار قد خربوها ولم يبقوا منها إلا الآثار، فجددها، وأنشأ لجامعها منارة، وبنى بها دارًا لنائب السلطنة، وعمل جسرًا يمشى عليه إلى القلعة[132].

ويذكر ابن تغري بردي أن شعْراء بانياس، أي الإقليم الشمالي من الجولان، وهي إقليم يشتمل على أرض كثيرة عاطلة، بحكم استيلاء الفرنجة على صفد، فلما افتتح السلطان صفد، أفتاه بعض العلماء باستحقاق الشعْراء، فلم يرجع إلى الفتيا، وتقدم أمره أن من كان له فيها ملك قديم فليتسلمه[133].

---

[131] المقريزي، ج1، م2، ص 601.

[132] اليونيني، ج3، ص 259-260.

[133] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص160.

وإذا تأملنا صورة الأوضاع في بلدان المشرق العربي، عند وفاة الملك الظاهر، سنجد الصورة معاكسة لتلك التي رسمها العيني في بدايات حكم الملك الظاهر، فالفرنجة باتوا محصورين الآن في حصون على الشريط الساحلي الشمالي لبلاد الشام، والتتار كسرت شأفتهم وما عادوا بتلك القوة التي عرفوا فيها قبل معركة عين جالوت، وأصبح هناك خليفة عباسي للمسلمين، وإن كانت سلطته شكلية، واستقرت الأمور، وبدأ أهل الجولان بالعودة إلى أراضيهم شيئًا فشيئًا، وهو ما نلمحه في كتب البلدانيين الذين تحدثوا عن الجولان في العهد المملوكي، ومنهم ابن فضل الله العمري، وغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، الذي ذكر أن بلدة نعران وحدها كان يتبع لها أكثر من 160 قرية، وأن بانياس كان يتبع لها أكثر من 200 قرية، وكانت تصدر الأرُز لدمشق وغيرها [134].

دولة المماليك

بعد وفاة الظاهر بيبرس خلفه ابنه، الملك السعيد بركة خان، الذي لم يستطع أن ينهض بأعباء الملك، فخلعه أمراء المماليك قبل أن يهلك بقليل، وأقاموا بدلًا منه شقيقه بدر الدين سلامش الذي لم يكن له من العمر أكثر من سبع سنوات، ولقبوه بالملك العادل، ثم خلعوه وأجلسوا بدلًا منه السلطان المنصور قلاوون الصالحي الذي تابع ما بدأه الملك الظاهر في قتال الصليبيين والتتار، وبعد وفاة قلاوون، خلفه ابنه السلطان الأشرف خليل، إذ طرد آخر جندي صليبي عن بلاد الشام سنة 690 للهجرة [1291م].

---

[134] الظاهري، ص 46- 47.

إن معظم المعلومات التاريخية التي تخص الجولان في العهد المملوكي، بعد طرد الصليبيين من بلادنا، لا تتعدى أخبار تعيينات عسكرية، تتعلق بنيابة بانياس، أو قلعة الصبيبة أو أخبار اعتقال بعض المماليك الذين تقذف بهم أقدارهم إلى سجن الصبيبة.

ومن تلك الحوادث يروي العيني أن السلطان الأشرف خليل أنعم على بيدرا، نائب السلطنة، سنة 690 للهجرة [1291م]، بنيابة الصبيبة، وكانت في ذلك الوقت نيابة مستقلة عن بانياس قبل أن تلحق بها. وكان الملك الظاهر لما أخذ هذا الحصن أنعم به على نائبه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، فلما ولي المنصور قلاوون قصد طرنطاي المنصوري أن يستمر به، كما كان الخازندار، فلم يوافقه المنصور، فلما تسلطن الأشرف، رسم لنائبه أن يضيفه إلى إقطاعه، فأضافه، وجعل نائب الصبيبة طيبرس الخازندار الذي تولى نقابة الجيش في دولة لاجين[135].

وفي سنة 693 للهجرة [1294م]، قُتل السلطان الأشرف خليل بمؤامرة داخلية، وحل مكانه ابنه المنصور، ولكن حزب المماليك القوي عيّن زين الدين كتبغا، نائب السلطنة، سلطانًا على الشام ومصر.

وفي سنة 696 للهجرة [1297م]، اتفق أمراء المماليك على أن يكون حسام الدين لاجين، نائب كتبغا، سلطانًا باسم المنصور حسام الدين لاجين المنصوري الذي اتفق مع أمرائه على أن يكون الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير نائب السلطنة بالصبيبة[136].

---

(135) العيني، م3، ص 83-84.

(136) المصدر السابق، ص 357-358.

وفي سنة 698 للهجرة [1299م]، وصل الخبر بقتل السلطان الملك المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر، على يد الأمير سيف الدين كرجي الأشرفي، ومن وافقه من الأمراء، واتفق الأمراء على إعادة ابن أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون. فأرسلوا وراءه، وكان بالكرك ونادوا له بالقاهرة، وخُطب له على المنابر قبل قدومه، وجاءت البشائر بدخول الملك الناصر إلى مصر، يوم السبت رابع جمادى الأولى، وكان يومًا مشهودًا، كما يروي ابن كثير، ودقت البشائر ودخل القضاة وأكابر الدولة إلى القلعة، وبويع بحضرة علم الدين ارجواش، وخُطب له على المنابر في دمشق وغيرها، بحضرة أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وجاء الخبر بأنه قد ركب وشق القاهرة، وعليه خلعة الخليفة، والجيش معه مشاة، فضربت البشائر أيضًا.

وأخرج قرا سنقر المنصوري من الحبس، وأعطي نيابة الصبيبة، ثم لما مات صاحب، حماه الملك المظفر، نقل قرا سنقر إليها[137].

ويروي أبو الفداء في تاريخه أن قرا سنقر، عندما أُخرج من السجن، وأُرسل إلى الصبيبة، وهي مكان وخم، أرسل إلى الحكام بمصر يتضور من المقام بالصبيبة، فاتفق عند ذلك وصول الخبر إلى مصر بموت صاحب حماة، فأعطى قرا سنقر نيابة السلطنة في حماة، وسار من الصبيبة ووصل إلى حماة، واستقر في النيابة فيها أوائل ذي الحجة من سنة 698 للهجرة[138] [1299م].

---

[137] ابن كثير، ج14، ص 3-4.

[138] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص42.

وفي سنة 706 للهجرة [1306م]، بعد إخراج المماليك السلطانية، رُسم بإخراج سيف الدين بكتمر الجوكندار، وقطع خبزه، فأُخرج من ساعته إلى الشام، فلما وصل إلى غزة، عُيّنت له الصبيبة فتوجه إليها، فاستوحشها، فسأل غيرها فعُيّنت له صرخد، واتفقت وفاة الأمير سنقر جاه المنصوري، نائب صفد، فرُسم له بها فتوجه إليها[139].

وفي سنة 770 للهجرة [1368م] ركب جماعة من مماليك يلبغا، ودخلوا بيت الأتابكي استدمر، فقال لهم: ماذا تريدون. قالوا: نريد أن نعتقل خمسة من الأمراء، وهم الأمير أزدمر أمير السلاح المعروف بالخازندار، والأمير بيرم العزي الدوادار، والأمير جركتمر المنجكي أمير مجلس، والأمير بنبغا القوصوني أمير خور كبير، والأمير كبك الصرغتمشي الجوكندار. فركب معهم الأتابكي، ومسك هؤلاء الأمراء من بيوتهم. فأما الأمير أزدمر أمير السلاح، فإنه قُيّد وأرسل إلى قلعة الصبيبة فسجن بها[140].

وفي سنة 771 للهجرة [1369م] رسم بالإفراج عن الأمير أزدمر العمري الناصري، جد المؤرخ ابن إياس، وقد تقدم أنه نفي إلى الصبيبة مدة[141].

---

[139] العيني، م4، ص 428.

[140] ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص222.

[141] المصدر السابق، ص 225.

الأمير عنقاء بن شطي

وفي سنة 791 للهجرة [1389م] قدم الأمير شهاب الدين أحمد بن بقر، أمير عرب الشرقية، ومعه هجان الأمير جاركس الخليلي، فحدث السلطان الملك الظاهر برقوق بتفصيل واقعة العسكر المصري مع الناصري، حليف الأمير منطاش المنافس للسلطان برقوق في الشام. وفي التفاصيل التي يرويها لنا ابن تغري بردي أنه فر مع الأمير يونس الدوادار متولي دمشق، بعد أن دخلها الناصري في خمسة أشخاص، طالبين الديار المصرية، فعرض لهم الأمير عنقاء بن شطي، أمير آل فضل، بالقرب من خربة اللصوص (قرب عقبة فيق في الجولان)، من طريق دمشق، وقبض على الأمير يونس الدوادار ووبخه، لما كان في نفسه منه، ثم قتله وحز رأسه وبعث به إلى الناصري، فعندما بلغ السلطان قتل يونس الدوادار وتحققه، كادت نفسه تزهق، وكان بلغه هذا الخبر غير أنه لم يتحققه إلا في هذا اليوم. وبقتل يونس الدوادار استشعر كل أحد بذهاب مُلك الملك الظاهر[142].

ويروي محمد بن محمد بن صصرى في «الدرة المضية» القصة نفسها، لكنه يذكر أن الأمير عنقاء، أمير عرب بني مهدي، حضر إلى الناصري بدمشق، ومعه رأس يونس الدوادار، بعد أن عُثر عليه هاربًا في الجولان قرب وادي اليرموك، ومعه أناس قلائل من جماعته[143].

---

(142) ابن تغري بردي، ج11، ص222.

(143) محمد بن ابن محمد بن صصرى، الدرة المضية في الدولة الظاهرية، ص17.

سجن الصبيبة

تتسم الأخبار المتعلقة بالجولان في كتب المؤرخين العرب -المسلمين في دولة المماليك البرجية بأنها أخبار تتعلق بتعيينات أو أحكام بالسجن في قلعة الصبيبة.

ففي سنة 799 للهجرة [1396م] قُبض على ألجيبغا الذي كان دوادار السلطان، ثم خازندار، ثم حاجبًا بالقاهرة، ثم صار أميرًا بدمشق، وعلى خضر الكريمي وأرسلا إلى الصبيبة[144].

وفي سنة 801 للهجرة [1398م] خلع على أقنبغا اللكاش، واستقر به نائب الكرك، ورسم له بأن يخرج إليها، فلما خرج من القاهرة ووصل إلى غزة، أرسل السلطان فقبض عليه وقيده وأرسله إلى السجن بقلعة الصبيبة[145].

وفي سنة 802 للهجرة [1399م] قدم الخبر بأن تنم نائب الشام خرج عن الطاعة، وقبض على جانبك اليحياوي الظاهري، الذي كان ولي نيابة قلعة دمشق، ولم تسلم له قلعة دمشق، وأنه أرسل إلى نائب الصبيبة، فأفرج عن أقبغا اللكاش وألجيبغا الحاجب وخضر الكريمي واستدعاهم[146].

وفي سنة 807 للهجرة [1404م]، وصل نوروز الحافظي من محبسه في قلعة الصبيبة إلى دمشق، فأكرمه نائبها أيضا[147].

---

[144] المصدر السابق.

[145] ابن إياس، ج1، ص 313.

[146] ابن تغري بردي، ج12، ص142.

[147] وجيز الكلام، المجلد الأول، الصفحة 376.

وفي سنة 816 للهجرة [1413م]، خرج الأمير نوروز من دمشق يريد صفد، فنزل من الغد على القنيطرة[148] قريبًا من طبريا، وكان قرقماس ابن أخي دمرداش قد قدم إلى صفد، فلما بلغه ذلك قصد أن يسكن قلعتها بمماليكه، وينزل فيها معه أخاه تغري بردى، فلم يتمكن من ذلك فجرد وركب من يوم الجمعة خامس عشره، وعاد إلى الرملة. وبعث الأمير نورز أينال دواداره إلى بيسان لجمع العشير[149].

وفي سنة 885 للهجرة [1480م]، وفي يوم السبت ثامن عشره، توفي الشيخ برهان الدين البقاعي الشافعي، وكان له مدة سنين مقيمًا بالقاهرة، ثم جاء إلى دمشق ونزل عند القاضي صلاح الدين العدوي، وتلقاه الشيخ تقي الدين المنوه بذكره، والسيد كمال الدين، وغيرهما إلى القنيطرة[150].

وفي سنة 894 للهجرة [1489م]، قبض يلباي نائب صفد على الأمير علي بن عبد الله والي بانياس، وأخذ موجوده وأرسله محفوظًا عليه إلى النائب، فدخل مسمرًا مشهورًا ينادي عليه بالعصيان، فأمر النائب بضرب عنقه ساعة وصوله قرب باب الإسطبل بكرة يوم الأحد سادس عشريه[151].

---

[148] توجد خربة تسمى القنيطرة في جنوب الجولان قريبة من طبريا.

[149] المقريزي، ج4، م1، ص 268.

[150] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص23.

[151] المصدر السابق، الصفحة 108.

تمرد ابن القواس

وفي سنة 909 للهجرة [1503م]، هاجم العرب البدو أطراف دمشق، فنهبت مغلًا كثيرة، وخربت بلادًا كثيرة، فقيل إن الأمير ابن القواس أغراهم؛ لكون نائب الغيبة نهب رزقه، وقبض على أخيه ووضعه بقلعة دمشق. وفي يوم الثلاثاء، مستهل ربيع الأول منها، دخل نائب الشام الجديد قانصوه البرجي إلى دمشق، بعد أن مكث عقب مجيئه من مكة بغزة، ثم استمر مدة بالرملة، ثم لما وصل إلى قرب دمشق، عرج وذهب إلى قلعة الصبيبة في الجولان؛ ليقبض على الأمير ابن القواس الذي جعله نائبي الغيبة عاصيًا، فحاصر القلعة عدة أيام فلم يقدر عليهم، وتيقن أن ابن القواس ليس بها، وإنما بها حريمه، فلم يزل إلى أن أخذها بالأمان، ووضع بها نائبًا، وأرسل ابن القواس إليه من يرضيه عنه بالمال.
وفي ثلث ليلة الأحد الأول سادسه، أرسل النائب سرية لنهب أهل بيت إيما (بيت تيما)، وهي من قرى جبل حرمون؛ لأجل ما بلغه أن ابن القواس وقع في يد جانباي فخلصوه منه، فنهبوها ونهبوا معها بلد كفر حور؛ حتى عروا على النساء، وقبضوا على جماعة.

وفي يوم الجمعة، مستهل جمادى الأولى منها، رضي النائب على الأمير ابن القواس، وخلع عليه[152].

وفي هذه الأيام وضع النائب دواداره جانبك الفرنجي في الحديد، وأرسله إلى قلعة بانياس في الجولان، بعد أن أخذ ماله الكثير المودع عند الرجل المغربي في

---

[152] المصدر السابق، ص 244-250.

حال اختفائه، فلما ظهر خاف المغربي منه، فمات خوفًا فما أمهل حتى لحق به موتًا[153].

وفي سنة 910 للهجرة [1504م]، دخل إلى دمشق عدة رؤوس جماعة من المحاربين، كانوا مكروا بجماعة قلعة الصبيبة وسبوا حريمهم، فقبض عليهم الأمير يونس بن القواس وأرسلهم إلى دمشق[154].

وفي سنة 913 للهجرة [1507م]، في يوم الثلاثاء سادس محرم منها، سبق من القفل المصري جماعة، نحو مئة بغل و«أكديش»، وعليها أربابها من جب يوسف، فلما وصلوا إلى مرج برغوث (في الجولان)، خرج عليهم جماعة من العرب (البدو)، فأخذوهم وما معهم من البضائع والمال والنساء[155].

---

[153] المصدر السابق، ص 269.

[154] المصدر السابق، ص 286.

[155] المصدر السابق، ص 314.

وصف الجولان في الحقبة المملوكية

لا تزودنا كتب التاريخ الحولي أو التراجم، بكثير من المعطيات حول جوانب الحياة المختلفة في الجولان، ولذلك؛ لابد من الاعتماد على الموسوعات وكتب الرحلات ووثائق الأوقاف التي تقدم صورة معقولة حول تلك الحقبة المديدة، ومن أبرز الكتاب الموسوعيين في مطلع العصر المملوكي شيخ الربوة، صاحب «نخبة الدهر»، المتوفى سنة 1327 ميلادية عن 73 عامًا، وابن فضل الله العمري، صاحب «مسالك الأبصار».

وعلى الرغم من أن المعلومات التي يقدمها شيخ الربوة عن الجولان ضئيلة، موازنة بما كتبه عن مناطق أخرى، إلا أننا نعثر في نصه على جديد انفرد به.

فقد عدد شيخ تسعين من الأقاليم والكُوَر والأحواز والرساتيق التابعة لدمشق، ومنها ما هو واقع ضمن الجولان، مثل بيت جن، والغجر، والجولان، وعقربا، والجيدور، والشعرا، وسوسيا.

الملاحظ أن شيخ الربوة يلحق بجند دمشق مناطق وأقاليم في الجولان كانت تابعة لجند الأردن، مثل سوسيا، وهذه إشارة إلى تغير التقسيمات الإدارية لبلاد الشام وتتضح أكثر في المصادر اللاحقة. ويذكر شيخ الربوة معلومات حول حصن الصبيبة المجاور لبانياس، و يصفها بأنها «مدينة قديمة حصينة كثيرة الحوامض»، ويشير إلى وجود «آثار لليونان قديمة»، وهذا صحيح، ويذكر أن «الباني لها بلنياس الحكيم، وقيل بل أنبا نواس وهو يوناني أيضًا»، وهذا خطأ في المعلومات.

ومن الجغرافيين الأفذاذ في القرن الثامن الهجري أبو الفداء إسماعيل الذي وضع كتابًا لافتًا بعنوان تقويم البلدان؛ إذ نقرأ فيه تعريفًا ببانياس التي كانت معروفة جدًا في عصره، وبحصن الصبيبة المجاور لها. ويحدد أبو الفداء موقعها الجغرافي في الإقليم الثالث، وموقعها العرفي بأنها ولاية من أعمال دمشق، ويذكر أنها «بلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب، بميلة إلى الجنوب». ويقول إن «الصبيبة اسم لقلعتها، وهي من الحصون المنيعة».

ولعل ابن فضل الله العمري هو أول جغرافي في العالم يحدد منابع نهر الأردن وروافده بهذه الدقة، التي كانت غائبة عن جميع الجغرافيين والمصنفين الذين سبقوه والذين تلوه.

يذكر العمري أن أصل نهر الأردن «من مرج عيون والهرماس، وكلاهما تحت الشقيف وتل القاضي. والملاّحة، وهي عين بعيدة العمق جدّا، ونهر بانياس».

ويسمّي العمري هذه الأمواه كلها بالشريعة الشمالية؛ ويقول: إنها تصب تحت جسر يعقوب وتجتمع في بحيرة طبريا.

ثم يذكر أنها تلتقي بالشريعة القبلية في قرية البقارية المندثرة اليوم، وتأتي جسر الصنّبرة إلى الجسر العادليّ الواقع تحت عَقَبة فِيق، قرب الدير الأسود، ثم تأتي جسر شامة المقارب لقرية المجامع.

ويفصّل العمري في حديثه عن أمواه الشريعة القبلية، ويذكر أنها تبدأ من دير الهُرَيْر والجولان واليرموك ووادي الأشعري والفوّار والمدَّان، مع ما يُضاف إلى ذلك من ينابيع، ويتحصل من البلاد المرتفعة، ويجتمع تحت حمّة جدر التي تقع تحت

فيق، ويصف هذه الحمة بأنها قبو معقود ببناء خشن طويل، وبه أحواض مخصصة لكل علة.

ويعدد العمري جملة أعمال دمشق البالغة ثمانية وعشرين عملًا، مقسومة على صفقتين، شمالية وقبلية، وتقع أراضي الجولان في الصفقة القبلية التي تضم بلاد حوران والغور، ومن جملة الأعمال التي يذكرها عمل بانياس، التي يصفها بمدينة الجولان، ويذكر أن بها قلعة الصبيبة، وعمل الشعراء الذي لا يذكر شيئا عنه هنا، ولكنه في كتاب «التعريف» يقول: إن ولاية هذا العمل تكون تارة في قرية القنيطرة، وتارة أخرى في قرية حان. ويتضح من كتاب «التعريف» أيضًا أن الحولة تتبع عمل بانياس. أما الجزء الجنوبي من الجولان، فلا يأتي على ذكره، إلا عندما يتحدث عن روافد اليرموك والتقائه بالأردن.

ولعلها المرة الأولى التي نقرأ فيها -بوضوح لا لبس فيه- أن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في المراحل السابقة (أي تقسيم الشام إلى أجناد)، اندثرت؛ لتحل محلها تقسيمات جديدة، تضم جندَيْ الأردن ودمشق، باسم المملكة الشامية، التي تقسم -بدورها- إلى قسمين: شمالي وجنوبي، دون مراعاة التقسيمات القديمة.

ويحدد العمري مراكز البريد التي تربط دمشق بصفد، فيذكر أنها تبدأ ببريج الفلوس، ثم أرينبا، ثم نعران، ثم صفد.

ويفيدنا كتاب «تاريخ صفد» الذي صنفه القاضي شمس الدين العثماني، المتوفى سنة 780 هجرية [1378 م]، بمعلومات جديدة عن الجزء الجنوبي الغربي من الجولان، وهذا الكتاب المفقود لم يصلنا منه سوى بضع صفحات، نشرها

المستشرق الانكليزي، برنارد لويس، في مجلة معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية، ولكننا نقرأ اقتباسات مأخوذة عنه في موسوعة «صبح الأعشى» للقلقشندي.

يلقي كتاب «تاريخ صفد» الضوء على تبعية جزء مهم من الجولان، وهو نيابة البطيحة ونيابة كفر عاقب والحمة، لعمل طبريا التابع لولاية صفد في العهد المملوكي. وهذه المعلومة تفيد في فهم التقسيمات الإدارية للجولان، إذ كانت موزعة بين أكثر من ولاية في ذلك العهد.

وعلى خطا ابن فضل الله العمري في كتابه «التعريف»، يصنف خليل بن شاهين الظاهري المتوفى سنة 873 هجرية [1468 م] كتاب «زبدة كشف الممالك»، يقدم فيه معلومات جديدة حول البلدان والأقاليم في الشام ومصر، ومنها ما يتعلق بالجولان، استقاها من تجربته الشخصية، بوصفه إداريًا كبيرًا، وواليًا في دولة المماليك.

وفي هذا الكتاب ينفرد الظاهري بذكر إقليم نعران الواقع وسط الجولان، ويشير إلى أنه مركز لأكثر من 160 قرية، ولكنه «عجيب لكثرة أوعاره». ويعيد تحديد طريق دمشق –مصر الذي يمر عبر الجولان، كما يرد عند ابن فضل الله العمري، ولكن خطأ ما، لا نعرف سببه، جعل الناسخ يفرق بين مفردتي محطة «بريج الفلوس»، لتصبح «البريج» محطة، و«القلوس» (بالقاف)، محطة أخرى، وهذا يتناقض مع ابن فضل الله العمري والقلقشندي، اللذين سبقا الظاهري، وما يجعلنا نرجح أن يكون الخطأ من الناسخ، هو دقة الظاهري، وموقعه الإداري الذي يجعله مطلعًا على مثل هذه الأمور، ويذكر أن طريق الغسولة –طرابلس يمر عبر قدس، ثم إلى أقمر، ثم إلى الشَّعْراء (في الجولان)، ثم إلى العرقاء، ثم إلى طرابلس.

ويدغم الظاهري الصبيبة ببانياس؛ فيقول: «مدينة الصبيبة، وتُعرف ببانياس، بها قلعة حصينة، وهي مدينة لطيفة يزرع بها الأرز، يجلب منها إلى دمشق وغيرها، ولها إقليم بعضه يُعرف بالحولة، يشتمل على مائتي قرية، وهي أيضًا من معاملة دمشق». وهكذا، يضيف الظاهري بعض المعلومات الجديدة عن بانياس، بوصفها مدينة للحولة، يُزرع فيها الأرز، ويصدَّر إلى دمشق وغيرها.

وتزودنا رحلة ابن أجا الحلبي المتوفى سنة 881 هجرية [1476 م]، بمعلومات مفيدة عن طريق دمشق- مصر الجنوبي، الذي يمر من جنوب بحيرة طبريا، عبر عقبة فيق وخسفين في الجولان، إلى دمشق، ويبدو أنه كان مستخدمًا، على الرغم من تجاهل الجغرافيين والبلدانيين له.

أما رحلته الشهيرة، فسجل يومي لوقائع الحملة العسكرية التي جردها السلطان قايتباي، وكلف بقيادتها الأمير يشبك الدوادار؛ لقتال الإمارة الدلغارية الناشئة في مناطق الثغور والعواصم شرق الأناضول.

ما يهمنا في هذه الرحلة ما يتصل بالجولان، وقد حدد ابن أجا موقع «خربة اللصوص» بأنها بعد عقبة فيق. وقد ذكر المؤرخون هذا الموقع كثيرًا من دون أن يحددوا مكانه بالضبط.

ويذكر ابن أجا أن الأمير يشبك نزل بجانب بحيرة طبريا، وبات بها. ثم رحل، ونزل بخربة اللصوص بعد أن حصل للجمال في عقبة فيق مشقة كبيرة.

وتشكل رحلة ابن الجيعان، المتوفى سنة 902 هجرية [1496 م]، آخر أسفار العهد المملوكي التي تناولت الطريق التي تصل دمشق بمصر عن طريق الجولان. وتزودنا هذه الرحلة التي جرت في أواخر دولة المماليك، بمعلومات جديدة عن

طريق دمشق- سعسع- القنيطرة الذي سيتحول -في العهد العثماني- إلى الطريق الرئيس الذي يربط دمشق بفلسطين ومصر.

يذكر ابن الجيعان أن السلطان الأشرف قايتباي بعد أن غادر دمشق مر بخان المريج (والصحيح البريج)، وهو البريد الأول من دمشق، ثم نزل بسعسع وقت المغرب، وأمر بعمارة خان بها، ثم توجه نحو قرية حرفا قبل أن يصل إلى القنيطرة آخر النهار، حيث بات فيها. ويذكر ابن الجيعان أن الأمير بردي بك، نائب صفد، قد حضر إلى القنيطرة لملاقاة السلطان. كذلك يصل تباعًا إلى القنيطرة إبراهيم بن القريد الصيرفي، وشهاب الدين، ناظر دمياط، وابن شهاب.

ثم يصف الطريق إلى جسر يعقوب بأنه وعر وكثير الأحجار، والأوحال والمنحدرات، وفيه مشقات كثيرة. وفي نهاية هذه الفقرة يعدد ابن الجيعان المحطات التي جرى عبورها، وهي ستة برُد «المريج (البريج)، وسعسع، والأرينبة، والقنيطرة، ونعران، وجسر يعقوب»[156].

[156] تيسير خلف، صورة الجولان، ص 62-77.

الجولان إداريًا وبشريًا في العصر المملوكي

إن الاستخلاصات التي يمكن استنباطها من المعطيات التاريخية السابقة لا تتعدى بضع فقرات؛ والسبب في ذلك أن المؤرخين معظمهم الذين تصدوا لأخبار دولة المماليك، انشغلوا بالأشخاص وسيرهم، وأهملوا الحديث عن التاريخ المدني والعمران الاجتماعي، ربما بسبب التخصص الذي كان غائبًا عن المؤرخين الرواد الذين كانت تعج كتبهم بمعلومات مكانية وزمانية شتى، أو بسبب عمل معظم مؤرخي الحقبة المملوكية في الدواوين، واعتمادهم على وثائق الدولة مصدرًا أساسيًا للحصول على المعلومة، وهي- على العموم- أوامر سلطانية تتضمن تعيينات أو قرارات بالحبس أو إخلاء السبيل، ولكن الموسوعات وكتب الإنشاء عوضت النقص في كتب التاريخ، لذلك؛ يمكن تصنيف معلومات كثيرة عن التاريخ الإداري والبشري والطبيعي في الجولان، ذلك من خلال المتوفر من المصادر التاريخية والجغرافية ووثائق الوقفيات.

التنظيم الإداري وطرق المواصلات

بحسب التقسيم الذي يقدمه العمري، فإن القسم الشمالي من الجولان كان ينقسم في الحقبة المملوكية إلى عملين:

1- عمل غربي باسم عمل بانياس التي يصفها العمري بأنها مدينة الجولان، وفيها قلعة الصبيبة، ويضم هذا العمل إقليم الحولة الذي يشكل الحد بين دمشق وبلاد صفد. وكانت الصبيبة نيابة مستقلة أيام الظاهر بيبرس، ولكنها ألحقت

بانياس في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ولكن حقيقة الأمر هي أن بانياس أُلحقت بالصبيبة التي تحولت إلى مقر الحاكم، وهناك مصادر تتحدث عن نيابة الصبيبة التي تتبع لها بانياس، ولكن الصبيبة -كما لاحظنا- تحولت -مع الزمن- إلى سجن موحش وحسب، على الرغم من أنها استمرت مقرًا للحاكم؛ حتى في العصر العثماني.

2- عمل شرقي، واسمه الشعْراء، وولايته تكون تارة في قرية حان، وتارة في قرية القنيطرة.

وهي المرة الأولى التي يُذكر فيها اسم القنيطرة وحان، وبينما نجد أن القنيطرة تطورت وتعمرت منذ نهاية العهد المملوكي؛ حتى الآن، نلاحظ اندثار قرية حان الواقعة إلى الغرب من القنيطرة، قرب تل أبي الندى، بحسب بعض وثائق الوقفيات المملوكية والعثمانية، وهذه الوقفيات تشير إلى أن عمل الشعراء كان يمتد إلى ما يقارب شمال بحيرة طبريا جنوبًا، وحولة بانياس ونهر الشريعة غربًا، وأراضي عمل الجيدور شرقًا (وقفية عثمان المنجّا، ص24)، وبحسب وثائق الوقفيات، فإن عمل الشعراء ينقسم إلى عدة أقاليم، منها إقليم الزبيب الذي يضم قرى السفح الجنوبي الغربي من جبل الشيخ، وإقليم نعران وسط الجولان.

وهناك أعمال أخرى، ذُكرت في وثائق الأوقاف وتاريخ صفد، وهي:

3- عمل الجولان، وينقسم إلى قسمين: شرقي نهر الرقاد، وغربي نهر الرقاد، وهذه المنطقة هي الجزء الجنوبي من الجولان الذي عُرف في ما بعد باسم الزوية التي تتبع مع بانياس والشعراء لدمشق مباشرة، وتقع ضمن ما يسمى الصفقة الجنوبية التي تضم الجولان وحوران وبلاد الغور.

4- إقليم البطيحة، ومركزه كفر عاقب، وكان يتبع المملكة الصفدية عن طريق عمل طبريا.

وفي ما يأتي مسلسل بأسماء بعض الذين تولوا نيابة الصبيبة في الحقبة المملوكية:

1- ناصر الدين التبنيني 1260 م
2- علم الدين سنجر 1260 م
3- بدر الدين بيليك 1266 م
4- بكتون بن عبد الله الخازنداري بعد 1277م
5- طيبرس الخزندار قبل عام 1291م
6- بيدرا 1291م
7- بيبرس الجاشنكير 1297م
8- قرا سنقر المنصوري 1299م
9- سيف الدين بكتمر الجوكندار 1306م
10-علاء الدين محمد بن بن ناصر الدين محمد قبل 1406 م
11-علي بن عبد الله حتى 1489م
12-يونس ابن القواص 1503

طرق المواصلات ومحطات البريد

منذ مطلع العصر المملوكي جرى الحديث عن طريق جديدة، تصل دمشق بصفد عن طريق جسر يعقوب، وهذه الطريق تنوعت محطاتها الفرعية، ولكنها كانت تؤدي الغرض نفسه، فقد نجد محطة خان أرينبة ولا نجد القنيطرة، أو العكس، والسبب حداثة بناء خان للمسافرين في القنيطرة نسبيًا.

في البداية يذكر العمري أن محطات الطريق، هي:

1- دمشق- بريج الفلوس - أرينبا - نعران - صفد.

ثم يذكر ابن الجيعان محطات أخرى في هذه الطريق أواخر العصر المملوكي، وهي:

2- دمشق- البريج- سعسع- أرينبة- القنيطرة- نعران- وجسر يعقوب.

أما ابن أجا الحلبي، فيذكر محطتين من الطريق الجنوبية التي عاد استخدمها، كما يبدو، وهي دمشق- طبريا عن طريق عقبة فيق.

والواضح أن طريق دمشق – جسر يعقوب، قد حلت محل الطريق الشمالية النبي تصل دمشق ببانياس، والسبب في ذلك بناء ابن المزلق الخانات على هذه الطريق التي كانت في البداية -كما يبدو- طريقًا لنقل البريد وحسب. وهذا يؤكد الحديث الذي نقله النعيمي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» حول ابن المزلق الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ومطلع القرن التاسع، حيث «أنشأ على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة في القنيطرة وجسر يعقوب والمنية وعيون التجار، أنفق على عمارتها ما يزيد على مائة ألف دينار، وكان في هذه الخانات

الماء، وجاءت في غاية الحسن، ولم يسبقه أحد من الملوك والخلفاء لمثل ذلك»، بحسب تعبير النعيمي[157]. وهذه المعلومات تثبت أن الاهتمام بالقنيطرة، بوصفها مركزًا من مراكز الجولان، بدأ أواسط العصر المملوكي، وليس في العصر العثماني كما هو شائع. حتى ابن فضل الله العمري يذكر أن مركز ولاية الشعراء المملوكية كان -مرة- في القنيطرة، ومرة في حان المندثرة الآن.

أما الطريق الجنوبية، فلا نلمح أي ذكر لها إلا في رحلة الأمير يشبك الدوادار، أواخر العصر المملوكي؛ ما يشير إلى تراجع أهميتها لصالح الطريق الوسطى، وستغدو الطريق الرئيسة بعد سنوات.

السكان والعمارة في الحقبة المملوكية

يفيدنا خبر مقتل الأمير يونس الدوادار على يد عنقاء بن شطي، في خربة اللصوص قرب عقبة فيق، إذ ينسبه المؤرخون إلى آل فضل، علمًا أنه من بني مهدي، بأن وجود هاتين القبيلتين قديم في الجولان، ويروي لنا ابن فضل الله العمري قصة حوار دار بين أمير آل الفضل، مهنا بن عيسى، وابن عمه أحمد بن حجي، أمير آل مراء، في خربة اللصوص عند عقبة أفيق في الجولان، بحضور الأمير طرنطاي المنصوري، تظهر فيه منزلتهم عند أمراء المماليك، وسعة رزقهم، ويذكر العمري أن الأمير شطي، أمير عرب بني مهدي، وهو والد الأمير عنقاء، قد حصل على لقب الإمارة، على قدم المساواة مع آل فضل.

---

[157] النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج2، ص 290-291.

وعليه؛ فجنوب الجولان كان مرعًى لمواشي قبائل الفضل وبني مهدي في الحقبة المملوكية، أما الجزء الشمالي والأوسط من الجولان؛ فكانت الحياة الفلاحية هي المسيطرة، نظرًا إلى هذا العدد الكبير من القرى.

ولدينا مؤشرات كثيرة تشير إلى انتعاش الزراعة في الجولان خلال الحقبة المملوكية، فإضافة إلى الإحصائية اللافتة التي يقدمها لنا خليل الظاهري، حول عدد قرى بانياس ونعران، إذ تصل إلى 360 قرية. فحديثه عن زراعة الأُرز وتصديره إلى دمشق يدل على انتعاش واضح، نظرًا لأهمية هذه المادة الغذائية.

ولدينا إشارات إلى زراعة الحمضيات في بانياس، والقمح والشعير في جنوبي الجولان، إذ نعرف كمية الإنتاج الكبيرة من خبر جائحة الفئران.

أما الحياة العمرانية، فلا يوجد لدينا كثير من المعطيات حولها في الحقبة المملوكية، باستثناء بعض الإشارات إلى منجزات السلطان الظاهر بيبرس، الذي أعاد بناء قلعة الصبيبة وقلعة بانياس، بعد أن دمرهما التتار. وبنى دارًا لنائب السلطنة في بانياس ومسجدًا، عُثر على أجزاء مهمة منه، وقد بُني على نمط القصر الأبلق الذي بناه بيبرس في دمشق، وبنى جسرًا للوصول إلى قلعة بانياس؛ ما تزال آثاره بادية حتى اليوم. وكل هذا مثبت بالنقوش التي تخلد هذه الأعمال، ونجد نقوشًا غير واضحة تخلد أعمالًا عمرانية في مدينة فيق، جنوبي الجولان، تعود إلى مطلع الحقبة المملوكية الطويلة.

جسر يعقوب

لا يوجد نص واضح حول تاريخ بناء جسر يعقوب، ولكنه يُذكر في سياق الحديث عن توجه السلطان الظاهر بيبرس إلى صفد، وهي الإشارة الأولى إليه في المدونات العربية، أما في المرحلة السابقة، فكان الحديث عن وجود مخاضة، تسمى مخاضة قصر الأحزان، نسبة إلى النبي يعقوب.

أما الجسر الذي يبدو أنه بُني في عصر بيبرس بعد أن حرر صفد من الصليبيين، فقد بات المعبر الرئيس الذي يصل دمشق بفلسطين. ويشير ابن فضل الله العمري إلى جسر يعقوب في حديثه عن نهر الأردن، في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، ولكن الشاعرة عائشة الباعونية تذكر في إحدى قصائدها أن السلطان الظاهر برقوق، الذي حكم في أواخر القرن الثامن الهجري، هو الذي بنى جسر يعقوب، والمرجح أنه جدده، أو أعاد بناءه من جديد[158].

---

[158] تقول عائشة الباعونية:

بنى سلطاننا برقوق جسرا بأمر والأنام له مطيعة

مجاز في الحقيقة للبرّيا وأمر بالمرور على الشريعة

الفصل الثامن
الجولان تحت حكم العثمانيين

«الخنكار» في الشام

في سنة 922 للهجرة [1516م]، هزمت جيوش السلطان سليم العثماني جيوش المماليك، بقيادة السلطان قانصوه الغوري، في معركة مرج دابق، ودخل «الخنكار» حلب ودمشق دخول الفاتحين.

وشكل وضع الجولان غير المستقر إحدى القضايا الأُوَل التي شغلت السلطان سليم بعد فتح الشام، وأول قرار أصدره كان تنظيف طريق سعسع- القنيطرة- جسر (بنات) يعقوب من الأحجار والأوعار؛ إذ عاناها شخصيًا عندما سافر باتجاه مصر بعد سقوط دولة المماليك.

طريق القنيطرة

ويذكر ابن طولون الصالحي، في «مفاكهة الخلان»، أنه بعد أيام من إقامة السلطان سليم في دمشق، نودي في البلد بأن يحضر مشايخ وأعيان الحارات إلى الجامع الأموي، ففرض على كل حارة أن ترسل فَعَلة عدة، من دون استثناء أحد من المسلمين والنصارى واليهود، لتعزيل وعرة سعسع والدرب إلى جسر يعقوب،

فامتثل الزعماء المحليين لذلك، ونفذوا الأمر بتمامه، ومنح كل عامل أجر يوم، قدره عشر قطع من العملة العثمانية(159).

ويذكر ابن طولون -أيضًا- في أحداث سنة 924 للهجرة [1518م]، في يوم الجمعة، يوم عاشوراء، أن «الخنكار» -وهو أحد ألقاب السلطان سليم- لما خرج من دمشق نزل بمنزل الأمير ابن القوّاس في شقحب (قرب الكسوة)، المحطة الأولى على طريق الحاج، وأن الأمير شوهد ومعه خلق كثير وهم سائرون في الجولان(160).

وابن الحنش -هذا- كان أميرًا تنوخيًا مواليًا للمماليك، ومن أشد المعارضين للعثمانيين، وكان المماليك قد عهدوا إليه الدفاع عن دمشق، فخضع لهم بادئ الأمر، ثم انقلب عليهم، واتضح أن خضوعه كان مناورة؛ لكسب ثقتهم. ويذكر ابن إياس في تاريخه أن ابن الحنش «أمير عربان حماة»9 أوقع بالعثمانيين مقتلة كبيرة، قرب قرية القابون القريبة من دمشق على طريق حلب، عندما أرسل ابن عثمان طلائع قواته إلى دمشق. ويبدو أن ابن الحنش كان قد مد سيطرته على مناطق أخرى من بلاد الشام، مثل البقاع والجولان إبان الوضع الانتقالي، والفوضى التي كانت تعيشها مناطق واسعة من بلاد الشام، بعد سقوط دولة المماليك، ولكن جانبردي الغزالي، أول والٍ عثماني لدمشق، قبض عليه، وأرسل رأسه إلى السلطان سليم في السنة نفسها.

(159) ابن طولون، ج2، ص 39.

(160) المصدر السابق، ص 79.

وشكل وضع الجولان غير المستقر في تلك الآونة قلقًا للسلطات العثمانية، نظرًا لوقوع أهم محطات الطريق إلى مصر ضمن أراضيه، لذلك؛ أنشأ الوزير العثماني مصطفى لالا باشا، بوحي من سلطانه، أو بتقدير منه، نواة عمرانية لمدينة متكاملة في موقع القنيطرة الذي لم يكن ذا أهمية تُذكر حتى ذلك الوقت.

منشآت القنيطرة العمرانية

ونستطيع من خلال هذه الوقفية أن نعدد الأبنية والمنشآت التي بناها مصطفى لالا باشا في القنيطرة عام 971 هجرية [1563ميلادي]، وكذلك المنشآت التي أشارت إليها الوقفية، وهي الآتي:

1- مسجد كبير له ساحة متسعة الأرجاء ذات أروقة، فيها بحرة مبنية على نبع ماء جار، وتحيط بالمسجد من الشرق والجنوب والغرب حديقة، فيها أشجار وغراس ونافورة مياه. وفي هذا الجامع الذي تعلوه قبة كبيرة، محراب ومنبر من الخشب النفيس، وسقيفة للقراء والمؤذنين، وغرفتان ومئذنة، ورواق فيه أربعة أعمدة من الحجارة الزرزورية، أي: الغرانيت، تعلوها خمس قباب، وفي شمال أروقة الساحة ستة مرتفقات؛ للوضوء وقضاء الحاجات.

2- مكتب، أي مدرسة تعلم القرآن والكتابة، مبنية فوق البوابة الكبيرة التي تفضي إلى الجامع وساحته، وفي المكتب المذكور الذي يُصعد إليه بدرج خاص، إيوان ومكتب، وكانون للتدفئة.

3- عشرة حوانيت للتجارة.

4- خمس حجرات كبيرة على سنن معدة لنزول المسافرين، ومن خلال الرحالة الذين زاروا المكان في القرون اللاحقة، يبدو أن هذه الغرف لم تكن تكفي في بعض الأحيان؛ ما كان يضطر المسافرين إلى أن يبيتوا في خيام، وهو ما يؤكده الرحالة الخياري في كتابه «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء».

5- عمارة [أي تكية] فيها مطبخ وكيلار [أي مكان إعداد الطعام] وفرن للخبز، مبنية على ثماني قناطر، ومخزن للغلال.

6- الخان القديم الذي جدده الواقف، ويوصف في الوقفية بأنه رباط، وهذا يعني أنه كان صغير الحجم، ويبدو أنه كان يُستخدم اصطبلًا للدواب فحسب.

7- مجمع سكني للعاملين في خدمة هذه الأوقاف، ويتكون من أربع عشرة غرفة بقباب وأروقة، في شكل مستطيل مفتوح من جهة الشمال.

8- حمام كبير له ساحة وبهو، فيه بركة ماء تحت قبة على أربع قناطر من الحجر المنحوت، و«وسطاني»، و«بيت حرارات»، ومقاصير، وأجرنة تسعة، وقباب عشرة مزججة، وإقميم لتسخين المياه، وبيت للحمامي.

9- قلعة سلطانية (خاقانية) تقع إلى جهة الشرق من هذه الأوقاف، تضم بابًا مسلسلًا كبيرًا؛ ما يشير إلى أن هذا المبنى الذي لا يرد ضمن الأوقاف قد بُني بتمويل من الباب العالي مباشرة، هو والباب الكبير، وبطبيعة الحال السور الذي يحيط بكل ذلك[161].

---

[161] تيسير خلف، وثائق عثمانية حول الجولان، ص 11-12.

وقد شكلت هذه النواة العمرانية، إضافة إلى نويات عمرانية أخرى، أنشأها الوزير سنان باشا في سعسع، وعيون التجار قرب طبريا، بعد ذلك بسنوات قليلة، عامل استقرار للأوضاع في هذا الحيز من السلطنة العثمانية، والذي كان يكتسب أهميته من وقوعه على الطريق إلى فلسطين ومصر والمغرب العربي.

وتبين لنا ببلوغرافيا رحلات الغربيين الذين زاروا السلطنة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، تزايدًا ملحوظًا في عدد الرحالة الذين قصدوا هذه الطريق بين النصف الأول من القرن السادس عشر والنصف الثاني منه، أي بعد بناء هذه المنشآت، فبينما كان العدد قبل بناء عمارة مصطفى لالا باشا في القنيطرة لا يتجاوز الخمسة، زاد بعد عام 1569 على 16 رحالة وحاجًا غربيًا، قصدوا هذه الطريق[162].

وترك لنا أحد هؤلاء، وهو الفلامنكي يان فان كودفيك، وصفًا مقتضبًا للقنيطرة عام 1598، ذكر فيه وجود قلعة ذات أسوار وأبواب تعلوها أبراج، وقدر محيطها بميل واحد، وتضم جامعًا واسعًا تغطيه قبة رصاص، وسوقًا وحمامًا رائعًا، فضلًا عن إسطبلات داخل السور.

---

[162] Yerasimos, Stephane, Les Voyageurs Dans L,empire Ottoman (XIVe-XVIe siecles) .Ankara 1991.

الأمير فخر الدين في الجولان

ولكن جهد السلطة العثمانية في بسط نفوذها وتوفير الاستقرار على طريق دمشق - فلسطين، لم تفلح في الحد من طموحات الأمير فخر الدين المعني الثاني، الذي بسط سيطرته الفعلية على أراضي الجولان كاملة، واتخذ من قلعة الصبيبة مقرًا للإقامة؛ لكي يكون قريبًا من فلسطين وحوران المهمتين لمملكته المفترضة.

ويفيدنا المؤرخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي، في كتابه «تاريخ الأمير فخر الدين المعني»، في أحداث سنة 1021 للهجرة [1612م]، أن نصوح باشا عندما تولى الوزارة العظمى، وأرسل له الأمير فخر الدين المعني، أمير لواء صفد، كتخداه[163] مصطفى، يحمل خمسًا وعشرين ألف غرش، ما خلا الأقمشة والخيل، وذلك خدمة للاستقبال.

غير أن الصدر الأعظم طلب من المبعوث تسليم قلعة بانياس الصبيبة[164]، وقلعة شقيف أرنون[165]، وأعطاه أحكامًا سلطانية بذلك، وخلع عليه خلعًا سنية[166].

وكان للتغيرات التي أجراها حافظ باشا، الوالي المعين على دمشق، وخصوصًا زعامات المناطق التابعة له. مثل طرد الأمير حمدان بن قانصوه من عجلون، والشيخ عمرو شيخ عرب المفارجة من بلاد حوران، ومنح المشيخة للشيخ رشيد شيخ عرب السردية، الأثر البالغ في تمرد الأمير المعني؛ إذ يعدّ هؤلاء الزعماء من حلفائه.

---

[163] الكتخدا أو الكيخيا هو وكيل الباشا أو نائبه.

[164] وهي غير قلعة مدينة بانياس التي تقع داخل سور المدينة، ويسميها العامة قلعة النمرود وهي تسمية لا أساس لها.

[165] قلعة تقع في جنوب لبنان اليوم وتشرف على الجولان.

[166] تاريخ الأمير فخر الدين المعني، الصفحة 5.

وقد أدى تطور الأوضـاع -بعد ذلك- إلى نشـوب معركة في القنيطرة سـنة 1022 للهجرة [1613م]، بين ابن قانصوه والشيخ عمرو، من جهة، وصوباشي القنيطرة والشيخ رشيد وقبيلة السردية، من جهة أخرى.

وكان الشيخ عمرو قد سبق أهله، وجاء ليخبر الأمير فخر الدين المعني الذي كان مقيمًا في قلعة بانياس [الصـبيبة]، فوصـل ليلًا وطرق على باب القلعة، فتكاسـل البواب ولم يُعلم الأمير فخر الدين، فلما أصـبح الصـباح وفُتح باب القلعة، دخل الشـيخ عمرو إلى الأمير، وأعلمه أن أهله قادمون وراءه، وأن شـيخ السـردية وصوباشي[167] القنيطرة وراءهم. وفي الحال ركب الأمير فخر الدين بالرجال الذين كانوا مع الشيخ عمرو، وتوجه نحو القنيطرة؛ فوجد الأمير حمدان وعرب الشيخ عمرو نازلين في مرج اليعفوري (قرب مسعدة)، والشيخ رشيد والصوباشي عادوا من أرض القنيطرة.

وأقام الأمير فخر الدين ذلك اليوم في بيوت الأمير حمدان والشـيخ عمرو، وأكل ضـيافتهم، وطيب خاطرهم، ووعدهم بكل خير، وأقام الأمير حمدان والشـيخ عمرو في بلاد الأمير فخر الدين أكثر من شـهر، وطلبا من الأمير أن ينصـرهما، ويعيدهما إلى بلادهما، غير أنه اعتذر، وطلب منهما الصـبر بانتظار الجواب من الأسـتانة. ونتيجة إلحاحهما عليه عيّن الأمير فخر الدين مكانه ابنه الأمير علي، وكان عمره -إذ ذاك- خمس عشرة سـنة، ومعه من العسـاكر ما ينوف على ثلاثة آلاف خيال وراجل، وغادر بانياس برفقة الأمير حمدان والشـيخ عمرو ونزلوا مرج برغوث شـرق خان أرينبة، ورحلوا منه إلى نهر المدان، قرب مزيريب، وفي يوم رحيلهم من المدان التقى الجمعان، عسـكر الأمير فخر الدين، وعسـكر والي

---

[167] الصوباشي مأمور الشرطة المسؤول عن عدد من الجنود في القرى والأقاليم بهدف المحافظة على الأمن.

الشام، ووقعت المعركة بينهم يوم الجمعة غرة شهر ربيع الثاني سنة 1022هجرية [1613/5/21م]، في مزيريب عند البجة بأرض حوران. وهُزم الأمير فروخ بك وكنعان بلكباشي ومن معهما من عسكر والي الشام[168].

ويبدو أن الأمير فخر الدين قد استفز والي دمشق حافظ باشا بتحديه له، فبدأ يجمع الحشود للانقضاض على الأمير المعني، بدعم من الأمير يونس بن حرفوش، حاكم بعلبك والبقاع، والأميرين: أحمد الشهابي وعلي الشهابي، حاكما وادي التيم. فلما وصلت العساكر المذكورة إلى الشام رحل حافظ أحمد باشا إلى المفقر.

تحصين قلعة الصبيبة

وتدارك الأمير فخر الدين أموره، ووضع في كل واحدة من قلعتي بانياس الصبيبة والشقيف من الرصاص والبارود والعازق ما يكفي العسكريين فيها خمس سنين، ووضع فيهما لعلف السكمانية مئة ألف قرش، وجعل على عسكر قلعة بانياس حسين اليازجي سردارًا [169] وبها عشرة بلوكباشية [170] على ألف جندي راجل، وعلى عسكر قلعة الشقيف طويل حسين بلوكباشي، وبها خمسة من البلوكباشية على أربع مائة جندي راجل أيضًا، وكل من كان منهم متزوجًا أدخل زوجته معه

[168] المصدر السابق، ص8 و 9.

[169] السردار قائد الجيش.

[170] البلوكباشي ضابط يتولى قيادة سرية.

إلى القلعة. ووضع الأمير حريمه في القلعتين، ولم يأخذ معه منهن إلا واحدة، وهي خاصكية بنت ظافر[171].

وازدادت حشود المعادين للأمير فخر الدين، فسافر إلى إيطاليا في غرة شعبان سنة 1022 للهجرة [1613/9/16م].

هذا ما كان من الأمير فخر الدين، وأما ما كان من حافظ أحمد باشا، فقد رحل بالعساكر من المفقر إلى سعسع، ومنها إلى القنيطرة ثم إلى الحولة، وأرسل ثلاثة أنفار إلى قلعة بانياس؛ ليعطوا على لسانه القول والأمان لمن فيها، ويسلموا القلعة من غير قتال، فقتل رجال قلعة بانياس الصبيبة رسل والي دمشق، ورموهم من أعلى السور.

وكان قد حضر لمؤازرة والي دمشق باشا غزة محمد باشا بن أحمد، والأمير ابن طرباي بجماعتهما، ونزلا هناك، فلما رأى السردار صمود قلعة بانياس (الصبيبة)، وأنها لا تؤخذ، منيعة لا يجدي معها الحصار، رحل عنها إلى الطيبة، ومنها إلى مرج عيون[172].

وعندما عاد الأمير علي بن فخر الدين المعني من رحلة الطويلة في البادية، انتخب الشيخ عمرو عشرين رجلًا من خيرة خيالته؛ ليوصلوا الأمير علي إلى بانياس، ومع انبلاج الفجر وصلوا إلى غابة القنيطرة، فأرسلوا مجموعة من الخيالة إلى بانياس؛ ليستطلعوا لهم الأخبار عن عساكر والي دمشق، وليعلموا حسين اليازجي في القلعة بمجيء الأمير علي؛ فخرج اليازجي ورجاله إلى الأمير علي الذي كان

---

(171) المصدر السابق، ص 12.

(172) المصدر السابق، الصفحة 19.

دخوله إلى قلعة الصبيبة في خامس شهر ذي الحجة سنة 1022 للهجرة [1614/1/17م]، وكان في أثناء غيابه في البادية منقطعًا عن أخبار والده، فقيل إنه سافر في البحر، وعيّد الأمير علي والشيخ عمرو وجماعته في قلعة بانياس (الصبيبة) عيد الأضحى(173).

في غرة شهر ربيع الأول سنة 1024 للهجرة [1615/3/31]، توجه حافظ باشا والي دمشق ومعه عسكر وانكشارية(174) الباب العالي، ونزل بقرية سعسع، ومنها إلى القنيطرة، ثم إلى جسر بنات يعقوب، ثم إلى بركة الملاحة قاصدًا قلعة الشقيف للمحاصرة، فأتاه خبر عزله من الباب العالي بأحكام سلطانية، فعاد إلى دمشق، ونظر في مصالحه، ودخل متسلم الشام الجديد جركس محمد باشا إليها(175).

وكان والي دمشق الجديد، جركس محمد باشا، قد راسل الأمير فخر الدين، وأرسل عبد الرحمن آغا من أعيان دمشق، ليتكلم مع حسين اليازجي؛ لتسليم قلعتي بانياس والشقيف، فكان جوابه أنه لا يمكن تسليمها تسليمًا تامًا، ولكن لأجل حرمة السلطان يتعين لبانياس آغا وثلاثون نفرًا من القبوقول(176)، ولقلعة الشقيف أوضة باشي(177)، وعشرون نفرًا من القبوقول أيضًا، ويكون للسلطان خدمة

(173) المصدر السابق، الصفحتان 30 و31.

(174) الانكشارية طائفة من الجنود العثمانيين غير النظاميين تميزت بالفوضى.

(175) المصدر السابق، الصفحتان 40 و41.

(176) القبوقول تعني بالتركية عبيد الباب، ويقصد بها جنود السلطان وهم نوع من العسكر النظامي الذي يأخذ أوامره مباشرة من الباب العالي.

(177) الأوضة باشي ضابط للشؤون الإدارية.

مئة ألف ذهب، وللوزير الأعظم خمسة وعشرون ألفًا من الذهب، ولباشا الشام عشرون ألفًا[178].

وعند عودة الأمير فخر الدين من إيطاليا علم باتفاق حسين اليازجي مع السلطنة العثمانية، التي أعطى وزيرها الأعظم محمد باشا أحكامًا بسنجقية صفد للأمير يونس المعني، وسنجقية صيدا وتوابعها للأمير علي، وأرسل معهما يوسف آغا ومحمد آغا، مع خمسين نفرًا من القبوقول ليكونوا في القلاع كما اتفقوا [179].

الأمير فخر الدين وأهالي فيق

وفي سنة 1027 للهجرة [1618م]، ألح الوزير أحمد آغا قبوجي باشي في طلب متأخرات المال الواجب دفعه للسلطنة، وقد تراكم لثلاث سنوات؛ فسأل الأمير فخر الدين ولده الأمير علي: هل لك على البلاد مال؟ فذكر أن له على بلاد صفد القسط الثاني المعتاد أخذه في زمن الزيت، وهذا أوان أخذه، فتوجه الأمير فخر الدين بنفسه إلى عكا، ووزع الجباة، وأبدى لينًا مع السكان لجمع المال المذكور، في وقت هرب فيه مشايخ بلاد بشارة بيت شكر وأولاد علي الصغير إلى الأمير يونس ابن حرفوش في بعلبك، كذلك هرب من بلاد صفد من قرية المغار الشيخ أحمد الجلاط وأقرباؤه إلى قرية أفيق في الجولان، التابعة لصوباشية القنيطرة.

---

[178] المصدر السابق، الصفحة 43.

[179] المصدر السابق، الصفحتان 45 و46

وصـار آل الجلاط والمغاريون يأتون بين الحين والآخر إلى بلاد صـفد، ويقطعون الطريق، فتوجه الأمير فخر الدين من عكا إلى قرية حطين، وأرسـل إلى الدحاملة؛ ليحضـروا إليه بحجة أنهم يتصـيدون في أرض المنية وطبريا، وتوجه من طبريا ليلًا ومعه أربعمئة مقاتل، عبَر إلى سـهل الأقحوانة في الجولان، وكبس قرية أفيق، من غير أن يعلم أحد من أهلها، وحكم على رجالها ونسـائها وطروشـها **جميعهم**، وقتل من النازحين المغاربيين الذين كانوا عندهم من بلاد صفد نحو خمسة عشر رجلًا، وهدم جميع عروشـها، واصـطحب معه جميع حريم النازحين من بلاد صـفد رهينة. واختفى الشـيخ أحمد الجلاط في المتين، وجرح ابن عمه، وعاد الأمير فخر الدين إلى صـفد بالغنائم. وجاء صـوباتشـي القنيطرة، مرسـلًا من باشـا دمشـق، ومعه محمد بلوكباشـي من أعيان الشـام، يتشـفعون في رد طروش أهالي أفيق الذين تعهدوا بألا يؤووا أحدًا من نازحي صـفد، فقبل شـفاعتهم ودفع إليهم طروشهم [180].

وفي سـنة 1034 [1625م]، أتت أحكام سـلطانية بأن يكون الأمير فخر الدين متوليًا على ديرة عربسـتان، من حد حلب إلى حد القدس. ورحل إلى بانياس، وبدأ يعيد بناء القلعة [الصـبيبة] وأرسـل رسـله ليجمعوا له ذخيرة من القنيطرة والجولان وغيرها[181].

ومن كل ما سـبق؛ نلمس مدى أهمية موقع الجولان عمومًا، وقلعة الصـبيبة خصوصًا، التي كانت أشبه بالمقر الدائم للأمير فخر الدين في أثناء تمدد سلطاته. ولكن ذلك لم يدم طويلًا، إذ قُبض على الأمير المعني، ثم جرى إعدامه لتنتهي

---

[180] المصدر السابق، الصفحتان 71-72.

[181] المصدر السابق، الصفحتان، 242-243.

سلالته، وأيضًا طموحاته بتأسيس دولة عربية شرق المتوسط تحت حكمه وحكم أبنائه من بعده.

وصف الجولان

لقد أدى تمرد الأمير فخر الدين على السلطة العثمانية إلى شيوع الفوضى في بلاد الشام عمومًا، والجولان خصوصًا، فانعدم وصول الرحالة والحجاج، سواء كانوا غربيين أم عربًا، ولكن الأمور لم تلبث أن عادت إلى حالتها المعتادة أواسط القرن السابع عشر الميلادي.

وقد زار الرحالة العثماني الشهير أوليا جلبي الجولان، قادمًا من فلسطين عن طريق جسر (بنات) يعقوب سنة 1059 هجرية [1649 م]؛ حيث يصف الطريق من جسر يعقوب إلى القنيطرة بأنها تمر في غابة عظيمة، على مسير ثماني ساعات. ثم يذكر شيئًا عن قلعة القنيطرة التي بناها لالا مصطفى باشا التي تضم خانًا ومسجدًا وعمارة. وبعد مغادرة القنيطرة يمر بقرية طورنجية (طرنجة) ذات الأبنية الحجرية، ومن هناك، وبعد مسير ثماني ساعات، يصل إلى قلعة سعسع، ثم يتابع إلى (داريا)، فقصر أحمد باشا والي الشام.

وبعد أكثر من عشرين سنة، يزور الرحالة إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، المدني الشافعي، المتوفى سنة 1083 هجرية [1672 م]، القنيطرة، سالكًا الاتجاه المعاكس لرحلة أوليا جلبي، أي من دمشق إلى فلسطين، حيث يزودنا بوصف أدق للطريق التي أصبحت المعبر الرئيس من فلسطين إلى دمشق، وبالعكس.

ويصف الخياري عمارة لالا مصطفى باشا، ويذكر شيئًا عن الآثار التي رآها في طريقه إلى جسر بنات يعقوب، وهي على الأرجح آثار مدينة نعران المندثرة، التي تحدث عنها رحالة آخرون.

ويصف الخياري منزول سعسع الذي أنشأه الوزير العثماني، سنان باشا، عام 989 هجرية [1581 م]، بأنه «منزل مخضر الأكناف، به خان عامر، ومسجد حسن قائم بناؤهما، فائق وضعهما، وتكية عامرة جار لها بعض المرتّب، ويتبطن المنزل نهر عذب». ثم يصف الطريق إلى القنيطرة بأنها طريق ذات أحجار كبيرة، «يصعب السير فيها بكل اعتبار، حتى ولو كانت من الذهب المسكوك لعزّ على سالكها السلوك، ترتعش فيها الجمال وعليها الأحمال».

وبعد أن يصل إلى القنيطرة، يصف عمارة لالا مصطفى باشا بأنها «منزل متسع الجهات مخضر العرصات، به مسجد عامر، وخان قائم البناء، ظاهر السناء». ولكن يبدو أن ازدحام المكان منع الخياري وصحبه من المبيت في الخان، فنزلوا في خيمة بجوار المنزول. ومع طلوع الفجر يغادر الخياري وصحبه القنيطرة باتجاه جسر (بنات) يعقوب، ويصادفون في طريقهم «جبلًا عاليًا، وفي أعلاه قبة مرتفعة على يمين المار، ويقال إنها قبر رجل من آل البيت، يقال له أبو الندى، يتبرك بزيارته، ويقال إنه علي -رضي الله عنه- وأنه أضفي بتكنيته بذلك». وبعد مسير ساعتين تصادفهم طريق أكثر مشقة من طريق اليوم السابق، ويلحظون وجود خرائب مهجورة، هي -على الأرجح- خرائب مدينة نعران المندثرة. وأخيرًا يصل الركب إلى جسر (بنات) يعقوب، ومنه إلى جب يوسف في بلاد صفد.

وبعد نحو عشرين سنة من رحلة الخياري، يقوم العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي، المتوفى سنة 1143 هجرية [1730 م]، برحلة إلى فلسطين عن طريق القنيطرة، يدون وقائعها في كتاب «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية».

وقد قام الشيخ عبد الغني النابلسي بعدد من الرحلات و«السياحات الصوفية»، سجلها بعدد من الكتب، منها «الحضرة الأنسية» التي قام بها عام 1101 هجرية [1690 م]، إذ سلك طريق سعسع- القنيطرة – جسر (بنات) يعقوب. وفي هذه الرحلة نقرأ وصفًا دقيقًا لهذه الطريق، ونستطيع أن نتخيل وضع الجولان في ذلك الوقت؛ إذ كانت عمارة لالا مصطفى باشا في القنيطرة في أوج عملها. ويذكر الشيخ النابلسي شيئا عن برد القنيطرة المشهور، ويعلق عليه ببعض أبيات الشعر، ويشير إلى وجود قبائل من التركمان إلى الشمال من القنيطرة، وهذه معلومة جديدة؛ إذ إن قرى تركمان الجولان تقع إلى جنوب غرب القنيطرة، ومنها ما هو قريب من جسر (بنات) يعقوب.

في اليوم الثاني من رحلته يصل ركب الشيخ النابلسي إلى قرية سعسع، وينام هو وصحبه في تكيتها. وكانت ليلتهم «بها مقرورة» والبراغيث فيها تثب عليهم «وثوب الذئاب على غنم الأعراب». فيقول: إنهم أوقدوا لهم النار وقدموا لهم المآكل، وعلف الدواب، ويعلق متهكمًا: «فما أكلنا من ضيافتهم مقدار ما أكلت منا البراغيث ذوات الأذناب».

وفي اليوم الثالث من الرحلة، يسير الشيخ النابلسي وصحبه في الطريق الوعر الذي يسمى نقّار سعسع، وبعد أن يتجاوزوه، يلتقون بقوم من التركمان، يقول: إن عندهم «خيرات كثيرة، فأضافوا بما يسّره الله تعالى لنا من الزاد، وما خاب من

كان نزيل الأجواد». وبعد أن يسلك الشيخ وصحبه طريقًا بين جبال ووهاد، يصلون إلى القنيطرة مساءً، وينزلون تكيتها. وبعد أن صنعوا لهم العشاء وقدموا لهم علفًا للدواب، ينشد الشيخ قصيدة ساخرة عن برد القنيطرة، التي لم تسم بهذا الاسم إلاّ لأن البرد يعبر عليها من جبل الشيخ.

وفي اليوم الرابع من الرحلة، المصادف يوم الخميس 20 جمادى الآخرة/30 آذار/ مارس، يتهيأ ركب الشيخ النابلسي للذهاب باتجاه جسر يعقوب، ويمرون في طريقهم بقبة الشيخ أبي الندى التي سبق أن ذكرها الخياري، ثم يذكر مرورهم بمكان يسامت قبر الصحابي المشهور عكاشة بن محصن، (تل عكاشة)، إلى أن يصلوا إلى مكان قريب من جسر يعقوب، فيه غدير ماء، هو -على الأغلب- عين نعران، يتناولون فيه الطعام، ويصلّون الظهر ويتابعون سيرهم باتجاه الجسر ثم إلى فلسطين، وفي طريق العودة، وهو اليوم الثاني والأربعين من أيام الرحلة، يذكر الشيخ النابلسي أنه وصحبه باتوا ليلتهم في خان جسر يعقوب، وهو خان مهجور، كما يبدو من رواية الشيخ؛ إذ اتخذته الحيوانات مسكنًا، فكانت ليلة كئيبة على الشيخ وصحبه، كما يظهر ذلك من أبيات الشعر التي ألفها من وحي المكان.

وفي اليوم الثالث والأربعين من الرحلة التي كرسها الشيخ «لزيارة الأنبياء والأولياء والصالحين»، يذكر شيئًا عن الطريق المرصوفة بالأحجار، التي سبق أن تحدث عنها الخياري في رحلته، وبعد تعثّر في مسار الرحلة؛ نتيجة مرض دابة من دوابهم، يخبرنا الشيخ النابلسي شيئًا عن غابة القنيطرة التي ذكرها أوليا جلبي، فيصفها بأنها «طويلة عريضة»، ويشير إلى خطر قطاع الطرق الذين يتخذونها مكانًا آمنًا لهم. وبعد تجاوز المحنة التي مرت بهم، يتابع الشيخ وصحبه سيرهم، ويلتقون بـ «قوم

من العرب نازلين في بيوت الشعر»، وعلى الأرجح هؤلاء من أبناء قبيلة الفضل الذين يرعون في هذه المنطقة من الجولان، منذ قرون خلت، ولم يكن معروفًا عنهم عادة السلب التي كان يشتهر بها بعض البدو، ذلك؛ لأنهم أكرموا الشيخ وصحبه، وقدموا لهم الزاد، وأبدوا لهم الود في الكلام، بحسب ما يقول.

وعند وصول الركب إلى القنيطرة يستقبلهم قاضيها، ويتأخر خطيبها الذي كان خارجها. وبعد ليلة هانئة يغادرون إلى سعسع، فدمشق.

وبعد نحو عشرين سنة، يقوم الشيخ مصطفى الصديقي البكري المتوفى سنة 1162 هجرية [1749 م] برحلة من دمشق إلى القدس بدأت في عام 1122 هجرية [1710م]، سجل تفاصيلها في مؤلف بعنوان «الخمرة المحسية في الرحلة القدسية».

بدأ الصديقي رحلته من دمشق في 19 محرم 1122 هجرية/ 20 آذار/ مارس 1710 مع مجموعة من الناس، وصفهم بعبارة «ركب الزوار للآثار»، ثم قال -لاحقًا- إن بينهم تجارًا، ونظرًا إلى صغر سنه -نسبيًا- حين قام بالرحلة (كان في الثانية والعشرين)، فإنه كان برفقة خاله السيد يحيى الموقّع، الذي يذكره باستمرار حين يقوم بعمل ما... وذكر حين مروره بالقنيطرة أن خطر قطاع الطرق في منطقتها كان قائمًا، ويدل هذا على انهيار الأمن في هذه المنطقة القريبة من دمشق، ويذكر الصديقي مبيته في الخان عند جسر يعقوب.

خراب القنيطرة

وبعد نحو عشرين سنة أيضًا، يزور الرحالة، مصطفى أسعد اللقيمي، المتوفى سنة 1178 هجرية [1759 م]، القنيطرة في طريقه من القدس إلى دمشق، ويذكر أن خانها قد أصابه الخراب، وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب والتساؤل! ويدون أخبار هذه الرحلة في كتاب «موانح الأنس برحلتي لوادي القدس» التي أطلعنا عليها مخطوطةً في مكتبة الأسد الوطنية.

بدأ اللقيمي رحلته إلى فلسطين والشام من دمياط، بتاريخ 8 ذي القعدة 1143 هجرية [15 أيار/ مايو 1731م]. وقدم إليها برًّا عن طريق قطية والعريش، وبعد أن يزور غزة والرملة ويافا والقدس وكثير من القرى، بصحبة صديقه الشيخ مصطفى الصديقي الذي استقر في القدس، يصاب بالإسهال والمغص الشديد، ويكاد يفارق الحياة لولا عناية الله، ثم يتابع رحلته إلى نابلس، ثم جنين، ثم خان عيون التجار، ثم خان المنية، على شاطئ طبريا، قبل أن يصل إلى جسر يعقوب، حيث ينام وصحبه تلك الليلة.

ويقول إنه وصل وصحبه قبيل الظهر إلى «قرية عين نعران، فإذا هي خالية من السكان، تبكي عيونها بفيض الدموع، وتندب أطلالها سكان تلك الربوع».

ويبدو أن جائحة ما قد أتت على أهل هذه البلاد؛ إذ كانت الطواعين تفتك بالناس، وتفرغ بلادًا كاملة من أهلها.

ثم يقول اللقيمي إنهم وصلوا إلى غابة غاصة بالأشجار، هي نفسها التي تكلم عنها الرحالة السابقون، إلى أن وصلوا إلى القنيطرة مساء، ونزلوا في خانها المهجور الذي بات خرابًا الآن، ولا نعلم سببًا لذلك، ولا نستطيع أن نفسره إلا بجائحة

الطاعون، ربما، ويستطرد اللقيمي في وصف برد القنيطرة، على الرغم من أنه وصلها في 22 أيلول/ سبتمبر! ثم بعد مغادرة القنيطرة يصل إلى سعسع، التي ما زال خانها عامرًا، لم تصله يد الخراب.

والغريب أن القنيطرة كانت عامرة حتى عام 1714 ميلادي، إذ يذكر ابن كنان في يومياته أنه في سنة 1119 للهجرة [1707م]، ذهب قرا محمد باشا نحو القنيطرة محافظًا[182]. وفي سنة 1126 للهجرة [1714م]، توفي الشيخ أبو بكر أفندي، خطيب القنيطرة[183].

وهذه الأخبار تفيد في تحديد الوقت الذي فرغت فيه القنيطرة من سكانها، وهو بين عامي 1714 و1731.

وكان لافتًا للنظر أن يستثني رجل الدين الإنكليزي، ريتشار بوكوك، بعد رحلة اللقيمي بسبع سنوات، الجولان من رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة التي قام بها، وإن كان قد زار منطقة البطيحة، وحاول البحث عن موقع مدينة بيت صيدا التاريخية التي فُقد أثرها منذ قرون. ووصل إلى جسر بنات يعقوب، من جهة صفد، دون أن يعبره؛ خشية قطاع الطرق الذين كانوا -على ما يبدو- يسيطرون على الأوضاع في قضاء القنيطرة[184].

ويفيدنا خبر إرسال أسعد باشا العظم، والي الشام، عسكرًا لعرب آل فضل سنة 1168 للهجرة [1754م]، وقيامهم بنهب مالهم وطرشهم وبعض عيالهم[185]،

---

[182] ابن كنان، يوميات شامية، ص125.

[183] المصدر السابق، ص 154.

[184] Richard Pococke, A Description of the East and some other countires.

[185] البديري، ص 231.

بأن علاقات هذه القبيلة التي سكنت الجولان منذ قرون، لم تكن على ما يُرام مع السلطات العثمانية، بل كانت عدائية

زلزال مدمر

في سنة 1172 للهجرة [1758م]، في ليلة الثلاثاء ثامن ربيع الثاني من تشرين الثاني[186] في الثلث الأخير من الليل، وقعت زلزلة خفيفة، وتبعتها ثانية، ثم ثالثة زُلزلت منها دمشق زلزالًا شديدًا، وفي هذه الزلزلة وقع خان القنيطرة على كل من كان فيه، فلم يسلم من الدواب والناس إلا القليل، وكذلك خان سعسع، وقد وردت الأخبار إلى دمشق الشام أن بعض البلاد والقرى تهدمت على أهلها؛ فلم يسلم منها ولا من دوابها أحد[187].

ويبدو أن بعض المسافرين من فلسطين، أو إليها هم الذين قضوا في هذا الزلزال، الذي ساد اعتقاد مغلوط لدى كثير من الباحثين بأنه سبب خراب القنيطرة التي خربت قبل هذا التاريخ بأكثر من ثلاثين سنة.

---

[186] الصحيح كانون الأول

[187] المصدر السابق، الصفحتان 260-261.

الترميم الأخير للصبيبة وتدميرها

وفي سنة 1174 للهجرة [1760م]، وقع شقاق بين الأمير سليمان الشهابي، حاكم حاصبيا، وأخويه؛ الأمير إسماعيل الشهابي والأمير بشير الشهابي، بعد أن أظهرا له طمعهما في الولاية؛ فاسترضاهما بأن اقتطع ناحية الحولة التي كانت تضم قرى سفوح الحرمون أيضًا، وولاهما إياها؛ فنهضا إليها، وجددا عمارة قلعة بانياس [الصبيبة] التي فيها وتوطناها. فارتاب منهما أخوهما الأمير سليمان، فدس رسالة إلى عثمان باشا الصادق الكرجي، والي الشام في ذلك العصر، أظهر فيها عدم رضاه عن إقامتهما في قلعة بانياس [الصبيبة]، ونسب إليهما في الرسالة عزمهما على الخروج على الوالي. وقيل إنه استنهضه إليهما؛ فنهض إليهما الوزير المذكور بعسكر وافر، فحصرهما في القلعة المذكورة، ثم استولى عليها بالأمان وأخرجهما منها. وهدم ما كان قد جدده الأميران المذكوران، ولما خرجا منها سار الأمير بشير إلى حاصبيا [188]. وفي سنة 1178 للهجرة [1764م]، أصلح الأمير إسماعيل الشهابي بن الأمير نجم حاكم حاصبيا، قلعة بانياس [الصبيبة]، وعمّر ما كان قد تهدّم منها منذ أيام المعنيين، واتخذها مسكنًا له. فحضر إليه عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام، وحاصره مدة وجيزة. وكان حين بلغه خروج عثمان باشا من الشام، أرسل يستنجد بالأمير منصور الشهابي، وقبل أن ينجده سلم القلعة ليوسف آغا ابن جبري، كاخية عثمان باشا؛ فقبض عليه الباشا، وأخذ منه خمسة وعشرين كيسًا، ونهب كل ما كان في القلعة من أثاث وذهب، ثم أمر بهدمها[189].

---

[188] أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين- م1، ص 53.

[189] المصدر السابق، ص 66-67.

مظاهر الحياة الاجتماعية

ليس من السهل الإحاطة بمظاهر الحياة الاجتماعية في المرحلة الأولى من العهد العثماني التي تمتد في مدة ثلاثة قرون، من فتح سليم خان بلاد الشام؛ وحتى حملة نابليون على مصر وفلسطين.

ولكن المعطيات القليلة المتيسرة بين أيدينا، تشير إلى أن شيئًا من الاستقرار ساد في الجولان خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي؛ بسبب تسلم شخصيات بارزة في التاريخ العثماني ولاية شام شريف، بمثل مصطفى لالا باشا، وسنان باشا، هؤلاء الذين تولوا الصدارة العظمى، وحققوا للسلطنة أمجادها، وبوضعهم ولاة على سورية، إشارة كبيرة إلى الأهمية التي كان يوليها الباب العالي لهذا البلد الذي يمر فيه طريق الحجاج، ويجسد هيبة الدولة التي أخذت على عاتقها الولاية الدينية لعموم المسلمين السنة في العالم.

إن حديث وقفية مصطفى لالا باشا عن عشرات القرى العامرة بفلاحيها، في شمالي الجولان تحديدًا، يقطع أي شك في أن هذه القرى كانت فارغة من سكانها عند انتقال السلطة من المماليك إلى العثمانيين، وقد أُحصي أكثر من ثمانين قرية ومزرعة، تقع في ناحية الشعْراء والحولة، في وقفية لالا باشا[190].

---

(190) تيسير خلف، وثائق عثمانية حول الجولان، ص 15-20.

إضافة إلى ذلك، فإن هذه الوقفية تعطينا فكرة عن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في الجولان مطلع العهد العثماني، وهي نفسها الموروثة عن المماليك.

وهي كما يأتي:

1- ناحية الحولة، وتتبع دمشق مباشرة.

2- ناحية الشعراء، وتتبع دمشق مباشرة، وهناك تداخل بينها وبين الحولة.

3- ناحية الجولان، وتتبع لواء (سنجق) حوران.

4- ناحية الجولان الغربي، غير واضح أي لواء تتبع.

5- ناحية الجيدور، وتتبع دمشق مباشرة. وهذه الناحية كانت تضم أجزاء واسعة من أراضي الجولان الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من القنيطرة، مثل جبا ومسحرة والكوم، وما يجاور ذلك.

ومن خلال قصة الأمير فخر الدين المعني الثاني مع أهالي قرية فيق، نستطيع أن نؤكد أن فيق كانت قرية كبيرة في ذلك الزمن، ويمارس أهلها الزراعة ولديهم قطعان كثيرة من الماشية. وتربطهم -أيضًا- أواصر كثيرة مع أهالي صفد في فلسطين؛ إذ أجاروا شيخ قرية المغار، أحمد الجلاط، وجماعته، عندما فر من دفع الضرائب.

ومن المعطيات التي نستخلصها من رحلات القرن السابع عشر، نستطيع أن نجزم بأن المنطقة المحيطة بطريق القنيطرة – جسر يعقوب، في الجولان الأوسط، فرغت من سكانها الفلاحين، إما بسبب جائحة طاعون، أو بسبب اضطراب

الأمن؛ ما أدى إلى فقدام مصادر تمويل أوقاف مصطفى لالا باشا، ومن ثم؛ هجرها القائمون عليها، وهذا ما يفسر عدم مصادفة أي من الرحالة فلاحين في طريقهم إلى فلسطين، باستثناء قرية طرنجة التي كان يسكن قربها -أيضًا- رعاة تركمان، بحسب ما يذكر أوليا جلبي منتصف القرن السابع عشر، وربما يفسر هذا انتشار لقب الشعراني أو الشعراوي في المدن والقرى معظمها في بلاد الشام، إذ إن حملة هذا اللقب الذي كان يطلق على أبناء شمال ووسط الجولان، نسبة إلى ناحية الشعْراء، قد يكونون من النازحين عن هذه المنطقة في المدة المقصودة.

ويبدو أن الفئة الوحيدة التي حافظت على وجود دائم وسط الجولان هي البدو، من العرب والتركمان الذين يذكرهم أكثر من رحالة في ذلك الوقت، وعلى رأسهم الشيخ عبد الغني النابلسي، وإن كنا لا نملك معطيات كافية عن منطقتي الحولة والزوية الزراعيتين.

بعد حملة نابليون

قُبيل حملة نابليون على مصر وفلسطين، وبعدها بقليل، كان أحمد باشا الجزار الحاكم الوحيد في المنطقة التي يقع الجولان فيها، ولذلك؛ كان من بقي من الفلاحين والبدو، يعاني جبروته الذي لا يرحم.

وكانت محاصيلهم ومواشيهم عرضة لنهب رجاله من ألوية المرتزقة، المجلوبين من مشارق الأرض ومغاربها.

وفي أحداث سنة 1219 للهجرة [1804م]، يذكر صاحب تاريخ لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، أن أحمد باشا الجزار أرسل من ينهب طروش عرب الحولة والجولان وساحل عكا، وكان مجموع ما جرى نهبه أكثر من مئة ألف رأس، ثم صارت القبائل العربية تستفكّه بالدراهم، بعد أن طرحه في جميع البلاد إلى حدود غزة[191].

إضافة إلى ذلك، فصل الجزار فيق عن قضاء القنيطرة، وضمها إلى بشالك عكا، فقد كانت المنطقة الوحيدة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن التي تتبع عكا، كما يذكر الرحالة السويسري، بوركهارت، ذلك؛ لكونها معبرًا مهمًا من حوران وجنوب الجولان إلى طبريا وفلسطين.

وقد عانى أهالي فيق هذا الضم كثيرًا، حتى أن مطلبهم كان طوال تلك المدة، العودة عن هذا القرار، لما تسبب به من ويلات، أدت إلى نزوح معظم أهالي فيق من بلدتهم، وإقامتهم في قرى منطقة الزوية الأخرى، مثل العال وسكوفيا والياقوصة شكوم، وغيرها.

على أن حملة نابليون على فلسطين في العام الأخير من القرن الثامن عشر، أيقظت المارد الاستعماري الأوروبي الذي أخذ يبحث عن موطئ قدم في بلادنا، على حساب السلطنة العثمانية المتهالكة، فبدأ الصراع على هذه الأرض التي كانت مهملة منذ ثلاثة قرون.

---

[191] أحمد الشهابي، م2، ص 407.

بلدانية الجولان في القرن التاسع

وقد زار الجولان في السنة الأخيرة من عمر الجزار، مطلع عام 1805م، الرحالة والطبيب الألماني، أولريخ سيتزن، الذي زودنا بكثير من المعطيات التاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بالجولان، قبل قرنين من الزمان، من خلال هذه الرحلة القيمة. ولعل النتيجة التي نصل إليها بعد قراءتنا لهذه الرحلة، هي أن الفاعليات الاجتماعية والسكانية التي يتحدث عنها، هي نفسها التي كانت موجودة قبل الاحتلال الإسرائيلي للجولان عام 1967؛ فنجده يذكر قبائل وعشائر العرب والتركمان البدو، ويذكر أن أمير الفضل هو حسن الفاعور، ويشير إلى أنهم يقيمون في سهل الحولة إلى جانب الغوارنة الذين يسهب في وصف دقائق حياتهم، كذلك يتحدث عن الدروز والمسيحيين في قرية عين قنية، والنصيرية (العلوية) في قرى الغجر وعين فيت وزعورة، وعن عشيرة الويسية التي صادفها ترعى مواشيها في جنوب بحيرة الحولة، ثم يتحدث عن التلاوية في البطيحة، وقصة الثأر بينهم وبين الويسية، وعن عرب المناظرة في جنوبي الجولان.

وفي وصفه لقرية بانياس التي يصفها بالتعيسة، يذكر أن سكانها «مسلمون يفلحون أراضي بعض أثرياء حاصبيا، منازلها مبنية من الحجارة، ولكنها منخفضة وبائسة». وفي موضع آخر يذكر أن عدد منازل القرية لا يتجاوز الـ 20 منزلًا.

ويذكر سيتزن أن في المنطقة «يوجد 3 قرى، سكانها جميعهم من النصيريين المزارعين، هي «عين فيت»، و«عين الغجر» و«الزعورة» على بعد 8 ساعات باتجاه جنوب غرب حاصبيا». ويقول: إن إحدى القرى على بعد ساعتين جنوب بانياس، والأخرى على بعد ساعة ونصف غرب بانياس، ويشير إلى وجود مزار

واحد في «عين الغجر» [هو قبة الأربعين]، ثم يدون معلومات سمعها من مصادره حول سرية المذهب النصيري، وبعض عاداتهم الاجتماعية، مثل امتناعهم عن أكل «لحم حيوان إلا إذا كان صحيح الأوصاف، بدون أي علة ظاهرة، كأثر جرح أو حرق، أو كان قرنه مكسورًا... إلخ». أو امتناعهم -أيضًا- عن أكل «لحم البقرة أو أنثى الغنم والماعز، ولا الثيران التي يحرثون بها الأرض». وفي تأكيده على شفاهية المعلومات التي حصل عليها، ينسب إلى دليله البدوي يوسف رؤيته لـ«نصيري عند البدو، أوقد نارًا صغيرة طوال الليل».

ويشير سيتزن إلى وجود «بعض النمور الرقط والدببة، وكثير من الذئاب والضباع في جبل الشيخ، إضافة إلى «الجقيلات» [بنات آوى] التي تصل حتى أبواب القرى، وبعض أنواع النموس، وقليل جدًا من الفهود. أما النموس، فهي تحب أكل الدجاج، بطونها من اللون الأبيض وباقي جسدها من اللون الأسود الممزوج بالبني، وتُصطاد الفهود بواسطة فخاخ من الحديد. ويوجد -أيضًا- السلحفاة البرية والبرمائية التي يسميها البدو اللجة».

ويصف سيتزن الطريق نحو بانياس بأنه مليء بالأشجار التي استراح -هو ورفاقه- تحتها لتناول الفطور، ويذكر أن شيخ عرب الفضل يدعى حسن الفاعور. [وهو -هنا- لا يميز بين شيخ وأمير، فالصواب أن حسن الفاعور أمير عرب الفضل].

بعد ذلك، يمرون «بقرية مهدمة اسمها حلتا»، يصادفون فيها فرقة من النَوَر القادمين من جهات صفد، ويصفهم بأن «معالم الفقر بادية عليهم، فمنهم قارع الطبل، والبهلوان والمتشرد، وهم لا يعملون بالزارعة، ولا يملكون بقرًا ولا جمالًا ولا غنمًا، بل بعض الحمير والأحصنة وحسب».

ويحدد موقع قرية صردا التاريخية في شمال الحولة، على يمينهم، ومن جهة اليسار، على سفح الجبل، يشير إلى مزرعة صغيرة اسمها ترويعة (Trúe) [الصواب مزرعة خرويعة]، ينمو فيها ثمر البلوط بكثرة، إذ يقفز ذئب وغزال أمامهم.

وأخيرًا يصلون إلى قرية النخيلة (Nchély) التي يقول: إنها «تقع في سهل مموج قرب بحيرة الحولة، ويعيش فيها «عرب شام» وأميرهم اسمه عصبة (Asbe)، وهؤلاء هم -أيضًا- من العرب المزارعين الذين يعيشون في الخيام».

واتجه سيتزن وصحبه إلى قلعة الصبيبة، عبر مساحة مزروعة بشجر الزيتون. حيث يشاهدون في الجبال كثيرًا من الغزلان التي اصطاد المكاري عددًا منها، ويشير إلى أن ثمن الغزالة كبيرة الحجم يبلغ أربعة قروش، ويجدون -أيضًا- آثار حوافر خنازير برية.

وفي القلعة يعثر سيتزن على كتابات عربية، تشير إلى عماد الدين.. النا.. بن البرهوت، ونقوش أخرى ترجع إلى الملك الظاهر، وثالثة إلى الملك عماد الدين [ابن]عثمان. والمؤكد أنه لم ينقل الكتابات نقلًا صحيحًا.

وعن القلعة يكتب سيتزن أنها «تقع على قمة جبل ضخم مسنن، يفصله عن بدايات جبل حرمون وادٍ سحيق، يسمى وادي الخشبة، وله قمة متطاولة، وقد تطلب منا الصعود إليه مع بغالنا ما يضاهي نصف الساعة، وصادفنا فوق الجبل قطيعًا من الماعز».

ومن القلعة يصف المشهد الذي يبدو له، فيرى قرية جباتا على جبل عال، ويحدد موقع بركة ران [بحيرة مسعدة] في الاتجاه الجنوبي الشرقي، على بعد ساعة من القلعة، وينقل عن الآخرين أن ارتفاع البحيرة يساوي ارتفاع قرية جباتا،

وأن محيطها يبلغ ساعة ونصف الساعة بحيث لا يمكن سماع إطلاق النار من الجهة المقابلة، ويذكر وجود كثير من دجاج الماء فيها.

ويتابع: «على بعد ساعتين جنوبًا، تقع قرية عين فيت النصيرية، وخلفها في الجبال على بعد نصف ساعة منها قرية زعورة، وفي الجهة الجنوبية الغربية تقع قرية عين قنيا، حيث يعيش الدروز والمسيحيون، وفي اتجاه شمال الجبل الذي عليه القلعة، يقع وادي السعار وجبل الصيرة الذي يفصله عن الوادي السحيق سابق الذكر».

وعند وصوله إلى تل القاضي يرى نباتات كثيفة، وثمة حوض للنبع، كما هو الحال في نبع بانياس، حيث كان السيد المسيح يعمّد فيه، كما يسود الاعتقاد.

ويواصل سيتزن وصحبه انحدارهم إلى أن يصلوا إلى قرية شوقا (choka) في أعالي الحولة، وهي مزرعة صغيرة، بحسب ما يذكر سيتزن، وفي السهل الذي تكثر فيه الحجارة، كانت ترعى بعض الأبقار الصغيرة والأغنام، أما الوادي؛ ففيه كثير من شجر الدفلة، أو الغار الوردي.

في الساعة 11 ونصف يصلون إلى نهر الحاصباني، الذي يجري في واد صخري صغير، حيث المجروفات جميعها حجرية؛ حتى في السهل هناك كثير من الحجارة السوداء، وثمة جسر حجري لاجتياز النهر له ثلاثة أقواس، وهنا يلتقون بعدد كبير من العرب البدو مع جمالهم، وأمامهم على الجبل المقابل تظهر قرية أبل التي يسكنها المتاولة [الشيعة]، وتقع شمال المطلة.

ويتجه سيتزن إلى الجنوب من بحيرة الحولة، ويكتب عن ذلك: «رأينا دخانًا كثيفًا يتصاعد من نهاية البحيرة من ناحيتنا ومن نهايتها الثانية، وفي المساء رأينا

شعلة نار، ويبدو أن هذا من فعل الصيادين، ترجلت وتقدمت ماشيًا على الأقدام، كان المرشد البدوي الذي يرافقني يسوق حمارًا محملًا بالذرة التي يبلغ سعر المد منها قرشًا واحدًا، وصلنا إلى نبع قوي [لا يذكر اسمه، وهو عين الملاحة على الأرجح] يحرك طاحونة، حيث يوجد مضرب خيام لعرب الويسية (Luêse-Araber) الذين كانت خيامهم مشدودة على حبال، ولكنها محاطة بحصر مصنوعة من ورق السعد، وجميعهم شيوخ، يؤمون الصلاة في المساجد، ومن هنا يتجه الطريق إلى صفد»، ويبدو أن عرب الويسية كانوا يقضون شتاءهم في ملاحة صفد، كسائر البدو في هذه المنطقة الذين يصيفون في هضبة الجولان، ويشتون في الحولة وبلاد الخيط.

ويلاحظ سيتزن أن «جسر بنات يعقوب في حالة جيدة جدًا، وهو عريض، وله ثلاثة أقواس، ويقدّر عرض النهر بـ 35 خطوة، مع أن الجسر أطول منه بنصف هذه المسافة، وفي النهاية الغربية للجسر طاحونة ماء، يقع الخان في الجهة المقابلة على الضفة العليا، على بعد 100 خطوة من الجسر، والخان مشيد -بأكمله- من الحجارة البازلتية، ولكن داخله يكاد أن يكون مهدمًا تمامًا، وقد يكون حصل هذه التهديم من الكتيبة الفرنسيّة التي أرسلها بونابرت، لمطاردة كتيبة عثمانية في الخان، وطردتها فعلًا».

وفي خان الجسر يلتقي سيتزن «بعدد من جنود متسلّم صفد الذي استأجر الجسر من باشا دمشق؛ لتقاضي أجرة المرور»، ثم يتحدث عن وجود قهوة بائسة، ومتجر يحتوي المواد الغذائية الضرورية، وفي منتصف أرض الخان يلاحظ وجود

بحرة مهدمة، كانت مبنية بحجارة بازلتية جميلة، ويؤكد أن هذا الخان شيّد على ما يبدو في عصور قديمة.

يتابع سيتزن طريقه برفقة دليله البدوي الجديد، حسين الذي أخبره أن شيخ قبيلته [قبيلة الرقيبات على الأرجح] مصاب بمرض في عينه، وطلب منه أن يفحصه، ويلاحظ أن الطبيعة كلها كانت مفروشة بحجر البازلت، ومن بعيد يلمحان بحيرة طبريا، بينما كانا يمران بواد صغير، يعبره جدول، إذ وجدا سبع خيام للبدو الذين أطعموهم الرز بالحليب مع خبز، وهنا يلتقون مع بعض الصيادين القادمين من حاصبيا.

ويركب سيتزن وحسين الخيل لزيارة الشيخ المريض الذي يقيم شرق البحيرة، ويصف بحيرة طبريا بأنها «محاطة من جهاتها الثلاث بجبال عارية، لا ينمو عليها إلا بعض الشجيرات، المنطقة لطيفة، كان طريقنا يجتاز تلال وعرة والحجارة كانت بازلتية خبيثة، مررنا بطاحونة، وأضعت هنا أوراقي، ولذا؛ لم أتمكن من كتابة كثير».

ويتابع: «في جنوبي البحيرة توجد فتحة محاطة بالجبال، بسبب وجود الغور، ووسطها في البعيد يوجد جبل منبسط، يسارًا فوق الجبال الشرقية تقع فيق (Phik)، في الضفة الشمالية للبحيرة يوجد سهل صغير، يتشعب فيه عدد من الجداول».

وأخيرًا، وبعد المرور بجدول صغير، يصلون إلى وادي السمك (Wuadi Zemmâk) حيث يسكن الشيخ حسن المريض، فحص سيتزن عيني الشيخ وتأكد أنه يعاني المياه الزرقاء، والعين مغطاة بأكملها، ولا سبيل لمعالجته إلا بعملية جراحية، لكن موقفه، بحسب ما يقول، فرض عليه ألا يغضب الشيخ تاركًا له

أملًا بالشفاء، فعرض الشيخ عليه، إذا تمكن من إعادة نظره، الحصان الذي ركبه، وهو ليس بالهدية الثمينة طبعًا، فقال للشيخ: «أشكرك يا شيخي على فضلك، وأنا لا أريد منك إلا أن يرافقني شخص إلى الضفاف الشرقية لبحيرة طبريا، لكي أتمكن من جمع بعض الأعشاب الطبية، دع حسين يرافقني، وأنا أؤكد لك أنني سأسلمه بعض الأدوية عندما نصل إلى طبريا التي -إن شاء الله- ستساعدك في الشفاء».

في قرية التلاوية

أعجب الشيخ بعرض سيتزن، ووعده بتلبية طلبه، وفي اليوم التالي، الإثنين 3 شباط/ فبراير، يغادر المكان، ولم يلاحظ إلاّ بعد نصف ساعة أنهم رجعوا -مرة أخرى- إلى قرية التلاوية [البطيحة] التي ينمو فيها الصبّار والألوة، وهي نوع من الصبار يُستخدم في المستحضرات الطبية، ويلاحظ أن المنطقة أمام القرية جميلة لطيفة خصبة، وأرضها سوداء.

ويعاتب حسين على غشه له، وهذا كل ما تمكن من فعله، بحسب ما يقول، إذ إنه أخذ بندقيته في صباح ذاك اليوم، بحجة حراسته، وكان برفقتهم -أيضًا- بدوي آخر، قوي البنية، ولذلك؛ لم يكن بوسعه أن يتذمر أكثر من ذلك!

قطع سيتزن ومرافقاه نهر الأردن قرب إحدى القرى، حيث لم يصل ماء النهر الذي كان غزيرًا، إلا إلى منتصف بطن حصانه، وساروا على ضفة بحيرة طبريا، المكان المفضل لمؤسس الدين المسيحي، بحسب ما يقول، ويضيف: «لا يوجد في كل فلسطين مكانٌ بمثل هذه الطبيعة الخلابة، وزاد جماله ازدهار النباتات في بعض المناطق التي كانت تطوق البحيرة».

وجدوا -هنا في قرية التلاوية [التل]- قطيعًا من الجواميس يرعى، وبعض جداول الماء، قطعوا أحد معابر نهر الأردن، فلم يجدوا -هنا- لا جسرًا ولا قنوات مياه، ومروا بمجموعتين من الأكواخ العربية، وطاحونتين أو ثلاثة طواحين على قناة المياه، في حين كان الجدول مالحًا، وهنا بدأت الأرض تتحول من بازلتية إلى كلسية، بحسب ما يقول.

في قرية سمخ

يصل سيتزن إلى سمخ (شرق بحيرة طبريا)، ويجد نحو 100 بيت من الطين، يعلو كل واحد منها قبة صغيرة، ويلاحظ أن سكان هذه البيوت من المسلمين جميعهم، وينزل سيتزن في بيت أحد مزارعي القرية التي لا يربي سكانها إلا البقر والماعز، ويؤجَّر المرعى بمبلغ 500 – 600 قرش».

ويذكر أن هذه القرية تتبع إداريًا طبريا، مثل أرض الأقحوانة وغور الجولان وفيق. وفيها يمكن اصطياد السمك باليد، بدون صنارة؛ فهذه الطريقة مسموح بها، أما الصيد بالشبكة فممنوع، كما يقول، ويضيف: «لا تزيد مساحة الغرفة التي نمنا فيها عن 7 أقدام مربّعة، وهناك صبي في السادسة من عمره يشكو من حصى الكلية».

قرية فيق

ويصف سيتزن فيق على الشكل الآتي: «يوجد في فيق 100 بيت، أربعة منها لمسيحيين، والباقي جميعهم من المسلمين. البيوت هنا -كما في حوران- مشيدة من البازلت، ومن موقع فيق المرتفع يمكننا رؤية البحيرة عبر العقبة».

ويصادف سيتزن ثمانية صناعيين من بيت لحم، يخرطون حبات المسابح من خشب البطم، وهم يأتون مرة إلى هنا، وأخرى إلى أم قيس؛ حيث يوجد الخشب، فيعملون لمدة ثلاثة إلى أربعة أشهر، ثم يرحلون مع منتجاتهم إلى القدس، ويبدو أن سيتزن قد نزل في بيت مسيحي في فيق وأكل عنده دقّة مع زيت وخبز، كالمعتاد، بحسب تعبيره.

بعد فيق يتوجه سيتزن ومن معه إلى الحمّة في وادي شريعة المناظرة [اليرموك]، ويذكر أن حمة الشيخ نبع دافئ، مثل نبع طبريا، وهي على بعد نحو نصف يوم سفر، جنوب فيق. ويحدد موقع نبع آخر مماثل، على بعد 3 ساعات جنوبًا، من الجهة الثانية لشريعة المناظرة، واسمه «حمة أبو سليم»، وهو على بعد ساعة شرقي الحمة الأخرى، حيث لا بناء عند النبع.

لم يتمكن سيتزن وصحبه من عبور شريعة المناظرة؛ لارتفاع نسبة الماء؛ بسبب الأمطار، فاضطروا للبقاء في المكان، مع أن الطقس جاف والشمس ساطعة ودافئة.

ويلتقي سيتزن مع أفراد عرب المناظرة، الذين يشكو شيخهم من الدودة الوحيدة، ويبدو أنه تخلص منها عن طريق شرب الماء الذي يستخدمه مبيض النحاس في غسل الآنية التي طلاها بالقصدير. ويلاحظ أن أمراض العيون، وخاصة المياه الزرقاء، تكثر هنا بسبب الدخان والظلام في الغرف.

ويذكر سيتزن أسماء بعض شيوخ عرب المناظرة، مثل الشيخ الكبير أبو خاروف، والشيخ أبو سارة، وشيخ العبيد محمد أبو شندوب؛ وهؤلاء، كما يقول، يزرعون البساتين ويبذرون الأرض ويزرعون شجر الليمون الصغير والكبير، والرمان والتين والكرمة الكبيرة، ذات العنب الأبيض، التي تتسلق الأشجار، ويربون النحل، ويزرعون التبغ والقمح والشعير، وكل واحد منهم يملك بستانًا. ويلاحظ أن لون بشرة العبيد -عامةً- يميل إلى السواد مثل الإثيوبيين، ولكن يوجد بينهم بيض البشرة. ثم يذكر أن عندهم كثير من البلح يتغذون به، في ما يبلغ ثمن 300 رمانة -مثلًا- قرشًا واحدًا[192].

وبعد سيتزن بخمس سنوات، يصل إلى الجولان الرحالة الشهير، جون لويس بوركهارت، الذي زار الجولان ثلاث مرات، غطت مناطقه معظمها.

ومن خلال هذه الزيارات نستشف مجموعة من المعطيات المختلفة التي تخص هذا الإقليم، فبوركهارت يؤكد أن منطقة بانياس والقرى المجاورة التي زارها عام 1810، كانت تتبع حاصبيا، و"فيق" والقرى المجاورة لها، وزارها عام 1812، ذكر أنها تتبع بشالك عكا. أما القنيطرة، فكانت خربة هجرها سكانها عندما عبرتها جيوش الوزير[193] إلى مصر، ولكنه يشير إلى سورها المتين وخانها ومسجدها الواسع. ويشير -كذلك- إلى تبعية كثير من القرى، التابعة الآن محافظة درعا، للجولان، مثل نوى وتسيل وحيط وعابدن وزيزون، وغير ذلك.

---

[192] تيسير خلف، استكشاف الجولان.

[193] المقصود هنا الصدر الأعظم الحاج يوسف ضيا باشا الذي قاد جيشًا عثمانيًا قوامه 100 ألف جندي لاستعادة السيطرة على مصر بعد اندحار الفرنسيين عن عكا في أيار (مايو) عام 1799.

لقد غطت رحلات بوركهارت إلى الجولان مدة تاريخية مهملة، لم تتطرق إليها نصوص الرحالة العرب والمسلمين، أو الوثائق العثمانية بشيء يذكر؛ بسبب الفوضى، وحال الضعف التي كانت تعانيها سلطة إسطنبول.

ولا يمكننا إلا أن نتذكر كلمات بوركهارت عن دماثة جلسائه وطيبتهم في بانياس وجباتا الزيت، وكرم الضيافة في فيق، وهي شهادة لم يكررها أي رحالة أتى بعده!.

بانياس وقلعة الصبيبة

في 13 تشرين الأول (أكتوبر) 1810، وصل بوركهارت إلى بانياس، قادمًا من راشيا الفخار، ونزل في مضافة القرية، بعد أن تعرض خلال أربع ساعات من المسير المنحدر لوابل ثقيل من الأمطار. وقد أرسل شيخ القرية له عشاءه مجانًا من دون مقابل. وهو يفعل ذلك -عادةً- مع أي غريب يأتي إلى القرية، كما يقول.

ولكن بوركهارت يشير إلى أن ذلك لا يمنع من إعطاء إكرامية للخادم الذي يجلب الطعام، أو للناطور الذي يحمي حقائب سفر الغرباء من السرقة.

ويؤكد بروكهارت أن بانياس هي نفسها قيصرية فيلبي القديمة التي يرد ذكرها في الكتب القديمة، ويشير إلى أن بحيرة الحولة هي بحيرة ساماخونيتيس.

وبما أنه لم يكن يملك مالًا كافيًا، أو وقتًا لكي يضيعه بالتجول في المنطقة، استأجر بوركهارت -في اليوم التالي لوصوله- فلاحًا من بانياس؛ لكي يرشده إلى القلعة المهدمة، [والمقصود بذلك قلعة الصبيبة المجاورة].

ويذكر أن القلعة تحتل قمة جبل، وتبعد نحو ساعة عن قرية بانياس، وعلى الرغم من أنها مخربة تمامًا، إلا أنها كانت في يوم من الأيام قلعة قوية جدًا، كما يقول.

ويشير بوركهارت إلى أن عدد بيوت قرية بانياس التي تتبع حاصبيا، يبلغ نحو مئة وخمسين بيتًا، مسكونًا في الغالب من الأتراك [الفلاحين العرب]، ويذكر أيضًا وجود يونانيين [مسيحيين أرثوذكس] ودروز ونصيريين بين السكان.

سهرة رمضانية

ويؤكد بوركهارت أن يوم 15 تشرين الأول/ أكتوبر يصادف رمضان، ويقول: إنه سهر تلك الليلة، مع الآخرين، تحت شجرة كبيرة قرب المضافة، وهم يدخنون ويتحدثون.

ويتطرق بوركهارت للدكتور سيتزن الذي سبقه إلى هذا المكان قبل خمس سنوات، وانطلق من هنا باتجاه بحيرة طبريا والحدود الشرقية للبحر الميت، إذ كانت هذه المناطق الموضوع الرئيس لرحلته. ويقول: إن المسيحيين كانوا يعتقدون بأنه مبعوث من الملك الأصفر (وهو اللقب الذي يطلقونه على الإمبراطور الروسي)، لاستطلاع أحوال البلاد تحضيرًا لغزوها، وتخليصهم من نير الأتراك، وعلى العكس من ذلك، اعتقد الأتراك [الفلاحون العرب المسلمون] بأنه، مثل كلّ الغرباء الذين يستفسرون عن الآثار، كان يبحث عن كنز.

في الجانب الجنوبي من قرية بانياس، يشـــير بوركهارت إلى وجود آثار لقلعة منيعة، يخمن من مظهرها ونمط عمارتها أنها بُنيت في الفترة نفســـها مع قلعة الصبيبة.

ويذكر أن للقلعة خندقًا واسعًا، وحائطًا ضمن الخندق، وأنها ما زالت تحتفظ بعدد من أبراجها، ولها جسر فوق وادي كيد (!) الذي يسير فيه سيل شتوي، وهذا الجسر يؤدي إلى مدخل القلعة، الذي كُتب عليه نقش عربي، لم يستطع أن يُتمّ قراءته؛ بسبب عدم وجود سلّم، لكنه استطاع أن يرى كلمة (ستماية و.. هجرية)، وهو تاريخ يتزامن مع عهد الحملات الصليبية. ويشير إلى وجود خمسة أو ستة أعمدة من الصوان تكوّن جُدُر البوابة.

تل القاضي والحولة

ويقول إنه توجّه مسير ساعة باتجاه منبع الأردن في تل القاضي، وفي بداية طريقه، شاهد جبلًا أعلى من جبل بسطرا قيل له: إن اسمه جبل ميرورا جبّا (!). ووصل إلى قبة الأربعين في قرية الغجر، التي قال إن فيها بضع بيوت وضريح شيخ تركي (!).

ويؤكد بوركهارت أن الجزء الأكبر من سهل الحولة غير مفلوح، ويتخذه عرب الفضل والنعيم والتركمان مرعًى لماشيتهم.

وسهل الحولة -كما يقول- غني بمصادر المياه، ففيه يمر نهر حاصبيا، والأردن، ونهر بانياس، إضافة إلى كثير من الوديان التي تنزل من عيون تنبجس من مرتفعات الجولان الشرقية.

في 15 تشرين الأول/ أكتوبر عاد دليل بوركهارت إلى مدينة زحلة، واضطُرّ هو للعودة إلى دمشق بعد أن أصيب بورم منعه من الركوب والمشي؛ لمتابعة السير إلى بحيرة طبريا وزيارة شاطئها الشرقي.

ومع ذلك؛ كان يشعر بالرضا عما أنجزه في هذا الجزء من الرحلة؛ لأنه كان سيضطر إلى المكوث يومين إضافيين للعلاج في إحدى القرى على الطريق، لو أنه بقي يومًا آخر.

وعلى الرغم من أنه يقر بعدم الحاجة إلى النقود للسفر في هذه البلاد، يقول إنه أعطى دليله آخر أربعة شلنات كانت معه.

ويختار بوركهارت الطريق الغربية، من بانياس إلى دمشق، مفضلًا إياها على طريق القنيطرة [يسميها كونيترا] وسعسع التي يتردد عليها الحجاج من دمشق وحلب إلى القدس. ويشير إلى أن هذه الطريق أقل أمنًا لقافلة صغيرة، بسبب غزوات العرب البدو، إذ سمع أنهم سلبوا عددًا من الرجال في أثناء وجوده في بانياس، على عكس الطريق الغربية الآمنة جدًا للغرباء، فلم يضطر لحمل سلاح عندما سلكها قادمًا من دمشق، وبدون مرافق أيضًا.

وحالما أعلن نيته العودة إلى دمشق، نصحه بعضهم في بانياس باصطحاب مرافقين مسلحين، لكنه كان يعرف أن ذلك لا يجدي نفعًا، والأمر -كما رأى- محاولة للابتزاز من بعضهم، دون ضمان سلامته، لذلك؛ قرر انتظار القافلة، ولحسن حظه أن شيخ قرية بانياس كان عنده عمل في دمشق، وكان سعيدًا والشيخ بأن يكونا رفيقين.

بعد الظهر تحركت القافلة من خلف قلعة الصبيبة، وعبرت إلى جانب كثير من أكواخ الفلاحين الصيفية، التي يغادرونها في الشتاء إلى قراهم. وهؤلاء يصنعون الجبن لتوريده إلى سوق دمشق، وفي طريقهم يمرون بعين الحزوري، وتقع قرب ضريح الشيخ عثمان الحزوري، ويزعم بروكهارت وجود مدينة أثرية تقع إلى شمال الضريح، تدعى حازوري.

جبّاتا الزيت

ثم يتحدث عن أشجار البلوط التي تكثر في المكان، وفي وادي خشبة، قرب القلعة، إذ يبلغ ارتفاع بعضها ستين قدمًا. ويصادفون في سيرهم مراعي كثيرة جيدة؛ إلى أن يصلوا إلى قرية جباتا [الزيت]؛ حيث ينامون تلك الليلة عند أحد أصدقاء شيخ بانياس. ويشير إلى أن هذه القرية شأنها شأن بانياس تتبع حاصبيا، وهي مسكونة من خمسين عائلة تركية [يقصد مسلمة]، وعشر عائلات يونانية [مسيحية أرثوذكسية]؛ ويعيشون -أساسًا- على زراعة الزيتون، وتربية الماشية. ويذكر بوركهارت أنه عولج معالجة جيدة من الورم الذي كان يعانيه في المنزل الذي نزلوا فيه، ولبى دعوة شيخ القرية لشرب القهوة، وكما هي العادة في شهر رمضان، قال: إنهم أمضوا الليل في الحديث والتدخين.

ويبدو أن هذه الصحبة قد أعجبت بوركهارت كثيرًا، خصوصًا أنهم لم يبخلوا عليه بالمعلومات عندما رأوا تشوقه لمعرفة أسماء الأماكن والقرى والخرائب في هذه المنطقة.

ويبدو أن الأحاديث في تلك السهرة كانت غنية جدًا، فها هو يخبرنا، نقلًا عن جلسائه، بوجود حيوانات برية مفترسة في المنطقة، وتحديدًا بجوار جبال هيش؛ حيث تكثر النمور، وجلود هذه الحيوانات مرغوبة جدًا من شيوخ العرب البدو، باتخاذها ملابس وسروجًا للخيل، كما يذكر وجود الدببة، والذئاب، والأيائل، أما الخنازير البرية، فقد كان يصادفها في كل مكان.

عابرًا مجدل شمس

في صباح اليوم التالي، 16 تشرين الأول/ أكتوبر، قرر شيخ قرية بانياس الامتناع عن السفر إلى دمشق، بعد أن نصحه أصدقاؤه في جباتا بالعدول عن الفكرة، للمخاطر الجسيمة المحتملة على الطريق، فأرسل خادمه في صحبة بوركهارت إلى دمشق، فخرجوا الصباحَ الباكر، وخلال ثلاثة أرباع الساعة، وصلوا إلى قرية مجدل [شمس] التي قال: إن سكانها دروز، وهناك بعض العائلات المسيحية.

ثم يصف المجدل بأنها تقع على سفح جبل، ويبعد عنها نبع مسير نصف ساعة. وبعد مسير ساعة وربع الساعة يوجد سهل واسع.

ويلاحظ بوركهارت أن الجبل في المجدل يعدّ من أخصب الأماكن للزراعة، ويكثر فيه شجر البلوط وخوخ الدب، هذا النوع من التوت، الذي يقول: إنه يمنح المسافر غذاءً منعشًا جدًا. أما الصخور فكلسية جزئيًا، وهناك صخور بركانية، لكنها أنعم من تلك التي رآها في الحولة.

وبعد ساعة وربع الساعة يصلون إلى بيت جن، التي يقول: إنها تقع في واد ضيّق، على جانبه الغربي كثير من الكهوف المظلمة. ويشير إلى نبع بيت جن الغزير، والطاحونة قربه، ومن هناك، يرون على مسير نصف ساعة السهل على الجانب الشرقي للجبل، حيث الأراضي السهلية المجاورة لحوران.

ويتابعون طريقهم إلى كفر حور، ثم بيت تيما، حيث ينامان تلك الليلة في بيت أحد الفلاحين، ويلاحظ بروكهارت أن المحصول الرئيس في هذه المنطقة القطن.

وفي صباح اليوم التالي، يواصلون سيرهم، فيصلون إلى قطنا التي يصفها بالقرية الكبيرة، ذات البيوت الجيّدة، والحدائق الواسعة، وبعد ثلاث ساعات، يصلون إلى أرض اللوان، ثم كفرسوسة، ثم دمشق التي يصل إليها بعد معاناة شديدة، وألم كبير بسبب الورم.

جنوب الجولان

في هذا الجزء من الرحلة، يزور بوركهارت جنوب الجولان، قادمًا من جبال عجلون، حيث طاف هناك بين وادي الزرقاء والشريعة [وادي اليرموك]، ومن اللافت للنظر أنه يصادف بين حبراص والصما، في منطقة الكفارات، واديًا خصبًا، اسمه وادي العرب، يزرع فيه بنو كلاب بضعة حقول، وبنو كلاب من عشائر جنوب الجولان المعروفة.

وبعد أن يصل إلى وادي اليرموك، قاصدًا فيق، في 5 أيار/ مايو 1812، يدّعي دليله أنه يجهل الطريق، ويقرر العودة إلى حبراص، فيقع بوركهارت في حيرة من

أمره، يعود أم يتابع الرحلة، فتشاء الأقدار أن يلتقي ببعض الفلاحين القادمين من الرمثا في حوران، كانوا في طريقهم إلى الغور؛ لشراء شعير الموسم الجديد، فيلتحق بقافلتهم الصغيرة، ويواصل سفره معهم من أم قيس إلى شريعة المناظرة [وادي اليرموك].

ويذكر بوركهارت أن اسم هذه الشريعة مأخوذ من اسم البدو الذين يعيشون على ضفافه، وهم عرب المناظرة ساكنو الخيام، إذ يتنقلون من مكان إلى آخر، دون أن يبتعدوا عن الوادي. ويقول: إنهم يزرعون القمح والشعير والرمان والليمون والعنب، وأنواعًا أخرى كثيرة من الأشجار المثمرة والخضراوات التي يبيعونها في قرى الجولان وحوران.

ويدخل بوركهارت وصحبه وادي الغور الذي تمكن موازنته بوادي البقاع بين جبال لبنان، وبوادي الغاب في حوض العاصي. ويعدّ بوركهارت هذا الغور من أخفض المناطق في سورية، ودرجة حرارته أعلى من أي منطقة أخرى فيها. وهذا المناخ يجعل منتوجات الغور الزراعية تنضج في وقت أبكر بكثير، فحصاد الشعير الذي لا يبدأ في المرتفعات إلا بعد 15 يومًا، وجده بوركهارت هنا على وشك الانتهاء.

ويشير إلى أن سهل حوران كان مغطى بأنضر خضرة من الأعشاب البرية، بينما جفت كل نبتة في الغور، وبدت الأرض وكأنها في منتصف الصيف. ويستشهد بوركهارت بالرحالة الشهير فولني الذي قال: إن القليل من البلدان يحدث فيها تغييرات في المناخ بصورة مفاجئة، كما هي الحال في سورية. ففي الشمال كان جبل الشيخ مغطى بالثلوج، وفي الشرق مرتفعات الجولان الخصبة مكسوة ببراعم

الربيع، بينما في الجنوب بدت الحياة النباتية الذابلة في الغور، وكأنما لوحتها شمس المناطق الاستوائية.

في سمخ والحمّة

ويعبر بروكهارت مخاضة على الشريعة، باتجاه شمالي غربي نحو سمخ، على الشاطئ بحيرة طبريا الجنوبي، وفي الطريق يصادف أشجار الزعرور ذات الثمار اللذيدة.

ويصف سمخ بأنها تضم ثلاثين أو أربعين بيتًا حقيرًا من الطين، وبعضها من الحجر الأسود. وباستثناء مئة فدان حول سمخ، لا يلاحظ بوركهارت أي جزء مزروع في هذه الناحية، إلى أن تبدأ حقول الحبوب لعرب الغور، وهم السكان الرئيسون في الوادي، أما الذين يعيشون قرب سمخ، فهم عرب صخور الغور والبشاتوة. ويلاحظ بوركهارت أن الشاطئ خالٍ من الأسماك؛ بسبب الصيد المنظم من صيادين يحتكرون هذه المهنة هنا، إضافة إلى أنه خالٍ من أي عشب أو قصب. وأنواع الحصى التي يتكون منها هذا الجانب من البحيرة هي الكوارتز والصوان وحجر التوافيق.

ويشكو بروكهارت من أنه أمضى في سمخ أكثر الليالي إزعاجًا في حياته؛ نتيجة لسع البعوض والحشرات الطفيلية الأخرى. وفي الصباح الباكر من يوم 6 أيار/ مايو، يبدأ رحلة البحث عن الينابيع الحارة في وادي اليرموك، فيصل إلى الحمة على مسير ساعة وثلاثة أرباع الساعة من سمخ، ويلفت نظره ذلك التباين بين سواد الصخور، والخضرة التي تنبعث منها رائحة كبريتية قوية. ويشير إلى نمو عدد كبير

من الشجيرات وبعض أشجار النخيل، ويلاحظ أن الماء الحار يتدفق من حوض مساحته نحو أربعين قدمًا، وعمقه خمسة أقدام، وهو محاط بخرائب من الجُدُر والأبنية، ويشكل في الأسفل جدولًا صغيرًا ينحدر إلى النهر.

ويذكر أن هذه المياه الحارة، التي وجد صعوبة في غمس يده فيها، ترسب على الحجارة قشرة صفراء كبريتية، يجمعها البدو المجاورون لعلاج جمالهم من الجرب.

ويستطرد في وصف بناء الحمة، فيقول: إن الحوض الذي كان مبلطًا، يوجد فوقه -مباشرة- بناء مكشوف مقنطر، مع عمود مكسور، وخلفه حجرات عدة مقنطرة أيضًا؛ لايواء الزوار. ويلاحظ أن الحجارة التي بُني منها هذا المكان باتت منخورة؛ بسبب تصاعد الغازات. ويذكر أن هذا الينبوع يسمى حمة الشيخ [المقلى]، وهو أشد الينابع سخونة، وعلى مسير خمس دقائق هناك ينبوع آخر حوله أبنية قديمة، إلا إنه أبرد من الأول، يسمى حمة الريح. ويعدد بوركهارت أسماء ثمانية ينابيع أخرى صعودًا في الوادي من دون أن يزورها، وهي حمة عند الطواحين، وحمة بيت سراية، وحمة الصوانية، وحمة العريشة، وحمة زور الديك، وحمة الرملية، وحمة مسعود، وحمة أم سليم، وهذه الأخيرة، تبعد عن حمة الشيخ [المقلى] مسير ساعتين ونصف الساعة.

ويذكر بوركهارت أن كثيرًا من الناس يأتون حمة الشيخ [المقلى] في نيسان/ أبريل، وأن أهالي نابلس والناصرة يفضلون هذه الحمة على حمام طبريا، وهم يمكثون هنا -عادة- نحو أسبوعين.

بعد زيارة الحمة عاد بوركهارت ورفاقه في الطريق التي أتوا منها، وبعد وصولهم إلى الغور انعطفوا يمينًا وصعدوا الجبل، فصادفوا في طريقهم خنزيرًا بريًا كبيرًا، ويذكر أن رفاقه أخبروه بأن عرب الوادي لا يستطيعون زراعة الشعير العربي؛ لأن الخنازير البرية تأكله بنهم، ولهذا يضطرون لزراعة نوع أردأ يسمى الشعير الخشّابي؛ لأن الخنازير لا تقترب منه.

وبعد ثلاثة أرباع الساعة من الصعود، يصلون إلى نبع يدعى عين الخان، قرب خان العقبة، الذي يُعدّ معبرًا مهمًا يربط الجولان والأجزاء الشمالية من حوران بالغور.

مضافات فيق العمومية

وبعد نصف ساعة من ذلك، وصلوا إلى قمة الجبل؛ حيث بدأ من هناك سهل منبسط، قادهم بعد أكثر من ساعة إلى قرية فيق. وقد استغرقت الرحلة من سمخ إلى الحمة، ثم إلى فيق، أربع ساعات ونصف الساعة من الطريق التي سلكوها.

وكأنه يعدد البلاد التي يراها أمامه، يخمن بوركهارت مخطئًا أن قرية خربة السمرة التي تبعد مسير ساعة واحدة إلى الشرق من سمخ، وهي القرية الوحيدة المأهولة على الجانب الشرقي من البحيرة، أنها هي التي يتلاءم موقعها مع مدينة هيبوس القديمة.

ويشير إلى وجود أماكن أثرية في شمال البحيرة قرب الشاطئ، مثل دويربان وتلحون [تلحوم]، ومن مسير ثلاثة أرباع الساعة من خان العقبة، قرب قمة الجبل، يحدد وجود قرية مأهولة، نصف مبانيها أثرية، تدعى كفر حارب.

أما البلاد التي تقع شمال الشريعة، وبعد فيق بمسافة قصيرة، فإن الأودية تقطعها، وهناك سهل يمتدّ شمالًا نحو جبل هيش القنيطرة، وشرقًا نحو حوران.

وعن فيق يقول بوركهارت: «فيق قرية كبيرة، تسكنها أكثر من مئتي عائلة. وتقع على رأس وادٍ يحمل اسم البلدة، وعلى حافة الجبل الذي يحصر شاطئ طبريا الشرقي، ولها إطلاله خلابة على الجزء الأوسط من البحيرة. لوادي فيق ثلاثة ينابيع، تنبع من تحت جرف صخري، وتدور حول قمة تل بنيت القرية عليه في شكل هلال. وبعد أن تغادر هذا التل على مسير ثلاثة أرباع الساعة، يواجهك تلّ منفرد على قمته أبنية أثرية وجُدُر وأعمدة تتصل بقلعة الحصن، ربّما كان هذا المكان بقايا مدينة ريجابا أو عرقوب القديمة. وعلى الرغم من أن فيق تقع في سهل الجولان، إلا أنها تتبع -في الحقيقة- حكومة عكا، وأعتقد أن فيق هي المكان الوحيد الذي يتبع لباشالك عكا، على الجانب الشرقي من الأردن؛ وقد فصلها عن بشالك دمشق أحمد باشا الجزار، وهي معبر ثابت من حوران إلى طبريا وعكا.

يوجد في البلدة أكثر من ثلاثين بيتًا، لها مضافات مفتوحة مجانًا لخدمة العابرين من كل صنف، بما في ذلك تجهيز رواحلهم، ويتقاضى أصحاب هذه الأملاك لقاء نفقاتهم منحة من الحكومة، تخصم من الضرائب المتعارف عليها، وإذا كان أحد المنازل (المضافات) يستقبل مسافرين أكثر، كما في حال الشيخ، لا تؤخذ

من صاحب المضافة إطلاقًا ضرائب الميري، إضافة إلى ذلك يمنحه الباشا علاوة سنوية من المال، خارج ضريبة الميري المفروضة على القرية.

وهذه القوانين الخاصة بالمضافات العمومية تسري على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من دمشق كلها، وهي شرف عظيم للأتراك وروحهم المضيافة، لكن في الحقيقة، هذا الإنفاق هو الالتزام الوحيد الذي تظن الحكومة أنها تتحمله لمنفعة سكّان البلاد.

يستطيع الفلاح السفر شهرًا كاملًا من دون إنفاق بارة واحدة؛ لكن أبناء الطبقة الغنية يعطون بضعة بارات صباح مغادرتهم إلى الخادم أو الناطور. إذا لم يرغب المسافر أن ينزل في المضافة العمومية، يستطيع أن يذهب إلى أيّ بيت، حيث سيجد صاحبه مضيافاَ، وإذا كانت أحوال مضيفه جيدة فحتمًا سيحصل على عشاء جيد.

لاحظت على شرفات كل بيوت فيق وجود غرفة يسمونها حرش، مبنية من أغصان الأشجار المغطاة بالحصير، وفي هذه الغرفة الباردة تنكفئ العائلة منتصف النهار هربًا من حر الصيف. وفي فيق آثار عدد من الأبنية القديمة، وبرجان صغيران في أقصى الجرف الصخري. وللقرية حقول واسعة من الزيتون».

وبعد مبيت ليلة في فيق، يأخذ بوركهارت -صباح يوم 7 أيار/ مايو- طريق السهل المتجه إلى الشمال الشرقي، أي: إلى عمل الجولان في التقسيمات الإدارية العثمانية، ويحدّه من الجنوب وادي حامي صقر والشريعة، ويلاحظ بوركهارت أن تسمية الجولان هي نفسها التسمية اليونانية «جولانيتس»، ولكن حدوده الحالية

لا تتوافق تمامًا مع حدود المقاطعة القديمة التي تنحصر في شريط ضيّق من الأرض على طول الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا، والضفة الشرقية لنهر الأردن.

ويجزم بوركهارت بأن أرض فيق لا بدّ أن تكون جزءًا من أرض «هيبينة»، والجبل الذي أمامها هو جبل هيبوس، وتظهر منطقة آرجوب (عرقوب) بأنها جزء من عمل الجولان، الذي يمتدّ شمال فيق لثلاث أو أربع ساعات، ويحدّه من الشرق جبل هيش، ومن الغرب المنحدرات التي تقود إلى البحيرة.

ويذكر أنه مر، بعد مغادرته فيق بنصف ساعة، بكومة من الخراب، تدعى رجم العبهر. بعد ذلك يذكر مواقع قرية جيبين، والقرية الأثرية العال على جانب وادي السمك المنحدر من جبل هيش، وهناك جدول من ماء نبع يجري في الوادي الذي يصب في البحيرة (طبريا)، قرب المدينة المخرّبة المجيفرة.

ويذكر أن هذا الجزء من الوادي مليء بالقصب الذي يصنع الناس منه الحصر. على الجانب الآخر من الوادي، وبمسير نصف ساعة، يوجد تل عليه مدينة أثرية تدعى قصر بردويل.

ويلفت بوركهارت النظر إلى أن السهل -هنا- غير محروث بالكامل، وتنمو فيه بكثرة عشبة برية تسمى الخب، وهي غذاء للجمال والأبقار.

ويتابع بوركهارت سيره؛ فيصل إلى «بركة نام» [ناب]، التي يقع إلى جانبها نبع، ثم يصل إلى مدينة أثرية يسميها «خستين» [خسفين]، مبنية بالحجارة السوداء، ولكن الزمن لم يحفظ أي بناء كبير فيها.

ويحدد بوركهارت موقع تل السقي بمسير ساعتين وثلاثة أرباع الساعة من جهة اليسار، وموقع تل الفرس، الذي قال إنه يتحول إلى ملجأ للبدو الفارين من ابتزازات الباشا، ثم يذكر أنه عبر وادي المعقّر، الذي يصب في الشريعة.

فاكهة بدوية!

ولأول مرة يشير بوركهارت في هذا الجزء من الرحلة إلى أن بدويًا كان يرافقه، قدم له فاكهة برية ومجهولة في شمال سورية؛ وحتى في دمشق؛ وهي بحجم بيضة صغيرة، ولها لون العصير، تنمو على شجيرة بارتفاع ستّ بوصات تقريبًا، وأخبره البدوي بأن طول جذورها يبلغ ثلاثة أو أربعة أقدام، ويسميها العرب البدو جرابوح.

بعد ذلك يشير إلى قرية أم القبور الخَربة، ثم وادي صيدا، ثم جسر حامي صقر، حيث اجتمعوا طوال الطّريق بعرب بدو، وفلاحين عائدين من الغور بأحمال الشعير.

ويصف بوركهارت جسر حامي صقر بأنه متين البنيان، وله سبع قناطر. ويذكر أن عين ذكر تقع بعده.

بعد ذلك يعبر وادي العلان، بعد خمس ساعات من مغادرته فيق عبر جسر مخرب، حيث كان هناك سيل كبير، وبعد نصف ساعة، يصل إلى قرية تسيل المأهولة التي يعدّها إحدى القرى الرئيسة في الجولان. ويشير إلى أن عدد سكانها يبلغ مئة عائلة، يعيشون في بيوت أثرية قديمة؛ ويشير إلى وجود مجموعة من برك الماء تعود للقرية، وأن البناء الوحيد الكبير يعود لمسجد أثري، يبدو أنه كان كنيسة.

مساحات خالية

ويلاحظ بوركهارت أن المنطقة، من جبين إلى تسيل، غير مأهولة إلا بالبدو الذين انتشرت خيامهم في هذا السهل ذي التربة السوداء أو الرمادية، بينما تبدأ من تسيل التربة الحمراء التي تميز أرض حوران.

وبعد أن يتناول عشاءه في تسيل، يتابع بوركهارت طريقه إلى نوى، حيث ينام تلك الليلة، وفي طريقه يشير إلى تل الجموع، وتل الجابية، وحقول القمح التي تنتشر في السهول المترامية الأطراف. ويقول: إن نوى هي إحدى القرى الرئيسة في الجولان، وكانت سابقًا بلدة يبلغ محيطها نصف ساعة مسير، وفيها عدد من المنازل الأثرية وبقايا الصروح العامّة، ومعبد، تحوّل إلى مسجد بقي منه عمود واحد وبقايا السطح.

وفي نهاية القرية بناء قوي صغير ومربع، توقع بوركهارت أن يكون ضريحًا، وفي شمال القرية بناء أثري مربع بقي منه المدخل المنحوت فحسب، وأكوام الأعمدة المكسرة. ويضيف أن في القرية كثير من الينابيع وصهاريج الماء، ويذكر أن الأتراك [العرب الفلاحون] يبجلون ضريح الولي المدفون هنا، ويدعى محي الدين النووي، ويقول بوركهارت: إن سنتيّ 1810 و1811، كانت المحاصيل فيهما سيئّة جدًا في أنحاء سورية جميعها؛ لكن الأمطار هطلت في الشتاء الماضي، والفلاحون في كل مكان يأملون بحصاد جيّد، وهم يتوقعون أن يكون موسم القمح والشعير في حوران والجولان ممتازًا.

وفي يوم 8 أيار/ مايو يتابع بوركهارت رحلته إلى الشمال الشرقي من نوى، حيث يصل بعد ساعتين إلى قرية قاسم [جاسم] التي تشكل الحد الشمالي لعمل الجولان، والحد الجنوبي لعمل الجيدور، كما يقول.

إلى القنيطرة

ويعود بروكهارت كرَّة ثالثة إلى الجولان، بعد أكثر من شهر، فيصل إلى القنيطرة آتيًا إليها عن طريق سعسع، وهذه الطريق تحدث عنها في الجزء الأول من رحلته إلى الجولان، ورفض السير فيها.

يغادر بوركهارت دمشق بتاريخ 18 حزيران/ يونيو 1812 بهدف الحصول على معلومات أكثر عن الجبال الواقعة شرقي الأردن، واكتشاف هذه المناطق المجهولة تقريبًا، والواقعة إلى الشرق من البحر الميت.

وبعد أن يصل إلى سعسع يوم 19 حزيران/ يونيو، قادمًا من طريق كفرسوسة وداريا وخان الشيح، يصف خان سعسع الكبير الذي كان يغص بالمسافرين، ومسجدها الواسع وبناءها الحسن.

وفي 20 حزيران/ يونيو، يلتحق بوركهارت بقافلة صغيرة، فيصل إلى نقار سعسع، ويمرون بحرش من شجر السنديان يدعى هيش شقار، وبعد أربع ساعات يمرون بتل جبا، ويلاحظ أن الأرض هناك غير مزروعة، وبعد قليل، مسير نصف ساعة، يشاهدون خان أرينبة؛ حيث يبدأ جبل هيش القنيطرة، وهو سلسلة جبلية منخفضة، تابعة لجبل الشيخ، كما يقول.

وبعد سبع ساعات من المسير يصلون إلى القنيطرة التي يقول: إن أهلها هجروها بعد أن مرت بها جيوش الوزير في طريقها إلى مصر. ويصفها بأنها محاطة بسور متين، فيه خان ضخم ومسجد واسع، مع عدة أعمدة قصيرة من الغرانيت الرمادي، ونبع غزير من الماء، وعلى مقربة منه ينابيع أخرى.

ويضيف أنه في الجانب الشمالي من القرية توجد بقايا مدينة صغيرة قديمة، يخمن بوركهارت أنها ربما كانت قناتا [إحدى مدن الديكابوليس، المدن الرومانية العشر]، ويشير إلى أن القوافل القادمة من عكا تمضي ليلة كاملة في القنيطرة، قبل أن تتجه إلى دمشق.

وبعد الاستراحة ساعات عدة تواصل قافلة بوركهارت رحلتها فوق أرض آخذة بالارتفاع، ويذكر أن البدو الذين يرعون مواشيهم في هذه الجبال، ينسحبون في فصل الصيف إلى قرب جبل الشيخ، وأن آغا القنيطرة العثماني الذي يتسلم نفقاته كل عام من الباشا، كان يقيم في القنيطرة، ولكنه وبعد هجرها أهلها بات يخيم مع تركمان الهيش، ويذهب من مضرب خيام إلى آخر؛ لجمع الميري من البدو.

وبعد أن يمر على تل أبو الندى الذي ينتصب فوقه ضريح الشيخ أبو الندى، يصل بوركهارت إلى بركة ماء، يطلق عليها اسم أبو رميل [أبو رميث]، ويقول: إن محيطها يبلغ مئة وعشرين خطوة، إن مصدر مياهها ينبوعان لا يجفان أبدًا، ويشير إلى وجود خرائب بلدة قديمة يبلغ محيطها مسير ربع ساعة، ولم يبق منها إلا أكوام كبيرة من الحجارة، وبركة أخرى تعبأ بمياه الأمطار فحسب، تبعد مسير خمس دقائق من الخرائب.

ويبدو أن بوركهارت قد عثر على بقايا غابة السنديان التي كانت تغطي أراضي القنيطرة، كما يشير عدد من رحالة القرن الثامن عشر. وبعد هذه البرك يبدأ الطريق بالانحدار البسيط، فيمر على بركة تقع على يسار الطريق، يبلغ محيطها 200 خطوة، وتتصل بقناة حجرية، ويخمن بوركهارت مخطئًا أنها بحيرة «فيالا» الواردة في خرائط سوريا الرومانية، [علمًا أن بحيرة فيالا هي بحيرة مسعدة].

أروع المراعي

بعد ذلك تمر القافلة بتل يدعى تل الخنزير؛ حيث الأرض مغطاة بأروع مراعي العشب الكثيف والجاف بارتفاع حصان. وبعد مسير نصف ساعة، يمرون بينابيع تدعى عيون السمسم، ثم بعد ثلاثة أرباع الساعة خرائب مدينة نعران ونبعها الغزير، ويشير بوركهارت إلى وجود بعض الأسوار في هذه المدينة التاريخية، وحجارة ضخمة مطروحة هنا وهناك، وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة يصل إلى جسر بنات يعقوب المتين، ذي القناطر الأربع، يفصل بين المناطق التابعة لباشا دمشق، وتلك التابعة لباشا عكا.

ويتحدث بوركهارت عن خان الجسر، الذي يقع على جانبه الشرقي من جهة الجولان، ويكثر تردد المسافرين إليه، وفي وسطه ينبوع وخرائب بناء مربع قديم، مشيد من حجر البازلت الأسود. ويشير إلى أن الحراس الموجودين هنا يتبعون لباشا دمشق، والغرض الرئيس لوجودهم جمع ضريبة (الغفر) من المسيحيين الذين يعبرون الجسر، وضريبة الغفر المعتادة تبلغ تسعة بنسات عن كل رأس، باستثناء

عيد الفصح حيث تنخفض إلى سبعة شلنات، أما باشا عكا، فله مركز حراسة على الجانب الغربي من الجسر.

ويذكر بوركهارت أن منطقة الحولة، أو سيماخونيتس، مأهولة من جهة حدودها الشرقية وحسب، ويذكر وجود قريتي الصيرة والدير[باشية]، وبينهما خربة الظاهرية. وفي الجنوب الغربي الملاحة التي يؤجرها متسلم صفد لبعض الصيادين. ويذكر أن وادي الأردن يستمر بامتداد ضيق مسير ساعتين جنوب الجسر؛ إلى أن يصب في بحيرة طبريا، وقبل ذلك بقليل، وعلى جانب النهر الشرقي، تقع قرية البطيحة، التي يذكر أن أهاليها يزرعون كميات كبيرة من الخيار والقرع، ويحملونها إلى أسواق دمشق للبيع، قبل ثلاثة أسابيع من نضج الثمار هناك. ويؤكد أن البطيحة مشهورة بعسلها الممتاز أيضًا[194].

جائحة طاعون

وبعد زيارات بوركهارت إلى الجولان بعام، أي: سنة 1813، يخبرنا صاحب «تاريخ الأمراء الشهابيين» أن الطاعون انتشر من صور وصيدا، وامتد إلى ما حولهما من القرى، ثم إلى الحولة والجولان، ومات كثيرون من العرب البدو، ومن أهالي تلك البلاد[195].

وفي عام 1818، زار الجولان ضابطان إنكليزيان، هما إيربي ومانغلز، وصلا إليه عن طريق سعسع- بيت جن بانياس.

---

[194] تيسير خلف، استكشاف الجولان، ص 63-87.

[195] أحمد الشهابي، م3، ص 590.

ويغيب في هذه الرحلة أي حديث عن السكان والأحوال الاجتماعية، باستثناء ينابيع الحمة، فكأنهما يطوفان في أرض خالية من أهلها. وهذا الموقف الاستعلائي يعبر تعبيرًا واضحًا عن الغاية الحقيقية التي قادتهما إلى هذه البلاد، فلم يكن هدفهما استكشاف تاريخ وآثار «الأراضي المقدسة»، والاطلاع على أحوال أهلها، بقدر ما كان بحثًا عن طرق تجارية، تعزز الهيمنة الاستعمارية الإنكليزية على البلدان، والطرق الذاهبة إلى درة التاج البريطاني (الهند)؛ وهو ما نلحظه جليًّا خلال زيارتهما لبحيرة فيالا (مسعدة)، وتجاهلهما لقلعة الصبيبة المجاورة التي يسميانها قلعه السراسين، وهي تسمية قديمة للعرب والمسلمين، كان يستخدمها البيزنطيون والصليبيون[196].

الأمير بشير في مجدل شمس

وفي كتاب «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، نقرأ في أحداث عام 1820، أن الأمير بشير الشهابي جاء إلى قرية مجدل شمس، وهي من أعمال الحولة، وبات فيها ثلاث ليال. وحضر إلى الأمير في قرية المجدل رجل من أتباع يوسف آغا، حاكم القنيطرة، من أعمال الشام، يطلب من الأمير الحضور إليه، ويقيم عنده، حيث الربيع والذخائر، فرفض الأمير ذلك، وأكرم الرسول بمئة وخمسين قرشًا.

ثم سار الأمير طالبًا أرض حوران، بجميع من معه، واصطحب الشيخ بشير جنبلاط عياله، وعند وصولهم إلى عين البيضا التي في أرض الجيدور، قابله أكابر عرب السردية، آل فواز، وهم نمر الفياض وأولاد عمه، وكانوا نازلين في تل الفرس،

[196] استكشاف الجولان، ص 90- 94.

وطلبوا من الأمير المبيت عندهم، ووعدوه بأنهم سيمشون أمامه بجميع خيلهم وعيالهم حيثما اتجه؛ فقبل الأمير دعوتهم، وسار معهم، وفي الطريق ظهر من نواحي الجولان نحو مئتي خيال، يطلبون القتال، فلم يأبه لهم، وتابع سيره في طريقه إلى أن اقترب منهم؛ فوثب عليهم نحو خمسين خيالًا من عسكر الأمير، ففروا مهزومين. ولحقهم عسكر الأمير، وقتلوا منهم خمسة أنفار وجرحوا ثمانية، وكسبوا منهم خمسة عشرة بندقية، ورأس خيل وبعض سلاح.

وتبين أنهم يوسف آغا حاكم القنيطرة، وبعض خيل الهوارة[197] والعرب، ثم بات الأمير بعسكره في تلك الأرض على نهر الرقاد، ولم يصل إلى منزل عرب السردية[198].

وفي أحداث سنة 1824، سار الأمير خليل الشهابي في طلب غرمائه المهزومين، الشيخ بشير جنبلاط ومن معه، وهؤلاء ساروا إلى قرية مجدل شمس، ومن هناك افترق الأمراء الشهابيون عن الشيخ بشير جنبلاط، وساروا ناحية البقاع، وسار هو ناحية حوران، وعندما علم عبد الله باشا والي عكا تحركهم من البلاد أرسل إلى مصطفى باشا بأن يوجه عسكره في طلبهم، وفي 7 جمادى الثانية، وجه مصطفى باشا عساكره في طلبهم، وعند وصولهم إلى الجيدور أخبروهم أن الشيخ بشير ومن معه كانوا نائمين في قرية جبا في الجولان؛ فتفرقت عساكر الشام فرقتين، وعند وصول الهوارة وكنج آغا دالي باش إلى قرية نوى، من أعمال الجيدور في أول بلاد

---

(197) جنود غير نظاميين من المغرب العربي.

(198) المصدر السابق، م3، ص 662-663.

حوران، وجدوا الشيخ بشير جنبلاط ومن في صحبته هناك، فطوقوهم من كل جانب، وقبضوا على الجميع[199].

فوضى شاملة

لقد انعكست أوضاع السلطنة العثمانية المهلهلة أكثر ما انعكست على الجولان، فقد تشتت مناطقه بين حاصبيا وعكا، وكانت قراه ومروجه مسرحًا لحروب أمراء لبنان المتصارعين. وجاء اجتياح بلاد الشام من محمد علي باشا، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر؛ ليدشن مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة والسلطنة العثمانية التي استيقظت بعد كابوس محمد علي، ولديها رغبة في إصلاح بناها المهلهلة، وأنظمتها التي باتت من الماضي السحيق.

وفور خروج قوات محمد علي مدحورة من بلاد الشام، عام 1256 هجري [1840 ميلادي]، بدأت السلطنة عملية إعادة بناء، وصلت أصداؤها إلى ولاية سورية، فأنشأت مجالس شورى في الألوية، كانت تنظر في شكاوى الأهالي، وتناقش مطالبهم، وترفعها إلى السلطان في الأستانة، وكان السلطان يقر مجالس الشورى على ما تقرره، أو يرفض، ولذلك؛ سميت هذه المذاكرات أوامر سلطانية.

تتضمن مجلدات الأوامر السلطانية لولاية الشام، أو سورية العثمانية، معطيات كثيرة، اجتماعية وسكانية خاصة بالجولان، في الفترة التي أعقبت خروج القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا من بلاد الشام.

---

[199] المصدر السابق، م3، ص 771.

ومن الملاحظ أن تلك الأوامر كانت تختص بكل شيء، من دفع رواتب موظفي الأقضية النائية، إلى البت في قضايا جنائية وعمليات السطو، إلى تعيين قارئ للأذكار في مقام الشيخ سعد الدين.

ومن خلال وثائق الأوامر السلطانية، نحصل على إجابات شافية عن أهم سببين من أسباب خراب قرى إقليم الجولان في القرن التاسع عشر، وهما:

أولًا: تسلط الملتزمين على رقاب الفلاحين، ونجد ذلك في أكثر من وثيقة، منها وثيقة شكوى عرب الفريخات التي تظهر بأن فلاحي قرية شوقا، وهم من فروع قبيلة الفضل، هربوا من قريتهم نتيجة إصرار الملتزم عمر بوظو على أن يأخذ منهم الضريبة مرتين، الأولى عن القنيطرة، والثانية عن الحولة، وقد تبين أنه لجأ إلى ذلك؛ بسبب عدم دفع تركمان السوادية ما عليهم، فأراد الحصول عليه من عرب الفريخات.

وتقدم لنا مرافعة الأمير، سعد الدين الشهابي،[200] في وثيقة إعادة تنظيم الضرائب تفصيلًا مهمًا حول دور الملتزمين التخريبي على هذا الصعيد، ويبين الأمير أن نظام الالتزام هو المسؤول عن خراب الجولان وهجر الفلاحين أراضيهم.

ومن الوثائق اللافتة وثيقة تبين مدى استهتار هؤلاء الملتزمين بأهالي الجولان، حيث جرى إسقاط عدد من القبائل العربية من سجل قضاء القنيطرة، بسبب عدم قدرة الملتزم على تحصيل الضرائب منهم. ولذلك؛ ادعى أن عشائر الرقيبات وبني

[200] قتل الأمير سعد الدين الشهابي في سراي حاصبيا خلال أحداث عام 1861، على يد أهالي مجدل شمس الذين كانوا يحاصرون السرايا، وقتل منهم الشيخ كنج أبو صالح وعشرة آخرون، بحسب كتاب تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر للدكتور سهيل زكار، ص 256-257.

كلاب والبياضين وعرب رعبنة والكرسي، قد غادروا القنيطرة مع قوات إبراهيم باشا عند خروجها من الشام، وأشهد على ذلك زعيمين من زعماء الجولان، هما خليفة آغا زعيم التركمان، والشيخ عمر النادر من عرب النعيم.

ثانيًا: غارات عرب عنزة وغيرهم من البدو الرحل على قرى الفلاحين، إذ تتضمن الوثائق تفاصيل مهمة كثيرة حول هذا الموضوع.

وينبغي الانتباه إلى أن المقصود بالبدو عرب عنزة، ومن لف لفهم، وليس عشائر الجولان مثل الفضل والنعيم والتركمان التي كانت تمارس الزراعة، إلى جانب تربية الماشية، ويوصفون في الوثائق بأنهم فلاحون.

ومن هنا؛ فالحديث عن تخريب البدو ينحصر في قبائل عنزة وما شابهها فحسب، ولا يتعلق بعشائر الفضل والنعيم بأي شكل من الأشكال.

وتخبرنا وثيقة «دكان في القنيطرة» المؤرخة في 18 أيار 1850 أن القنيطرة كانت خالية من السكان في ذلك التاريخ، وهو ما نلمسه في جميع الوثائق والنصوص الأخرى، حيث بدأت عملية إعادة إعمار هذه المدينة مع قدوم الشراكسة قدومًا كبيرًا عام 1878 ميلادي.

وتزودنا وثائق الأوامر السلطانية بفكرة ممتازة عن المكانة التي كان يتمتع بها المتصوفون لدى سلاطين العثمانيين، ومن ذلك الاهتمام الكبير بضريح الشيخ سعد الدين الجباوي في قرية جبا، والرعاية السلطانية لأحفاده؛ إذ كانت تصرف لهم المنح والرواتب[201].

---

[201] للتوسع؛ راجع كتاب وثائق عثمانية حول الجولان، تيسير خلف.

ولعل الملاحظة المهمة التي يمكن التوصل إليها من خلال الأوامر السلطانية، هي عودة السيطرة المركزية على قضاء القنيطرة، شيئًا فشيئًا، بحيث تمكنت السلطات من إعادة المسروقات جميعها - التي نهبها عربان الولد علي العنزيون الذين يقيم شيخهم، دوخي ابن سمير، في قرية عين ذكر شرق الجولان؛ من قرى عين فيت وزعوة ومجدل شمس، وقرى الغوارنة في الحولة، وقرى التركمان، بعد تحرير ضبط مفصل بالمسروقات التي تكونت من المحاصيل الزراعية المعروفة من قمح وشعير وكرسنة، إضافة إلى ألبسة وأثاث.

قانون الغاب

ومن خلال رحلة قام بها رجل الدين الأميركي، و.م.تومسون، إلى الجولان عام 1857، نلاحظ الدور الايجابي الذي تلعبه الزعامات المحلية في الجولان؛ للحد من ظاهرة النهب والسلب التي كانت متفشية؛ بسبب ظلم الملتزمين العثمانيين، بحسب ما يقول الشيخ فريج للدكتور تومسون الذي حصل من الأمير حسن الفاعور على إذن بالعبور إلى شاطئ طبريا الشرقي.

ويقول عن هذا الأمير: إنه «الزعيم الأكبر لكل العرب في ذلك الجزء من الجولان، ويعود بنسبه إلى محمد [ص] مباشرة، وأن أكبر شيوخ وأمراء الجولان يقبلون يده، اعترافًا بمنزلته العالية، وقد استقبلنا باحترام كبير، فحُمصت قهوة جديدة، وجُلب خروف، وذبح وطبخ بسرعة أمام الخيمة، ومُدت لنا الوليمة المرتجلة بحضور الأمير، وعلى الرغم من أنه لم يجر عمليًا إلى القطيع ويحضرها بنفسه، فإن الآخرين فعلوا ذلك بأمر منه، والحدث برمته استحضر بوضوح شديد

الأب الأكبر إبراهيم إلى الذهن؛ فمثل أميرنا كان يقطن في خيمة، وكان أتباعه يخيمون حوله مع قطعان ماشيتهم وأبقارهم.

لم يكن هناك أكثر من ثلاثين خيمة في هذا النزل، وقد وجدت عند الاستفسار، أن الناس كانوا جميعًا-على وجه التقريب-، عبيدًا للأمير، وهذا ما أثار دهشتي؛ فهم وأسلافهم كانوا لأسرته لأجيال كثيرة، إلى درجة أن كل أثر لأصلهم الحقيقي قد ضاع. وقد حال لونهم إلى البرونزي كلون العرب الأصلاء، وكادت تمحى الملامح الزنجية. غير أن البدو الحقيقيين لا يتزاوجون معهم أبدًا، على الرغم من أن القرويين والحرفيين الذين يستقرون بينهم يفعلون ذلك أحيانًا. إنهم ملك للأمير ضمن مفهوم مقيد، وكذلك قطعان الماشية والأبقار التي يُسمح لهم بامتلاكها، وهو لا يتردد في أخذ ما يريد، إضافة إلى أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا طلباته أيًا كانت. غير أن العادة أو القانون أو كليهما يمنعانه كلية من بيعهم، وقد استفسرت عن كل هذه الأمور في اليوم التالي، بينما كنا نتابع مسيرنا عبر المنطقة بحماية وتوجيه كبير خدمه، الذي كان يذكرني على الدوام «بأليعازر الدمشقي»، وجوابًا عن سؤالي، هتف بدهشة مشوبة بالسخط: «يبيعنا، استغفر الله!» إنهم في الحقيقة العبيد الذين ولدوا في المنزل القديم لآل الفضل، ومثلهم مثل الثلاثمئة وثمانية عشر في أسرة إبراهيم، هم محاربوه في وقت الحاجة، وهذا ما يحصل يوميًا، تقريبًا، بصورة ما أو بأخرى، ويبدو أنهم مرتبطون بالأمير، أو ربما بالأحرى، باسم أسرته ومنزلتها وقوتها وشرفها؛ فشرفهم وأمنهم ونفوذهم كلها تعتمد عليه، وقد فوجئت عندما وجدت أن الأمير محكوم كليًا من واحد من عبيده؛ فهو لا يفعل شيئًا لوحده، فهذا الأليعازر الحديث لا يتصرف بموجودات سيده فحسب، بل يدير

شؤون الحكومة بالشكل الذي يحب، وجميع عرب الحولة والجولان يخشون جدًا كبير الخدم هذا، ويخطبون وده، إنه ذكي وكفء وقاس أحيانًا، ولن تكون حياة أي إنسان بأمان إذا ما أصبح صاحبها بغيضًا لدى السيد داعوك، فلا بد من مهادنته ومهادنة سيده.

في المساء بدأت القطعان تتجمع حول الجويزة من كل جزء من الصحراء المجاورة؛ لقد كان مشهدًا صاخبًا مليئًا بالحياة، وجميلًا بحق، وقد أطلقت الآن من الحظائر صغار الحمير والعجول والجدايا والحملان التي كانت محجوزة خلال النهار، فاندفعت في كل اتجاه بحثًا عن أمهاتها وهي تثغو وتنهق، وفي النهاية أدخلت إلى الحظائر، وهدأ كل شيء في النزل ما عدا الكلاب؛ فهذه واصلت إطلاق نباح غاضب، لا ينقطع طوال الليل، وفهمت أنه من المفروض أن هناك لصوصًا يكمنون في الجوار، كان يمكن -لولا هذه الكلاب الحارسة اليقظة- أن يسرقوا حملانًا؛ وحتى جمالًا من أطراف النزل.

انطلقنا مبكرين في الصباح التالي، ومعنا رسالة ودليل من الأمير إلى الشيخ فريج الذي كانت مضاربه في مكان ما، مسيرَ نحو يوم، إلى الجنوب من الجويزة، قادنا دليلنا في ذلك الاتجاه العام، عبر حقول لا تنتهي من الحمم البركانية، ومعظم الوقت دون أي طريق، كنت أستطيع أن أراه، أو حتى يراه حصاني، غير أننا قطعنا دروبًا كثيرة، كانت تتجه نازلة إلى الحولة، وإلى جسر بنات يعقوب وإلى البطيحة، وصادفنا عددًا من الوديان، بعضها ضحل، وأخرى عميقة وقبيحة، كانت تنحدر إلى نهر الأردن والبحيرة، أحاطت بنا خلال الساعة الأولى قطعان الأمير، فلاحظت راعيًا يحمل في عباءته، بحنان، حملًا ولد حديثًا، وامرأة تعلّم -بدأب- عجلًا صغيرًا

كيف يرضع ضرع أمه، وكيف يستخدم أرجله المهتزة، وأعمال كهذه لا تذكر المرء بالآباء الأوائل الذين سكنوا الخيام، وربوا الأبقار فحسب، بل أيضًا بذلك الإله الراعي الذي لن يستطيع أي عدو، أبدًا، أن ينتزع أضعف حمل في قطيعه.

على بعد ميلين من الجويزة، اتخذت «مرتكزًا» على موقع عال يدعى السنديانة، وعلى بعد ميل آخر باتجاه الجنوب يوجد تل الدلوة الجميل، وعليه خربة، وهناك واد ينحدر منه باتجاه نهر الأردن. على بعد ثلاثة أميال وصلنا ثوبان وكفر نفاخ، وكلتاهما خربة كبيرة، وبخاصة الأخيرة التي تعرض كتلة ضخمة من البيوت المهدمة. بعد هذا تجولنا فوق أرض وعرة مدة ساعة؛ بحثًا عن أحد شيوخ التركمان، فوجدنا مضاربه منعزلة في وادي الغادرية الذي ينضم في مكان أبعد من ذلك، إلى وادي الرزانية الأكبر منه بكثير، لهذا الوادي روافد كثيرة، وفيه كثير من الماء، ويدعى هنا، حيث يدخل البطيحة، باسم أم العجاج، وكذلك باسم وادي سولام الذي يُكتب خطأ على الخرائط باسم وادي سونام. وبعد أن حصلنا على دليل وصلنا السلوقية (سلوقيا فيليب) في خلال نصف ساعة، خرائب المكان واسعة جدًا، غير أن الموقع لا يتطابق تمامًا مع أقوال يوسيفوس. غير أنه لم يزر المكان قط، وكان يتحدث جزافًا، كما يفعل غالبًا في أمور لم يكن يعرفها شخصيًا، وفي الجنوب مباشرة مكان يدعى عين السلوقية، حيث يجري ماؤها غربًا؛ آتيًا من مجموعة من الجبال، ويتحد مع وادي الرزانية. لقد وجدنا بعض الصعوبة في عبور واد عميق آخر، على بعد نحو ميل إلى الجنوب، يدعى وادي التلاية، من عدد من التلال المنخفضة، تقع على بعد بضعة أميال إلى الشرق من خط سيرنا؛ وادي التلاية هذا قد يكون هو نفسه ذلك الوادي الذي يدخل البطيحة إلى الشرق منا،

ويدعوه الدكتور روبنسون وادي داليا (Dalia)، وقد حفر لنفسه مجرًى عميقًا في اللافا الصلبة، وينساب جدول جميل فوق سريره الصخري.

كانت المنطقة، نزولًا حتى وادي التلاية، مغطاة بالغابات بقدر ما، وعلى الرغم من أن أشجار البلوط التي تغطي التلال الواقعة إلى الجنوب من بانياس وعين فيت تصبح، تدرُّجًا، أقل فأقل، وأصغر أيضًا، وكذلك هزيلة، فإنها ما تزال موجودة، إما منفردة أو في مجموعات، وتصل إلى الوادي تمامًا، غير أنها تختفي تمامًا إلى الجنوب منه، وتصبح المنطقة جرداء كالحة، وكذلك القطعان باتت أكثر ندرة، وفي الحقيبة لم نر أيًا منها مسافة عدة أميال، على الرغم من أن المراعي جيدة كغيرها، والماء أوفر؛ حتى مما كان في الشمال؛ فقد كانت جداول صغيرة نشطة، تعبر طريقنا كل خمس دقائق، لكنني أظن أن هذه المنطقة المهجورة هي نوع من أرض محايدة بين القبائل الشمالية والجنوبية التي ليست، دائمًا، في علاقات طيبة؛ ما يجعل وجودك بعيدًا عن أصدقائك أمرًا غير مأمون.

لقد اضطررنا إلى الانعطاف شرقًا لمسافة طويلة؛ لكي ندور حول وادي جرمايا العميق الذي يصعب عبوره، ذلك الوادي الذي ينحدر إلى البحيرة بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية للبطيحة، إنه الأكبر والأكثر وحشية من بين جميع الوديان التي شاهدناها خلال ركوبنا الذي دام تسع ساعات، ويقال إنه الملجأ المختار للنمور والذئاب والضباع والخنازير البرية والحيوانات المتوحشة الأخرى. وفي الحقيقة؛ فإن الجولان بكامله يعج بالطرائد؛ فقد شاهدنا كثيرًا من الغزلان، والنوع الآخر من هذه الفصيلة الذي يدعى الوعل، وهو أكبر بكثير من الغزلان، وأشبه كثيرًا بغزالنا الأميركي، وتتجول طيور الحجل والطيهوج والبط والإوز والكركي

والبجع في هذه الأماكن المنعزلة، إذ إن عدوها اللدود (الإنسان) نادرًا ما يغزوها، وإذا ما فعل؛ فلديه كثير من أسباب القلق التي تدعوه إلى الترد، أو تجعله يخشى من أن يُسمع صوت طلقة بندقيته.

بعد أن اجتزنا وادي جرمايا استدرنا نحو الغرب تقريبًا، وهبطنا منحدرًا خفيفًا لمدة نصف ساعة، حيث وصلنا إلى خربة كبيرة تدعى القنيطرة، ليست تلك التي تحمل الاسم نفسه على الطريق إلى دمشق من جسر بنات يعقوب، لكنها واحدة أقدم بكثير، وأكبر بكثير مما بلغته الأخرى على الإطلاق. اسم الجولان هو اسم خربة مشهورة تقع إلى الشرق من هذه، وأظن أنها تحدد موقع الجولان التوراتية التي تشتق منها هذه المنطقة اسمها. وهناك أيضًا خربة صيدا على مسافة إلى الشرق من طريقنا، لكنها ليست بيت سيدا، ومن القنيطرة إلى خربة الأربعين مسير نصف ساعة، وكانت هذه المدينة معمورة جيدًا بالأصل، بالنسبة إلى مكان لا توجد فيه إلا أحجار البازلت، ولا بد أنها ظلت مسكونة حتى حقبة حديثة نسبيًا، بعد أن عبرنا سهلًا مستويًا خصبًا مسافة نحو ميلين، دخلنا -على نحو مفاجئ خانق- وادي الشقيف، في ممر يكاد يكون عموديًا، إذ كانت حيواناتنا تنزلق أكثر منها تمشي؛ ما أزعجها وأمتعنا، وهنا وجدنا الشيخ فريج بمضاربه الكبيرة المخفية بصورة كاملة، لدرجة أنها ما كانت بالإمكان أن تُرى؛ حتى يصل المرء فوقها مباشرة. لقد جعلنا ركوبنا المستمر مدة تسع ساعات منهكين جميعًا، فنصبنا خيمتنا بسرور قرب خيمة الشيخ، لم يكن عندها في البيت، غير أن أحد أخوته قام مقامه ورحب بنا بصخب، وبتباه إلى حد ما، وقد وبخ دليلنا بقسوة؛ لأنه جلب ضيوفًا في ساعة متأخرة كهذه؛ ما يجعل من المستحيل أن تستقبلهم وتولم لهم ما

يليق؛ فالأغنام بعيدة، ولا يمكن جلب أي واحدة لنحرها على شرف المناسبة والضيوف؛ حتى الصباح، فأكدت له بأن لدينا جميع المؤن الضرورية لنا، وكل ما نحتاجه هو علف لخيولنا، وقد أحضر ذلك بسرعة، ورتبت الأمور بما يرضي كلينا.

بعد وصولنا بقليل، تجمعت زمرة من العرب حول خيمة الشيخ، وكانوا يخوضون مناقشة جادة وغاضبة، وشعرت بالحاجة الملحة؛ لكي أعرف إن كنا نحن موضوع الجدل أم لا، وعند الاستفسار تبين أن بعضًا من رجال الشيخ قد صادفوا مجموعة من اللصوص في ذلك الصباح، وكان هؤلاء يسرقون أبقار هؤلاء الفلاحين الفقراء الذين يزرعون البطيحة، وبعد مناوشة معهم نجحوا في إنقاذ الأبقار المسروقة، وجلبها إلى مضاربهم، وقد جاء أصحابها يطالبون بها، وقد طلب منهم المنقذون أربعمئة قرش قبل أن يتنازلوا عنها، فعُرضت القضية على الشيخ الذي أمر بإعادتها دون فدية، وبالطبع؛ كان هناك تذمر من جانب، وشكر وحمد من جانب آخر.

ولقد لاحظت في جميع المضارب التي مررنا بها أن خيمة الشيخ كانت مميزة عن البقية برمح طويل، يُغرس منتصبًا في الأرض أمامها، ومن العادة أنه عندما تخرج مجموعة في جولة للسلب أو للحرب، تحدد البقعة التي يضطجع فيها الشيخ، أو ينام على هذا النحو، وذلك عندما يتوقفون للاستراحة.

قضى الشيخ فريج المساء في خيمتنا، وأمتعنا جدًا بذكائه وتصرفاته الجليلة، وبمسحة معينة من الحزن كانت تتخلل كامل حديثه وتصرفاته، وقد تذمر بمرارة من النهج الذي تتبعه الحكومة التي كان جباة ضرائبها يسرقون وينهبون العرب

دون رحمة، وأكد أنهم كانوا مضطرين -بدورهم- للسلب، كان هذا نوع من الاعتذار عن الاعتراف الذي كان يبدو خجلًا منه نوعًا ما، بأن السلب كان مهنتهم، وأنه ورجاله كانوا يمارسونه يوميًا، إما معتدين أو مدافعين عن أنفسهم، وتحسر على عادات البدو القديمة في الكرم، ودمرها الاضطهاد التركي، فهم الآن بعضهم يسلب بعضًا، وغالبًا ما يضاف القتل إلى السلب، وقال: أنا نفسي أعيش يومًا بيوم من خلال حياة هذا السيف المجيد، وضرب يده بعنف على تلك الأداة الرهيبة على جنبه، وأقر بأنني لولا دليل الأمير الذي اصطحبني، ما كنت لأستطيع الوصول إلى خيمته بسلام، وإنني من دون مساعدة مماثلة منه، لن أكون قادرًا على متابعة مسيري في الصباح حول الشاطئ الشرقي للبحيرة، وقد واجهت في الصباح التالي إثباتًا مخيفًا، ومؤكدًا صدق كلامه، لأنني وجدت نفسي فجأة في مواجهة مجموعة من البدو، ولم يخفوا حقيقة كونهم امتنعوا عن سلبي؛ بسبب حماية الشيخ فريج، وحسب»[202].

وحقيقة الأمر أن هذا الكلام لا ينطبق إلا على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا الذي اكتسب السمعة السيئة؛ نتيجة خروج العشائر العربية التي تتخذه موطنًا لها عن السلطات العثمانية، وعدم دفع المستحقات المفروضة عليها بحكم قانون الالتزام.

فالمناطق الأخرى من الجولان، وخصوصًا القطاعين: الأوسط والشمالي، كانت تعيش حالة من الاستقرار الأمني والاقتصادي الذي لا تعكره سوى غزوات البدو القادمين من شبه جزيرة العرب، من العنزة وغيرهم، في حين كانت عشائر

---

[202] دابليو تومسون، الأرض والكتاب.

الويسية والجعاثين والنعيم -بكل تفرعاتهم- والفضل والهوادجة والعجارمة والبحاترة، وغيرهم ترعى قطعانها بين الحولة ومرتفعات الجولان، وتمارس -إلى جانب ذلك- زراعة بعض المحاصيل البسيطة كالقمح والشعير، ولم يُعرف عنها ممارسة السلب والغزو اللذين اشتهرت بهما قبائل عنزة وصخور الغور والرقيبات وبني كلاب والذياب، وغيرهم من بدو جنوب الجولان؛ نتيجة مضي عهد طويل عليهم تحت سلطة أحمد باشا الجزار الظالمة التي أجبرتهم على الخروج عن السلطة الغاشمة.

التنظيمات الإدارية في القرن التاسع عشر

انعكست على الجولان ثورة التنظيمات العثمانية التي بدأها السلطان عبد المجيد، بعد خروج قوات محمد علي من بلاد الشام، واستكملها --بعد ذلك- السلطان عبد العزيز استكمالًا كبيرًا؛ فقد عادت السيطرة على شماله وجنوبه لقائم مقام القنيطرة، بعد أن كانت موزعة بين حكام حاصبيا في الشمال، وحكام عكا في الجنوب.

التنظيمات عام 1810

وقد قدم الرحالة السويسري بوركهارت معلومات مفصلة حول التنظيمات الإدارية في الجولان بين عامي 1810 و1812، على الشكل الآتي:

1- الجولان

سهل يقع إلى الجنوب من الجيدور، وإلى الغرب من حوران، يحده من الجنوب نهر العويرض الذي يفصله عن بلاد إربد، وشريعة المنظور التي تفصله عن عمل الكفارات. ومن الغرب يحده إقليم فيق، ومن الشمال الغربي أقصى جنوب جبل هيش.

هذا العمل يتشكل من أجزاء من باتانيا، وعرقوب، وهيبينة، ومن الممكن جولانيتس. وخرائط سورية عمومًا غير دقيقة في حديثها عن جبال الجولان. جبل الهيش الحدّ الأقصى الجنوبي لجبل الشيخ، ينتهي (كما ذكرت سابقًا) في تل الفرس، الذي يقع بعد مسير نحو ثلاث ساعات ونصف الساعة إلى الشمال من الشريعة، أو هيروماكس (اليرموك)؛ وتبدأ الجبال -ثانية- على المسافة نفسها جنوب النهر (اليرموك)، وهي جبال الوسطية، وبين ذلك، البلاد مفتوحة وتصل إلى ردهات الغرب باتجاه عقبة فيق وعقبة أم قيس، حيث الأهوية الحادة تشكّل شرفات للإطلال على بحيرة طبريا، والغور من الشرق.

والخرائط على العكس من ذلك، تصل بين جبل هيش وجبال الوسطية، بدلًا من أن تترك البلاد مفتوحة، بينهما مسير نحو ثماني ساعات».

أما القرى الرئيسة في الجولان، فيعددها من الجنوب إلى الشمال: «عابدين، معرّبة، الشجرة، بيترّه، سحم، زيزون، كفر السامر، زياتين، بيت عقّار، جمرة [جملة]، شيخ سعد، بجانب تل الشيخ سعد، أيوب، دير اللبو، كفر مصر، عدوان، تل الأشعري، تسيل، الجابية، الصفيري، جرنين، الكباش، نوى». ويشير إلى أن أغا حوران-عمومًا- هو حاكم الجولان.

2- القنيطرة

تشمل جبل الهيش، وتمتد من منطقة بانياس إلى الحدّ الأقصى الجنوبي للجبل الذي كان القدماء يسمونه جبل حرمون، والقنيطرة أهم مكان فيه (ربّما هي قناتا القديمة)، وفيها يقيم الآغا».

3- بانياس

وتشتمل على الشعراء والحولة، تتبع حاكم حاصبيا بحكم الأمر الواقع.

4- إقليم فيق

يضم منطقة الزوية الغربية ويتبع عكا.

ويجب إدراك أن إقليم الجولان الذي يذكره بوركهارت يقتصر -فحسْب- على ما يسمى الجولان الشرقي الذي يتبع الآن محافظة درعا.

وقد وضع بوركهارت دراسة حول العشائر البدوية التي تقيم في الجولان، وجاءت كما يأتي:

القبائل الخاضعة لباشا دمشق

أ- عرب حوران

ب- عرب اللجاة

ت- عرب الجولان

الجولان منطقة تبعد عن دمشق مسير ثماني ساعات، وتمتد إلى مسير ثلاثة أيام في اتجاه الجنوب الشرقي، ويبلغ عرضها مسير عشر ساعات. ويعين عليها باشا دمشق ضابطًا يسمى حاكم الجولان؛ لجمع الضرائب والميري من الفلاحين، والإتاوة من العرب.

والقبائل التي تخيم في هضبة الجولان، هي:

الدياب والنعيم والويسية والمناظرة، والقبيلة الأخيرة تعيش على ضفاف وادي حامي صقر، وهو سيل يأتي من حوران، ويصبح اسمه شريعة المنظور عند اقترابه من البحر الميت.

وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء العرب من غير الرحل، إلا أنهم يواصلون الحياة في الخيام، ويزرعون على ضفاف هذا الوادي بساتين الفاكهة التي يشتري ثمارها التجار الجوالون؛ إذ تباع في جميع أنحاء حوران.

وفي جنوبي الجولان يوجد بني كلاب، ويسمَّون -أيضًا- الكلابات أو المكلوب.

ث- عرب القنيطرة أو جبل هيش

القنيطرة قرية صغيرة ذات خان، تبعد مسير يومين من دمشق، في الاتجاه الجنوبي الغربي، وتقع في منتصف جبل هيش، أو هيش القنيطرة (بمعنى غابة القنيطرة) الذي يمتد من سفح جبل الشيخ -بأسماء مختلفة – حتى أقصى الجنوب الشرقي للبحر الميت، حيث يتصل بجبال البتراء العربية.

ويسكن العرب الجبل؛ حتى مسير أربعة أيام جنوب غربي دمشق، وكذلك في الجانب الغربي من الجبل؛ حتى السهول الواقعة جنوب غربي بحيرة الحولة؛ حيث يوجد -على الدوام- بعض قبائلهم.

ويقوم أحد ضباط الباشا (آغا القنيطرة) بجمع الإتاوة السنوية من العرب، وتُدفع -عادة- في صورة عينية، وتخزن في قلعة مزيريب، ويعيش كل هؤلاء العرب في سلام متصل، وقبائلهم هي:

الفضل

ويحمل شيخهم (ابن حسن) لقب أمير، [203]ويقيمون أساسًا في الهيش، وقد سبق أن ذكرتهم ضمن عرب البقاع[204] والجولان، ولديهم ما بين 250 و300 خيمة، وهم يزودون دمشق باللبن والأغنام والفحم المستخرج من أشجار البلوط المنتشرة هناك.

ومن قبائلهم الصغرى الحروك والعجرمية.

النعيم

وهي قبيلة عربية قوية جدًا، تمد دمشق -مثل الفضل- باللبن والزبدة والجبن والفحم، ويدفعون الإتاوة بانتظام للباشا، وبعضهم يفلح الأرض في مناطق مختلفة من الجبل، وبعضهم الآخر رعاة، ولديهم عدد قليل من الخيول، ولكنهم يملكون

---

[203] المقصود الأمير حسن الفاعور أو ابن حسن الفاعور الذي يذكره قبل ذلك بعشر سنوات الرحالة سيتزن.

[204] يرد ذكر قبيلة النميرات في قسم عرب البقاع حيث يقول بوركهارت أنهم يقضون الشتاء في صفد.

أعدادًا كثيرة من الأغنام التي يبيعونها في دمشق، وفي جبل الدروز وجبل لبنان، وذلك في أثناء إقامتهم صيفًا في البقاع، وتملك القبيلة من 400 إلى 500 خيمة.

ومن قبائلهم الصغيرة الحرب.

الويسية

وبعضهم يزرع الأرز والذرة في الجبل، ولكنهم يعيشون في الخيام، ويغيرون إقامتهم بعد كل حصاد، وهم يملكون الإبل والأغنام والأبقار، ويربي بعضهم الجاموس، ممن يعيش في الحولة، وينقسمون إلى قبيلتين: الخمايسة والبقّارة[205].

الشواية، والدياب، والكبايرة، والجعاتين، وبني ربيعة، والمحمدات.

التركمان

ولديهم نحو 160 خيمة في الهيش، ومازالوا يتكلمون التركية، وقليل منهم يفهم العربية، ومن قبائلهم الصغيرة: النهيات والسوادية، ويُسمَّون بالسوادية؛ لأن أغنامهم سوداء اللون.

بني عز واللهيب والسمكية الذين أطلقت عليهم هذه التسمية (السمكية)؛ لأنهم نادرًا ما يتركون شواطئ بحيرة الحولة، حيث يمارسون الصيد.

---

[205] يسمون اليوم بأكراد البقارة.

الرقيبات والعتبة والوهيب والزنغرية والسيّاد والعزية والأبي حية والدحيوات والعراجية والشراحيل وعرب شام[206].

وتملك كل هذه القبائل من 40 إلى 60 خيمة، باستثناء الدياب والعراجية وبني عز، التي تملك كل منها 100 خيمة. وهم يعيشون جميعًا في علاقات طيبة بعضهم مع بعض، ولديهم صلات ثابتة بدمشق؛ إذ يكتسبون شأنهم شأن عرب البقاع صورة عرب الطاعة[207].

العرب الأحرار

ومن الضروري قبل الشروع بتناول عرب الطاعة هؤلاء، أن نشير إلى ثلاث قبائل من العرب الأحرار الذين يخيمون -عادة- جنوبي منطقة الجولان، وهم:

بنو صخر

ويجوب بنو صخر السهول الواقعة بين المحيطتين: الرابعة والثامنة على طريق الحج، باتجاه الغرب نحو جبل البلقاء الذي يُعدّ امتدادًا لجبل الهيش، ويخيمون في حوران أيضًا، وهم لا يدفعون إتاوةً للباشا، وعلى الرغم من خوفهم الشديد من قواته، إلا أنهم يعتزون بشجاعتهم، وقد نهبوا عام 1755 قافلة للحجيج، ولا تعطي طبيعتهم الخشنة وملامحهم المفلطحة ولحاهم الكثة دليلًا على أصلهم البدوي، بيد أنهم يفخرون بأنهم الوحيدون المتحدرون من بني عبس، وهي قبيلة نجدية

---

[206] يرد اسم قبيلة الرقيبات خطأ برقيبات، وهي صيغة مأخوذة من الوثائق العثمانية التي لا تورد أسماء القبائل بدقة، وكذلك الشراحيل التي ترد شرازيل، أما قبيلة العراجية، فقد استقر أفرادها منذ القرن الماضي في قرية بر إلياس في البقاع، وما يزال أفرادها يحتفظون بعلاقات وطيدة مع بدو الجولان.

[207] أي الذين يخضعون للسلطات العثمانية، ويدفعون الإتاوة.

عريقة في التاريخ البدوي، وهم في حال حرب مستمرة -تقريبًا- مع العنزة الذين يقتربون من موطنهم صيفًا.

ولهجة بني صخر أكثر عذوبة من لهجة العنزة، وتتشكل قوتهم من نحو 500 فارس، وينقسمون إلى قبيلتين:

1- الطوقة، وفروعهم الصغرى الحكيش والبرسان وبني زين وبني زيدان.

2- الكعابنة، ومن قبائلهم الصغيرة بني زهير.

السرحان أو السراحين

ويخيمون -بوجه عام- في جوار بني صخر؛ إذ يعيشون معهم في وئام، ويتحدون في مواجهة العنزة، وكان السرحان -قبل قرنين من الزمان- أسيادًا على كل حوران، ولكن السردية طردوهم إلى الصحراء؛ حتى الجوف؛ حيث مكثوا هناك عشرين عامًا يتضورون جوعًا -أو يكادون- مع ماشيتهم، إلا أنهم عادوا بعد ذلك والتحقوا بني صخر، وتتشكل قوتهم من نحو 350 فارسًا، ويوصمون بالالتزام الظاهري -فحسب- بصوم رمضان، وتعتز نساؤهم ببشرتهن الفاتحة، ويرجع أصل هذه القبيلة إلى بلاد الرافدين، وهم ينقسمون إلى قبائل [عشائر] فرعية، هي: ابن رملة وابن رفعة وابن البلي والحبيلي.

بنو عيسى

ويساوون السرحان في قوتهم، وهم حلفاء -أيضًا- لبني صخر وأعداء للعنزة، ويحصلون على إتاوة من قبائل بغداد والبصرة.

التنظيمات في عهد عبد المجيد

وبعد خروج قوات إبراهيم باشا من بلاد الشام، عام 1841، شكلت السلطنة العثمانية مجلس شورى لولاية دمشق، كان ينظر في شؤون الجولان الذي أعيد النظر في تقسيماته الإدارية، واعتمد مبدأ المقاطعة المالية، أي: إن الجولان الذي أصبح اسمه مقاطعة القنيطرة، بات يتشكل -منذ عام 1841- من الأقاليم الآتية:

1-**مقاطعة القنيطرة**، ويقيم في مركزها الملتزم، إضافة إلى عدد من الخيالة، تتبع لها جميع مناطق الجولان ماليًا، باستثناء الحولة والشعْرا.

2-**مقاطعة الحولة** والشعْرا، وتضم منطقة بانياس وجباتا الزيت ومجدل شمس وبقعاتا وعين فيت وزعورة، إضافة إلى قرى الحولة: الصالحية والناعمة والقيطية والدوارة وخيام عبس وغيرها، ولها حساب مستقل عن مقاطعة القنيطرة في قانون الالتزام.

وكان ملتزم مقاطعة القنيطرة والحولة والشعْراء، عمر بوظو، قد مارس من الجور والظلم ضد عرب الفريخات في قرية شوقا ما جعلهم يرحلون عن قريتهم، وهو ما دفع السلطات في دمشق إلى استبداله عام 1845 بشخص آخر، كان ملتزمًا على القدس.

وقد وردت في وثائق الأوامر السلطانية عام 1845 إحصائية للبدو، استُثني منها بعض العشائر التي أسقُطت من السجلات عمدًا، كما سبق وأشرنا.

وهذه الإحصائية وردت في سياق وثيقة تحدثت عن توزيع جِمال على عشائر القنيطرة، وهي:

1- عشيرة الفضل، 2- عشيرة العتبة، 3-عشيرة بني نمير، 4- المحمدات، 5- النعارنة، 6- عرب شام، 7- الذياب، 8- نعيمات الطاعة، 9- القصيرين، 10- الشراحيل، 11- أبو حيا، 12- بني ربيعة،13- الويسية، 14-الجعاتين، 15- الكبايرى، 16- الجلالين والعزية، 17- خساس الضبيان.

التنظيمات في عهد عبد العزيز

أصدر السلطان عبد العزيز عام 1861 نظام إدارة الولايات العمومية؛ فأُنشئت ولاية سورية، وقُسّمت إلى ألوية (سناجق)، والألوية إلى أقضية، والأقضية إلى نواحٍ، والنواحي إلى قرًى ومزارع(208).

وظل قضاء القنيطرة ضمن أقضية لواء حوران؛ حتى عام 1908، إذ أُلحق بلواء دمشق مباشرة.

واحتل قضاء القنيطرة مكانة مهمة عند كبار رجال الحكم العثماني، وكان ترتيبه في الوثائق الرسمية للدولة يأتي -مباشرة- بعد قضاء مركز اللواء(209).

وتزودنا السالنامة العثمانية، وهي الكتاب، أو التقرير السنوي حول مختلف شؤون الدائرة التي يختص بها، بمعلومات مهمة حول الجهاز الإداري والتنظيمي لقضاء القنيطرة خلال أكثر من 40 سنة.

---

(208) فندي أبو فخر، تاريخ لواء حوران الاجتماعي، ص 17.

(209) المرجع السابق، ص 42.

وصدرت السالنامة العمومية التي تخص جميع أرجاء السلطنة باستمرار متواصل منذ عام 1846؛ وحتى عام 1918. أما سالنامة ولاية سورية، ويعنينا أمرها هنا؛ فقد صدر العدد الأول منها عام 1868، بينما صدر العدد الثاني والثلاثون، وهو الأخير، عام 1900.

وقد أمدتنا هذه «السالنامات» بمعلومات عن التقسيمات الإدارية لقضاء القنيطرة، الذي كان ينقسم إلى خمس نواح، هي:

1- ناحية الحولة بإدارة القائم مقام.

2- ناحية الشعراء بإدارة القائم مقام.

3- ناحية القنيطرة بإدارة القائم مقام.

4- ناحية الجولان بإدارة القائم مقام.

5- ناحية الزوية بإدارة القائم مقام.

والملاحظ أن تسمية ناحية الجولان تغيرت أكثر من مرة؛ ففي السالنامات الأولى، كانت تعني منطقة الزوية الشرقية، أي: منطقة حيط وجملة والشجرة وعابدين وغيرها. أما في نهاية العصر العثماني، فكانت تطلق على القطاع الأوسط من الجولان، أي: منطقة نعران وما حولها، علمًا أن هذه المنطقة كانت تتبع ناحية الشعْراء مطلعَ العصر العثماني، وفق ما بدا من وقفية مصطفى لالا باشا.

ونقرأ في كتاب الدكتور فندي أبو فخر «تاريخ لواء حوران الاجتماعي» تعدادًا منقولًا عن جريدة المقتبس عام 1900 لقرى ومزارع قضاء القنيطرة، وجاءت كالآتي:

1- قرى مركز قضاء القنيطرة ومزارعها

جبا، 2- حميدية، 3- منصورة، 4-عين حرمان [الصحيح عين الصرمان]، 5- عين زيوان، 6- مومسية [ممصيا]، 7- عين عيشة، 8- شوكتلية، 9- رويحينة، 10-سلطانية، 11-جويزة، 12-بير عجم، 13-فزارة، 14-رمسانية [رمثانية]، 15- سنديانة، 16-غادرية، 17- ضابيا [الصحيح ضبية]، 18- طيلستان، 19- كفر نفاخ، 20- حسينية، 21- حفر، 22- رزانية، 23- سماقة وسكيك، 24- مويسة، 25- عين الحمرة، 26- ثلجيات، 27- عيون حور، 28- محمد المخفي، 29- تل نعران [الصحيح العرام]، 30- فرن، 31-عين الجمل، 32- خويخة، 33- دلوة، 34- راوية، 35- قرحتا، 36- بريقة، 37-كودنة، 38- استية [الصحيح اسبتّة]، 39-عامودية، 40- مشيرفة.

- المزارع

1- مجدولية، 2- عيون الصخر، 3- دلهمية، 4- عشة، 5- أصبح، 6- خيام وليد ومفتخرة وغرابا، 7- هجة وقصبة [قصيبة] ومويسنة [مويسة]، 8- بيرة، 9- عين التينة، 10- خشنية، 11- فرج، 12- تنورية، 13- صليبية [الصحيح صلبة] ونوانة وحشرة وثحيلة [نخيلة القطاع الأوسط]، 14-أوفانة وجباع، 15- بطمية ورفيد.

1- قرى ومزارع ناحية زوية

- القرى

41- عال، 42- كفر حارب، 43-فيق، 44-اسكوفية، 45-ياقوصة، 46- دبوسية، 47- جبين، 48-كفر الماء، 49- عابدين، 50- جملة، 51- شجرة، 52- نافعة وكوكب، 53- شكوم، 54-قصير، 55-بطيحة، 56- عين ذكر، 57- خسفين، 58- جوقدار [جوخدار]، 59- نجيمة (!).

- المزارع ومنازل العشائر

16- عشيرة مناحرة [الصحيح مناضرة]، 17- أولاد دياب فرح [الصحيح أولاد دياب فريج].

2- قرى ناحية الجولان

60- نعران.

مزارع ناحية الجولان

18- أحمدية، 19- دير سراس، 20- علمين، 21- فاخورة، 22- سنابر وقصرين، 23- جليبين ودردار [الصحيح جليبينة ودردارة] 24- سلوقية، 25- سودية [الصحيح السويهية]، 26- دبورة، 27- يهودية، 28- عليقة.

3- قرى ناحية مجدل شمس

61- عين قنية، 62-جباتا الزيت، 63- زعورة، 64- عين فيت، 65- بانياس، 66- حلس، 67- وقا (!) [حرفا]، 68- مغر الشباعنة، 69- غجر، 70- بقعاتا، 71- سعسع، 72- خان أرنبة، 73- جباتا الخشب، 74- طرنجة، 75- سحيتة.

مزارع ناحية مجدل شمس

27- خان الدوير وخرويعة ونخيلة.

مجلس إدارة القضاء

تكون أول مجلس إدارة لقضاء القنيطرة عام 1869، وكان قائم مقام القضاء محمود بيك،

وضم المجلس في عضويته، إضافة إلى نائب القائم مقام والمفتي ومدير المالية، وهم الأعضاء المعينون، ثلاثة أعضاء منتخبين، هم:

1- الأمير حسن الفاعور: أمير عرب الفضل.

2- شاكر العرقاوي: شيخ قرية بانياس.

3- موسى خليفة آغا: شيخ التركمان.

وقد جرى دمج مجلس إدارة القضاء مع مجلس الدعاوى، عام 1871 في مجلس واحد، اسمه مجلس إدارة ودعاوى، ثم عاد وفُصل عنه من جديد عام 1873.

ولعل الملاحظة الجديرة بالانتباه في هذه السالنامات، هي أن مركز قضاء القنيطرة كان في قرية عين فيت عام 1872، كما يتضح ذلك من السالنامة رقم 4، وعليه؛ فإننا نستطيع أن نقول إن مدينة القنيطرة نفسها كانت خالية من السكان في هذا التاريخ، أو أن سكانها كانوا قلة قليلة جدًا؛ حتى ينتقل مركز القضاء إلى قرية عين فيت الكبيرة نسبيًا. وفي هذه السالنامة، (أي رقم 4)، نقرأ للمرة الأولى إحصائية رسمية شبه مفصلة عن أوضاع قضاء القنيطرة، ولكن هذه الإحصائية تبقى قاصرة؛ لأنها لا تعكس حقيقة الواقع، فالسكان المسجلون أقل بكثير من السكان غير المسجلين الذين كانوا يعدون بعشرات الآلاف[210].

ولم يطرأ أي تغيير يُذكر في دوائر القضاء، أي: مجلس الإدارة ومجلس الدعاوى، إلا مطلع الثمانينيات من القرن التاسع عشر؛ إذ شُكّلت محكمة بداية ودائرة تحصيلات، إضافة إلى تعيين موظف للطابو، وآخر لـ «التلغراف والبوسطة».

وقد زار السير لورانس أوليفانت، عضو مجلس العموم البريطاني، قضاء القنيطرة عام 1879، ونقل لنا وقائع جلسة من جلسات مجلس إدارة القضاء، في الآتي:

«كان حسن الفاعور يجلس إلى جانب القائم مقام، ويحتل موقعًا مماثلًا له من حيث الدرجة الرفيعة، إضافة إلى كونه أميرًا لقبيلة الفضل، وقد ألفيته رجلًا مهذبًا، عمره بين الخمسين والستين، عليه سمات الوقار والرزانة والسلوك العريق النبيل. ويأتي بعد حسن الفاعور رجل آخر، هو الشيخ موسى (خليفة آغا)، زعيم التركمان الذين أتوا إلى هذه الديار في سالف الأزمان، قادمين من جوار بحر قزوين، وقد شعرت بالأسف والحزن الشديد، عندما لم أجد تفاصيل تاريخ هذه القبيلة لدى

[210] وثائق عثمانية حول الجولان، ص 119-126.

الشيخ موسى الذي يتمتع بسيماء الذكاء والرزانة، إضافة إلى ملامحه الناعمة المريحة، وهذا الشيخ هو صاحب الكلمة الفصل على ألف مقاتل، وعلى الرغم من أنه يتكلم العربية، إلا أن قبيلته مازالت تحتفظ بلهجتها التركية القديمة. وبعد هؤلاء يأتي في الدرجة والمقام شيخ آخر، لا توجد عليه ملامح الزهو، وهو الذي مررنا به مع رجاله قبل نصف ساعة من وصولنا إلى هذا المكان، ويدعى الشيخ عوض الأحمد (الطحان)، شيخ عشائر النعيم، وهو الأشهر بين بدو هذه الديار بالشجاعة والبسالة في ساحات المعارك، حيث يخضع لزعامته ما يزيد على أربعة آلاف مقاتل. وهناك زعيمان أو ثلاثة، من زعماء البدو، الأقل أهمية، يقابلهم من طرفنا مجموعة من الدروز، وعلى رأسهم شيخهم، أتوا من بلدة مجدل شمس؛ ليقدموا احتجاجهم للمجلس المحلي ضد مصادرة الفحم التي فُرضت ضريبةً على أهالي المجدل من متصرف لواء حوران المقيم في بلدة الشيخ سعد، ويبدو أن الوضع يستدعي التعاطف مع الدروز في هذه القضية، إلا أن الذوق استدعى مغادرتنا للمجلس؛ ما حرمنا من معرفة ما أسفرت عنه المناقشة والبحث، ولكن الحقيقة التي بدت لنا أن ثلاثة أو أربعة من زعماء القبائل، كان عليهم أن يتركوا مضاربهم؛ ليحضروا إلى هذا المجلس الذي يترأسه المسؤول التركي، ويشاركوا فيه؛ لبحث استياء الدروز من متصرف المنطقة، وقد كان هذا واضحًا بشكل أو بآخر»[211].

وفي عام 1885، جرى تشكيل مجلس بلدية لمدينة القنيطرة، ضم في عضويته خليطًا من الشراكس والعرب والداغستان.

---

[211] تيسير خلف، استكشاف الجولان.

وفي العام نفسه شُكّلت شعبة معارف، ضمت ستة أعضاء، وفي عام 1897، شُكّلت شعبة زراعة، ترأسها محمد جمعة، شيخ بلدة فيق.

وقد تطور الجهاز الاداري لقضاء القنيطرة تطورًا مطردًا؛ حتى وصل عام 1900 إلى الصيغة الآتية:

قائم مقام: عبد الغني أفندي.

نائب قائم مقام: أحمد خير الدين أفندي.

مفتٍ: علي رضا أفندي.

مدير المالية: إسكندر سيور أفندي.

مجلس إدارة وكاتب التحريرات: حافظ عثمان أفندي.

مجلس إدارة القضاء:

أعضاء طبيعيون	أعضاء منتخبون
قائم مقام (رئيس)	الأمير محمود الفاعور أفندي م3
مفتٍ أفندي	الحاج بكمز بيك
مدير المالية	إبراهيم ملكة أفندي
كاتب التحريرات	منحل

محكمة بداية

نائب قائم مقام	رئيسًا
الأمير محمود الفاعور	عضوًا
سعيد الحسين أفندي	عضوًا
إسماعيل شاكر عرقاوي أفندي	عضوًا
عبد الله يوسف أفندي	عضوًا
سليم فهمي أفندي	كاتبًا
محمد رشدي أفندي	معاونًا مستنطقًا
أحمد أفندي	مدعيًا عموميًا معاونًا وكيل الشرطة
أحمد آغا	مباشرًا

مجلس البلدية

محمد علي أفندي	رئيسًا
مصطفى آغا	عضوًا
قاسم آغا	عضوًا
شامل أفندي	عضوًا
عثمان أفندي	كاتبًا

صندوق الزراعة

الوكيل ياسين آغا	رئيسًا
عكاش بورسه آغا	عضوًا
سعد الله أفندي	عضوًا
نجيب أفندي	محاسبًا

موظفون متفرقون

كاتب الطابو، محمد أفندي (ثالثة).

معاون مدير المالية وكاتب الطابو، إسماعيل أفندي

مأمور التلغراف والبوسطة، نوري أفندي

مأمور النفوس، سعيد أفندي

كاتب النفوس، توفيق أفندي

أمين الصندوق، محمد حسن بربر أفندي

رزي صرفيات، حافظ محمد أفندي

تلغراف، قواص عبده أفندي

تحصيلدار القضاء، أحمد أفندي

المدارس

مدرسة القنيطرة الإعدادية	معلم أول، إدريس حسني أفندي،
	معلم ثان محمود أفندي
مدرسة القنيطرة الابتدائية	معلم شاكر أفندي
مدرسة بريقة الابتدائية	معلم أحمد أفندي
مدرسة جباتا الزيت الابتدائية	معلم أيوب خاني أفندي
مدرسة عين عيشة الابتدائية	معلم هاشم أفندي
مدرسة المنصورة الابتدائية	معلم مصطفى أفندي

ناحية مجدل شمس

مدير الناحية: محمد حكيم أفندي	محمد شوقي أفندي، كاتبًا
مدرسة مجدل شمس الابتدائية	معلم حسين أفندي

وقد ضم مجلس الإدارة، وغيره من هيئات القضاء، أسماء كثير من وجهاء المناطق وشيوخ العشائر العربية والتركمانية، وفي وقت لاحق الشراكسة.

ونستطيع أن نجمل هؤلاء الوجهاء الذين انتُخب معظمهم أعضاءً في مجلس إدارة القضاء، في الجدول الآتي، مرتبًا بحسب الحروف الأبجدية:

الاسم	الصفة	المدة التي عاصرها
إبراهيم السلوم	شيخ عشيرة العجارمة	مجلس إدارة وعضو محكمة من 1880 وحتى 1896
إبراهيم ملكة	بانياس (؟)	مجلس إدارة وعضو محكمة من 1892 وحتى 1901
أحمد أبو صالح	مجدل شمس	عضو محكمة عام 1880
أحمد الموسى	؟	مجلس إدارة 1873
أسعد العاص	جباتا الزيت	مجلس إدارة 1896 و1897
إسماعيل شاكر العرقاوي	بانياس	مجلس إدارة وعضو محكمة من عام 1873؛ وحتى عام 1900
بركات العوض الطحان	شيخ قبيلة النعيم	عضو محكمة من 1892 وحتى 1896
بكمز بيك	شراكسة	مجلس إدارة من 1896 وحتى عام 1901
جبر السلامة	العال	مجلس إدارة من 1880 وحتى 1885
جورجي حداد	مجدل شمس	عضو محكمة من 1880 وحتى 1882
حسن الدهام	قبيلة الفضل	مجلس إدارة 1872

(الفاعور)[212]		
حسن الفاعور	أمير قبيلة الفضل	مجلس إدارة من 1868 وحتى 1879
حسن فرحات	بقعاتا	مجلس إدارة ودعاوى 1870
حمد فرحات	بقعاتا	مجلس إدارة من 1873 وحتى 1879
سالم الذياب	العال	عضو محكمة من 1887 وحتى 1889
سعيد الحسين	عين فيت	مجلس إدارة ومحكمة من 1880 وحتى عام 1901
شاكر العرقاوي	بانياس	مجلس إدارة من 1969 وحتى 1873
عساف الرحال	البطيحة	مجلس إدارة من 1895 وحتى 1899
عواد الفريج	شيخ عشيرة الذياب	عضو محكمة من 1874؛ وحتى 1879
عوض الأحمد الطحان	شيخ قبيلة النعيم	مجلس إدارة من 1880 وحتى 1882
عيد خليفة آغا	شيخ التركمان	مجلس إدارة عام 1900
فريج الفريج	شيخ عشيرة الذياب	مجلس إدارة ودعاوى من 1869 وحتى 1872
قاضي المذيب	نوى (جولان شرقي)	مجلس إدارة عام 1896

[212] يرد خطأ حسن الدهان.

محمد الحسين	كفر الما	مجلس إدارة ومحكمة من 1870 وحتى 1884
محمد الفاعور	أمير قبيلة الفضل	مجلس إدارة ومحكمة من 1887 وحتى 1899
محمد جركس بيك	الشراكسة	مجلس إدارة من 1884 حتى 1886
محمد جمعة	فيق	مجلس إدارة وغرفة زراعة من 1890؛ وحتى 1897
محمود الفاعور	أمير قبيلة الفضل	مجلس إدارة عام 1900
محمود خليفة آغا	شيخ التركمان	محكمة بداية من 1884 حتى 1888
مصطفى الفارس	شيخ عشيرة الويسية	محكمة بداية عامي 1885 و1886
موسى خليفة آغا	شيخ التركمان	مجلس إدارة ودعاوى من 1869 وحتى 1883

ونقرأ في السالنامات إحصاءات مهمة عن عدد العشائر البدوية المسجلة في قضاء القنيطرة عام 1878، وقد أتت على هذا النحو:

اسم العشيرة	عدد النفوس	عدد الخيام
بنو فضل	3000	..
بنو نعيم	2000	..
تركمان	1000	..
جعاتين	300	..
ويسية	250	..
بنو دياب	400	..
بنو قصيرين	200	..
ولد علي	3000	..
بنو خالد	2000	..
	12150	يكون

ونطالع في السالنامة نفسها إحصائية عن المهاجرين المسجلين في سورية، الوافدين من الأناضول، وهي كما يأتي[213]:

القرية	القنيطرة	عين زيوان	جويزة	بريقة	بير عجم	رويحينة	منصورة	مومسيا	صرمان	عين الصرمان
المجموع	494	260	69	302	115	100	609	67	287	110
ذكور	258	134	35	167	62	52	287	36	154	54
إناث	236	126	34	135	53	48	331	31	123	56
خانة	138	82	37	80	33	24	184	17	82	28
قبرطاي	30	-	-	-	-	4	-	-	7	28
أبازاخ	-	82	-	80	33	-	129	-	5	-
بزادوخ	1	-	-	-	-	-	55	-	67	-
حاتقوي	42	-	-	-	-	-	-	-	-	-
جامكوي	-	-	-	-	-	20	-	-	-	-
أباظة	-	-	-	-	-	-	-	17	3	-
داغستان	56	-	-	-	-	-	-	-		-

(213) تيسير خلف، وثائق عثمانية حول الجولان.

خلاصة

عاش الجولان في النصف الأول من القرن التاسع تمزقه الفوضى والعطالة، وقد قل عدد سكانه كثيرًا؛ نتيجة ظلم موظفي السلطنة من جهة، واستحكام الفوضى في أرجائه من جهة أخرى، وجاء احتلال قوات محمد علي بلاد الشام وخروجها منه؛ ليوقظ السلطنة العثمانية التي كانت تغط في سبات عميق، فبدأ السلطان عبد المجيد ثورة في التنظيمات، استكملها السلطان عبد العزيز بوضعه قانون الولايات، وهو ما انعكس إيجابًا في الجولان.

وفي هذه المرحلة طلبت السلطات العثمانية من زعماء الجولان التقليديين إرسال أبنائهم للدراسة في إسطنبول، فكانت أول بعثة دراسية لأبناء الجولان في العصر الحديث، إذ ذهب إلى عاصمة السلطنة العثمانية نحو عشرة طلاب، ودرسوا في مدرسة العشائر التي أسسها السلطان عبد الحميد، وقد أتم بعض هؤلاء دراستهم، ودخلوا إما إلى الكلية العسكرية وتخرجوا ضباطًا، أو إلى الكلية الملكية وتخرجوا موظفين مدنيين وقائمي مقام(214). ومن الذين درسوا في هذه الكليات موسى خليفة آغا، وضاهر الشديد الذي وصل إلى رتبة يوزباشي في الجيش العثماني، والأمير حسن الدهام الفاعور، والشيخ عفاش شحادة عبد العزيز، والشيخ مصطفى الفارس، وإسماعيل شاكر عرقاوي وغيرهم، وقد ذهبت بعثة أخرى بعد البعثة الأولى بسنوات قليلة، منهم الأمير نايف القبلان الفاعور، والشيخ شحادة العفاش، وآخرون.

---

(214) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ص 297.

وكانت النقلة النوعية الأخرى وصول المهاجرين الشراكسة إلى الجولان عام 1878، حيث شهدت مدينة القنيطرة نهضة عمرانية وعلمية، استمرت حتى عام 1967.

وقد اكتمل الجهاز الإداري للجولان في تسعينيات القرن التاسع عشر، بحيث وصل إلى مرحلة متقدمة على جميع الصعد، سواء على مستوى التعليم والمعارف، أم على مستوى سيادة الأمن وتراجع الفوضى؛ ما مهد لإعمار القرى المهجورة.

وتزايد عدد السكان تزايدًا ملحوظًا، لكن ذلك لم يكن ليمر من دون منغصات، فالنزاع على المراعي والأراضي؛ نتيجة تزايد عدد السكان، أدى إلى معارك لا تحمد عقباها، فنشبت عام 1882 معركة بين عشيرة الهوادجة والشراكسة، ذهب ضحيتها شيخ عشيرة الهوادجة شحادة عبد العزيز، إذ ذكر شوماخر الذي أورد خبر هذه المعركة في كتابه «الجولان» أن حال العداء مستحكمة بين قبيلة الفضل عامة، وعشيرة الهوادجة خاصة، الذين يعدّهم جيرانهم متكبرين، من جهة، والشراكسة؛ بسبب التنازع على الأراضي والمراعي[215]، ولكن هذا العداء لم يستمر بعد سنوات قليلة، إذ شارك الشراكسة والهوادجة معًا في معركة ضد الدروز في مجدل شمس وحضر وسحيتا، وقد قُتل من الجانبين العشرات، غير أن الأمور عادت إلى الوئام بين الجميع، بعد أن نجح الجهد في تطويق الفتنة التي عزاها كثير من العقلاء إلى تأليب السلطات العثمانية للسكان بعضهم على بعض ؛ لكي تحكم سيطرتها على الجميع.

---

[215] -شوماخر، الجولان، ص 86-87.

الفصل التاسع

ما بعد العثمانيين

الجولان زمن الاتحاديين

ظن العرب أن ثورة الاتحاديين الأتراك سوف تمنحهم حقوقهم القومية، غير أن الواقع أثبت غير ذلك؛ إذ بدأت النزعة القومية المتطرفة لدى ضباط جمعية الاتحاد والترقي الذين يحكمون قبضتهم على السلطة بالظهور علنًا، وبدأت عمليات التتريك تأخذ طريقها إلى البلدان العربية.

وردًا على ذلك، أسس العرب جمعيات سرية، وكان أحد أبرز الناشطين في هذه الجمعيات المجاهد أحمد مريود الذي جعل من قريته (جباتا الخشب) في شمال الجولان إحدى بؤر هذا النشاط المناهض للأتراك.

ويذكر أدهم الجندي أن موسى مريود، والد الزعيم أحمد مريود، اشترى مطبعة، وأصدر جريدة «الجولان» في القنيطرة باسم مستعار، هو أحمد الداغستاني، نظرًا إلى كونه من المناوئين للأتراك.

علمًا أن العدد رقم واحد من جريدة الجولان «العلمية السياسية الاقتصادية الاجتماعية» صدر في القنيطرة في 19 تشرين الأول من عام 1911، صدورًا أسبوعيًا موقتًا، حسبما ورد في الصفحة الأولى من الجريدة التي جاء اسم صاحبها ومديرها

المسؤول، أحمد حمدي، وعنوانها البريدي والبرقي شام-قنيطرة (الجولان)، محل إدارة الجريدة في دار مطبعة الجولان[216].

ويضيف أدهم الجندي أن جلال البخاري، والسيد عز الدين التنوخي التجآ إلى منزل الزعيم أحمد مريود في جباتا الخشب، عندما حاول جمال باشا (السفاح) نفيهم ورفاقهم إلى الأناضول.

وقد قوبل جمال باشا بعد إعدامه أحرار العرب في دمشق وبيروت، بفتور كبير من زعماء ووجهاء الجولان الذين زارهم؛ لتجديد ولائهم لتركيا، ويروي سلام الراسي في مذكراته أن الأمير محمود الفاعور بعد استقباله جمال باشا في قصره، في قرية واسط، امتنع عن تأييد سياسته تصريحًا وتلميحًا، ما أثار غضب الباشا الذي هدأته عبارات مجاملة من مفتي الجيش التركي الرابع أسعد الشقيري[217].

وكانت زيارة جمال باشا لشيخ التركمان في الجولان، عيد خليفة آغا، سببًا في وفاة الأخير، إذ لاحظ جمال باشا أن أبناء تركمان الجولان يتكلمون لغة تركية في ما بينهم، فسأل الشيخ عيد آغا عن سبب وجود الشباب التركمان هنا، ولماذا لا يلتحقون بالجيش؟ فأخبره أنهم معفيون وفق قانون العشائر من الجندية، فأمر الباشا فورًا بإلغاء هذا العفو، وذهاب تركمان الجولان إلى الجندية، فما كان من عيد آغا إلا أن أصيب بجلطة، مات في إثرها؛ متأثرًا بما حدث، ولكن الزمن لم يمهل

---

[216] جوزيف إلياس، تاريخ الصحافة السورية، ج 1، ص 302.

[217] سلام الراسي، الأعمال الكاملة، مجلد 1، ص 194- 196.

جمال باشا؛ لكي ينفذ خطوته، فقد أُعلنت الثورة العربية التي كان للجولان حصته فيها[218].

الثورة العربية والحكم الفيصلي

تلقى الأمير محمود الفاعور في 20/ 12/ 1336 هجرية [8 تشرين الأول/ أكتوبر 1917]، بوصفه الزعيم الأبرز في الجولان ذلك الوقت، رسالة من الأمير فيصل بن الحسين، قائد الجيوش العربية، يذكره فيها بما اتفقا عليه قبل أربعة أيام، ويعلمه ببدء الثورة ضد الأتراك[219].

وشارك متطوعون من الجولان، بقيادة الأمير محمود الفاعور ومشاركة الزعيم أحمد مريود، في معركة دير علي وتل المانع التي وقعت بين الجيشين: العربي والقوات التركية- الألمانية[220].

ومن القصص التي يتذكرها أبناء قرية مجدل شمس عن الحكم الفيصلي، أنهم أوفدوا وفدًا برئاسة المجاهد أسعد كنج أبوصالح؛ ليهنئ الأمير فيصل، حاملًا معه مبلغًا كبيرًا من النقود، كانت فرنسا قد أرسلته في وقت سابق؛ لشراء ولاء دروز إقليم البلان الذين قرروا من جهتهم التبرع بها للدولة العربية، وإعلان الولاء لها. وعندما سأل الأمير فيصل الأمير عادل أرسلان: هل الشيخ كنج أبو صالح صاحب إقطاعات؟ وهل أهل هذا الإقليم من الأغنياء؟ أجابه الأمير عادل: إن الشيخ كنج

[218] مقابلة شخصية مع محمد خير عيد آغا وجيه تركمان الجولان.

[219] الرسالة منشورة في كتاب ثورة الجولان، ص 17.

[220] أدهم الجندي، مجلة العمران، العددين 57-58، ص 70.

لا يملك أكثر مما يمتلك أي فلاح آخر في مجدل شمس، حيث وزع هؤلاء أراضيهم في ما بينهم بالتساوي، بعد أن حرروها من الإقطاع الشهابي الذي كان يمتلكها.

فأعجب الملك فيصل بهذه الروح الوطنية العالية، وقال للشيخ أسعد كنج أبو صالح : إن لكم ولأهل الإقليم في خزينة فيصل أضعاف هذا المبلغ، وأنكم والله أشرف من عرفتهم، وأصدر أمرًا بتعيين الشيخ أسعد كنج أبو صالح نقيبًا في الجيش العربي[221].

معركة الخصاص الأولى

وبعد خروج الأتراك من بلاد الشام، حاول بعض الملّاكين اللبنانيين، مستقوين بالفرنسيين، ضم منطقة الحولة إلى لبنان، لكن الأمير فيصل أبلغ الإنكليز والبريطانيين أن هذه المنطقة هي تحت نظر الأمير محمود الفاعور وإشرافه، الذي يملك قصرًا شتويًا فيها. ولكن ذلك لم يمنع إبراهيم فرنسيس وخليل فرنسيس من السعي مجددًا لضم الحولة إلى لبنان، بدعوى وجود مصالح لهم فيها.

وفي أحد أيام كانون الثاني عام 1918، وصل إلى قصر الأمير محمود الفاعور في قرية الخصاص موظف ضرائب، ومعه 17 جنديًا فرنسيًا يطلبون منه دفع ضرائب مترتبة عليه، كون الحولة ضُمّت إلى لبنان.

---

[221] ثائر أبو صالح، الجولان ..محطات في تاريخ الثورة السورية الكبرى..

فاشتبك رجال الأمير مع القوة الفرنسية، وقتل في إثرها أربعة من رجال الأمير، إضافة إلى جابي الضرائب وسبعة من الجنود الفرنسيين[222].

وظلت مشكلة الحولة سببًا في التوتر بين أبناء الجولان، وبين القوات الفرنسية التي كانت تقف إلى جانب الملاكين اللبنانيين الساعين لضم الحولة إليهم.

وأصل مشكلة الحولة يعود إلى أكثر من ربع قرن، حين نجح بعض المتنفذين من أمناء الصناديق، ومسؤولي المالية في الولايات العثمانية، وغالبيتهم الساحقة من المسيحيين اللبنانيين، بتسجيل أراض في منطقة الحولة بأسمائهم؛ نتيجة نفودهم وسطوتهم المالية والإدارية، وقد سعى هؤلاء منذ عام 1878، عند إحداث ولاية بيروت، إلى سلخ الحولة عن قضاء القنيطرة، وضمها إلى قضاء مرجعيون، ونجحوا في ذلك جزئيًا، ولكن على أرض الواقع كانت أراضي الحولة الواقعة غرب الحاصباني تتبع قضاء القنيطرة، بحكم أن سكانها وأراضيها ومصالحها جزء لا يتجزأ من الجولان.

وظل الوضع معلقًا إلى أن دخلت القوات الفرنسية إلى لبنان، وبدأ آل فرنسيس والأميوني وغيرهم، مستغلين الوضع الجديد، بسعيهم لضم الحولة إلى مناطق النفوذ الفرنسي، ومن ثم؛ إلى لبنان.

---

(222) المصدر السابق، ص 71.

لجنة كينغ كرين

في هذه الأثناء وصلت إلى سورية لجنة «كينغ كرين» الأميركية؛ لتقصي الحقائق حول الحكومة التي يختارها أهل الشام، وقالت هذه اللجنة إنها زارت 34 مقاطعة من مناطق العرب والإنكليز والفرنسيين (ساحل سورية وداخلها وفلسطين). وبلغ عدد العرائض التي تلقتها 91079 عريضة، وفي كل واحدة 50 توقيعًا على الأقل، وأن مطالب الأهالي تنحصر في طلب إنشاء مملكة عربية ديمقراطية دستورية لا مركزية.

وقد نشرت جريدة العاصمة الرسمية عريضة من شيوخ وزعماء الجولان تطالب قوات الحلفاء الوفاء بوعودهم، ومنح البلاد السورية استقلالها والكف عن تجزئتها.

وجاء في العريضة: «نقرأ الآن في صحف الأخبار، وفي ما تذيعه الشركات البرقية، أن حليفتينا: إنكلترا وفرنسا، اتفقتا على تجزئة بلادنا السورية، الأمر الذي ناقض مواعيدهم المتعددة، وأقلق الرأي العام، فالسوريون يطالبون اليوم باستقلالهم التام، ووحدة بلاد العرب السياسية، فإما الحياة، وإما الموت دونه، ولذا؛ نحتج عن عموم أهل الجولان على كل عمل يُشتَمّ منه تفريق وحدتنا، واقتسام بلادنا، متمسكين بأهداب الحق، آملين من الحلفاء ألا ينقضوا اليوم ما وعدونا به في الأمس، وألا يفتحوا مجالًا لحرب تودي بالسلم، ولا يستطيع أحد أن يتحمل مسؤولية نتائجها»[223].

---

[223] جريدة العاصمة، العدد 80، 1919/12/1.

وقد وقع هذه العريضة 32 شيخًا وزعيمًا عشائريًا وقرويًا من العرب والشركس والتركمان، وهم:

1- رئيس عشائر الجولان: محمود الفاعور.

2- رئيس الشراكسة: الحاج سليمان دوغوظ.

3- عن علماء الشراكسة: محمود مصطفى.

4- شيخ قرية بيت جن: أحمد أبو عساف.

5- جركس خشنية: فارس يوسف.

6- شيخ كفر الما حسن شعلان درزي.

7- شيخ جبين.

8- عن الزوية الغربية طالب الشرع.

9- علي الفريج.

10- شيخ عشيرة الويسية صايل الفارس.

11- عن قرية رويحين: ، حاج فرقن.

12- مختار قرية جملة: البريدي.

13- شيخ عشيرة المنافي: أحمد الدخيل.

14- شيخ عشيرة التلاوية: رحال المرعي.

15- شيخ عشيرة الهوادج:، نمر الشحادة.

16- شيخ العجارمة: زعل السلوم.

17- شيخ عشيرة التركمان: مطلق الجاسم.

18- عن الزوية الغربية: علي المحمد.

19- رئيس دروز القضاء: الشيخ [كنج] أبو صالح.

20- رئيس عشيرة النعيم: صالح الطحان.

21- مختار الداغستان: عبد الله.

22- عن الجراكسة: المفتي السابق بدر الدين كغدو.

23- فندي المحمد: أحمد العاصي، صايل الفارس.

24- شيخ عشيرة الدياب: مصطفى الطويل.

25- عن شراكس مومسية: محمود يونس، إسماعيل شركس.

26- عن زوية غربية،:درغام.

27- عن جويزة: عثمان شركس.

28-شيخ الجعاتين: محمد المجبل.

29-عن زوية غربية: دياب العواد.

30-شيخ عشيرة البحاترة: عرسان الشديد.

31-شيخ عشيرة الكبايرة: حمدان المفلح.

32-عن زوية غربية: عكاش السالم.

معركة الخصاص الثانية (الحماري)

بعد معركة الخصاص الأولى، أدرك أبناء الجولان أن المعركة طويلة مع الفرنسيين؛ بسبب موقفهم من الحولة، وانحيازهم إلى بعض الملاكين اللبنانيين، خصوصًا أن الأمير فيصل -الذي أصبح ملكًا في 7 آذار 1920، بعد إعلان المؤتمر السوري ذلك- لم يحرك ساكنًا في هذا؛ بسبب دخوله في لعبة توازنات سياسية بين الفرنسيين والبريطانيين، لكي يضمن موافقتهم على استقلال سورية، وتعيينه ملكًا عليها، ولذلك؛ طلب شقيقه الأمير زيد من الأمير محمود الفاعور الهدوء والتريث ريثما يعود فيصل من باريس، فما كان من الأمير محمود إلا أن بدأ بإعداد القوات من أهالي الجولان والعرقوب؛ لصد أي هجوم فرنسي محتمل لاحتلال الحولة.

ولم تخطئ تخمينات الأمير محمود؛ فقد سارت حملة فرنسية مؤلفة من لوائين، الأول بقيادة الكولونيل دراغون حاكم مرجعيون، والثاني بقيادة الكولونيل شاربينيتي حاكم صيدا، وكانت القوة الفرنسية تتألف من سلاح الفرسان والمشاة، وتعززهما المدافع والطائرات وقوات المتطوعة.

وقامت القوات الفرنسية بالزحف إلى الخصاص، وبدأت بقصف قصر الأمير محمود بالمدافع والطائرات؛ فدمرته ونهبت محتوياته.

في هذه الأثناء تكاملت قوات أبناء الجولان والعرقوب، بقيادة الزعيم أحمد مريود، مع القوات الفرنسية في معركة رهيبة، استمرت من الصباح حتى المغيب، واستطاع رجال الأمير والقوات المجاهدة أسر مئتي جندي من فرسان الفرنسيين،

الذين سيقوا إلى دمشق؛ حيث تسلمهم الأمير زيد بن الحسين، نائب أخيه فيصل، مع أربعين رشاشًا، بينما قتل 600 جندي فرنسي[224].

وبعد اندحار القوات الفرنسية مهزومة نحو مرجعيون، تابعتها قوة من أبناء الجولان والعرقوب بقيادة الزعيم أحمد مريود، ومفتي القنيطرة السابق، الحاج بدر الدين كغدو، وبمشاركة فاعلة من وجيه قرية جباتا الزيت، أسعد العاص، ونجليه شاكر وعز الدين اللذين جُرحا في المعارك، فهاجمتها في موقع يسمى مرج الحماري، قرب مرجعيون التي احتلتها قوات المجاهدين وأضرمت النيران بدار الحكومة، ثم اتجهت إلى قرية المطلة، وعزلتها عن مرجعيون مدة طويلة، في حين قصف الفرنسيون الحولة بالمدافع والطائرات، ودارت رحى الحرب بين الجانبين، وأسفر الهجوم الصاعق والمفاجئ لقوات أبناء الجولان والعرقوب عن مقتل كثير من الفرنسيين، وغنم المجاهدون بطارية مدفع، كانت متموضعة على جسر الغجر، وبطارية أخرى في موقع قرية صردا، ومئتي رأس خيل[225].

وقد كان لافتًا أن تضم قوات المجاهدين الذين شاركوا في معركة الخصاص الثانية جميع أبناء الجولان من عشائر الفضل والفريج والنعيم، ومجاهدون من القرى الدرزية، وبعض زعماء الشراكسة والتركمان ومنطقة العرقوب (شبعا وكفر شوبا والهبارية وكفر حمام).

---

[224] جريدة العاصمة، دمشق، العدد 84 ، تاريخ 10/ 12/ 1919.

[225] المصدر السابق جريدة العاصمة، دمشق، العدد 84.

وقد ادعت قوات الانتداب الفرنسية، في نوع من الحرب الدعائية، أن هذه المعارك من عمل عصابات منظمة، كانت تهدف إلى السلب والانتقام الطائفي ضد المسيحيين[226].

وقد تبنى المؤرخ محمد كرد علي الرواية الفرنسية، التي نقل عنها توصيفه لمعارك أبناء الجولان مع قوات الاحتلال الفرنسية؛ إذ كتب في «خطط الشام» الآتي: « نشطت العصابات في المنطقة الشرقية (المناطق السورية غير المحتلة)؛ فأرسلت الدولة المحتلة في المنطقة الغربية (المناطق السورية المحتلة) في كانون الثاني 1920 [الصحيح كانون الأول/ ديسمبر عام 1919] كتيبتين من الجند، بدلالة بعض نصارى مرجعيون ودير الميماس والقليعة، فضربوا قصر محمود الفاعور أمير عرب الفضل في الخصاص من أرض الحولة، فلما رأى عرب الفضل أنهم المقصودون بالذات، حملوا على الجند حملة منكرة كانت لهم فيها الغلبة، وقتل كثير من الجند الفرنسي وقليل من العرب، وعندئذ هجم نحو مئة وخمسين رجلًا من العرب وأرباب القرى المجاورة على جديدة مرحعيون، فأحرقوا نحو أربعين دارًا، ونهبوا بعضها، وقتلوا نحو عشرين رجلًا من أهلها، وادعى العرب أنه قتل من الجند نحو أربعمائة، ولم يقتل منهم سوى سبعة أشخاص، وادعى الفرنسيون أن المهاجمين العرب كانوا نحو أربعة آلاف، معهم 25 مدفعًا رشاشًا ومدفعان من

[226] مثالًا على ذلك يشير الدكتور علي سلطان في كتابه تاريخ سورية (حكم فيصل بن الحسين) إلى تقارير تصف معركة الخصاص وغيرها من الثورات التي اندلعت ضد الفرنسيين بأعمال العصابات، وذلك في (D.F.Aff.Etr,Levant,21 (20 Dec) pp192-195) وتقرير ماينر تزهاجن عن هذه الأعمال بشكل مطول (Documents,vol IV, (13 jun) pp613-615).

مدافع الصحراء، وادعى العرب أنهم ما كانوا أكثر من ثلاثمائة، ولا مدافع لهم، ولا رشاشات، ولم يكونوا ستة إلى واحد كما ادعى الفرنسيون»[227].

وكان كرد علي -في حقيقة الأمر- أبرز شخصيات حركة سياسية سورية ناشئة، اسمها الحزب الوطني السوري، كانت تعارض عمل الثوار الوطنيين، وتشجع فيصل على اتخاذ مواقف حازمة معهم، ومعتدلة حيال فرنسا[228].

ولكن فيصل كان يميل إلى جانب الوطنيين ضمنًا، وكان يريد منهم أفعالًا لا أقوالًا، فقد امتدح الأمير محمود الفاعور الذي حارب الفرنسيين بصمت، بعيدًا عن الشعارات، وتمنى أن تكون الأمة مثل محمود الفاعور[229].

ويرى الدكتور علي سلطان أن حوادث الحولة التي قادها الأمير محمود الفاعور، في 12 أكتوبر/ تشرين الأول، كانت أشد أثرًا في العلاقة بين الفرنسيين والحكومة العربية؛ لأن الفاعور كان عضوًا في المؤتمر السوري، ومنطقته قريبة من دمشق، وكانت المعارك شاملة لقرى المنطقة التي قامت خلالها حوادث طائفية[230] أدت إلى قتل نفوس كثيرة، وإحراق قرى كاملة، ونهب ما فيها»[231].

---

[227] كرد علي، خطط الشام، ج 3، ص 169-170.

[228] علي سلطان، تاريخ سورية (حكم فيصل بن الحسين)، ص 263.

[229] من خطاب الأمير فيصل في مقر النادي العربي في 22 كانون الثاني 1920. والخطاب منشور في جريدة العاصمة الرسمية العدد 96، في 26 كانون الثاني 1920. وقال بالحرف الواحد: ((كان الأمير محمود الفاعور معتزلاً في الجولان، صابراً صامتاً، فلما اعتدي عليه، قام وفعل بدون قول، الأمر الذي أرغب أن تكون الأمة عليه)).

[230] كتبت جريدة البرق عدد 1022، في 9 حزيران: ((وقامت حوادث صور بين المتاولة والمسيحيين وحصل الذبح والقتل، وقد قتل أهالي بنت جبيل 83 شخصاً من قرية عين أبل المسيحية)). (هذا الاقتباس من كتاب الدكتور علي سلطان تاريخ سورية، ص 339)

[231] علي سلطان، ص 241-242.

وكانت فرنسا تميل إلى عدّ الموضوع مؤامرة تركية، بطلها مصطفى كمال أتاتورك؛ إذ ادعى غورو في برقية مؤرخة بـ 25 كانون الثاني/ يناير 1920، أن «عملاء مصطفى كمال يحضون المسلمين السوريين على الحرب المقدسة، وقد أُرسلت رسالتان إلى نوري الشعلان، ومحمود الفاعور، الذي حارب مرجعيون نهاية الشهر الماضي، ولم يكف حتى الآن عن معاداة فرنسا»[232].

واستمرت سيطرة ثوار الجولان على مرجعيون وجبل عامل وحاصبيا وراشيا ومجدل عنجر حتى 17 آب/ أغسطس من عام 1920، وكانوا يرفعون علم المملكة السورية على المواقع الرسمية فيها.

وقد لخص المجاهد أحمد مريود، في رسالة موجهة إلى الأمير محمود الفاعور، في 5 كانون الثاني/ يناير، أوضاع المناطق التي يسيطرون عليها في البقاع ووادي التيم، وشرح في الرسالة المذكورة إجراءات بسط سيطرة الحكومة العربية، وبرنامج التجنيد العام الذي قرره الثوار على هذه المناطق، استعدادًا لحرب مقبلة مع الفرنسيين.

فبعد أن امتدح ثبات ووطنية الحاج بدر الدين كغدو، المفتي السابق للشراكسة، والشيخ علي فرحات، من بقعاتا، يقول: «لدى وصولنا، وجدنا القوم خاملين، فاترة هممهم، ولم نجد في هذه الديار الرجل المتفاني في سبيل الوطن قلبًا وقالبًا، سوى إبراهيم عراجة، فتكاتفنا -نحن وإياه- على العمل، واجتمع مشايخ البلاد، وقرروا خدمة الوطن ومجازاة من يتأخر، واتخذوا أصولًا، وهو أن ينظموا دفاتر بكل قرية -على حدة- بأسماء الذين يستطيعون حمل السلاح، وتقسيم كل قرية لأربعة

---

[232] المصدر السابق، ص 262.

أقسام؛ ففي كل ثلاثة أيام يأتي ربع القرى جميعها لمجدل عنجر، ويرى التعليم العسكري مدة ثلاثة أيام .. اليوم تخلص الدفاتر، وغدًا يباشرون بالعمل، هذا ما كان من أمر قرى البقاع، أما قرى الإسلام التابعة لمنطقتنا في قضاء راشيا، فإننا رتبناها نفس الترتيب، لكننا جعلنا مدة التعليم يومًا واحدًا ... أمس بلغنا أن أهالي شعبين هجموا على مواشي قرية بعلول، فأرسلنا سرية من قبلنا ليلًا؛ لترى حقيقة الأمر، والآن نرسل خلفها سرية ثانية، والخلاصة: الحالة هنا الآن قد تحسنت وإني أرجو من الله أن يلحق البقاع وما جاوره من القرى بقية الأماكن في الحركة الوطنية، وإن هذا لا يحتاج إلى أكثر من أسبوع، وسوف لا تطول المدة حتى نتحفكم بالأخبار المسرة، وأهالي زحلة بدؤوا ينفرون من الإفرنسيين..»[233].

وبعد سبعة أيام، أرسل الحاج بدر الدين كغدو، والزعيم أحمد مريود، رسالة مشتركة إلى الأمير محمود الفاعور، يبلغونه فيها بنجاح مساعيهم في بسط السيادة على البقاع وراشيا والقرعون، وتحفيز المواطنين هناك على مناهضة الفرنسيين.

ومما جاء في الرسالة التي تُظهر محورية دور أبناء الجولان في ذلك: «نبارك لجميع إخواننا رؤساء قضاء الجولان وسائر أهاليه الكرام، فإننا أصبحنا بما أبرزوه من الهمة نتيه ونفتخر على جميع الناس؛ فحيا الله أؤلئك الأبطال الأشاوس.. إن هذا العمل أحيا النفوس المائتة، وشجع الجبناء، وجعل الأمة كلها قلبًا واحدًا.. إننا يوم وصلنا إلى هنا، كانت جهات عنجر ميّتة نفوس أهلها، فما كاد يصل خبر الجولان؛ حتى غدوا يقدمون على الخدمة كالأسود.. فالفضل لهمتكم، أما أهالي القرعون وما جاورها، فإنهم أسود من أول الأمر، وذلك بهمة أبو ناصر طراف..

---

[233] ثورة الجولان، ص 58- 59.

أصبحت البلاد هنا كلها كما يرام، وإنا لنرجو أن نقوم بعمل يذكر قريبًا إن شاء الله، ولا سيما إذا تقدمت أسود الجولان في جبل عامل، وحافظت عليه بصورة دائمة.. إننا بعد أن رأينا حمية هذه البلاد ازدادت واستعدوا للعمل، أرجعنا لعندكم أهالي شبعا؛ كي يخدموا الوطن عندكم، وتحت أنظاركم..»[234].

ويبدو أن هذا الجهد الذي كان يشرف عليه الأمير محمود الفاعور، بالتنسيق مع الأمير زيد بن الحسين، شقيق الأمير فيصل ونائبه، كان جزءًا من خطة عامة في الأقاليم السورية جميعها، تهدف إلى بناء جيش وطني عبر التجنيد الإلزامي الذي قرره الأمير زيد في غياب شقيقه فيصل، بتاريخ 21 كانون الأول/ ديسمبر 1919، استعدادًا لمعركة آتية -دون ريب- مع الفرنسيين. وهو ما ذكره الأمير زيد صراحة في رسالة موجهة إلى الأمير محمود الفاعور، بتاريح 20 كانون الأول/ ديسمبر 1919، إذ قال له: إن «أهل الشام والأقضية الشمالية في حماسة وغيرة، ومواظبون على عملهم بكل نشاط وهمة، وقريبًا سوف ترون جيشًا عربيًا عرمرمًا، يقاتل في سبيل الوطن العزيز إنشاء الله»[235].

وكان الأمير فيصل بن الحسين في هذه الأثناء ما يزال في باريس، يفاوض الفرنسيين للاعتراف بمملكته، وقد حصل على تنازل موقّت عن البقاع، بحسب تعبير الأمير زيد في الرسالة السابقة، عادًّا أن ذلك يشكل دليل ضعف وتخاذل من الفرنسيين.

[234] المصدر السابق، ص63-65.

[235] المصدر السابق، ص68.

لكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فالفرنسيون والبريطانيون كانوا قد دخلوا جولات من التفاوض حول تقاسم النفوذ في الشام والعراق، ومن أجل هذا تنازل الفرنسيون موقتًا عن البقاع، ريثما ينضجون ثمرة تشكيل دولة «لبنان الكبير»، التي كان بطريرك الموارنة، إلياس الحويك، من جهة، وأبرز زعماء المسيحيين الأرثوذكس، ميشيل تويني، من جهة أخرى، يضغطون لفصلها عن سورية، ووضعها تحت الانتداب الفرنسي، ولم يكن مستغربًا أن يتخذ البطريك الحويك من معركة مرجعيون، ومقتل بعض المسيحيين الذين سلّحتهم فرنسا لقتال أنصار الحكومة العربية، من أبناء الجولان والعرقوب، ذريعة ومسوّغًا للإسراع في تشكيل دولة لبنان الكبير المستقلة عن سورية[236].

وبقدر ما كان الوضع في سورية متحمسًا لقتال الفرنسيين الذين بدؤوا يجاهرون بعزمهم على تقسيم سورية، بقدر ما كان اتفاق الأمير فيصل مع كليمنصو في باريس حول الأقضية الأربعة، مثيرًا للانقسام بين أفراد النخبة السورية. وعلى وجه العموم، كان الجو العام معارضًا لهذا الاتفاق، وأثار حنقًا شديدًا على فيصل، الذي دعاه شقيقه زيد للحضور العاجل إلى دمشق؛ لخطورة الموقف.

---

[236] انظر تفاصيل هذه المداولات في كتاب الدكتور علي سلطان، تاريخ سورية .. حكم فيصل بن الحسين، ص 242-249.

وجاء مؤتمر سان ريمو من 19-26 نيسان؛ ليزيد الطين بلة على رأس فيصل الذي لم تطل فرحته بإعلان استقلال سورية، وتتويجه ملكًا قبل ذلك بنحو شهر، فعارض مقرراته نتيجة إلحاح حكومته، وهو ما جعل الفرنسيين والبريطانيين يسقطونه من حساباتهم، ويوحدون لغة خطابهم معه، وهي لغة اتسمت بالإملاء لا بالتفاوض، وكان من نتيجة ذلك، بعد أشهر قليلة، إنذار غورو ودخول الفرنسيين دمشق وباقي مدن الداخل السوري، في تموز/ يوليو 1920. وبذلك أحكمت فرنسا سيطرتها على الأراضي السورية جميعها، ساحلها وداخلها.

الفصل العاشر
سورية تحت الانتداب الفرنسي

سقطت دمشق بيد قوات الاحتلال الفرنسية يوم 23 تموز/ يوليو 1920، بعد معركة ميسلون، وأصدر الجنرال غورو، بصفته حاكمًا عسكريا لسورية، قرارًا بإعدام ثوار الجولان الذين يزيد عددهم على ألف مجاهد، ممن رحلوا إلى شرقي الأردن.

وكان الشيخ أرشيد بن سمير، شيخ قبيلة الولد علي العنزية، الوحيد الذي انفرد بتأييد الانتداب الفرنسي من بين زعماء الجولان العشائريين، وذكر أحمد وصفي زكريا أن الشيخ أرشيد بن سمير كان قد خاصم القضية العربية، وانحاز للفرنسيين، وعرض إلى لجنة تقصي الحقائق الأميركية «كينغ- كرين»، بأنه وعشيرته مع الانتداب الفرنسي، ثم ذهب إلى بيروت، وقابل غورو، وتعهد له بالولاء وتأييد انتداب فرنسا، وأعانه بالسر والعلن ما وسعه الجهد[237].

ويعدّ موقف ابن سمير غير خارج عن المتوقع، نظرًا إلى موقف قبائل عنزة التقليدي المعادي لزعامة الهاشميين وحلفائهم الإنكليز.

وقد جردت القوات الفرنسية حملة على الجولان؛ بحثًا عن الثوار، فنكلت بالعائلات التي قررت البقاء في قراها؛ ما اضطر كثيرين إلى الالتحاق بالأمير محمود الفاعور في منطقة عين رحوب قرب المغير، شمالي الأردن. أما الذين لم يستطيعوا

---

[237] أحمد وصفي زكريا، ص 407.

عبور وادي اليرموك إلى عين رحوب، فقد التجؤوا إلى الشيخ ابن سمير الذي بات يتمتع بنفوذ لدى سلطات الاحتلال الفرنسية.

وفي هذه المدة خلت قرى شمال غرب الجولان (قرى أبناء قبيلة الفضل) من سكانها تقريبًا، وتعطلت الحياة الاقتصادية في عموم البلاد، وهي تعتمد بوجه عام على تربية المواشي وزراعة بعض المحاصيل.

وقد أصدرت سلطات الانتداب الفرنسية قرارًا، قسمت بموجبه قضاء القنيطرة إلى قضائين: أطلقت على الأول اسم قضاء الجولان، ويضم القطاعين: الأوسط والشمالي، وألحقته بمحافظة دمشق، والثاني قضاء الزوية، ويضم القطاع الجنوبي ومنطقة البطيحة، وألحقته بمحافظة حوران. وظل هذا التقسيم ساريًا حتى أواسط ستينيات القرن الماضي، عندما صدر قرار بإحداث محافظة القنيطرة من القضائين المذكورين.

حكومة عربية ولكن!

طلبت السلطات البريطانية، ممثلة بشخص الميجر سمرست، الملقب باللورد ريكلان، من الأمير محمود الفاعور التعاون معها؛ لحفظ الأمن في شرقي الأردن وتشكيل الحكومة.

وكان شكري القوتلي والأمير عادل أرسلان، ومظهر رسلان، وفؤاد سليم، وسعيد عمون، وأحمد مريود، والقضماني وغيرهم موجودين مع الأمير محمود الفاعور في شمالي الأردن، واجتمع زعماء الشام في بلدة أم قيس، قرب الحمة؛

للتداول في تشكيل الحكومة، وبعثوا رسائل إلى أهل البلاد بذلك، وتشكلت الحكومة العربية في إربد، يوم 5 أيلول/ سبتمبر سنة 1920، وكان مظهر باشا رسلان أول رئيس لها قبل مجيء الأمير عبد الله بن الحسين في تشرين الثاني/ نوفمبر من الحجاز بشهرين[238]. وقد اعتذر الزعيم أحمد مريود عن المشاركة فيها لتفرغة للعمل السياسي في حزب الاستقلال العربي، والعمل على مقاومة الانتداب الفرنسي من مقره الجديد، قرية كفر سوم، في شمالي الأردن، المحاذية للجولان.

وكان أحد الشروط التي اقترحها الزعيم أحمد مريود للميجر سمرست؛ من أجل تشكيل الحكومة العربية في شرقي الأردن، ضرورة سعي البريطانيين لضم لواء حوران وقضاء القنيطرة إلى هذه الحكومة، في مرحلة أولى، وقضائي مرجعيون وصور في مرحلة لاحقة، ونقل محمود عبيدات في كتابه «أحمد مريود» عن الشيخ تركي الكايد قوله: إن سبب امتناع مريود عن المشاركة في حكومة الشرق العربي، هو رفض بريطانيا الموافقة على ضم حوران والجولان وجنوب لبنان إلى حكومة إربد[239].

لكن حكومة بريطانيا كانت تفكر باتجاه آخر، يختلف جذريًا عما كان يفكر فيه الزعيم أحمد مريود، فقد اتفقت مع فرنسا في 23 كانون الأول/ ديسمبر عام 1920، على رسم الحدود بين سورية ولبنان من ناحية، وفلسطين من ناحية أخرى، وفق مبدأ توراتي، هو أن حدود إسرائيل الشمالية تبدأ من دان وتنتهي ببئر السبع. ودان هي تل القاضي التابع لبانياس، بحسب اعتقاد كثير من المتدينين اليهود

[238] أدهم الجندي، مجلة العمران، العددين 57-58، ص 73.

[239] محمود عبيدات، أحمد مريود قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن، ص 228.

والمسيحيين، وهذا يعني أن البريطانيين والفرنسيين كانوا قد اتفقوا منذ عام 1920 ضمنًا على ضم الحولة، بما في ذلك معظم أراضي بانياس، إلى فلسطين، من ثَمَّومن ثَمّ؛ إلى الدولة اليهودية التي كان زعماء الحركة الصهيونية يضغطون على بريطانيا؛ كي تشمل منطقة جنوب لبنان، أي: قضائي صور ومرجعيون، وقضاء القنيطرة، بما في ذلك مدينة القنيطرة ونهر اليرموك وينابيع الحمة[240].

وكانت بريطانيا متحمسة لهذا التوجه، ويبدو أن فرنسا وقفت ضده؛ بسبب تضرر مصالح حلفائها في لبنان.

العفو عن الأمير ورجاله

والظاهر أن هذه التوجهات الساعية لضم الجولان إلى حكومة الشرق العربي (شرق الأردن في ما بعد)، وتزايد النشاط المعادي للفرنسيين عبر الحدود، قد أقنعت الجنرال غورو بضرورة شق الحركة الوطنية المناوئة للفرنسيين، المتمركزة جنوب وادي اليرموك، فأصدر عفوًا عامًا عن عشائر الفضل، في الشهر العاشر من عام 1920، وكان عددهم نحو 1000 مقاتل، وقد أعاد غورو بموجب هذا العفو الأملاك المصادرة[241]. ولم يشمل العفو الزعيم أحمد مريود، الذي كان يخطط لقتل غورو.

---

[240] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص10004.

[241] أدهم الجندي، مجلة العمران، العددين 57-58، ص 73.

حادثة فيق

وفي الشهر الأول من عام 1921 ثار قضاء الزوية على السلطات الفرنسية، وقتل الثوار القائم مقام المعين من سلطات الانتداب.

وجاء في رسالة موجهة من ثوار الزوية إلى الأمير محمود الفاعور، أن هذه الثورة أتت بالاتفاق مع وجهاء الزوية والجولان والمناظرة والتلاوية، إذ استولى الثوار على مركز قضاء الزوية في مدينة فيق، وحصلت مصادمات، قُتل في إثرها مدير المركز عبد القدوس، وبعض عساكر الدرك الفرنسيين[242].

وكان الرد الفرنسي قاسيًا على هذه «الثورة»، فجمعوا سبعة رجال من قرى فيق وسكوفيا والعال والبطيحة، وأعدموهم في ساحة فيق، وهم: علي عوض الحجي سلامة، وحسين السكفوني، وعبد القاسم الهوادي، وعبد الهادي خليل الهوادي، وعبد الله الترّو، وذياب سلامة السكفوني.

وقد عرض الشيخ ذياب العواد مبلغًا كبيرًا من المال فدية عنهم، لكن القائد الفرنسي أصر على تنفيذ حكم الإعدام[243].

---

(242) ثورة الجولان، ص 109.

(243) الجولان عربي الأرض والإنسان، ص 142- 162.

محاولة اغتيال غورو

وتشير الوقائع إلى أن الزعيم أحمد مريود كان قد أنشأ تنظيمًا سريًا حديديًا؛ لمقاومة الفرنسيين، وكان هذا التنظيم يملك شبكة اتصال ممتازة، إذ وصلت الأخبار، في شهر حزيران/ يونيو عام 1921، إلى كفر سوم بأن الجنرال غورو أزمع على القيام برحلة تفتيشية في قضاء القنيطرة، يرافقه بعض رجال حاشيته.

وتحركت ثلة من المجاهدين الذين أرسلهم الزعيم أحمد مريود تحت جنح الظلام، من كفرسوم إلى الجولان، محملة بإرشادات قائدها، وهم خليل علي مريود، وشريف البعلبكي، ومحمود حسن من جباتا الخشب، ومحمد بن ضاهر من قرية شبعا، وعبد الوهاب حماد من قرية تسيل في حوران، ومحمد البرازي من حي الأكراد في دمشق.

وقد وصلت المجموعة التي تنكرت بزي رجال الدرك إلى موقع كوم الويسية، عند مرج برغوث في الجولان، في 23 حزيران/ يونيو، واتخذت مواقعها، فأمطرت سيارة غورو بالرصاص فور توقفها عند الحاجز المصطنع، فقتل مرافق غورو، الليوتنان برانيه، ففتح السائق الباب وألقى بالضابط القتيل أرضًا، ويمم شطر القنيطرة، فيما كان غورو قد اختبأ تحت مقعد السيارة، وجُرح حاكم دمشق، حقي العظم، الذي كان برفقة الجنرال[244].

وعندما وصل غورو إلى القنيطرة، توجه مسرعًا إلى قرية واسط، حيث كان الأمير محمود الفاعور يستقبل شيخ عشائر عنزة، نوري الشعلان، فطلب غورو،

---

[244] المصدر السابق، ص 76.

وهو شبه منهار، من الأمير محمود تطبيق قانون العشائر على الفاعلين، لكن من هم الفاعلون؟ تساءل الأمير محمود بسخرية!.

لم يهنأ الجنرال غور بهذه الرحلة، ولما عاد إلى دمشق، كان الطريق يعج بالدبابات والمصفحات، وكان الجنود الفرنسيون يمارسون هواية التنكيل بالفلاحين؛ بحجة البحث عن المنفذين.

وقد تحركت قوات فرنسية إلى قرية جباتا الخشب، بقيادة الكولونيل دوكور، ودمرت بيت أحمد مريود، ونهبت محتوياته وصادرت مواشيه، وألقت القبض على بعض أفراد أسرة مريود، وقادتهم إلى السجن في دمشق[245].

ومن غرائب الأمور أن تصدر أحكام غيابية بالإعدام في 28 حزيران/ يونيو، أي بعد خمسة أيام على الحادثة، إضافة إلى المنفذين الخمسة الحقيقيين، على أشخاص بريئين لا صلة لهم بالحادث، كأدهم خنجر الشاب الذي ينحدر من جبل عامل، وشكيب وهاب وأحمد ومحمد الخطيب من شبعا، وهم أخوال الزعيم مريود.

فما كان من أدهم خنجر إلا أن لجأ إلى الأمير سلطان باشا الأطرش في القريا في السويداء، ولم يكن موجودًا فيها في ذلك الوقت، فقبضت السلطات الفرنسية على خنجر، ونقلته بالطائرة إلى بيروت وأعدمته فورًا، على الرغم من محاولات سلطان الأطرش منع ذلك، فثار جبل العرب ثورته الأولى؛ نتيجة لذلك. ويرى كثيرون أن هذه الحادثة كانت من أسباب اندلاع الثورة السورية الكبرى بعد سنوات قليلة.

---

[245] المصدر السابق، ص77.

الصراع على الحولة

لم يُقفل ملف الحولة، على الرغم من الاحتلال الفرنسي لجميع الأراضي السورية، وظل مصدر توتر بين الأمير محمود الفاعور والفرنسيين، فاندلعت معركة صغيرة بين رجال الأمير وقوة فرنسية في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1923، قُتل خلالها عدد من الجنود الفرنسيين؛ فجاء الرد قاسيًا؛ بحيث شمل القتل والتهجير وحرق القرى ومصادرة المواشي، فلجأ الأمير محمود إلى صفد، في حين نزح جزء من قبيلة الفضل، على رأسها الأمير فاعور الفاعور، نجل الأمير محمود، إلى قرية كفر سوم في شرقي الأردن.

وتعود خلفيات هذه الحادثة إلى تآمر فرنسا مع بريطانيا، قبل ذلك بعدة شهور، إذ كانت الحكومتان قد قررتا وضع خارطة للحدود بين فلسطين وسورية، بعد سريان قانون الانتداب وتحول الدولتين إلى وضع يمكنهما من رسم الحدود رسمًا قانونيًا، فكان اتفاق نيوكومب- بولييه، بتاريخ 7 آذار/ مارس 1923، إذ قررت منح معظم أراضي سهل الحولة، وأجزاء واسعة من منطقة الزوية في جنوبي الجولان، بما في ذلك الحمة السورية وساحل طبريا الشرقي، إلى فلسطين الانتدابية؛ تمهيدًا لإقامة دولة إسرائيل في ما بعد.

ركود اقتصادي

وقد تعطلت مصالح التجار والفلاحين والبدو على جانبي الحدود السورية- الفلسطينية، والفلسطينية- اللبنانية، نتيجة إقامة الحدود بين أقاليم البلد الواحد؛ إذ كانت مصالح أبناء قضاء صفد في فلسطين مرتبطة ارتباطًا عضويًا بالجولان، وكذلك بجنوبي لبنان، وكانت السوق الرئيسة في عموم المنطقة تقام كل إثنين في بلدة الخالصة من سهل الحولة.

ولذلك؛ لاحظ الصحافي المعروف، نجيب نصار، صاحب جريدة الكرمل الصادرة في حيفا عام 1922، عندما زار صفد التي كان قضاؤها يضم ستين قرية، أن الصفديين الذين يمتهن معظمهم التجارة مع الجولان، «قد أضر بهم تقسيم البلاد إضرارًا ملموسًا؛ لأن مسألة تذاكر المرور والصعوبة في الحصول عليها وقفت حاجزًا بينهم وبين الجولان وبلاد بشارة (جنوبي لبنان) وانعدام الاتصال، وذهبت بجانب كبير من تجارتهم، ومن الغريب أن إدارة فلسطين لم تتدارك هذا الضرر وتمنع وقوعه»[246].

وعندما عاد نجيب نصار إلى صفد عام 1925، وكان قد ارتفع عدد قرى قضائها؛ نتيجة ضم الحولة، إلى 80 قرية، امتدح قرار سلطات الانتداب البريطاني والفرنسي؛ بسبب تسهيل المعاملات بين الجولان وصفد وجنوب لبنان.

وقال في ذلك: «كنا ذكرنا في رحلتنا السابقة سنة 1922، أن صفد تعيش من التجارة مع الجولان وبلاد بشارة، وأنها بسبب الحواجز السفرية خسرت جانبًا كبيرًا من موارد تجارة الحبوب والصوف والسمن، ورجونا من الإدارة يومئذ أن

---

[246] نجيب نصار، رسائل صاحب الكرمل، ص 38.

تسعى من أجل دفع الضرر وتسهيل السفر والمعاملات، فوجدنا في هذه المرة أن الحكومة قد اتفقت مع السلطة الفرنساوية على أن أهالي قضائي صفد وعكا من فلسطين، وأهالي أقضية القنيطرة وصور ومرجعيون من سورية، يسيرون على قاعدة حسن الجوار، أي: يسافرون من قضاء إلى آخر من هذه الأقضية، كلما شاؤوا، بجواز يعطى مجانًا مرة واحدة في العمر، فحمدنا المسعى..»[247].

وكان نصار يشير بذلك إلى اتفاق تحديد الحدود الذي عُقد في عاليه اللبنانية في 23 حزيران/ يونيو عام 1923، إتمامًا للاتفاق المؤرخ بـ 2 شباط/ فبراير 1922.

وقد أشار نص الاتفاق المذكور إلى الوضع المأسوي المعقد الذي خلفه قرار تحديد «التخوم السورية الفلسطينية»، والمقصود -هنا- سهل الحولة والجولان تحديدًا. وقد حاولت الحكومتان: البريطانية والفرنسية تجاوز هذا الوضع، بإقرار عدد من القرارات تتعلق بسهولة الحركة على جانبي الحدود، وإتاحة إمكانية اختيار الجنسية السورية أو الفلسطينية لأبناء هذه التخوم السورية الفلسطينية، بعد ضم الحولة إلى قضاء صفد، وأغوار الزوية إلى قضاء طبريا في فلسطين.

ومما جاء في نص الاتفاق: «يسهل للأهالي الواقعين على جانبي الحدود السير من ملحقات منطقة عكا وصفد إلى قضاء صور ومرجعيون والقنيطرة، والعكس بالعكس. ولهذه الغاية سيستعاض عن طريقة الجوازات الحالية رخص أو تذاكر هوية موقع عليها من السلطات الإدارية في المقاطعات والأقضية. أما شكل هذه الرخص وقوانين استعمالها، فسيعين باتفاق متبادل بين السلطات؛ لأجل إعطائهم هذه الجوازات في كلتا الحكومتين، وتعفى حاصلات المقاطعات والأقضية

---

[247] المصدر السابق، ص 162.

المذكورة أعلاه الطبيعية، ومصنوعاتها المحلية التي ينقلها زارعوها أو صانعوها أو من هم في خدمتهم، من المعاملات الجمركية ورسوم الجمرك عند اجتيازها الحدود، إذا كانت معدة للاستهلاك من العائلة القاطنة في مقاطعات وأقضية صور ومرجعيون والقنيطرة وعكا وصفد، ما لم يشتبه بسوء استعمال»[248].

الثورة السورية الكبرى

بتاريخ 23 آب 1925م أعلن الأمير سلطان باشا الأطرش الثورة رسميًا ضد الفرنسيين، فانضمت المناطق السورية معظمها إلى الثورة، وأبلى الثوار بلاءً حسنًا في إنزال الهزائم بجيوش المستعمرين الفرنسيين، حتى أن فرنسا اضُطرّت -بفعل هذه الهزائم- إلى عزل مفوضيها الساميين وضباطها العسكريين في سورية، وتعيين بدلاء منهم، كما حصل -مثلًا- مع المفوض السامي سرايل، بعد مهاجمة الثوار قصر العظم في دمشق، فعينت المسيو دي جوفنيل، وقصفت دمشق بالطيران لمدة 24 ساعة متواصلة، وأرسلت فرنسا أحد أبرز قياديها، الجنرال غاملان، بعد تزايد قوة الثوار وانتصاراتهم.

وعندما هزت هذه الانتصارات فرنسا الاستعمارية، وجدت نفسها أمام مأزق كبير، فلجأت إلى إرسال آلاف الجنود إلى سورية ولبنان، مزودين بأحدث الأسلحة، مقابل قلة مصادر تموين الثوار؛ ما أدى إلى قلب الميزان لصالح الفرنسيين، فأعادوا سيطرتهم على كثير من المدن بعد أن استمرت المقاومة

[248] مجلة العاصمة، (الجريدة الرسمية) العدد 257، 31 آب 1923.

الباسلة؛ حتى ربيع عام 1927، وكان الفرنسيون قد حكموا على سلطان الأطرش بالإعدام.

وكان للجولان حصته من هذه الثورة؛ إذ أعلن زعيم دروز الجولان وإقليم البلان، أسعد كنج أبو صالح، انضمامهم إلى الثورة، وراسلوا سلطان باشا الأطرش؛ لكي يوسعوا رقعة الثورة فتشمل وادي التيم. واندلعت عدة معارك في مرجعيون وحاصبيا وراشيا، أبلى فيها ثوار الجولان وإقليم البلان بلاء حسنًا، وكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة.

معركة مجدل شمس الأولى

زحفت القوات الفرنسية، بقيادة غرانكور، في اتجاه حاصبيا، وفي الوقت نفسه، بدأت قوة فرنسية تزحف من القنيطرة باتجاه مجدل شمس، والهدف إحداث فكي كماشة على الثوار الذين تفرقوا، وعاد قسم كبير منهم إلى مجدل شمس من أجل الدفاع عنها، ودخلت القوات الفرنسية حاصبيا في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر، بعد معركة ضارية، استشهد فيها كثير من الثوار، وكان من الطبيعي أن يستثمر الفرنسيون هذا النصر بالانقضاض على مجدل شمس؛ إذ كانت فيها غالبية الثوار الذين وصلوا من وادي التيم.

سد الثوار مداخل البلدة عند البويب والسكرة؛ بهدف منع تقدم القوات الفرنسية، وكانت خطة الثوار تقضي بامتصاص الهجوم الفرنسي، ومن ثم؛ تنفيذ هجوم مضاد، وهكذا؛ بدأت المعركة عندما هاجمت الطائرات الفرنسية المجدل، وبدأت ترميها بقذائفها، وفي الوقت نفسه، تتقدم باتجاه القرية، وكانت مجموعات

من الثوار تناوش العدو المتقدم باتجاه البلدة، بدءًا من المناطق التي تقع غربي بقعاثا التي وقعت بيد الأعداء الذين أضرموا النار في بعض بيوتها، واستمر تقدم الجيش الفرنسي حتى المساء، وتوقف القتال عند حلول الظلام، ورابط الجيش الفرنسي في قرية مسعدة، وحول بركة رام، وفي اليوم التالي، بدأ الفرنسيون بقصف مكثف لمواقع الثوار الممتدة من القاطع غربًا حتى السكرة شرقًا، وبدؤوا بالتقدم باتجاه مداخل البلدة التي كان قد سدها الثوار بالصخور، وعند وصول القوات الفرنسية إلى هذه المداخل جرت معارك طاحنة، استبسل فيها الثوار أشد استبسال، وحاربوا بالبندقية وبالسكين والفأس، وبكل أداة حادة يملكونها، واستطاعوا تدمير ثلاث دبابات ومصفحتين عند موقع البويب.

وقد حدثت بطولات كثيرة في المعركة التي استمرت ستة أيام بلياليها، كان النصر في نهايتها حليف ثوار الجولان الذين سقط منهم بعض القادة، مثل المجاهد فؤاد سليم، الذي استشهد بعد أن سقطت قنبلة بجانبه، وهو يحاول امتطاء حصانه قرب قرية سحيتا، عندما كانوا يطاردون فلول الجيش الفرنسي المهزوم[249].

---

[249] ثائر أبو صالح، الجولان ..محطات في تاريخ الثورة السورية الكبرى.

بين معركتين

لم تتوقف العمليات القتالية بين الثوار وقوات الاحتلال الفرنسي بعد انتهاء معركة مجدل شمس الأولى، على الرغم من حلول فصل الشتاء، فصل الأمطار والثلوج.

وسيّر الفرنسيون حملة بقيادة الجنرال ماسيت باتجاه القنيطرة، وذلك؛ في إثر هزيمتهم في معركة مجدل شمس الأولى، واشتبك الثوار مع هذه الحملة عند وعرة «دورين»، وهي مزرعة تابعة لعين الشعرة، وامتد القتال من قرية سعسع حتى الشوكتلية، واشتد قرب قرية سعسع؛ حتى كادت مجموعة من الثوار أن تباد، لولا الهجوم المعاكس الذي قامت به مجموعة أخرى من الثوار، حيث استطاعوا فك الحصار، وأنقذوا إخوانهم[250].

بعد هذه المعركة انقسم الثوار في ثلاثة أقسام:

* القسم الأول بقيادة زيد الأطرش، وصياح الأطرش، وعلي عامر، وحمزة درويش، يعود إلى جبل العرب، وذلك تماشيًا مع طلب القيادة العامة للثورة.

* القسم الثاني بقيادة شكيب وهاب، وحمد صعب، يرابط في قضاء راشيا.

* القسم الثالث بقيادة أسعد كنج أبو صالح، يرابط في مجدل شمس.

كان هدف الثوار الذين تمركزوا في راشيا قطع طريق دمشق- بيروت؛ لمنع الفرنسين من إرسال الإمدادات إلى دمشق. لذلك؛ قرر الفرنسيون منعهم من ذلك، وأرسلوا لهذه الغاية قوة كبيرة لمهاجمة الثوار الذين انتشروا -بعد ذلك- في قرى

---

[250] المصدر السابق.

البيرة والرفيد والمحيثة، فنشبت معارك عنيفة، استمرت يومًا كاملًا، سقط فيها كثير من الشهداء والجرحى، فقرروا الانسحاب شرقًا إلى خربة روحا، فلاحقهم الفرنسيون بقيادة الكولونيل لوفور، وحاولوا تطويقهم، إلا أن النجدات التي وصلت إلى الثوار عدلت الكفة، فاستطاعوا دحر القوات الفرنسية، وأوقعوا بها خسائر فادحة.

تراجعت قوات لوفور باتجاه راشيا، والتحقت بالجيش الفرنسي الكبير، الذي كان يقوده الكولونيل كليمان غرانكور، إذ قررت قيادة القوات الفرنسية البدء بالزحف شمالًا، لتطويق قرية ينطا، التي وصل إليها شكيب وهاب ورفاقه، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين، ونجح الثوار بإبعاد القوة الفرنسية عن القرية؛ ما أعطاهم المجال للانسحاب، ونزح أهل القرية باتجاه إقليم البلان.

بعدئذ توجه الثوار الى الفالوج، ودارت هناك معركة طاحنة، خسر فيها المجاهدون سبعة شهداء، في حين خسر الفرنسيون أربعمئة قتيل، ويصف هذه المعركة المجاهد حسن شمس الذي شارك فيها، قائلًا: «كنا مئة وأربعة عشر مجاهدًا نملك بنادق، إضافة إلى ستة مجاهدين لا يملكون السلاح، عند المساء وصلنا الى الفالوج، وقسمت القوة الى مجموعات وتمركزت غالبية القوة من الجانب الغربي؛ لأن الجهة الغربية كانت أوسع، كان الضباب كثيفًا والأرض مزروعة بالشعير، وعندما كنا هناك جاءت مجموعة من كامد اللوز؛ لتحصد الشعير فأبعدناهم شرقًا، وعند بزوغ الفجر، وصلت قوة استطلاع من الشمال على غير ما كنا نتوقع، وكانت مرتفعة أكثر منا، فاحترنا، كيف يمكن أن نرتفع إلى مكان يمكننا من مجابهة القوة، وفجأة جاءنا الفرج؛ إذ عاد الضباب لينتشر انتشارًا كثيفًا؛

ما مكننا من التحرك وأخذ أماكن ملائمة، عندها وصلت طائرة وبدأت تلقي بالمناشير، تبشر بوصول جيش من الجهة الجنوبية، وبالفعل وصل هذا الجيش Kواصطف الجنود للتحية، ففتحنا النار عليهم مئة وأربعة عشر مشط رصاص، قبل أن يستطيعوا تصويب بنادقهم، استمرت المعركة ثلاث ساعات ونصف اضطررنا، بعد ذلك إلى الانسحاب، عندما بدأ إطلاق نار من الشرق باتجاهنا؛ إذ علمنا أن هؤلاء الحصادة من كامد اللوز الذين أبعدناهم شرقًا، كانوا قد وصلوا الى مخفر الحمَّارة وأبلغوا عن وجودنا، فخفنا من التطويق وتراجعنا»[251].

معركة مجدل شمس الثانية

تحولت مجدل شمس إلى مركز لثوار إقليم البلان، فقرر الفرنسيون الاستيلاء على المجدل، وفي ذلك يقول سلطان باشا الأطرش في مذكراته: «إنه من الطبيعي أن يحاول الفرنسيون تطهير الإقليم من الثوار، بعد أن سيطروا نسبيًا على الموقف في المناطق الأخرى، وحدوا من الأخطار التي كانت تحدق بخطوط مواصلاتهم الرئيسة، ومراكزهم العسكرية المهمة فيها، فإذا تم لهم ذلك (أي الاستيلاء على مجدل شمس)، يصبح طريق السويداء مفتوحًا أمامهم، ويتفرغون لخوض المعركة الحاسمة».

ومع نهاية آذار/ مارس عام 1926، جهز الفرنسيون حملتين: الأولى انطلقت من مرجعيون، وهدفها مهاجمة القرية من الغرب والشمال الغربي، والثانية انطلقت من القنيطرة وهدفها الهجوم من الشرق والجنوب، وتبقى -فحسب- الجهة الشمالية

---

[251] المصدر السابق.

الشرقية مفتوحة للثوار، وهي منطقه جبلية وعرة مكشوفة للطائرات، وقد أنيط بالجنرال كليمان غرانكور قيادة هذه الحملة.

وقد بلغ عدد الثوار في مجدل شمس، من أهالي الجولان وإقليم البلان، إلى نحو ستمئة مقاتل، كانوا بقيادة المجاهد أسعد كنج أبو صالح، ومنذ أواخر آذار/ مارس، وبداية نيسان/ أبريل، بدأ الثوار بالتصدي للحملات الفرنسية في مواقع مختلفة، مثل خان أرنبة، وجباتا الخشب، والغجر، ووادي العسل، وكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة بالأرواح والعتاد، ولم يترك الثوار المجال للقوات الفرنسية بالراحة ليل نهار، إلا أن الطائرات الفرنسية بدأت مع مطلع الثالث من نيسان/ أيريل بقصف جوي مكثف على المجدل وضواحيها، وبدأت -أيضًا- المدفعية تُنصب من كل جانب، واستطاع الثوار، على الرغم من ذلك، صد المدرعات والآليات ودحر المشاة، وبدؤوا يستعدون لهجوم معاكس على القوات الفرنسية، التي هاجمت البلدة من جهات مختلفة.

ولكن العدد المهول للقوات الفرنسية التي زُجَّت في المعركة، والمدججة بجميع أنواع الأسلحة، من طائرات ومدرعات ومدافع، موازنة مع عدد المجاهدين وأسلحتهم المتواضعة، وهجوم الفرنسيين من جهات البلدة المختلفة، فرض على الثوار، على الرغم من قلة عددهم، التوزع في مجموعات صغيرة على أطراف البلدة المختلفة، إضافة إلى الجبهة الشمالية الغربية التي فاجأهم منها وصول المغاوير الفرنسيين عن طريق بركة مرج المن، مقتربين بمساعدة أحد العملاء من المكان الذي لجأت إليه النساء والأطفال والعجزة، هذه الأسباب مجتمعة، جعلت قائد

الثورة، المجاهد أسعد كنج أبو صالح، يأخذ قرار الانسحاب المنظم؛ لحماية النساء والأطفال والعجزة.

ويذكر قائد الثورة العام، سلطان باشا الأطرش: «أن أبطال ثورة الإقليم، بقيادة أسعد كنج أبو صالح، تولوا حماية ظهر المنسحبين». الذين وصلوا إلى قرى جبل العرب، حيث استقبلوا هناك بكل رحابة صدر[252].

وبعد هذه المعركة انضم ثوار الجولان وإقليم البلان إلى ثوار جبل العرب، وخاضوا معًا المعارك ضد القوات الفرنسية، واستُشهد وجُرح عدد منهم، إلا أن القوات الفرنسية، بقيادة الجنرال أندريه، استطاعت أن تستولي على السويداء، فاتخذت قيادة الثورة في اجتماع «سالة» مجموعة من الخطوات والتدابير؛ بهدف مهاجمة العدو وإشعاره بصلابة عزيمة الثوار، وتصميمهم على القتال وعدم الاستسلام. وكانت إحدى هذه القرارات إعادة القوات النازحة من الإقليم، في محاولة لإحياء الثورة هناك من جديد، وبالفعل، عادت مجموعة من المقاتلين من لبنان ومن الإقليم، بقيادة المجاهدين: الأمير عادل أرسلان، وأسعد كنج أبو صالح، وكان قد انضم إلى هذه الحملة -أيضًا- المجاهد أحمد مريود، ولحق بالثوار -بعد ذلك- كلٌّ من الأمير عز الدين الجزائري، وصبري العسلي[253].

ويذكر محمود عبيدات أن الزعيم أحمد مريود اجتمع بأهالي الجولان الذين نزحوا إلى الجبل، بعد المعارك الحاسمة التي خاضها الثوار ضد القوات الفرنسية، واستمع منهم إلى المعاناة التي لقيها أهل مجدل شمس وقلعة جندل، وقال

---

(252) المصدر السابق.

(253) المصدر السابق.

أحدهم: إن عدد شهداء مجدل شمس بلغ أكثر من تسعين شهيدًا، وتحولت هذه القرية إلى مقبرة جماعية للنساء والأطفال والشيوخ الذين لم يتمكنوا من مغادرتها عندما احتلها الفرنسيون، وعرض أهل الجولان رغبتهم بالعودة إلى ديارهم وإلى القتال من جديد...[254].

انطلقت الحملة من الجبل منتصف أيار/ مايو من عام 1926، واقتصرت العمليات الحربية على مناوشات واشتباكات خاطفة مع الفرنسيين؛ لأن عدد الثوار هذه المرة لم يتجاوز المئة، ولم تنجح الحملة في إثارة الحماسة من جديد عند أهل إقليم البلان، وذلك لما عانته هذه المنطقة وأهلها من ويلات في المعارك السابقة التي شاركوا فيها، من جهة أخرى، وتمشيًا مع هدف الحملة، أُرسلت مجموعات صغيرة مسلحة باتجاه البقاع، فوصل بعضها إلى مجدل عنجر التي تجاوزها الثوار شمالًا؛ حتى مشارف رياق، وخلال مسيرتها، كانت تقوم بأعمال تدميرية في سكك الحديد، وخطوط الهاتف، وإطلاق النار على مراكز الدرك والجند الفرنسي؛ ما أثار حفيظة الفرنسيين، وقرروا اجتثاث هذه الحملة من مصدرها قبل أن يشتد عودها.

كان الثوار في الإقليم قد انقسموا إلى مجموعتين: الأولى بقيادة المجاهد أسعد كنج أبوصالح، رابطت في مجدل شمس، والثانية بقيادة المجاهد الأمير عادل أرسلان، رابطت في قرية حضر[255].

---

[254] عبيدات، ص328.

[255] ثائر أبو صالح.

معركة جباتا الخشب واستشهاد أحمد مريود

أما الزعيم أحمد مريود، فقد أصر على الذهاب إلى قريته جباتا الخشب؛ لإجراء اتصالات مع زعماء المنطقة ووجهائها؛ لكسبهم إلى الثورة، وانضم إليه الأمير عز الدين الجزائري، والمجاهد صبري العسلي.

وتظاهر الفرنسيون برغبتهم في التفاوض، في حين كانوا يعدون لحملة عسكرية فاصلة.

وفي ليلة الثلاثين من أيار/ مايو سنة 1926، تقدمت القوة الفرنسية المرابطة في القنيطرة، باتجاه جباتا الخشب، ودارت معركة حامية الوطيس، صمد خلالها الشهيد مريود، ورفض الانسحاب الذي كان متاحًا له، لكنه استشهد برصاصة اخترقت خاصرته.

وأطبقت القوات الفرنسية على القرية، فانسحب الأمير عز الدين الجزائري وصبري العسلي إلى الغابة المجاورة، فلحق بهم الفرنسيون وكادوا يقتلونهم، لولا وصول نجدة بقيادة المجاهد شكيب وهاب.

وقد فقدت جثة الشهيد مريود من ساحة المعركة، لتظهر في اليوم التالي في ساحة المرجة بدمشق، وظلت معروضة من الصباح حتى المساء، إمعانًا في التشفي، ورغبة في إدخال الرعب في نفوس السوريين[256].

وتجمع الثوار بعد معركة جباتا الخشب في قلعة جندل، وبعد تقييم الموقف، قرروا العودة إلى الجبل؛ لمساندة الثورة هناك، وفي مطلع عام 1927، اضطروا إلى

---

[256] أدهم الجندي، مجلة العمران، العددان: 57-58، ص 78.

مغادرة سورية إلى الأزرق في الأراضي الأردنية، إلا أن بريطانيا، التي كانت قد وقعت اتفاقًا مع فرنسا، بعد حل مشكلة الموصل بين الدولتين المستعمرتين، رفضت بموجبه بقاءهم، هناك، فاضطروا للرحيل إلى وادي السرحان في السعودية، بعد أن توسط لهم بذلك شكري القوتلي مع الملك عبد العزيز بن سعود، وظلوا هناك؛ حتى إعلان العفو العام عن الثوار، فعادوا من جديد إلى سورية[257].

وقد أجبرت الثورة الفرنسيين على إعادة توحيد سورية، بعد أن قسمتها إلى أربع دويلات:

دمشق، وحلب، وجبل العلويين، وجبل الدروز، لكنها اضُطرّت إلى الموافقة على إجراء انتخابات، فازت فيها المعارضة الوطنية، بقيادة إبراهيم هنانو وهاشم الأتاسي.

مقاومة مدنية

وفي الثلاثينيات تحول قضاء القنيطرة إلى معبر رئيس لعبور السلاح إلى المجاهدين الفلسطينيين، وإلى محطة إجبارية للمتطوعين العرب، الذاهبين للمشاركة في الثورات الفلسطينية.

وفي عام 1934 حاول الصهيونيون شراء أراض في منطقة البطيحة وقصرين، يملكها أبناء عبد الرحمن باشا اليوسف، بعد أن عُرضت في المزاد العلني؛ بسبب رهنها لأحد الدائنين، ولم تفلح الألاعيب التي لجأ إليها الصهيونيون للحصول على

---

[257] ثائر أبو صالح.

الأرض، وقد حفز هذا الموضوع مجموعة من المالكين والمزارعين السوريين الغيورين على تأسيس «الشركة الزراعية السورية المساهمة» التي كانت تهدف إلى شراء أراضي البطيحة والجولان المعروضة للبيع، وإقامة مشروعات زراعية فيها، على نمط عصري، وقد أصدرت هذه النخبة الوطنية، المكونة من نوري الإيبش، وأمين الدالاتي، وتوفيق المالكي، والمهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا، في 29 حزيران/ يونيو 1934، دراسة مفصلة حول الجدوى الاقتصادية الزراعية من هذا المشروع، بعنوان «التقرير الزراعي عن قرى البطيحة والجولان». وقد أحبط المشروع الصهيوني -في ما بعد- وفشل في الحصول على الأراضي التي كان يطمح لامتلاكها في الجولان[258].

وفي عام 1936، وافقت فرنسا على منح سورية استقلالًا جزئيًا، ووُقعت معاهدة بين البلدين، تنص على منح سورية الاستقلال، إلا أن فرنسا تنصلت من بنود المعاهدة بسرعة، وبقيت قواتها على الأرض السورية، وظلت فرنسا الحاكم الفعلي للبلاد.

[258] راجع التقرير الزراعي لقرى البطيحة والجولان، محفوظات مكتبة الأسد الوطنية.

البريطانيون يحتلون القنيطرة

وخلال الحرب العالمية الثانية، باتت سورية تحت سيطرة حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان، وشهدت قرية العليقة، على الطريق المؤدية إلى جسر بنات يعقوب، ومدينة القنيطرة يوم 9 حزيران/ يونيو 1941، معارك بين قوات حكومة فيشي الموالية للألمان، من جهة، وقوات فرنسا الحرة والقوات البريطانية، من جهة أخرى، إذ دخلت إلى سورية من محوري بانياس وجسر بنات يعقوب، وقد هُزم البريطانيون، ومن معهم من الفرنسيين، في أول الأمر، بعد معركة طاحنة، أمام قوات فيشي، ذهب ضحيتها عدد لا يستهان به من الجانبين، واستسلمت في إثرها كتيبة أسترالية، قوامها 600 جندي، للكوكبات الشركسية المرابطة في القنيطرة، إذ كانت موالية لحكومة فيشي. غير أن ميزان القوى تغير يومي 16 و17، عندما عادت القوات البريطانية لتهاجم القنيطرة من جديد، ومعها الجنرال الفرنسي كولييه، وبعض الكوكبات الشركسية الموالية لفرنسا الحرة، وقُصفت مدينة القنيطرة بالطائرات الإنكليزية، وقُتل عدد من المدنيين، قبل أن تسقط القنيطرة بيد الإنكليز وحلفائهم الفرنسيين[259].

وبعد دخول القوات البريطانية وجيش فرنسا الحرة، ألقى الجنرال ديغول خطابًا في الجامعة السورية، أكد فيه استقلال سورية في القريب العاجل.

---

(259) عدنان قبرطاي، أوراق شركسية منسية، 72-74.

تظاهرات حاشدة

لكن ديغول لم يف بوعده، وظل يماطل ويطالب بامتيازات لفرنسا في سورية بعد الاستقلال، وهو ما دعا المواطنين في الجولان إلى الخروج في مظاهرات حاشدة، تطالب بالجهاد في سبيل الوطن، وعدم التفريط بأي حق، وعدم الاعتراف للأجنبي بأي ميزة بعد الاستقلال.

ففي رسالة وجهها إلى محافظ دمشق، بتاريخ 26 أيار/ مايو عام 1945، قال قائم مقام الجولان: إن «يوم أمس الجمعة كان يومًا مشهودًا في القنيطرة، تجلت فيه الحمية الوطنية، والإخلاص لقضية الوطن واستقلال البلاد، بإقامة مظاهرة؛ إذ أمَّ القضاء جموع غفيرة من أنحائه المختلفة في فترات متقطعة، يشكلون تظاهرات منظمة رائعة، تهزج بالأهازيج الوطنية بحماسة شديدة، ثم تجمعوا في دار الحكومة وباحاتها والشوارع المحيطة بها، يتقدمهم رؤساء العشائر من عرب النعيم والفضل والجراكسة، وخطب خطباؤهم بلسان حالهم مقدمين أنفسهم وأولادهم للجهاد في سبيل الوطن، متطوعين للذود عن حياضه (...)، وقد قر رأيهم على إيفاد وفد إلى دمشق في صباح اليوم التالي، يحمل إلى الحكومة الوطنية عواطف وشعور أهالي القضاء، واستعدادهم للتطوع في سبيل الوطن وقضية الوطن..»[260].

وكان من أهداف زيارة هذا الوفد إلى دمشق، إضافة إلى التعبير عن المشاعر الجياشة للحكومة الوطنية، حل موضوع المتطوعين في الجيش الفرنسي من أبناء الجراكسة، وجرى الاتفاق على استيعابهم في الجيش الوطني السوري قيد التشكيل.

---

[260] وثائق الدولة، المجموعة الداخلية، رقم (د 35/ 60)، مركز الوثائق التاريخية بدمشق.

وكان موضوع الخشية من اندلاع أعمال شغب في القنيطرة بين المواطنين والمتطوعين في الجيش الفرنسي، محل اهتمام خاص من الحكومة الوطنية، فقد وجه وزير الداخلية حينئذ، صبري العسلي، رسائل إلى وجهاء الجولان بتاريخ 1/ 6/ 1945، يطالبهم فيها بضمان الاستقرار والأمن والهدوء والابتعاد عن سفك الدماء، والمحافظة على الأموال والأرواح، وقد طلب الوزير العسلي من الأمير شامان الفاعور التنسيق مع النائب عز الدين بيك سليمان، والتشاور والتفاهم حول هذا الموضوع[261].

[261] نص رسالة صبري العسلي للأمير شامان الفاعور منشورة في كتاب ثورة الجولان، ص171.

الفصل الحادي عشر

بعد جلاء الفرنسيين

احتفل السوريون بجلاء آخر جندي فرنسي، يوم 17 نيسان 1946، واستُكمل على الفور جهد تأسيس جيش وطني قادر على حماية الوطن، فجرى استيعاب المتطوعين السابقين في الجيش الفرنسي، وجزء منهم من شراكسة الجولان، وأُلحقوا بقطعات الجيش السوري المختلفة، وخصوصًا كتيبة حرس الحدود الجنوبية التي كانت ترابط على الحدود السورية- الفلسطينية.

وقد لجأت بريطانيا -في خلال هذه الفترة- إلى دعم العصابات الصهيونية في تنفيذ اعتداءات على الحدود السورية، وتدل الأوراق المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية في دمشق على أنها كانت تهدف إلى قضم الأراضي السورية في الجولان، ومحاولة إهانة الكرامة الوطنية.

معارك مع المستوطنين

ففي تاريخ 14 كانون الثاني/ يناير من عام 1946، أقدم خمسة عشر صهيونيًا مسلحًا، من مستعمرة الدردارة، بمهاجمة ثلاثة رجال من الدرك السوري، بينما كانوا نائمين، وأوثقوهم، وكموا أفواههم، وتسللت -أيضًا- دبابات إنكليزية إلى وادي العسل في الجولان، بتاريخ 10 حزيران/ يونيو عام 1946، بقصد الوصول إلى بانياس، وفي 28 كانون الأول/ ديسمبر عام 1946، تجاوز مستوطنون من

مستعمرة كفر صلد اليهودية خط الحدود، وقاموا بتعزيل أراضي قرية العقدة السورية، توطئة لاستثمارها، بعد أن تعدّت حكومة فلسطين البريطانية عام 1942 على الأراضي السورية، وسجّلت هذه الأراضي باسم اليهود من دون وجه حق، ودون أن تدافع سلطات الاحتلال الفرنسية -يومئذ- عن حق المواطنين السوريين[262]. وقد أدت هذه الحوادث وغيرها، وخصوصًا بعد صدور قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1947، أدت إلى شعور أبناء الجولان أكثر من غيرهم بالخطر الصهيوني، تدل على ذلك وثيقة محفوظة في مركز الوثائق التاريخية في دمشق، تتحدث عن دور خاص لأبناء الجولان في إنقاذ الأراضي الفلسطينية؛ بسبب الوضع الجغرافي للجولان، ومتاخمة أراضيه لأراضي فلسطين المقدسة مباشرة، بحسب تعبير قائم مقام الجولان في ذلك الوقت الذي أرسل رسالة إلى محافظ دمشق، في 1 كانون الثاني/ يناير 1947، يخبره فيها أن وجوه وأصحاب الرأي في قضاء الجولان، وعلى رأسهم النائب الأمير فاعور الفاعور، اجتمعوا معه، وبحثوا فتح مراكز للتطوع للقتال في فلسطين.

وقد فتح مركزًا للتطوع فورًا في نادي المحاربين القدماء، وسجل في ساعتين أكثر من 300 متطوع من عرب الفضل والشراكسة، بحسب نص الوثيقة التي تذكر بأن كثيرين سجلوا بأنهم يقتنون سلاحهم[263].

---

[262] الوثيقة رقم (فل/ 8/30)، والوثيقة (فل/ 30/ 10) والوثيقة (فل/ 10/ 36)، مركز الوثائق التاريخية بدمشق.

[263] الوثيقة رقم (فل/ 30/ 53).

معركة الخصاص الثالثة

ولم ينتظر أبناء الجولان تشكيل جيش الانقاذ، فقد بدؤوا بمقارعة العصابات الصهيونية بعد أيام من الاجتماع المذكور، وتشير وثيقة مؤرخة بتاريخ 22 كانون الأول/ ديسمبر 1947، أي: قبل تشكيل جيش الإنقاذ بثمانية أيام، إلى أن مجموعة من عرب الفضل كمنت لعصابة صهيونية في بيت الأمير فاعور، في قرية الخصاص الواقعة في سهل الحولة، وقتلت ستة من أفراد تلك العصابة، وأحرقت سيارتهم، وفي إثر ذلك أتت ثماني عشرة سيارة صهيونية؛ لنجدة السيارة الأولى، فهبّ أهالي قرية الزوق، وقطعوا الطريق على السيارات، وتبادلوا مع اليهود إطلاق الرصاص لمدة ثلاث ساعات، قبل تدخل قوى الحدود، وتذكر الوثيقة مقتل عدد كبير من الصهاينة، ووصول نجدات كبيرة من بيت جن؛ للاشتراك مع عشائر الفضل في حركات الحدود[264].

وتواصلت المعارك بين أبناء الجولان المتطوعين لقتال الصهاينة، في الأيام التالية لهذه الحادثة، وقد ذكرت وثيقة مؤرّخة بتاريخ 12 كانون الثاني/ يناير 1948، أن المجاهدين العرب هاجموا سيارة تُقل أفرادًا من العصابات الصهيونية المسلحة، كانت تتجه إلى مستوطنة كفر حلط اليهودية، قرب المداخل المتاخمة للحدود السورية عند بانياس، وتبادل الطرفان إطلاق النار لمدة ثلاث ساعات؛ ما أسفر عن مقتل سبعة صهيونيين، وواحد من العرب السوريين، وتذكر الوثيقة أن

---

[264] الوثيقة رقم (فل/55/30)

المصفحات البريطانية قصفت مواقع المجاهدين العرب في الأراضي السورية، وما يزال تجمع المجاهدين يزداد ويستعد لتنفيذ عمليات في الحولة[265].

وفي 18 كانون الثاني/ يناير 1948، وقع اشتباك بين المجاهدين العرب والمستوطنين اليهود، قرب مستوطنة دان الكائنة على الحدود السورية قرب تل القاضي، وقد أُصيب مواطن سوري من قرية شوقا الفوقا في الجولان[266]، وقد انتقم المستوطنون -من جراء هذه العمليات- من أبقار المواطنين السوريين وقتل عدد منها، ومن ذلك ما ترويه وثيقة أرسلها قائم مقام الجولان إلى محافظ دمشق، يخبره فيها أن مستوطني دان قتلوا عشر أبقار لمواطنين سوريين، قرب جسر وادي العسل غرب بانياس[267].

ولم يقتصر جهاد أبناء الجولان على المناطق الحدودية، بل تجاوزه إلى داخل فلسطين، التي استشهد فيها العشرات منهم، في نابلس وعارة وحيفا وبلاطة والقدس وطبريا[268].

---

[265] الوثيقة رقم (فل /10/ 19)

[266] الوثيقة رقم (دا/ 50/ 44)

[267] الوثيقة رقم (93/ ص)

[268] عدنان قبرطاي، ص 161.

حرب عام 1948

اتخذت الحكومة السورية مجموعة من الإجراءات التشريعية، قبل دخولها في حرب عام 1948، فأصدرت قوانين الأحكام العرفية رقم 400 و4001، وقانون رقم 4005 الذي أقر اعتمادات إضافية لموازنة الدفاع، وقانون منح معاشات تقاعدية لعائلات الشهداء في هذه الحرب تقدر بـ 75 بالمئة من الراتب.

وعلى خط مواز لذلك، جرى اختيار لواء المشاة الأول، بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم، وكان أفضل الألوية الثلاثة التي يتكون منها الجيش السوري، من ناحية التسليح والتدريب والتنظيم، وأُطلق عليه اسم الرتل السوري، وفي 15 أيار/ مايو عام 1948، تقرر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين.

القطاع الجنوبي

كانت خطة الهجوم السورية تقضي بأن يسيطر اللواء الأول على سمخ، جنوب غرب بحيرة طبريا، ولينطلق منها نحو تحرير صفد والناصرة في غضون عشرة أيام.

وسارت الأمور في البداية على خير ما يرام، إذ حررت القوات السورية سمخ في 18 أيار/ مايو، مكبدة العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، تجاوزت 113 قتيلًا، بينهم قائد القوة المدافعة، وقائد وحدة الهاجاناه، إضافة إلى 10 أسرى، مقابل ستة شهداء سوريين و11 جريحًا.

وزار رئيس الجمهورية السورية، شكري القوتلي، ووزير الدفاع أحمد شرباتي الرتل السوري في سمخ، ووجهاه بمتابعة التقدم لتحرير صفد والناصرة، وهو ما

كان يعارضه قائد اللواء الذي كانت لديه خطة أخرى، تقضي بتعزيز المواقع السورية في سمخ والمنطقة المحيطة بها.

وبناء على توجيهات رئيس الجمهورية ووزير الدفاع، توجهت القوات السورية لتحرير الجسر القائم على نهر الشريعة، ثم تحرير مستوطنتي داكانيا (أ) و(ب)، وكان من نتيجة ذلك فشل الهجوم على داكانيا؛ بسبب التحصينات القوية التي ساعدت عليها طبيعة المنطقة، واستقالة وزير الدفاع في 22 أيار/ مايو 1948[269]، وإقالة قائد اللواء.

القطاع الأوسط

انسحبت القوات السورية من سمخ بعد فشل الهجوم على دكانيا، وأخذت تنشئ خطًا دفاعيًا جديدًا يمتد من الحمّة إلى باب الحديد، فالحاوي العسكري، فمزرعة عز الدين، فكفر حارب، والقيادة في موقع فيق.

وبعد تسلم حسني الزعيم قيادة أركان الجيش، تبنى خطة جديدة أثبتت نجاحها؛ إذ قرر الهجوم من القطاع الأوسط، أي عبر جسر بنات يعقوب إلى مستعمرة مشمار هايردن (كعوش)، وزج بقوات اللواء الثاني على محور القنيطرة – كفر نفاخ- جسر بنات يعقوب، ولم ينجح الهجوم الأول الذي جرى في 5 حزيران/ يونيو. غير أن الهجوم الثاني الذي نفذته كوكبة الفرسان الشراكسة، يوم 8 حزيران/ يونيو، نجح في عبور المخاضة؛ لأن الجسر كان مدمَّرًا، واشتبكت مع

---

[269] تاريخ الجيش العربي السوري، مجلد 2، ص 247 وما بعد.

القوة الصهيونية المدافعة عن المستعمرة من المساء حتى الفجر، ودخل السوريون المستوطنة التي امتلأت بجثث 120 من المستوطنين المسلحين، والجنود النظاميين، تلا ذلك تحرير تل «أبو الريش» الذي يتحكم بالمنطقة[270]. وكان من نتيجة نجاح الهجوم السيطرة على مثلث، في شكل قوس، غرب نهر الأردن، قاعدته جنوب بحيرة الحولة، ورأسه على شواطئ بحيرة طبريا الشمالية الغربية؛ حتى تل الشمالنة. وعلى إثر ذلك عُقد اتفاق الهدنة الأول بتاريخ 11 حزيران/ يونيو لمدة أربعة أسابيع.

القطاع الشمالي

وبعد انتهاء الهدنة الأولى، نجحت قوة إسرائيلية في احتلال تل العزيزيات الواقع ضمن الأراضي السورية. وبعد محاولات فاشلة لتحريره، استدعى رئيس الأركان، حسني الزعيم، الرئيس أول (رائد) جواد أنزور على عجل، وكان قد تقاعد من الجيش، لتحرير التل الذي يمتلك أهمية استراتيجية خاصة، وكان مطلوبًا استعادته قبل سريان اتفاق الهدنة الثاني في 16 تموز.

وتجاهل المقاتلون البرقيات التي وصلتهم حول اتفاق الهدنة، وواصلوا معركتهم حتى حرروا التل في ليلة 18 تموز؛ واستشهد الرئيس أول جواد أنزور، على بعد خمسين مترًا من القمة، فتابع الملازم عواد باغ المهمة، وأنجز تحرير التل كاملًا صباح 18 تموز، وقد حاولت لجنة الهدنة الدولية إخراج القوات السورية من التل،

---

[270] تاريخ الجيش السوري، مجلد 2، 260 وما بعد.

غير أن الافادات التي تلقتها من المشاركين في الهجوم، أكدت أن التحرير تم قبل سريان اتفاق الهدنة[271].

وأُبرمت اتفاقية الهدنة الثالثة الدائمة في 10 كانون الأول عام 1948، وكانت هناك ثلاث جزر من أراضي فلسطين الانتدابية، في الشمال والوسط والجنوب، تحت سيطرة القوات السورية.

وبعد نكبة عام 1948، تدفقت هجرة فلسطينية كبيرة نحو الجولان، تقدر بأكثر من 40 بالمئة[272] من اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في سورية، وقد استقر هؤلاء اللاجئون في حي أسسوه في مدينة القنيطرة، وأطلقوا عليه اسم حي الشهداء، إضافة إلى انتشارهم الكثيف في القرى المتاخمة للحدود الفلسطينية، من الشمال إلى الجنوب، وخصوصًا في البطيحة والصنابر.

مشكلة الحدود السورية - الفلسطينية

ظل موضوع الحدود السورية- الفلسطينية بؤرة توتر تحت الرماد، طوال حقبة الانتدابين: الفرنسي والبريطاني على سورية وفلسطين، إذ اتخذا منذ عام 1923، كما مرّ معنا، إجراءات موقتة، تهدف إلى نزع فتيل الأزمة، وترحيل المشكلات المستعصية إلى المستقبل، لذلك؛ شرَّع كلا الانتدابين إجراءات وتسهيلات لعبور

(271) هذه المعلومات من مقابلة شخصية مع اللواء عواد باغ.

(272) تذكر إحصائيات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين عام 1995 ان عدد الفلسطينيين في سورية يقارب 280 ألف نسمة، مئة ألف منهم نزحوا من الجولان عام 1967.

المواطنين وبضائعهم على جانبي الحدود المصطنعة، وغير المنطقية، التي رُسمت وفق رغبة المنظمة الصهيونية العالمية.

فانقسمت القرية إلى قريتين، والعائلة إلى شطرين، وقطيع الأبقار إلى قطيعين، يتبع كل منهما إلى دولة مختلفة عن الأخرى.

وبعد حصول سورية على استقلالها النهائي، ومحاولاتها فرض سيادتها على أراضيها، بدأت هذه المشكلات تنفجر هنا وهناك، وتسبب معركة هنا، أو اشتباكًا مسلحًا هناك.

فإضافة إلى موقف المواطنين السوريين في الجولان من هذه الحدود، وتصديهم فرديًا أو جماعيًا لتعديات المستوطنين الصهيونيين المدعومين من قوات الانتداب البريطاني، نشبت أزمة حدودية بين حكومة الجمهورية العربية السورية، وحكومة فلسطين الانتدابية في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1947، وذلك بعد أن وضع قائد حرس الحدود الجنوبية، الرئيس قاسم خليل، مخفرًا سوريًا على تل القاضي، قرب بانياس؛ لمراقبة التهريب.

وقد أخطأ الرئيس خليل بوضع المخفر، متقدمًا عشر خطوات عن الأوتاد المعدنية التي تحدد الحدود الدولية بين سورية وفلسطين الانتدابية، ونتيجة لشكوى من مستوطنة دان الصهيونية، الواقعة أسفل التل، حاصرت المخفر حشود من القوات البريطانية، تتكون من 400 جندي مدجج بالسلاح، ترافقهم طائرة ومصفحات، وحاولت افتعال أزمة مع حراس حدود، تنحصر مهمتهم في المراقبة وملاحقة المهربين؛ وهو ما استدعى تدخل قيادة الجيشين: السوري والبريطاني؛ للوقوف على حقيقة الموقف.

ومما جاء في تقرير قائد اللواء الأول، العقيد عبد الوهاب الحكيم، حول هذه الحادثة قوله: «لقد ذهبت صباح أمس، برفقة قائمقام القضاء (القنيطرة) وبعض الضباط؛ لمعرفة ما إذا كان المخفر موضوعًا داخل الحدود الفلسطينية أم لا؟ فلم نتمكن من ذلك، لولا مساعدة أحد المدنيين صاحب الأراضي هنالك، إذ أرانا الأوتاد الحديدية (ب وج) التي تحدد الحدود. إن هذه الأوتاد التي تشبه تمامًا الوتد (آ) واقعة على سفح التل المذكور، ولا تبعد أكثر من سبعة إلى عشرة أمتار عن مكان المخيم، كما أننا علمنا أن الوتد (آ) وضعته مصلحة المساحة؛ لتحديد الأراضي ليس إلا، إذن؛ فالرئيس قاسم معذور بعدّ الوتد (آ) حدودًا بين سورية وفلسطين، ولا يعد مسؤولًا عن عمله هذا.. عندما شاهدت بنفسي مكان المخفر، كنت قانعًا بأننا موجودون على الحدود تمامًا، كما أن رئيس الأركان عند زيارته للمخفر المذكور يوم 19 تشرين الأول/ أكتوبر، كانت عنده القناعة نفسها كما أعتقد؛ إذ إنه لم يصدر إلينا أمرًا برفع المخفر المذكور..

إن كل من درس وضع الحدود في تلك المنطقة وعلى الأراضي، فلابد أنه يتساءل عما إذا كان واضعو الحدود كانوا يملكون كل قواهم العقلية عند إقراره، فالمنطق والعقل يتنافيان مع الوضع الحاضر.

إن وضع الحدود على الخريطة الوحيدة، ذات المقياس 1/ 200000، الموجودة لدينا، لا يتفق مع الحقيقة، فقرية النخيلة واقعة -مثلًا- على مقربة من التل المذكور، وهي داخل الحدود السورية، بحسب الخريطة المذكورة، لكنها تابعة للأراضي اللبنانية، ورأس التل التابع للأراضي الفلسطينية يقع داخل الأراضي السورية،

بحسب الخريطة المذكورة أيضًا. أما الخريطة ذات القياس 1/ 50000 لمرجعيون، فلم تكن لدينا.

نعلم أكيدًا أن الخطأ المقبول فنيًا على الخرائط، ذات القياس 1/ 50000، يتراوح بين الخمسة والعشرين مترًا والخمسين مترًا، وبما أن مكان المخفر لا يبعد عن الحدود أكثر من سبعة إلى عشرة أمتار، عدّه الرئيس قاسم داخل الحدود السورية، وعدّه هذا مقبول فنيًا..»[273].

وبعد سريان اتفاق الهدنة السورية - الإسرائيلية في 20 تموز 1949، رسمت منطقة مجردة من السلاح، انسحب منها الجيش السوري، وشملت الأراضي التي حررها من فلسطين الانتدابية، وهي في حقيقة الأمر أراض كانت تتبع لقضاء القنيطرة؛ حتى عام 1923، باستثناء مثلث كعوش ومزرعة الخوري وأكراد الغنامة والبقارة وتل الشمالنة التي كانت تتبع قضاء صفد، وهذه المنطقة تبدأ من أقصى شمال الجولان قرب بانياس، وتسير جنوبًا حتى الحمة، بما في ذلك الساحل الشرقي لبحيرة طبريا، وعلى الرغم من أن الجيش السوري انسحب منها، إلا أن موضوع السيادة عليها بقي غير مقرر ولا متفق عليه.

---

(273) وثيقة رقم 11252 تاريخ 15 أيلول 1947، وزارة الداخلية.

حرب المناطق المجردة

وقد كان الصراع على هذه المناطق سببًا في كثير من المناوشات، التي كانت تتطور في بعض الأحيان إلى معارك محدودة بين الجيشين: السوري والإسرائيلي. وكانت إسرائيل مصممة على بسط سيطرتها على هذه المناطق، بفرض الأمر الواقع، عبر إرسال جنود متنكرين بزي فلاحين يحرثون الأراضي المجردة بجررارات مصفحة، تمهيدًا لضمها، وكانت القوات السورية ترد على ذلك بقصف تلك الجرارات.

ولهذا السبب اندلعت عام 1951 معركة تل الشمالنة، التي شارك فيها أهالي المنطقة والجيش السوري الذي كان يرابط بينهم، فقُتل فيها ما يزيد على مئة جندي ومستوطن صهيوني مقابل سقوط تسعة شهداء، أحدهم ضابط سوري.

وفي العام نفسه بدأت إسرائيل بافتعال مشكلات في المنطقة المجردة؛ لصرف أنظار سورية عن مشروع تجفيف بحيرة الحولة، لكن سورية تقدمت بشكوى إلى مجلس الأمن الذي أدان سلوك إسرائيل، ودعاها إلى الكف عن الأعمال التي باشرت بها.

وعادت مشكلة الحدود إلى التفجر من جديد أوائل عام 1953، بسبب محاولة إسرائيل تحويل مجرى الأردن، فأرسل الرئيس الأميركي، إيزنهاور وقتئذ، خبير مياه إلى المنطقة، هو المستر إيريك جونستون الذي قدم مشروعًا لتقاسم مياه الأردن

بين سورية والأردن وإسرائيل، ولكن هذا المشروع كان يفترض اعترافًا عربيًا بدولة إسرائيل، هو ما رفضه كل من الأردن وسورية[274].

وكانت هذه الصدامات مقدمة للتفكير بإنشاء قوات الحرس الوطني من أبناء المنطقة، إذ من المفترض أن يرابطوا بين أبناء المناطق المجردة بوصفهم مدنيين، وأن يدافعوا عنهم بأسلحة خفيفة.

يقول اللواء أمين أبو عساف في ذلك: «بعد أن تكررت حوادث العدوان الصهيوني على المنطقة المجردة، اتضحت خطتهم (أي الاسرائيليين) القاضية بالاستيلاء على هذه المناطق، والتمركز فيها عسكريًا بعد طرد سكانها العرب. وقررت رئاسة الأركان العامة الدفاع عن هذه الأراضي بشتى الطرق والأساليب؛ للمحافظة عليها دون اللجوء إلى اصطدام يشترك فيه الجيش بشكل صريح، ولذلك، وسعيًا وراء هذه الخطة، لجأت قيادة القطاع بموافقة السلطات المسؤولة ومؤازرتها على تسليح السكان العرب في المناطق المجردة بأسلحة فردية وأوتوماتيكية، تختلف نوعًا ما عن الأسلحة المستخدمة في الجيش»[275].

وخلال عامي 1953 و1954، وفيما كانت إسرائيل تعمل على مشروع تحويل مياه الأردن، وتواجه بمقاومة سورية، نجح الجيش السوري في فرض سيطرته على منطقة الحمة، على الرغم من محاولات إسرائيل المتكررة للسيطرة عليها[276].

---

[274] تاريخ الجيش العربي السوري، مجلد 2 ص 147-148.

[275] أمين أبو عساف، ذكرياتي، ص 337.

[276] تاريخ الجيش العربي السوري، مجلد 2، ص 149.

وفي النصف الثاني من الخمسينيات، ازدادت وتيرة المعارك حدة، وكانت التخوم السورية - الفلسطينية تكاد لا تخلو من اشتباك أو معركة محدودة؛ بسبب إصرار الإسرائيليين قضم الأراضي العربية، فتشتبك مع المخافر الأمامية السورية، وقد يتسع الاشتباك ليشمل قطاعًا كاملًا، وكانت القوات الإسرائيلية تكتفي في بعض الأحيان بالرد الناري، أو تقوم بعمليات انتقامية تنفذها قوات تتوغل ضمن الأراضي السورية؛ لنصب الكمائن وشن الغارات، وكانت الاستراتيجيات السائدة لدى الجيش السوري دفاعية بحتة، بينما كانت القوات الإسرائيلية تنفذ دفاعًا ذا طابع تعرضي[277].

ومن هذه الحوادث، كمين في تشرين الأول/ أكتوبر 1955، نصبته قوات إسرائيلية من لواء غولاني على طريق الجمرك – علمين، في القطاع الأوسط من الجبهة، واستشهد من جرائه الملازم أشرف حمدي وأحد جنوده، وأُسر الملازم ياسر الكسم.

الغارة الكبرى على البطيحة

وفي ليلة 11 كانون الأول/ ديسمبر 1955، شنّت قوات لواء غولاني غارة كبرى على منطقة البطيحة، والمرتفعات المطلة على بحيرة طبريا من الشرق، وهاجمت الحاصل والمسعدية والدوكا والكرسي والنقيب وسكوفيا، وألحقت خسائر كبيرة في كتيبة المشاة السورية، قُدرت بخمسين جنديًا. لكن الهجوم فشل في النهاية؛

---

[277] الموسوعة العسكرية، ج 1، مادة التوافيق.

نتيجة صمود أحد مواقع المقاومة الرئيسة، فدارت معركة تكبد الإسرائيليون فيها خسائر كبيرة، أجبرتهم على الانسحاب من جميع المواقع التي احتلوها.

وفي أيلول من عام 1957، وقع اشتباك بين أهالي قرية التوافيق، وجماعة إسرائيلية مسلحة، تحفر قناة للري عبر التوافيق السفلى، ونجم عن ذلك قتل وجرح عدد من الإسرائيليين، وقد أدى ذلك الاشتباك إلى تخلي الإسرائيليين عن خططهم في حفر القناة عبر البلدة، لكنهم سرعان ما بدؤوا العمل بجد على حفر قناة أخرى بديلة، تخترق الأراضي الغربية للقرية، وقد تدخلت قوات الأمم المتحدة التي أوفدت فريقًا مساحًا، أفاد بأن القناة لن تلحق أضرارًا بالأراضي العربية.

واستمرت الاشتباكات الحدودية في القطاعات المختلفة خلال عام 1958، ففي 30 و31 آذار/ مارس، وقع اشتباك بالنيران بين القوات السورية والإسرائيلية شمل القطاع الأوسط بكامله، واشتركت المدفعية والرشاشات والهاونات في المعركة، حيث قصفت القوات الإسرائيلية قرى المدنيين، في حين تركز القصف السوري على المواقع العسكرية فحسب[278].

وفي 16 تشرين الثاني/ نوفمبر، وقع اشتباك مماثل في مزرعة الخوري، وفي 3 كانون الأول/ ديسمبر، جرى اشتباك في منطقة الدرباشية في القطاع الشمالي، أطلق عليه الإسرائيليون اسم قصف الألف قذيفة، حيث أطلقت القوات السورية 1000 قذيفة خلال ساعتين على مستوطنات الحولة؛ ما أدى إلى إلحاق أضرار

---

[278] المصدر السابق.

مادية كبيرة بهذه المستوطنات[279]. وكانت خسائر الإسرائيليين أكبر من خسائر السوريين في معظم هذه الغارات.

معركة التوافيق

وقعت معركة التوافيق ليلة 31 كانون الثاني/ يناير عام 1960، في قرية التوافيق السفلى السورية، الواقعة في القطاع الجنوبي من الجبهة السورية، قبالة النصف الجنوبي من بحيرة طبريا، على بعد 1300 متر من كيبوتز بيت كاتسير الذي أقيم على موقع قرية تل القصير[280] عام 1950، في المنطقة المجردة من السلاح.

وأتت هذه المعركة تتويجًا لسلسلة من الاستفزازات الإسرائيلية المتواصلة منذ عام 1957، وفي 24 كانون الأول/ ديسمبر 1959، أطلق سكان القرية نيرانهم على قوات شرطة الحدود الإسرائيلية، واستمر الاشتباك مدة 4 ساعات، بعد ذلك أخذت الاشتباكات تأخذ طابع التصعيد، وأخليت القرية من قاطنيها المدنيين، استعدادًا للمعركة المتوقعة في 30 و31 من كانون الثاني/ يناير عام 1960.

وبدأ الهجوم الإسرائيلي ليلة 31 كانون الثاني، بقوة تفوق ثلاثة أضعاف قوة الكتيبة السورية المتمركزة هناك، وشنت هجومها بأسلحة متعددة، من المشاة المحمولة، والدبابات، وكتائب هندسة، والمدفعية، والطيران، واستمرت المعركة أربع ساعات، وانتهت بانسحاب العدو تحت وطأة المقاومة الشديدة للوحدات

[279] عنبر وشيلر، ص 99.

[280] القصير قرية كانت تتبع لناحية الزوية في قضاء القنيطرة إبان العهد العثماني، وقد منحت لفلسطين الانتدابية عام 1923، وكانت تعرف في العصر المملوكي باسم قصير ابن معين الدين.

السورية الباسلة، فخسر السوريون ثلاثة جنود استشهدوا، وسقط منهم خمسة جرحى، بينما مني العدو بأضعاف هذه الخسائر، فكُبدت قواته خمسين قتيلًا، ومئة جريح.

وردًا على ذلك؛ قُصفت سكوفيا وفيق وكفر حارب ومزرعة عز الدين، فيما قصفت القوات السورية المستوطنات.

وفي اليوم التالي، حاولت أربع طائرات «ميستير» معادية اختراق المجال الجوي السوري، فتصدت لها أربع طائرات ميغ 17، واستطاعت إسقاط طائرة معادية، أسقطها الطيار نقولا الخوري، الذي حصل على وسام الجمهورية على بطولته.

وبعد المعركة عادت الحياة إلى التوافيق، وفشل الهجوم في تحقيق أهدافه بالسيطرة على هذه القرية.

معركة تل النيرب

ولم تتوقف الاشتباكات بين الجيشين: السوري، والإسرائيلي الذي كان يقضم المزيد من أراضي المناطق المجردة من السلاح، وعلى الرغم من أهمية الانتصار في معركة التوافيق، إلا أنه لم يحجب حقيقة أن إسرائيل استطاعت مع حلول عام 1960، عن طريق التصعيد المستمر وزيادة استخدام المدفعية والدروع والطيران، السيطرة على معظم المناطق المجردة، وجففت بحيرة الحولة، وسيطرت سيطرة شبه كاملة على بحيرة طبريا، وواصلت عملها في مشروع المياه القطري الذي

بدأته في الخمسينات، بقصد تحويل مياه الأردن إلى الجزء الشمالي من صحراء النقب[281].

وفي هذه الأوضاع، اندلعت معركة تل النيرب يومي: 16 و17 آذار/ مارس 1962، وهي من أهم معارك المواجهة المحدودة قبل عام 1967، وكان التناقض حينها على أشده بين الإنفصاليين، وضباط الجيش الوحدويين.

وبدأت الزوارق الإسرائيلية تقترب من المخافر السورية على شاطئ طبريا الشمالي الشرقي، وكانت الأوامر واضحة بهذا الشأن، وتتلخص بإطلاق النار على الزوارق التي تقترب أكثر من مئتي متر من الشاطئ.

وبعد ظهر 16 آذار/ مارس، تقدم زورقان مسلحان إسرائيليان باتجاه مخفر الكرسي، ففتحت القوات السورية النيران عليهما، وأصيب أحد الزورقين إصابة مباشرة، أدت إلى غرقه. وفي العاشرة ليلًا، هاجمت قوات العدو موقع تل النيرب، ونجحت في احتلاله، بعد توقف قليل؛ بسبب المقاومة العنيدة من الوحدة المتمركزة فيه.

وبعد احتلال تل النيرب، توجه المهاجمون إلى البطيحة، وكان قوام القوة المهاجمة كتيبتان من المشاة المحمولة بعربات نصف مجنزرة، يتقدمها بلدوزر لردم الخنادق المضادة للآليات.

وشاركت المدفعية الإسرائيلية في المعركة، فقصفت الحمة، ولكن الأمور سارت -بعد ذلك- سيرًا دراماتيًا، إذ دخلت القوات المعادية في حقل ألغام، جرى

---

[281] باتريك سيل، الأسد- الصراع على الشرق الأوسط، ص 197.

زرعه في الليلة الماضية؛ ما أدى إلى تعطيل الهجوم، وانقلبت موازين القوى، وتحولت القوات الإسرائيلية إلى مرمى سهل وممتاز للنيران السورية. وبعد ذلك انسحبت سرية الكوماندوز المتقدمة من مواقعها في مخفر الكرسي إلى تل النيرب، بعد عزوف العدو عن متابعة الخطة، نظرًا إلى الخسائر الكبيرة التي مني بها.

ومع انبلاج فجر 17 آذار/ مارس بدأت القوة المعادية تنسحب باتجاه الأرض المحتلة، مع قتلاها وجرحاها وآلياتها المعطوبة.

وكانت الخسائر السورية 26 شهيدًا، منهم قائد الموقع، و20 جريحًا، وأسيرًا واحدًا، أما خسائر إسرائيل فقدرت بمئة إصابة محققة، جرى إخلاؤها، باستثناء جثة ضابط، إضافة إلى ثلاث بطاريات مدفعية، بقيت شاهدة على هزيمة العدو[282].

وبفشل هجوم إسرائيل على تل النيرب، توقفت تقريبًا المعارك المهمة على المنطقة المجردة من السلاح، التي غدا معظمها تحت الاحتلال الإسرائيلي، وقليل منها تحت السيادة السورية.

---

[282] الموسوعة العسكرية، ج 1، مادة تل النيرب.

انتعاش القنيطرة

لقد أسهم تحول الجولان إلى جبهة قتال في انتعاش مدينة القنيطرة، من جهة، وتعطل كثير من الأراضي الزراعية الخصبة المحاذية للحدود مع فلسطين المحتلة، من جهة أخرى.

فقد أدى تمركز تشكيلات الجيش السوري معظمها في الجولان إلى قدوم كثير من العائلات السورية إلى القنيطرة، وازدهرت حركة عمران، وتجارة منقطعة النظير، أدت إلى توسع المدينة في الاتجاهات جميعها، ونشأت أحياء جديدة، سكانها من الفلسطينيين اللاجئين معظمهم، ومن أبناء المحافظات السورية الأُخرى، من عسكريين وغير عسكريين.

غير أن المأساة كانت تتجلى في أقسى صورها في المناطق الغربية من الجولان، المشرفة على الأراضي الفلسطينية؛ فهذه القرى كانت تعاني عطالة أراضيها؛ نتيجة الاشتباكات المستمرة، وكانت تتعرض للقصف الإسرائيلي شبه الدائم، أما الخدمات، فكانت معدومة انعدامًا تامًا، ومع ذلك؛ كان مطلوبًا من أهاليها أن يساندوا الجيش في حربه الطويلة، ويصمدوا؛ كي لا تحتلها قوات العدو.

وقد انتبه الرئيس جمال عبد الناصر إلى هذا الوضع المأسوي لأبناء هذه المناطق، عندما قام بزيارته الشهيرة إلى الجبهة مطلع آذار/ مارس عام 1958.

وكان المواطنون السوريون والفلسطينيون قد احتشدوا في مدينة القنيطرة، استعدادًا لاستقبال الرئيس عبد الناصر، ولكنه لم يضع وقته في المسيرات الحماسية، بل ذهب مباشرة إلى بانياس، التي انطلق منها في زيارة تفقدية لعموم الجبهة.

وكان من نتيجة هذه الزيارة البدء بمشروع لتطوير القرى الأمامية، وتزويدها بكل ما يساعدها في الصمود.

فبدأت ورشة بناء المساكن الشعبية في هذه القرى معظمها، مثل قرية النخيلة، وتل الأعور في البطيحة الذي أصبح اسمه تل عامر(نسبة إلى المشير عبد الحكيم عامر)، والكرسي وكفر نفاخ ودير سراس وسكوفيا وغيرها، وقد روعي في تصميم هذه «القرى النموذجية الزراعية والدفاعية قلة التكاليف»، بحسب نص نشرة دعائية لهذا المشروع[283].

وقد أنشأت هذه القرى بشكل مجموعات متباعدة، تضم كل مجموعة من 30 إلى 40 بيتًا للسكن، وقد جرى إنشاء 9 قرى أنموذجية حتى عام 1960.

وبُنيت مساكن حديثة في القنيطرة، للضباط على طريق المنصورة، ولصف الضباط على طريق الصرمان، ودشن المشير عبد الحكيم عامر عام 1960 سينما الأندلس ونادي الضباط في القنيطرة، وأبنية للضباط وصف الضباط في القرى الأمامية.

وأسهمت قيادة الجبهة في بناء 14 مدرسة لأبناء القرى الأمامية، عسكريين ومدنيين، إحدى هذه المدارس ثانوية فيق التي دشنها المشير، وشكلت نقلة نوعية على صعيد التعليم في جميع منطقة الزوية.

وقد رسمت قيادة الجبهة خطة عامة لاستثمار مصادر المياه الجوفية وغير الجوفية، وعملت على استثمارها والاستفادة منها؛ لتوفير المياه النقية لأبناء الجبهة،

---

[283] وحدتنا والجيش الأول، نشرة دعائية صادرة عن الفرع الثقافي العسكري، بدون تاريخ، ص 42-43.

وفي هذا السياق، جُرّت المياه إلى القنيطرة، وأكثر من عشرين قرية أخرى، من نبع بيت جن، وجُرّت المياه إلى قرى الزوية من نبع الجوخدار، في القطاع الجنوبي.

وبدأت الكهرباء تصل إلى قرى الجولان تباعًا؛ إذ وصل عدد القرى الأمامية التي أنيرت بالكهرباء؛ حتى عام 1960، أكثر من 16 قرية.

وقدّمت قيادة الجيش المواد الأولية اللازمة لبناء عدة مساجد في الجبهة، منها مسجدان بُنيا -فعلًا- في الخشنية وخان أرينبة.

وكانت قيادة الجبهة قد خططت لمشروعات أخرى، نُفّذ القسم الكبير منها، في حين توقف قسم آخر؛ بسبب الانفصال بين الإقليمين: الشمالي والجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة.

ومن هذه المشروعات:

1- مشروع مياه عين فيت، «إتمام المشروع».
2- إرواء قرى حفر وراوية والقنعبة من ينابيع واسط وراوية.
3- إرواء قرية صيرة الخرفان من مياه صنابر.
4- جر مياه إلى بعض القرى.
5- إتمام مشروع كهرباء مجدل شمس.
6- مساعدة في إتمام بناء جامع حي العرب في القنيطرة.
7- مساعدة في ترميم كنيسة القنيطرة.
8- مشروعات مدارس قرى الحدود «3 مدارس»[284].

---

(284) المصدر السابق، ص 49-50.

وعلى الرغم من أن خطوات التطوير السابقة كانت تترافق مع حملة دعائية ممجوجة، تتمثل بتنظيم المظاهرات والمهرجانات الخطابية، ورفع قائد الجبهة، أو من ينوب عنه، على الأكتاف، وما إلى ذلك، إلا أنها حققت مكاسب نوعية لأبناء الجولان، لا تنكرها العين، خصوصًا أنها ترافقت مع تنظيم حملة مساعدات اجتماعية، تمثلت بما يسمى معونة الشتاء، التي كانت تُجمع من التبرعات، وتُوزّع على أبناء الطبقة الفقيرة، ومنها القرى الأمامية؛ لتحمّل نفقات البرد القارس، بينما كان جزء من هذه التبرعات يذهب إلى بناء المساكن.

ولكن القرى التي استفادت من عمليات التطوير هذه بقيت محدودة، موازنة مع القرى التي لم تستفد، ووصف وضع إحداها رئيس وزراء عهد الانفصال، الدكتور بشير العظمة، في مذكراته، عندما اقترح على بعض الوزراء والضباط زيارة قرية من قرى الجبهة، لم يذكر اسمها، لكنه حدد موقعها قرب سهل البطيحة.

وقد كتب الدكتور العظمة، واصفًا وضع هذه القرية المأسوي: «رجوت رئيس الجمهورية وضباط القيادة دخول قرية من أهل (القاع)، قريبة من ساحة المناورة.

تتألف القرية من عشرات البيوت- الأكواخ، وتقع في هضبة الجولان، على حافة الجرف المطل على سهل البطيحة السوري.

التوقيت قبل الغروب لنهار حارق من شهر آب 1962، دخل أصحاب الألقاب والأوسمة أزقة ضيقة غير مرصوفة رتلًا، لا تتسع الحارات إلا للفرد وراء الآخر، على وجوه الجميع تعابير القرف والضيق، وعلى الأنوف مناديل بيضاء، تخفف من الروائح غير العطرية المتصاعدة من روث البهائم والبشر معًا.

من المواقد الحجرية على الطريق يتصاعد دخان نار الجلّة (روث البقر المجفف)، دخلنا أقرب دار تتألف من غرفة واحدة، فيها حصير خشن، عليه عدد من الصغار، ويضيء الغرفة ليلًا ونهارًا سراج زيتي.

يقود الرتل صراخ الأطفال المذعورين وأسراب الذباب والناموس، وهم حفاة نصف عراة. لم نصادف في القرية إلا النسوة والأطفال والعاجزين من الشيوخ، فالشباب وراء لقمة العيش في أقصى الشمال في موسم الحصاد.

لم يكمل المشوار من أصحاب الألقاب والأوسمة سوى أربعة، أحدهم ضابط، أما الباقون، فقد انسحبوا وضاقوا بالعبث من فكرة الزيارة الصبيانية.

أثار دخولنا القرية الذعر والتساؤل، ووقفت النسوة متحفزات، وتحمي كل منهن أطفالها، يلتفون حولها مذعورين، لا تدخل السلطة القرية راجلة، لا تدخلها صديقة أو للسياحة أو الدراسة، لا تهبط السلطة إلا للجباية أو الاعتقال،. وعليه؛ فقد سمعنا تكرارًا صراخ: ياساتر. خجلنا من أنفسنا ولم نسأل: وكيف تقضون أمسياتكم ؟

السراج لا يضيء التلفاز، وما نفعه والمشهد على حافة الجرف نيّر وميسور ومجاني؟

الأنوار الكاشفة، والشوارع المضاءة، وبحيرات السمك، والمسابح، والمداجن. تكفي مشاهد هذه الحياة الصاخبة في السهل سلوى للسارحين مع الأسى والأحلام. في الدار الوحيدة التي دخلناها، يعلو صوت الترانزستور، الأداة

الوحيدة للصلة اليومية الوثيقة بينهم وبين العاصمة، يسمعون منها أناشيد الحماسة للوطن، وضرورة التضحية والفداء»[285].

الحياة السياسية والنيابية

شهدت مرحلة الخمسينيات ظهور وعي سياسي مختلف في الجولان؛ إذ بدأت التيارات الفكرية التي كانت تلون الحياة السياسية في دمشق وحلب وحمص وحماة، تجد مواطئ أقدام لها في الجولان، فتأسست منظمة للحزب الشيوعي السوري، أسسها مراد يوسف عام 1954، تلتها شعبة لحزب البعث العربي الاشتراكي في القنيطرة عام 1956، وكان الحزب القومي السوري قد رسخ جذوره في القنيطرة منذ الثلاثينيات، وكان له حضور في بعض قرى شمال الجولان، مثل جباثا الزيت ومجدل شمس وعين قنية، في حين تأخر انتشار الفكر القومي السوري إلى أواسط الخمسينيات في منطقة الزوية، إذ أسهم المحامي، هاجم فلوح، في نشر هذا الفكر، وخصوصًا في خسفين والعال وفيق والحمّة، وكان قضاء الزوية معقلًا للبعثيين منذ مطلع الخمسينيات، بسبب دراسة شباب الزوية في درعا، واستلهامهم فكر البعث من مدرسيهم البعثيين الذين كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها في محافظة حوران. وفي حين نجح الأخوان المسلمون في تأسيس وضع تنظيمي ما في القنيطرة، عن طريق بعض المدرسين، مثل محمد منصور[286] مدير ثانوية

---

(285) بشير العظمة، جيل الهزيمة.

(286) تحول محمد منصور في ما بعد إلى الفكر الناصري.

جابر بن حيان، وعبد الوهاب حمامي، لم يفلح هذا التنظيم في إيجاد مؤيدين له في الزوية، على الرغم من محاولته ذلك.

ومع ذلك، لم تشكل هذه التيارات الحزبية المعروفة أي قوة انتخابية في قضائي الجولان والزوية، وظلت الأسماء ذات الثقل العشائري والمناطقي تنجح في الانتخابات النيابية التي كان الأمير فاعور الفاعور ممثلًا شبه دائم فيها لقضاء الجولان، منذ المجالس النيابية الأولى التي أُسست في حقبة الاستعمار الفرنسي.

وقد شهدت حقبة الخمسينيات محاولات جدية من المثقفين الجدد الذين عادوا إلى الجولان بشهادات جامعية، وطموحات في التغيير، وكانت انتخابات عامي: 1953 و1954 مميزة على هذا الصعيد؛ فقد ترشح إسماعيل نمر الشحادة، وهو خريج علوم سياسية وقانون دولي من الجامعة الأميركية في بيروت، في انتخابات عام 1953، ضد المرشح التقليدي عبد الرحمن أيوب باغ، ففاز الأخير بفارق بسيط، وفي العام التالي، ترشح أستاذ الجغرافيا، والدكتور لاحقًا، أديب سليمان باغ، في مواجهة عبد الرحمن أيوب باغ أيضًا، وكانت النتيجة لصالح الأخير أيضًا. أما في قضاء الزوية، فلم يتمكن أي من المثقفين الذين سبق أن حصلوا على شهادات جامعية، مثل طويق عز الدين، خريج كلية الحقوق عام 1947، وعربي محي الدين خريج عام 1949، من التأثير في مكانة المرشح التقليدي لقضاء الزوية، أحمد الحسين، الذي ورث تمثيل الزوية في المجالس البلدية والنيابية من عائلته، ذات الثقل الاجتماعي هناك[287].

---

[287] المعلومات الواردة في هذه الفقرة مستقاة من لقاءات شخصية، مع محمد خير عيد وعبد المجيد الفاعوري وإسماعيل نمر شحادة.

وقد حصل تطور مختلف على صعيد التمثيل النيابي خلال مدة الوحدة بين سورية ومصر، إذ شُكّلت لجنة تنفيذية للاتحاد القومي في الجولان، تكونت من 52 عضوًا، دخلها القوميون والتقليديون، على حد سواء، وانتُخب خمسة أعضاء، اثنان لمجلس الأمة في القاهرة، وثلاثة للمكتب التنفيذي، ونجح كل من الشيخ عبد الكريم الطحان شيخ عشائر النعيم، وعبد الرحمن أيوب وجيه الشراكسة، إلى مجلس الشعب، بينما انتُخب محمد السبسبي ولطفي سمارة ومحمد منذر للمكتب التنفيذي للاتحاد القومي في الجولان.

أما في قضاء الزوية، فقد نجح خالد السرحاني، الحاصل على إجازة في التاريخ عام 1949، ويمثل جيل المثقفين الشباب، في مواجهة التقليديين.

وفي ما يأتي عرض لأسماء الذين مثلوا الجولان في المجالس النيابية، منذ عهد الانتداب؛ وحتى عهد الانفصال[288].

1- المجلس الأول

جرت الانتخابات في 6 نيسان/ أبريل، و2 حزيران/ يونيو عام 1932.

القنيطرة: أمين سمكوغ.

قضاء إزرع والزوية: فارس الزعبي وإسماعيل الحريري.

2- المجلس الثاني

في 9 أيلول/ سبتمبر 1936.

القنيطرة: فاعور الفاعور وعاصم محمود.

الزوية: لا يوجد.

---

[288] فضل عفاش، مجلس الشعب في سورية 1928-1988.

3- المجلس الثالث

صيف عام 1943.

القنيطرة: فاعور الفاعور وعز الدين سليمان.

الزوية: أحمد الحسين.

4- المجلس الرابع 1947-1949

القنيطرة: فاعور الفاعور وعادل أرسلان.

5- المجلس الخامس 1949-1951

القنيطرة: شاكر العاص وعاصم محمود.

الزوية: محمد يوسف أبو رومية.

6- المجلس السادس 1953-1954

القنيطرة: عبد الرحمن أيوب.

درعا والزوية: الدكتور أحمد محمد الأسود وعبد اللطيف المقداد.

7- المجلس السابع 1954-1957

القنيطرة: الأمير فاعور الفاعور وعبد الرزاق الطحان.

الزوية: أحمد الحسين المحمد.

8- مجلس الأمة 1960- 1961

القنيطرة: عبد الكريم الطحان وعبد الرحمن أيوب.

قطنا: حسين مريود.

الزوية: خالد السرحاني.

9- مجلس الأمة 1961-1962

القنيطرة: فاعور الفاعور وعبد الرزاق الطحان وعبد الرحمن أيوب.

الزوية: خالد السرحاني.

قطنا: حسين مريود.

الطريق إلى حزيران

لم تكن للانفصاليين أي شعبية في الجولان، فمشروعات التطوير التي قررها عبد الناصر كانت ما تزال ماثلة للعيان، لذلك؛ خرجت التظاهرات الشعبية يوم 8 آذار/ مارس من عام 1963، ابتهاجًا بإزاحة الانفصاليين، على أمل إعادة الوحدة بين الإقليمين: الشمالي والجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة.

وأمام الحشود التي تجمعت في القنيطرة، قرب ثانوية أحمد مريود، خطب أحد الضباط الكبار ممتدحًا وطنية المتظاهرين، مؤكدًا لهم أن الثورة انطلقت من أرض الجولان لإسقاط الانفصاليين. ولكنه طلب منهم فض التظاهرة والعودة إلى منازلهم، والمحافظة على الأمن والهدوء[289].

وجاء توقيع ميثاق الوحدة الثلاثية، في 17 نيسان/ أبريل 1963، بين سورية ومصر والعراق، ليشكل حافزًا قويًا لإسرائيل؛ كي تخوض حربًا شاملة تقصم ظهر الأنظمة «التقدمية العربية»، وتعيد رسم خارطة المنطقة من جديد؛ إذ نقلت صحيفة معاريف الإسرائيلية في 21 كانون الثاني/ يناير 1964، عن موشيه دايان قوله: «إذا ما نفذ العرب تهديداتهم وشنوا حربًا ضد إسرائيل، فلا يستبعد أن تتمخض هذه الحرب عن حدود جديدة، تكون مُرضية أكثر من الحدود الحالية».

وجاء مشروع تحويل نهر بانياس، وانطلاق عمليات المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل، عبر الجولان وغور الأردن في العام نفسه، ليقوي حجة القادة الإسرائيليين

[289] رواية شاهد العيان عدنان قبرطاي من أبناء القنيطرة.

الداعين إلى التصعيد المتدرّج للضربات، ويؤد، إما إلى إيقاف هذه الأعمال، أو الوصول بها إلى حرب شاملة.

وكانت سورية قد باشرت بحفر قناة لمشروع تحويل نهر بانياس، مطلع عام 1964، فدمرت إسرائيل العتاد الهندسي للمشروع، مستخدمة المدفعية والدبابات والقصف الجوي في ثلاث مراحل، في آذار/ مارس، وأيار/ مايو، وتموز/ يوليو؛ ما أدى إلى وقف المشروع بسبب النقص في حمايته[290].

أما العمليات الفلسطينية التي بلغ عددها، -خلال عام 1964- أربعين عملية، فقد كانت إسرائيل تحمّل المسؤولية المباشرة عنها لسورية التي كانت تجاهر بتأييدها لحق الفلسطينيين في تحرير أرضهم بالكفاح المسلح.

محافظة القنيطرة

ومن أبرز القرارات التي صدرت بشأن الجولان، خلال هذه الحقبة، قرار تشكيل محافظة القنيطرة من قضائي القنيطرة وفيق[291] في 27 آب/ أغسطس 1964، بعد سنوات من الحديث عنه، إذ يشير الدكتور أديب باغ إلى أن النية لتوحيد القضائين في محافظة واحدة، كانت موجودة منذ حقبة الوحدة السورية - المصرية. وجرى تعيين عبد الحليم خدام أول محافظ للقنيطرة.

---

[290] تاريخ الجيش العربي السوري، مجلد 2، ص331.

[291] في عام 1953 عدلت التسميات الإدارية لبعض المناطق والمراكز في سورية، وأطلقت التسميات التالية: قضاء القنيطرة بدلاً من قضاء الجولان، وقضاء فيق بدلاً من قضاء الزوية، ومحافظة درعا بدلاً من محافظة حوران.

ويُعدّ هذا القرار تصحيحًا متأخرًا لواقع عملي، استمر طوال العهود السابقة للانتداب الفرنسي، الذي فصل القضائين، وألحقهما بدمشق وحوران.

وفي حين كان هذا القرار موفقًا؛ لأنه اختصر كثيرًا من التعقيدات الإدارية التي كانت تعانيها منطقة الجولان، بوصفها جبهة للقتال، أتى قرار آخر لم يكن موفقًا على الإطلاق، إذ غير الأسماء الآرامية لبعض القرى، واستبدلها بأسماء «عروبية»، مثل الصرمان التي بات اسمها العدنانية، وعين الصرمان التي باتت القحطانية، ومومسيا التي صارت الغسانية، والقنعبة التي أصبحت الظاهرية[292].

وكان الهدف من تشكيل محافظة القنيطرة، على ما يبدو، النهوض بواقع منطقة الجولان، التي تعاني ويلات الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة، واستكمال عملية التنمية والتطوير التي توقفت إبان سنتي حكم من يُسمَّون بالانفصاليين.

وقبيل عدوان الخامس من حزيران، استُكملت البنية الإدارية والخدمية للمحافظة، فتأسست مديريات شملت وزارات الحكومة جميعها، باستثناء مديرية للصناعة، عُيّن مراسل للوكالة العربية السورية للأنباء في القنيطرة.

---

[292] أسماء القرى السابقة جميعها آرامية، فالصرمان تعني القاسي، ومومسيا تعني النار، وقنعبة تعني عش الغراب، وقد ظن من أصدر القرار أنها أسماء غير ذات معنى.

العدوان

وتنفيذًا لخطتها المعلنة، بدأت إسرائيل بالتصعيد المتدرّج لعدوانها على الجبهة السورية، إذ تزودنا سجلات مراقبة الهدنة بين سورية وإسرائيل بأرقام مذهلة عن الانتهاكات والاعتداءات التي نفذتها جميع صنوف الأسلحة الإسرائيلية ضد الجبهة السورية في الجولان.

ففي عام 1964 جرى تسجيل 21 اعتداءً إسرائيليًا، شمل البر والجو وبحيرة طبريا، وكذلك الحال في عام 1965؛ إذ سُجّل 19 اعتداءً، وعام 1966 شهد 11 اعتداءً.

وما إن حلّ الخامس من حزيران/ يونيو عام 1967؛ حتى اكتملت حلقات الخطة التي كانت إسرائيل تعدها منذ سنوات، فبدأت بالضربة الجوية لمحطات الرادار والمطارات المصرية، وأعقبتها حرب انتهت باحتلال سيناء وقطاع غزة، بعد مقاومة عنيفة مشرّفة للجيش المصري، أحبطها قرار المشير عبد الحكيم عامر بالانسحاب من سيناء، والتمركز غرب السويس في ليلة واحدة. أما على الجبهة الأردنية، فكانت المعركة أقسى على الإسرائيليين الذين لم ينجحوا باحتلال الضفة الغربية، إلا بثمن باهظ، تمثل بـ 550 قتيلًا و240 جريحًا.

وقد سارت العمليات على الجبهة السورية سيرًا مختلفًا، إذ نفذت الطائرات السورية ضربة جوية لمطارات شمال إسرائيل، وقصفت ميناء حيفا، وعادت معظمها سالمة إلى مطاراتها، التي تلقت -بعد ساعات- ضربة إسرائيلية كلفتها 75 بالمئة من طائراتها.

وبعد ذلك، حصلت معارك في القطاعين الشمالي والأوسط، تكبدت القوات السورية فيها خسائر كبيرة، نتيجة فقدان شبكة الأمان الجوية؛ ما أجبرها على التخلي عن «خطة نصر»، التي كانت تهدف إلى السيطرة على الجليل عن طريق جسر بنات يعقوب، وقطعه إلى شطرين، والانكفاء إلى الدفاع.

وبحسب الرواية الرسمية للجيش السوري، فإن القيادة الميدانية السورية أصيبت بصدمة؛ نتيجة احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء، وتوقعت القيادة هجومًا بريًا كبيرًا على سورية، ولا سيما أن العدو كان يهدد بدخول دمشق قبل نشوب الحرب، ولذلك؛ وافقت القيادة السورية على وقف إطلاق النار يوم 8 حزيران/ يونيو، بناء على نصيحة الرئيس عبد الناصر، والتزمت القوات السورية بهذا الوقف، غير أن إسرائيل اتخذت ذلك خديعة؛ لدفع قواتها باتجاه الحولة، بمعزل عن تدخل المدفعية السورية[293].

وفي صباح يوم 9 حزيران/ يونيو، بدأت إسرائيل معركتها الشاملة ضد القوات السورية، التي قاتلت ببسالة، بحسب اعتراف قادة إسرائيل، وصدر قرار بانسحاب الجيش السوري من النطاق الدفاعي الأول (الجبهة)، إلى النطاق الدفاعي الثاني الذي يمر على مشارف سعسع، بعد أن توصلت القيادة السورية إلى قناعة بأن هدف إسرائيل هو دمشق[294].

ولذلك؛ أعلنت لجنة الإعلام في الجيش السوري -في بيان- دخول العدو إلى القنيطرة الساعة 10.30 يوم 10 حزيران/ يونيو، في الوقت الذي لم تكن بعض

---

[293] تاريخ الجيش العربي السوري، مجلد 2، ص 241-242.

[294] المصدر السابق، ص 242.

الوحدات قد تلقت مهمة الانسحاب، وهو ما أحدث صدمة كبيرة للقوات المدافعة في الجبهة، وساهم هذا البلاغ في الإخلال بتنظيم عملية الانسحاب، وقد تبين أن لجنة الإعلام المسؤولة عن صوغ البلاغ، تصوّرت أن بلاغها هذا سوف يسرّع من عملية انسحاب القوات التي يحاول العدو تطويقها وأسر عناصرها، في القطاعين: الأوسط والجنوبي، مثلما حدث في الجبهتين: المصرية والأردنية، ولا سيما أن هذه اللجنة كانت قد اتخذت قرارها، على خلفية المعطيات المتوفرة عن انقطاع الاتصال اللاسلكي مع الوحدات السورية في هذين القطاعين[295].

وفي محاولته الإجابة عن تساؤل حول الغاية من البلاغ الكاذب عن سقوط القنيطرة، يرى باتريك سيل، كاتب سيرة الرئيس الراحل حافظ الأسد، أن هناك تفسيرًا يقول: إن اللجوء إلى إذاعة سقوط القنيطرة قبل وقوعه، وإبراز الإعلان عن كون دمشق مهددة، قد يكون بأمل حث مجلس الأمن على فرض وقف مبكر لإطلاق النار[296].

وبحسب الرواية الرسمية الإسرائيلية لما جرى في حزيران على الجبهة السورية، فإن قائد القيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي، الجنرال دافيد أليعأزر، تطلع منذ اليوم الأول لبدء الحرب إلى شن هجوم شامل لاحتلال الجولان، ولكن القوات الموجودة تحت تصرفه كانت قليلة، واضطر إلى الانتظار إلى حين انتهاء القوات الإسرائيلية في الجبهات الأخرى من مهمتها، وبخاصة أن وزير الدفاع، موشيه دايان، كان قد عارض شن هجوم شامل على السوريين، خشية أن يؤدي ذلك إلى

[295] المصدر السابق، ص 243.

[296] باتريك سيل، ص 231.

تدخل السوفيات عمليًا، ولو أنه وافق على عملية عسكرية محدودة وضيقة في شمال الجولان، وفي قطاع مرتفعات بانياس وتل العزيزيات، واحتلال منطقة بعمق 2-3 كيلو متر وراء الحدود الدولية مع سورية[297].

لكن رئيس الأركان إسحق رابين، وقائد الجبهة الشمالية، دافيد أليعزر، أصرا على شن هجوم شامل، خصوصًا بعد وصول تعزيزات إلى الجبهة مع سورية يومي السابع والثامن من حزيران، من الوحدات التي أنهت مهماتها في النقب وشمال الضفة الغربية.

واستمر ضغط قائد الجبهة الشمالية ضغطًا دائمًا، وانضم إليه ممثلو المستوطنات الذين حثوا على شن الهجوم الشامل، وهددوا بمغادرة الجليل في حال الامتناع عن تلبية طلبهم، وعرض رئيس الأركان خطة على اللجنة الوزارية لشؤون الأمن، استهدفت بدء الهجوم من شمال الجولان، وبمساعدة قوات إضافية شن الهجوم من الجنوب. بيد أن دايان عارض ذلك، وأصر على موقفه خشية تدخل السوفييت؛ ما اضطر الوزراء لقبول رأيه.

وبعد التأكد من إلحاق الهزيمة بالجيشين: المصري والأردني، غيّر دايان رأيه، وقبل شن الهجوم الشامل عل الجبهة السورية صباح التاسع من حزيران[298].

وتقر الرواية الإسرائيلية بمقاومة ضارية للجيش السوري في القلع، إذ مُنيت الكتيبة المهاجمة بخسائر فادحة؛ حتى وصلت الأمور إلى إصابة معظم دباباتها،

---

(297) عنبر وشيلر، ص 103.

(298) المصدر السابق.

واستبدال قائد الكتيبة ثلاث مرات، وكذلك في تل الفخار الذي احتلته القوات الإسرائيلية بعد معركة ضارية استمرت أربع ساعات.

وتذهب الرواية الإسرائيلية إلى أن الجنرال إليعازر تجاهل أوامر وزير الدفاع بالتوقف عن الهجوم أكثر من مرة، وتابع تقدمه؛ حتى احتل كامل الجولان بما فيه مدينة القنيطرة[299].

ومع ذلك، لم تخل هذه المعركة من بطولات للمقاتلين السوريين الذين تصدوا لهجوم إسرائيلي ثلاثي النيران، ودون غطاء جوي ولا دفاع جوي، وقاتلوا قتالًا مشرفًا بالأيدي. وفقدت إسرائيل على إثره 141 جنديًا و160 دبابة، مقابل 86 دبابة سورية، وقاتل 600 جندي سوري، واستشهدوا في مواقعهم نفسها دون أن يتزحزحوا منها، وهم يتعرضون لقصف مستمر بقنابل النابالم والرشاشات[300].

وسجل المقاتل السوري بطولة شهد بها الإسرائيليون في معركة تل الفخار في القطاع الشمالي، الذي لم ينجحوا باحتلاله، إلا بعد أن دفعوا ثمنًا باهظًا جدًا كلفهم مقتل 30 جنديًا وجرح 70 آخرين وتدمير دبابات وناقلات مدرعة، مقابل 60 شهيدًا سوريًا، قاتلوا بالسلاح الأبيض وبالأيدي بعد نفاد ذخيرتهم، والأمر نفسه يقال عن معركة جليبينة في القطاع الأوسط من الجبهة.

وكان من نتيجة العدوان نزوح 30 ألفًا من سكان الجولان -في أثناء المعارك- إلى دمشق ودرعا، ونهب مدينة القنيطرة، وخلال الأشهر الستة التالية، طردت إسرائيل بالقوة 90 ألف شخص، بعد أن جردتهم من كل ما يملكون، وأبعدتهم

---

[299] المصدر السابق، ص106-107.

[300] غاليا غولان من الجامعة العبرية في مقابلة مع مجلة نيولوك أيلول 1987، والاقتباس عن سيل.

عن الجولان؛ ليلتحقوا بمن سبقوهم، ولم يبق سوى سبعة آلاف في القرى الخمس: مجدل شمس وعين قنية وبقعاتا ومسعدة والغجر.

خلاصة

كان الجولان عبر التاريخ موقعًا لكثير من الأحداث المهمة؛ فعلى أرضه نشأت حضارة الدوائر الحجرية التي ما زالت ألغازها تحير العلماء، وعُقدت أول معاهدة في التاريخ بين الحثيين والمصريين عام 1272 ق.م، تحت سفوح حرمون الذي أشهدوه عليها، وعند نبع بانياس انتصر السلوقيون على البطالمة، مختتمين حروب الإغريق السورية الخمس.

وعلى أرضه التي وُلد فيها خمسة من الحواريين، سار المسيح مع تلاميذه من بيت صيدا إلى قيصرية فيليبي، حيث سلم بطرس مقاليد السلطة الكنسية، وفي جنوبه ووسطه أنشأ الغساسنة مملكتهم، وبنوا أديرتهم وقصورهم في الجابية وكفر حارب، ومنه ولج العرب المسلمون إلى بلاد الشام فاتحين، بعد معركة اليرموك ويوم الياقوصة، وعبره دخلت قوات صلاح الدين إلى حطين، ثم قوات سليم خان العثماني إلى مصر، وعلى مشارفه نشبت بين قوات نابليون والقوات العثمانية معركة عند جسر بنات يعقوب.

وفي العصر الحديث، لعب الجولان دورًا محوريًا في تاريخ سورية المعاصر، ففيه جرى الإعداد للإنقلاب العسكري الأول في تاريخ سورية، الذي قام به حسني الزعيم.

وعلى أرض الجولان حدثت معركة طبريا الكبرى، ليلة 11 كانون الأول/ ديسمبر 1955، وتتابعت الصدامات حول «المنطقة المجردة»، ومن أجلها وقعت معارك التوافيق عام 1957، وعام 1960، ومعركة تل النيرب عام 1961.

وكان للجولان أثر كبير جدًا في الضغوط التي مارسها العسكريون؛ لفرض الوحدة بين مصر وسورية عام 1958، ثم كان للوحدات العسكرية المرابطة فيه القول الفصل في «ثورة» [انقلاب] الثامن من آذار/ مارس، التي أطاحت حكم من يوصفون بالانفصاليين.

وإلى أرضه توجهت أنظار العرب من المحيط إلى الخليج، وهي تراقب المشروعات الكبرى لتحويل مياه نبع بانياس؛ كي لا يتمكن العدو من تحقيق مشروعه الخطِر، بتحويل نهر الأردن إلى شمالي النقب.

وشكلت خسارته، مع الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء، في إثر عدوان الخامس من حزيران/ يونيو عام 1967، أكبر صدمة للمشروع النهضوي العربي الحديث، وأعمق جرح في ضمير المثقفين العرب الذين تغيرت رؤيتهم للعالم بعدها.

جولة أثرية

خلافًا للانطباع السائد لدى شريحة من الباحثين العرب السوريين، ومنهم الدكتور أديب باغ، رحمه الله، تمتلئ أرض الجولان بالآثار القديمة التي تمثل جميع العصور، ما قبل التاريخية والتاريخية[301]، وبحسب تعبير أحد العلماء، فإنّ ثمة آثارًا في الجولان، أينما ضربت معاول المنقبين.

ولكن آثار الجولان تتفاوت في أهميتها المادية والمعنوية، وقد يسلط الإسرائيليون الضوء على أثر عادي، يمكن العثور عليه في أي مكان، لغاية في نفس يعقوب، وقد يتجاهلون موقعًا عظيمًا شامخًا للسبب نفسه.

وعلى سبيل المثال، ضخَّم علماء الآثار الإسرائيليون من بعض المواقع، مثل خربة كنف أو خربة عين النشوط، أو قلعة السنام أو خرائب دبورة، بسبب زعمهم أنها تضم كنسًا يهودية، بُنيت في الحقبة البيزنطية، وعلى الرغم من أن هذا الكلام لا يصمد أمام أي محاكمة عقلية، إلا أنهم يصرون على القول بأن المرحلة البيزنطية شهدت ازدهار الاستيطان اليهودي في الجولان، غير مثبت إلا في كتب الهالاخا والتلمود. أما المواقع الشامخة العظيمة، مثل آثار بانياس وقلعة الصبيبة وفيق وكفر حارب، ذات الهوية العربية الإسلامية، فلم يولوها أدنى اهتمام، وهذا أمر طبيعي ومتوقع من أناس جعلوا التلفيق والتزوير مهنتهم.

[301] يرى الدكتور أديب باغ وجود خمسة عوامل ساهمت في اختفاء آثار الجولان، وهي أنه كان مقر حياة ريفية رعوية، وأن الجولانيين القدماء بنوا بيوتهم من الأخشاب، وأن الظواهر المناخية العاصفة والزلازل أسهمت في ذلك، إضافة إلى التخريب المتعمد من السكان المعاصرين. انظر كتاب الجولان، للدكتور أديب باغ، ص 249-251.

تنبع أهمية آثار الجولان من كونها تشكل أحد المصادر المهمة لكتابة تاريخ هذا الإقليم الحيوي من سورية، وبما أن علم الآثار لم يقدم أي قرينة تدعم ادعاءات الإسرائيليين، فإن البحث ما يزال جاريًا -على قدم وساق- عن أي قطعة فخار، أو حجر عليه رمز ما، أو قطعة نقدية، نُقش عليها اسم ملك يهودي مزعوم.

فكل الدلائل التي ساقها علماء الآثار الإسرائيليون؛ حتى اليوم، على يهودية بعض المواقع في الجولان، أدلة استنتاجية، تعتمد على تفسير رموزٍ، تُستخدمها البشرية جمعاء، والادّعاء بأنها يهودية خاصة، مثل رمز الأسد أو الحمامة أو الأفعى أو قرط العنب.

أما الأدلة الفاقعة الدامغة التي لا تقبل مجالًا للشك، فهي تلك العائدة إلى الحقبتين: المسيحية والإسلامية، حيث تشير الكتابات والرموز إلى تجذر هاتين الديانتين في الجولان، وخصوصًا الديانة المسيحية التي لا يخلو بيت من القرى المعروفة بأنّ فيها آثارًا بيزنطية، من رمز الصليب أو كتابة يونانية مسيحية.

لقد ركزنا في جولتنا الأثرية -هذه- على المواقع المهمة التي شكلت مدنًا في الحقب المختلفة، واخترنا بعض المواقع الصغيرة التي يمكن تعميمها على أكثر من مئتي موقع في الجولان، وآلاف المواقع في جنوبي بلاد الشام؛ إذ تشترك هذه المواقع بخصائص مشتركة؛ من حيث نمط البناء الذي يعتمد الطراز الحوراني، والكتابات والرموز التي وجدنا في الكتابة عنها -جميعًا- نوعًا من التكرار غير المبرر.

إن المواقع التي اخترنا تقديمها للقارئ العزيز، يمثل كل واحد منها مرحلة زمنية معينة، ويرمز إلى ثقافة عصر معين. لذلك؛ نجد موقع رجم الهري المتميز؛ يعبّر تعبيرًا صادقًا عن حقبة العصر البرونزي، وهو من عصور ما قبل التاريخ، وموقع التل

في البطيحة الذي يعتقد العلماء بأنه موقع بيت صيدا، ليمثل ثقافة العصر الحديدي والممالك الآرامية، ولدينا موقع سوسيا (هيبوس) الذي يجسد مدينة بُنيت على النمط الإغريقي- الروماني، ومدينة بانياس التي ضمت باقة من الآثار الإيطورية العربية، والإغريقية، والرومانية، والبيزنطية، والعربية الإسلامية. وأخيرًا؛ قلعة الصبيبة التي تمثل مرحلة متطورة من فنون العمارة الإسلامية في العهدين: الأيوبي والمملوكي.

أما مدينة القنيطرة التي بُنيت نواةً لمدينة عثمانية أنموذجية، فلم يجرِ التنقيب فيها -حتى الآن- لمجموعة من الأسباب التي نتمنى أن تزول سريعًا؛ لكي يظهر إلى الوجود سورها، وأبنيتها الأخرى التي ما تزال آثارها بادية للعيان.

رجم الهري.. حضارة الأسوار الغامضة

رجم الهري موقع فريد من العصر البرونزي، ويقع وسط الجولان على بعد 16 كيلو مترًا (10 أميال) إلى الشرق من شاطئ بحيرة طبريا الشمالي، في أعلى وادي الدالية، ويرتفع عن سطح البحر 515 مترًا، يتألف النصب من أكمة مركزية، أو رجم تحيط به جُدُر متحدة المركز، يبلغ قطر الجدار الخارجي نحو 155 مترًا، وارتفاعه مترين تقريبًا، والمساحتان المشغولتان، والأكثر ظهورًا في الموقع، تعودان إلى العصر البرونزي الأول والمتأخر.

وُصف الموقع وصفًا متنوعًا، بوصفه مركزًا احتفاليًا، وسياجًا دفاعيًا، ومخزنًا أساسيًا كبيرًا، ومكانًا للدفن، وأخيرًا بوصفه مركزًا للرصد الفلكي، وأداة تقويم،

أحضر بناؤو رجم الهري نحو 42000 طنًا من الحجارة البازلتية إلى الموقع؛ فصنعوا بناءً من أروع النصب الحجرية في منطقة شرق المتوسط.

إن مئات القطع الفخارية والجُدُر الحجرية المنخفضة التي تحيط بالنصب، إضافة إلى النقوش الحجرية المحفورة في النصب، والنقوش الموجودة في المناطق المجاورة، قد شكلت أبنية من أروع وأكبر الأبنية في منطقة جنوب شرق المتوسط[302].

وقد زودتنا الأعوام الثلاثين من البحث الأثري الحديث بفكرة محدودة عن المضمون الثقافي، إذا ما وُوزنت بما يمكن أن يعطي ظاهرة رجم الهري من قيمة.

إن الحقبة المعروفة أفضل معرفة في الجولان، وسبقت المرحلة الهلنيستية-الرومانية، هي مرحلة الكالكوليت (الحجري-النحاسي)، وتتميز بالتنوع الخصب للثقافة الكالكوليتية في جنوب شرق المتوسط[303]، تجلى هذا التنوع الإقليمي في قرى زراعية صغيرة، مؤلفة من سلاسل متوازية من البيوت، بُنيت بترتيب، وقد اعتمد الاقتصاد على الأغنام والماعز اعتمادًا مطّردًا، ومترافقًا مع الزراعة.

وقد ظهر نظام اعتقادي ينتمي إلى ديانات الخصب، في عبارات منقوشة في أيقونات؛ لممارسة الطقوس الشعائرية، ووُجدت عبارات -كهذه- على أعمدة حجرية مصمّمة في هيئة رأس بشري، مع انخفاض جزئه العلوي.

---

[302] غوتمان ودراكس 1969، روث 1970، إيلان 1971، دراكس 1972، إيبشتاين وغوتمان 1972، غال 1978، كوشافي 1989، زوهار 1989، ميزراتشي 1992.

[303] إيبشتاين 1997.

نعرف النزر اليسير عن البنية الاجتماعية للثقافة الكالكوليتية في الجولان، ولكن ليس لدينا مسوّغ؛ لكي نفترض وجود تنظيم اجتماعي مختلف عن مجتمع مماثل غير منظم تقريبًا. وعلى عكس الحقبة الكالكوليتية، فإننا نعرف القليل عن العصر البرونزي الأول في مرتفعات الجولان، وبدأ البحث لمعرفة هذه الحقبة في السنوات القليلة الماضية فقط[304]، على الرغم من أن استيطان العصر البرونزي الأول الأساسي كان معروفًا للوجود من المسح الأثري العلمي الأول، إلا أن نطاق امتداد الاستيطان، وطبيعته الدقيقة في العصر البرونزي الأول قد بدأ إدراكه للتو.

موقع لاوية

إضافة إلى رجم الهري، هناك موقع أساسي واحد، جرى التنقيب فيه، إنه موقع لاوية، أحد المواقع الكثيرة من العصر البرونزي الأول في الجولان، وتُعرف -عمومًا- باسم «أسوار الجولان»، تقع كل هذه وسط الجولان، ويتوضع أغلبها على مواقع استراتيجية محصنة بجُدُر حجرية ضخمة. إن تصميم هذه المواقع أسوارًا مازال يحير العلماء ما يتعلق بوظيفتها، ويعزو بعضهم حقيقة عدم الاستيطان إلى هذه الأسوار؛ إذ عدّوها مناطق تجمّع أساسية للقطعان، بينما عدّها آخرون مواقع مسورة بمنزلة مستوطنات محصنة.

أثبتت الاكتشافات الحالية أن أسوار الجولان، كانت تُستخدم للسكن[305]، وقد أثمرت التنقيبات في سور لاوية عن بقايا الاستيطان في العصر البرونزي الأول،

---

[304] كوشافي 1989.

[305] المصدر السابق.

«أينما ضربت مجارف المنقبين الأرض». وبتباين حاد مع المواقع باتجاه الأردن، جنوب نهر اليرموك، لم تعرف مستوطنات محلية من العصر البرونزي الوسيط، الحقبة الأولى (2200ـ 2000) قبل الميلاد في الجولان، ومع ذلك؛ كان هناك وجود بشري واسع في الجولان، في أثناء هذه الحقبة، بحسب ما بينت بقايا مصنوعات العصر البرونزي الوسيط الأول التي جرى التنقيب عنها في عدد من ركام الأضرحة والمدافن في المنطقة.

قبور الدولمن

وقد جرى التعرف إلى آلاف الأضرحة والمدافن في مرتفعات الجولان، على الأقل هناك سبعة نماذج متميزة من الأضرحة قد جرى اكتشافها[306]. ويبلغ حجم الأضرحة السطحية الصغيرة نحو مترين، وتتزايد تدرّجًا؛ بحيث تشكل غرفًا ضخمة، عُرفت بـ «غرف التخزين». وهناك إجماع بين العلماء على أن الكمية الأكبر من الأضرحة يمكن أن يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأول في الفترة (3150ـ- 3000) ق م.

وكانت بقايا المواد المتفرقة من العصر البرونزي الوسيط الثاني (2000ـ1500) قبل الميلاد موجودة في الجولان؛ وحتى في رجم الهري. ومع ذلك، واعتمادًا على المعلومات المتاحة، لا نستطيع ادعاء معرفة أي شيء حول طبيعة وكثافة الاستيطان في مرتفعات الجولان في العصر البرونزي الوسيط الثاني.

---

[306] إيبشتاين 1985.

أبعاد الموقع

وتتضح مكانة رجم الهري العظيمة من الوصف التفصيلي الآتي لأبعاده؛ إذ يبلغ عدد الجُدُر متحدة المركز حول مركز الرجم من 1إلى 9، من الخارج إلى الداخل.

الجدار الأول

ويبلغ قطره 145 مترًا من الشرق إلى الغرب، و155 مترًا، من الشمال إلى الجنوب، وقد كان مبنيًا بعناية، وسماكته البالغة من 3.2 إلى 3.3 مترًا متماسكة تماسكًا ملحوظًا في كل الأطراف، وقد حافظ على ارتفاعه في بعض الأماكن، بحيث يصل إلى مترين، ذلك؛ بسبب الصخور الضخمة المستخدمة، وبالتحديد في القسم الشرقي، وقرب المدخلين اللذين يقطعان الجدار، ويبلغ عرض المدخل في الجهة الشمالية الشرقية 29 مترًا، وفي الجهة الجنوبية الشرقية 26 مترًا.، وكلاهما -الآن- مسدود بالصخور المتساقطة، إذ إن بعضها كبير جدًا، وهي بقايا بناء مستطيل الشكل، كان أعلى من الجُدُر؛ بحيث حجب الرجم المركزي.

الجدار الثاني

دائري تقريبًا، ويبلغ قطره من الشرق إلى الغرب 105 أمتار، ومن الشمال إلى الجنوب 115 مترًا، وتبلغ سماكته الكلية 2.6 مترًا، وعرضه في الجنوب 3 أمتار، وله عدة فتحات أو ممرات.

الجدار الثالث

يشكل دائرة كاملة، وقطره من الشرق إلى الغرب 70 مترًا، ومن الشمال إلى الجنوب 90 مترًا، ولديه بروز واضح إلى الجنوب، تبلغ سماكته 2ـ1.8 مترًا، ويحافظ على ارتفاع يزيد عن المتر، ويتصل الجدار الثالث بالجدار الثاني بجُدُر شعاعية نصف قطرية، متينة جدًا، وكانت جزءًا من التصميم الأصلي للموقع.

الجدار الرابع

في شكل نصف دائرة، يحيط ببقايا قبور قديمة في الجهة الشمالية الغربية، قطره 50 مترًا، وأجزاؤه الشرقية والغربية مغطاة بأبنية أخرى، وبعدد كبير من الحجارة المتساقطة، وتبلغ سماكته من 1.2 إلى 1.5 متر، ويضم ممرًا أو ممرين من حجارة، بقياسات متعددة؛ يتصل هذا الجدار -أيضًا- بالجدار الثالث بواسطة جدارين شعاعيين.

الجُدُر: السابع والثامن والتاسع

يبلغ عدد الجُدُر المجزأة من خمس إلى ست جُدُر، وتؤدي إلى الرجم المركزي، تشكلت من جُدُر متحدة المركز، وتشكل كومة حجرية بيضوية غير منتظمة، يبلغ قطرها من 20 إلى 25 مترًا وارتفاعها من 4.5 إلى 5 أمتار، وعند سفح الأكمة تنتظم حجارة ضخمة عدة، جنبًا إلى جنب، مشكلة جدارًا، ومن المحتمل أنها قاعدة الأكمة نفسها.

إن أصعب المشكلات التي تعترض رجم الهري هي غياب بقايا منتجات الإنسان آنذاك، فبقايا المواد المجموعة التي جرى التنقيب عنها، داخله، تغطي مساحة من العصر الكالكوليتي من الحقبة الرومانية البيزنطية؛ حتى الآن، اعتمادًا على هذه البيانات، وبصورةٍ منطقية، افترض الباحثون أن هناك مرحلتين مفيدتين في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ونهاية الألفية الثانية، والمراحل الأخيرة من العصر البرونزي الأول، ثم أشكالًا من العصر البرونزي المتأخر[307].

بقايا الخزف

بلغ عدد القطع الأثرية التي عُثر عليها في «مشروع الأربع سنوات» المئات؛ وكانت غالبيتها من مصادر موثوقة[308].

لم تكن بقايا العصر البرونزي المتأخر السائدة في غرف الدفن فحسب، بل - أيضًا- في محيط الرجم المركزي، وفي الحقيقة 95 بالمئة من الخزف المكتشف في الموقع، يتألف من مواد من العصر البرونزي المتأخر، كان الخزف المتبقي من العصر البرونزي الأول قليلًا، وكله تجمع في مناطق خارج الرجم المركزي.

هناك تفسيران للمعلومات التي يزودنا بها الخزف: الأول أن البناء كله كان مشروع بناء أُنجز في زمن واحد في مجتمع العصر البرونزي، والثاني أن الرجم المركزي وغرفة الدفن -في شكليهما الحاليين- قد أضيفا في العصر البرونزي المتأخر

[307] ميزراتشي a1992 وميزراتشي b 1992, ميزراتشي 1996، ميزراتشي وزوهار 1993, ميزراتشي et al 1996, ليف يادون، ميزراتشي وكوشافي 1996.

[308] انظر ليف يادون 1996 من أجل التفاصيل.

إلى بناء موجود سابقًا في العصر البرونزي الأول، ووُجدت بقايا البناء الأول مدفونة تحت أكمة؛ ما يدعم هذا التفسير. إن إدراك هذا الفهم للمعلومات الأثرية معزَّز أكثر من خلال دراسة تقنيات الإنشاء التي تكشف تشابهًا بين هذا البناء والأبنية التي يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأول، أي: مستوطنات الأسوار في الجولان، من خلال الأشنيات النامية على البناء.

علم الأشنيات

لقد أُعدّت دراسة شاملة لنماذج الطحالب والأشنيات النامية في المكان، وكانت تهدف هذه الدراسة إلى تمييز مراحل البناء -زمنيًا- داخل الموقع، وتتضمن تحليلًا للعلاقات البنيوية بين الجُدُر، وملاحظة الانقطاعات في تواصل الصخور ذات الطبقة الخضراء، إضافة إلى دراسة للأشنيات والطحالب، وطريقة نموها ومستعمراتها.

ودُرست أنواع الطحالب وأنواع الأشنيات التي تغطي رجم الهري في الأعوام: 1988، 1989، 1990، وصُنفت وحدات القياس المعمارية للموقع بحسب أنواع الأشنيات والطحالب وحجمها، ولتحديد الزمن التقريبي للبناء، احتاج الباحثون لمعايرة المستعمرة النباتية ومساحة امتداداها، وهكذا؛ فقد جرى فحص توزيع نماذج من الطحالب والأشنيات وحجمها، من عدة مواقع محددة التاريخ في المنطقة؛ للتمكن من تأسيس صلات بين ميزات مستعمرة الطحالب والأشنيات وتاريخها، وتتفق هذه العلاقة مع تصنيف رجم الهري، بوصفه موقعًا من العصر البرونزي.

وقد تمكن الباحثون -من خلال تحليل الأشنيات- من تمييز الوحدات المعمارية الحالية من القديمة ضمن الموقع، ورصد البِنى الثقافية ضمن البناء، وتوصلوا إلى افتراض أنّ أغلب الجُدُر الموجودة في الموقع تعود إلى مرحلة البناء الأولى، وقد أُجريت تعديلات في أثناء القرن الأخير على الجزء العلوي لعدة جُدُر أولية، خاصة في القسم الشرقي، وكذلك في الجزء العلوي من مركز رجم الهري[309].

مشروع السنوات الأربع

تواصلت الأبحاث الآثارية على مدى أربع مراحل، من عام 1988 إلى 1991، وجرى تقديم عدة برامج بحثية في المشروع، منها توسيع مشروع التنقيب والمسح الجيوفيزيائي، إضافة إلى دراسة علم نبات الأشنيات والطحالب؛ لتحديد التاريخ، ودراسة الهندسة وعلم الفلك.

وتركزت تنقيبات عام 1988 على شكل المدخل في القسم الشمالي الشرقي؛ كانت هناك فتحة عرضها 4 أمتار تحت الجدار الثاني، ذلك هو جزء من مدخل النصب الشمالي الشرقي في الجدار الأول، تؤدي هذه البوابة إلى باحة داخلية (13×15) مترًا، فيها عدد محدود من الطبقات المتراكمة، وتتوضع أرض مرصوفة مغطاة بتراب، تصل سماكته من 10 إلى 30 سم تحت السطح، واكتُشفت -كذلك- شظايا فخارية، يعود قِدمها إلى العصرين: الحديدي والبرونزي، في حين تركزت أبحاث عام 1990 على الربع الشمالي الغربي، حيث جرى التنقيب في حجرة على شكل شبه منحرف (2×3م)، تستند إلى الجدار الثالث تحت الحجارة

[309] ليف يادون، ميزراتشي، وكوشافي، 1996.

المنهارة من هذا الجدار. ربما كان للحجرة الداخلية من الجهة الداخلية للجدار الغربي مقعد صغير، ويبدو أن الحجرة ليست متصلة بالجدار الثالث بنائيًا. ويعود تاريخ بقايا مستودع ضخم للأواني إلى أواخر النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد، وقد بُنيت على أرض مرصوفة رصفًا عشوائيًا؛ ما يوحي بأن الحجرة كانت تُستخدم مخزنًا.

وكانت تهدف خمس مساحات تنقيب متسلسلة إلى إيجاد رابط بين الجدار الثالث والأكمة المركزية، وقد ظهرت صخرة في هيئة سرير، قريبة جدًا من السطح، إضافة إلى شظايا من رصيف باق.

في الجزء الشمالي، أُنشئ جدار يسير محاذيًا للانحراف الدائري للأكمة، وهو متاخم لأرض مرصوفة، تمتد حتى قاعدة الأكمة. هذه الأرض نتاج العصر البرونزي الوسيط والمتأخر، ومواد الحقبة البيزنطية الرومانية، وتوصل فحص بسيط إلى سرير صخرة، على عمق 70 سم تحت السطح.

الأكمة المركزية

وقد أثبتت التنقيبات في المرحلتين: الثالثة والرابعة، أن الأكمة المركزية تتألف من ثلاث مصاطب حجرية مسطحة، بحيث تستند الجُدُر الخارجية على الداخلية، وكانت المصطبة الخارجية أكثرها اتساعًا (5 أمتار)، وترتفع عن السطح العام بـ 2.5 مترًا. المصطبة الدائرية الداخلية كانت مبنية حول غرفة الدفن، وقطرها نحو 7.2 مترًا، في القمة، وهي محاطة بدائرة أضيق وأخفض، وتتوسط السطح الذي ربما كان سدًا أو صالة، وفي أعلى غرفة الدفن تمامًا، إلى الشرق من نقطة مركزها،

كُشف عن بناء هرمي مؤلف من ألواح بازلتية، وما تزال وظيفتها وطريقة رصفها غير واضحة، وتحت البناء الأكبر جرى الكشف عن غرفة دائرية ضخمة، قطرها 1.96 مترًا، وارتفاعها 1.45 مترًا، ويتألف سطح الغرفة من بلاطتين بازلتيتين ضخمتين، تزن إحداهما أكثر من 5.5 طنًا، وكانت الغرفة -في الأصل- مرصوفة عند مستوى عتبة المدخل الذي جرى التوصل إليه عن طريق ممر في الجهة الشمالية الشرقية، يبلغ طوله 3.42 مترًا، وعرضه 1.1 مترًا. وكانت جُدُر الغرفة منحرفة -إلى حد ما- باتجاه الداخل، وبنيت بحجارة متوضعة أفقيًا؛ الجزء الأسفل من جدارها لم يتصل بالسرير الصخري، ووُجدت حجارة من الحجم المتوسط بين الجزء السفليّ لغرفة الجدار والسرير الصخري، يوحيان بإمكانية وجود شكل أولي لبناء غرفة، وفي مركز غرفة الدفن تتوضع بلاطة بازلتية مستطيلة، مستندة إلى السرير الصخري تحت الأرض، وأبعادها (0.85 -0.3 - 0.09 م) وُجدت متوضّعة طوليًا باتجاه الشمال الشرقي، والجنوب الغربي نجو المدخل.

وُجد في الغرفة والمدخل قليل من الحلق الذهبي والسهام البرونزية، وعدد من عقود العقيق، إضافة إلى أن هناك بقايا من النصل الصوانية والخزفية، يعود تاريخ هذه المجموعة إلى النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل لهذه المواد استخدام آخر لغرفة الدفن في العصر البرونزي المتأخر؟ وهذه ظاهرة لُحظت في أبنية كثيرة في الجولان.

مظاهر رجم الهري الفلكية والهندسية

في عام 1967، عندما اكتُشف رجم الهري، كان هناك جدال واسع في أوروبا حول علم الفلك الشرقي، في مواقع العصر البرونزي، وكانت هناك فكرة أن علم الفلك، كان عاملًا مسببًا ومحفزًا في وضع وتوجيه فن العمارة الاحتفالي القديم، الذي كان مستخدمًا استخدامًا واسعًا منذ أن نشأت المعرفة الوافية عن علم الفلك القديم، وقياس الأشكال الهندسية والتخطيطات، خاصة عندما قادت برامج البحث -بطرق نظامية- إلى اعتراف تام بأن النتائج الفلكية تقارب، أو تنحرف قليلًا، عن السجلات التاريخية والأثرية[310].

الأسلوب

يقاس سمت توضع الحجارة من الشمال الفلكي، باتجاه الشرق، على طول خط الأفق، إضافة إلى التأكيد على تصميم ثابت الإحداثيات، لا بد من أنه مشتق من موقع الجسم الفلكي الملائم لوضع الشمس، ويحتاج المرء إلى أدوات مساحة موثوقة، مع تحديد اتجاه ومقاييس سمتية، وتوقيت دقيق، بواسطة إشارات زمنية دقيقة.

يمكن الحصول على موقع خطوط العرض والطول بدقة كافية من خريطة موثوقة، ويمكن أن تُوازَن البيانات التخطيطية لرصف الحجارة، مع الظواهر الفلكية

---

(310) آفيني 1988.

للموقع (شروق الشمس وغروبها) المصممة عن طريق الحاسوب، معتمدةً على تقويم فلكي للمدة المعطاة[311].

البيانات المرتبة في الجدول الأول جمعها ميزراتشي وآفيني في الثالث والرابع من أيلول/ سبتمبر عام 1990، وتضمنت سموت النقاط، مشيرة إلى البوابات والجُدُر الشعاعية، واختيرت النقاط على محاور الأفق الشرقي والغربي.

مخططات الجدار الشعاعي، أخذت من النقطة 79، وهي بلاطة حجرية مسطحة عند أعلى قمة غرفة الدفن، قرب المركز الهندسي للنُصب، وفي ما بعد عدلت إلى المركز الهندسي الحقيقي للموقع، جميع الوضعيات، ما عدا أربع من أصل 18 وضعية من الجدار، تتوافق ضمن الدرجة 2/1 مئوية مع هذه القراءات من خريطة الموقع، بواسطة منقلة ضخمة. في حال الاختلافات الأربعة (3 أيلول 1990 صباحًا ـ 14، 15، 16، 17)، قرر الباحثون تبني القراءات المعطاة ضمن قوسين في الجدول الأول (أدناه)، المأخوذة مباشرة من الخريطة.

التحليل الهندسي

اختبر الباحثون الجُدُر الصخرية شبة الدائرية؛ لمعرفة إن كان باستطاعتهم الاستنتاج من أبعادها القائمة، استخدام وحدة قياس محددة في السابق[312]، وحاولوا -عن طريق التجربة والخطأ- تحديد التقدير الدائري الأفضل لكل جدار من الجُدُر التسعة الممكن تحديدها.

---

(311) آفيني 1980، 101ـ 132، 1981.

(312) توم 1955، هيغي 1981: 32-59.

وتجنبوا -أيضًا- البحث في إحصاء المضاعفات الخاصة بوحدة معينة لهذه البيانات؛ لأن حجم البيانات كان محدودًا للغاية، وبعد عدة محاولات من نقاط الميل المختلفة، وجدوا أن الوحدة التي كررت الحلقة الدائرية تكرارًا أفضل، كانت الوحدة 4.70 م. وباستثناء ما يتعلق بالدائرة 6، والدوائر 8 و9 التي توجد قرب وسط الموقع مباشرة، فقد تراوح معدل الانحرافات بين العمودين الأخيرين في الجدول 2 بين 10-30 سم، أي: أصغر من حجم الأحجار التي تشكل الجُدُر. مع استثناءات قليلة، استندت الدوائر المضبوطة بالصورة الأمثل إلى وحدة 4.70 م التي كان الباحثون قد حددوها، ووضعوها على قمة مخطط الموقع المتعلقة بالجُدُر الحجرية في كل الأماكن. يمكن ملاحظة الاستثناءات الرئيسة على الأجزاء الجنوبية للجُدُر 2 و3 التي تبدو ممتدة قليلًا باتجاه الجنوب.

تقع الوحدة الافتراضية بوضوح ضمن نطاق (±5%) من وحدات الذراع في العصر البرونزي الشرقي القريب، المتعلقة بالقياس الطولي[313]. على أي حال، تجب ملاحظة انتفاء ضرورة الحصول على ذلك من المراجع الثقافية؛ إذ إنها تعكس مجموعة طرائق بدائية كاملة للوصول إلى الطرق الأساسية؛ لقياس العالم المحيط عبر التوسع، ويضعها هامش الخطأ بنسبة 5 بالمئة، ضمن نطاق قياس طول الذراع القصيرة، في العصر البرونزي التقليدي، بلاد ما بين النهرين (0.498-0.496 م)، والتاريخ المصري القديم (0.45م).

بناءً على علاقات التماثل والتطابق الموجودة في مخطط رُجم الهري، تمكن الباحثون من استنباط أن تسلسل طريقة بناء افتراضية تتعارض مع الآثار، والتطابق

---

(313) ديلكه 1987: 25.

من الناحية المعيارية للتوافق، وكان زوهار (1923-1989) أول من اقترح مثل هذا السياق؛ إذ لاحظ أن الجُدُر الحجرية في رُجم الهري كانت بيضوية الشكل، وكانت الجُدُر 1 و2 بطول 10م على المحور الشمالي الجنوبي، أكثر مما كانت عليه على المحور الشرقي الغربي، واقترح بأن وجود جدار حجري معيّن يبدو بأنه قد أثر في الجدار الذي بجانبه، على الأقل في القطاعات الجنوبية للموقع الأثري. من الممكن أن يكون خط لجدار واحد قد جرى قياسه من ذلك الجدار المجاور له، بدلًا من أن يكون ذلك قد حُدّد تحديدًا منفصلًا من خلال تحريك القوس، باستخدام حبل ووتد موضوعين على الوسط.

ولاختبار فرضية زوهار، درس الباحثون الفارق بين نصف القطر والمضاعف لـ 4.70 م الذي يساوي ذلك الفارق. وأظهرت النتائج أن الدوائر الثلاث الأولى لم تُرسم من خلال قياس المسافة من جدار واحد إلى الأخر، وإنما من خلال الرسم اعتمادًا على المركز. وبالانتقال إلى الأمام، إلى الجدار 5، لاحظ الباحثون مسافات كاملة العدد تقريبًا، تبلغ الوحدة فيها 4.70 م؛ يعطي ذلك إشارة إلى أن تقنية تخطيط الموقع تغيرت عبر السنين؛ حتى وإن بقيت وحدة القياس ذاتها.

ويضاف إلى ذلك؛ أن تحديد مركز تقوس كل جدار حجري دائري، يشير إلى أمرٍ يتعلق بنظام البناء، إذ كلما حاولوا التحكم بالدوائر، بالطريقة التي تسمح لها بالانسجام مع الجُدُر، وجدوا أن النقاط التي يمكن من خلالها التحكم بمثل هذه الدوائر، دائمًا كانت تتمركز في الجنوب، فضلًا عن كونها بعيدة -كل البعد- عن غرفة الدفن الموجودة عند النقطة الوسطى التقريبية للنصب الحجري الأوسط. وهنا لاحظ الباحثون أنه بما أنّهم عدّوا الجُدُر الحجرية الدائرية أكثر قربًا إلى المركز،

خاصةً من الجدار الخامس إلى الجدار التاسع، فإن مراكز التقوس ستبدو أكثر قربًا إلى المراكز الانتصافية التقريبية للنصب الحجري الأوسط، التي تتمثل في نقطة وسط غرفة الدفن (يتمركز الجدار التاسع في منتصف الحجرة). وتصل المسافة الممتدة بين منتصف النصب الحجري للجدار الأول، ونقطة وسط غرفة الدفن إلى أكثر من أربعة أمتار، في حين أنها تصل إلى 3.2 متر بالنسبة للجدار الثاني.

هذه البيانات قادتهم إلى الاعتقاد بأن الأقواس المقترحة للجدارين: الأول والثاني، قد ضُبطت بواسطة حبال ممتدة، من المحتمل أن تكون من موقع وحيد يقع على بعد، يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أمتار، جنوب النقطة المركزية الخاصة بغرفة الدفن الآن، أما ما يتعلق بالجدارين: الثالث والرابع، فإن المسافة من النقطة 1 تصبح كبيرة جدًا (نحو 10 بالمئة) وذلك بالأخذ في الحسبان أنّ جُدُرها الشعاعية دفعت الباحثين إلى التمسك -بقوة- بالاعتقاد أن هذا الأخير قد ضُبط من البقعة نفسها. وبصورة أكبر، تبعد الدوائر الأصغر (9-5) من مركزي الجدارين: الأول والثاني.

وباستثناء الدوائر الأكثر عمقًا، يبدو أنّ عددًا من هذه الدوائر يتوضع على الربوة او فيها، وبأن مراكز التقوسات جميعها موجودة إلى الجنوب من وسط القبر (بمعدل 2.5م شرق الجُدُر 1-5)؛ ما يعني -بالتأكيد- أن القبر لا يقع في المركز الهندسي للجُدُر الدائرية المتحدة المركزية، وهذا ما يقود بوضوح إلى الاعتقاد بأنّ القبر لم يُتّخذ نقطة مركز عند بناء الموقع. وبإسقاط مراكز التقوسات القطرية جميعها إلى جانب واحد من القبر، فربما جرت عملية تشييد القبر بعد مدة طويلة من ذلك. وعليه؛ وبالاستناد إلى التحليل الهندسي، فمن المرجح أن يكون رجم الهري مدفنًا

صخريًا جرى بناؤه ضمن مجمع دائري من المواقع الأثرية الموجودة سابقًا، بدلًا من أن يكون مجمعًا أثريًا، بُني حول مدفن ضخم.

إن هذه النتائج التي جرى التوصل إليها من سلسلة من الاستقصاءات الهندسية، تدعم الملاحظات الأثرية والنباتية بأن الجُذُر الحجرية متحدة المركز، الموجودة في رجم الهري، تعود إلى مرحلتي بناء مختلفتين[314].

لقد أظهرت الحفريات في النصب الحجري الأوسط أن العصر البرونزي المتأخر، لم يكن مسيطرًا داخل غرفة الدفن فحسب، بل -أيضًا- في أرجاء النصب الحجري كافة. وبوجه عام، فقد كان نشاط العصر البرونزي المتأخر في الموقع كبيرًا (فيما يتعلق بالشروط الخزفية)، ويعكس -بالتأكيد- أكثر من مجرد استخدام ثانوي لغرفة دفن موجودة مسبقًا. ويمكننا القول: إن فرضية إضافة النصب الحجري، وغرفة الدفن الخاصة به، بوصفهما إضافتين تابعتين إلى العصر البرونزي المتأخر، إلى مجمع موجود مسبقًا في العصر البرونزي المبكر، تتلاءم تلاؤمًا كبيرًا مع ما نعرفه عن المواقع الأثرية الموجودة في المنطقة، وتحاكي غرف الدفن الضخمة والرائعة التي تتسم بها غرفة الدفن الموجودة وسط رُجم الهري، وهي موجودة ضمن مواقع عدة في الجولان، كقبور الدولمن، والنُصب الحجرية الموجودة في موقع أبو فولة، إضافة إلى كثير من النُصب الحجرية الموجودة في شمالي الجولان.

وبناءً على ذلك؛ فإن تاريخ العصر البرونزي المتوسط الخاص بمباني الدفن هذه (استنادًا إلى الحفريات) يحاكي مرحلة ما قبل الحياة الحضرية في الجولان، ويضاف إلى ذلك؛ أنه من المحتمل أن يكون جرى بناء بعض النُصب الحجرية

---

(314) استقصاءات ميزراتشي 1992ب، 1996, ليف يادون، ميزراتشي وكوتشافي الموجودة في الصحافة

الأكثر روعةً في شمالي الجولان خلال العصر البرونزي المتأخر[315]، وبذلك؛ يمكننا القول بأنّ إنجاز بناء النُصب الحجرية الموجودة في رُجم الهري، يتناسب تناسبًا كبيرًا، وربما تناسبًا أفضل، مع الحياة البدوية غير الحضرية التي -عادة- ما يُرجَّح وجودها في الجولان ضمن مرحلة العصر البرونزي المتأخر. وهنا، يجدر بنا ذكر أنّ الإحساس التلقائي يدفعنا إلى افتراض أن النصب الحجري، والمجمع الدائري، كانا جزءًا من مجهود بناء مبنى واحد.

التواصل مع الأجداد

من ناحية أخرى، يُعدّ إنشاء الأكوام الترابية ضمن مواقع محيطة، قائمة مسبقًا، ظاهرة شائعة لوحظت في كثير من المواقع في سيناء والنقب؛ وحتى من موقع الشعبانية المجاور لموقع رُجم الهري الذي يعود إلى حقبة العصر البرونزي المبكر[316]. وكما هو معروف، فإن بناء نصب حجري ضمن مجمع موجود مسبقًا، يشكل حماية للنصب الحجري، فضلًا عن توفر كميات غير محدودة من مواد البناء.

بعيدًا عن الفائدة التقنية لبناء النصب الحجري، ضمن مجمع موجود مسبقًا، فإن بعض الباحثين يؤكد أن مجموعة من القوى الاجتماعية لعبت دورًا مشابهًا لدور تلك القوى التي أُعتقد بوجودها في المواقع الأثرية الضخمة جنوبي إنكلترا، فقد تركز النقاش سنوات في الدراسات الأثرية حول ما إذا مثلت مادة الاحتجاز

---

[315] مراسلات إم. هارتال الشخصية 1989.

[316] إيبشتاين وغوتمان 1972: 276.

المتميزة (كتل الصخور المختلطة التي عُثر عليها خلف جدار الاحتجاز الخارجي) إنشاءً مقصودًا، أم إنها كانت مادة لترميم النصب الحجري.

وفي النقاش الدائر حول أهمية مدافن «كوتسولد سيفرن» الاجتماعية، في جنوبي بريطانيا، مال توماس (1988:255) إلى الاعتقاد بأن القبور الضخمة عُدّلت من الناحية الإنشائية في كثير من الحالات؛ لإظهار عظمة قدمها، فلقد جرت محاولة؛ لخلق تمايز بين الماضي والحاضر، وذلك؛ لتشكيل ماضٍ أنموذجي لا يمكن الشك فيه. ومنذ ذلك الوقت، غدت الهياكل العظمية الموجودة في القبور تشكل أسلافًا بعيدين، غير قابلين للتغيير، فضلًا عن أنه جرى العمل -في بعض الحالات- على إنشاء القبور بصورةٍ فعلية؛ لتشير إلى التاريخ البعيد، كما لو كان البناؤون يطمحون إلى تقديم نتاج «فوري» لأنموذج قديم[317]. وبالطريقة نفسها، يؤكد الباحثون الذين درسوا رجم الهري، أن الهدف من تشييد النصب الحجري العائد إلى العصر البرونزي المتأخر، ضمن مجمع العصر البرونزي المبكر الموجود مسبقًا، في موقع رُجم الهري، كان قد خلق نكهة تاريخية، ويصلح هذا الشرح -أيضًا- لتفسير وجود الكتلة الكبيرة من الحجارة المتناثرة التي تحيط بالنُصب الحجري الأوسط في موقع رُجم الهري.

إن تفسير توماس لظاهرة «العودة إلى التاريخ» يتجلى في إضفاء المظهر الأثري على المدافن؛ ما يجعل المرء « يزيح بدون نقاش جميع المزاعم المتعلقة بشرعية أولئك الأشخاص المرتبطين ارتباطًا كبيرًا بالأسلاف»، وبتشييد متراس المدفن داخل المجمع العائد إلى العصر البرونزي المبكر، فمن المحتمل أن يكون بناؤو

[317] بريتنيل وسافوري 1984: 150.

العصر البرونزي المتأخر، في موقع رُجم الهري، قد لجؤوا إلى محاكاة ماضيهم من الناحية الجسدية بالطريقة نفسها؛ ما يجعل هذه العملية تحقق هدفين: أولهما، إظهار تواصل العلاقة التاريخية التي تربط بين الأسلاف القبليين، وأحفادهم الموجودين. وثانيهما، تمجيد مؤسسي القبيلة من خلال ربطهم بالمجمع الدائري الأثري، العائد إلى العصر البرونزي المبكر.

التخطيطات الفلكية وغيرها

لطالما جرى النقاش بطريقة موسعة حول المضامين الاجتماعية- الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية الخاصة بإتقان المعرفة الفلكية والسماوية في الأدب المرتبط بالآثار الحجرية الأوروبية، إضافة إلى تضمينات المجموعات النجمية في الحضارة الأمريكية والهندية في مرحلة ما قبل وصول كولومبوس[318].

لقد أكد هذا الأدب أهمية التخطيطات الفلكية في سياق الملاحظة الطقوسية وتأسيس الأنظمة التقويمية ذات الأغراض الإدارية والزراعية. وكما سنظهر في هذا القسم، فإن التخطيطات المتعلقة بالأجرام السماوية وبعناصر المنظر الطبيعي الموجودة في موقع رُجم الهري لعبت دورًا مشابهًا لدور نظيراتها في أوروبا والعالم الجديد.

لا شكّ في أنّ سؤال ماهية النقاط التي يجب علينا استخدامها لقياس التخطيطات، يعد أهم المشكلات التي واجهت الفرضيات الوظيفية التي تستند إلى هذه المناحي جميعها، إذ تشير البيانات الهندسية والأثرية إلى أن نقطة المركز

[318] على سبيل المثال ، وود 1978 ؛ أفيني 1980، 1981 و1988، هيغي 1981؛ كراب 1983؛ هادينغمان 1984؛ راغلز 1988.

الأصلية للمجمع لا تقع عند مركز غرفة الدفن، التي أُنشئت لاحقًا، وإنما تقع عند المركز الهندسي للجُدُر الحجرية الدائرية، أي: بمسافة تبعد من أربعة إلى خمسة أمتار جنوب القبر، ولهذا السبب؛ فإنّ معظم القياسات المذكورة في الأسفل أشارت إلى المركز الهندسي للجُدُر بوصفها نقطةً مرجعيةً حُدّدت منها التخطيطات في المجمع، وستناقَش الحالات التي تُعد فيها النقطة المركزية البديلة أمرًا مهمًا على سبيل المثال القبر.

التخطيطات المتعلقة بالظواهر السماوية

أبرزت ملاحظات المراقبين لمواقع الأجرام السماوية في مدة زمنية معينة، أن محور الأرض يتغير عبر آلاف السنين؛ وهو ما لا بد أن ينتج منه وجوب تحديد تحليلات التخطيطات المعمارية المتعلقة بالأجرام السماوية جميعها في تاريخ معين. إن الإحداثيات الاستوائية الدقيقة لأجرام سماوية محددة، لم يُتوصَّل إلى حسابها إلا في عام 2500 قبل الميلاد كانت متوفرة لدى الباحثين للتحليل؛ وحتى في مرحلة سابقة للمرحلة التي يرجح تشييد المجمع فيها بطريقة تخطيطية، نحو عام 3500 قبل الميلاد، استقرأ الباحثون هذه الإحداثيات الاستوائية، حيث تراوح الخطأ المحتمل في هذه القياسات بين ± 1 درجة.

وباستخدام هذه الطريقة المنهجية، اختُبر مدى انسجام التوافق الممكن للتخطيطات الآتية مع الظواهر السماوية:

التخطيطات بين المركز الهندسي للمجمع:

1- البوابة الشمالية الشرقية (علامة محتملة للانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو).

2- والبوابة الجنوبية الشرقية (علامة محتملة للانقلاب الشتوي في كانون الأول/ ديسمبر).

3- جلمودان صخريان كبيران جدًّا، في القسم الشرقي للمجمع (علامة محتملة للاعتدالين: الربيعي والخريفي، ويُطلق عليهما اسم «أحجار الاعتدال «).

4- الجُذُر الشعاعية.

البوابة الشمالية الشرقية

بُنيت البوابة الشمالية الشرقية بجلاميد الصخور الضخمة، وعُمل على دمجها -إنشائيًا- بالجدار الحجري الدائري الأبعد في المجمع (الجدار الأول)، ويصل مدخل الموقع الأثري الشمالي الشرقي الذي تبلغ أبعاده 20 × 29م، المجمع مع العالم الخارجي. وسيطلق على هذه البوابة اسم البوابة الشمالية الشرقية الخارجية الموجودة في الجدار الأول، ويعود السبب في ذلك إلى اكتشاف بوابة ثانية عرضها أربعة أمتار، توجد على محور المدخل الشمالي الشرقي نفسه، ضمن عمليات التنقيب في الجدار الثاني الذي يشكل الحلقة الحجرية الداخلية التالية. لذا؛ أطلق

الباحثون على هذه البوابة اسم البوابة الشمالية الشرقية الداخلية الموجودة في الجدار الثاني.

وبما أن المقاييس السابقة أظهرت احتمالية إشارة محور الموقع الشمالي الشرقي العام إلى الانقلاب الصيفي في حزيران، فقد جرى العمل على اختبار الفتحتين الموجودتين في القسم الشمالي الشرقي من الموقع، لتخطيطاتها التي يمكن أن تتناغم مع انقلاب حزيران. كما سيظهر أدناه أن التحليلات تقود إلى نتيجة أنه في الألفية الثالثة قبل الميلاد تقريبًا، كان المجمع مخططًا بصورة فعلية، بالتوافق مع الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو، وذلك عن طريق خط يسير من المركز الهندسي للمجمع الدائري، عبر البوابة الشمالية الشرقية للموقع الأثري التي تقع في الحلقة الحجرية الخارجية للمجمع، يضاف إلى ذلك؛ أنه جرى العمل على تحديد تخطيط رمزي بين محور القبر والبوابة الشمالية الشرقية، وذلك بعد الانتهاء من إنشاء غرفة الدفن الموجودة في المجمع الأثري، إلا أن هذا التخطيط لم يتوافق مع الحسابات الفلكية.

وعلى الرغم من حقيقة تكييف فتحتي محور المجمع الشمالي الشرقي مع الاعتدال الفصلي، فلقد نُسّق المدخل الشمالي الشرقي الخارجي في الجدار الأول معه تنسيقًا دقيقًا. وينحرف التخطيط الخامس [الجدول الأول، الثالث من أيلول]، الذي يمتد على مستوى الأرض، من مركز الجُدُر الحجرية الدائرية الهندسي إلى مركز البوابة الشمالية الشرقية الخارجية، عن شروق شمس ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، بمقدار 0.43 درجة، علاوة على أنه ينحرف بمقدار 0.33 درجة عن شروق شمس ما قبل الميلاد بأربعة آلاف عام (العرض التقديري

لقرص الشمس)، ما يجعل هذه الملاحظات تقود إلى أنه جرى العمل على تشكيل بوابة الجدار الخارجي، بالطريقة التي تجعلها أداة مراقبة توقعية معقولة؛ لتحديد الانقلاب الفصلي قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، كما هو الحال بالنسبة لطريق الأحجار الرئيس.

يُعد التخطيط الثالث الوحيد بين التخطيطات الثلاثة المترافقة مع بوابة الجدار الثاني الداخلية (التخطيطان الأول والثالث)، الذي بإمكانه الإشارة إلى الانقلاب الفصلي، لكنه بدوره يتوافق مع شروق الشمس في ما قبل الميلاد بأربعة آلاف عام، بمقدار 3.25 درجة، أي بما يتجاوز العرض التقديري لقرص الشمس بسبع مرات؛ ما يعني أن شمس الانقلاب الفصلي كانت تشرق على بعد يناهز الستة أمتار إلى يمين البوابة، وفقًا لما تمكن رؤيته من نقطة مركز الجُدُر الحجرية الدائرية، إضافة إلى أن الشمس تقترب أكثر من الفتحة، كلما عدنا بالزمن، ولكننا إذا سلمنا بأن الشمس تتحرك بمعدل 15 سم كل ألف سنة، فمن الطبيعي أن ينعدم إمكان رؤية سطوع الشمس عند الفتحة، إلا ما بعد 15000 قبل الميلاد، وهو تاريخ قديم لا يمكن التسليم به. بهذا نصل إلى نتيجة أن بوابة الجدار الثاني لم تُخطط بالتوافق مع الانقلاب الفصلي، إذ عندما أُنشئت بوابة الجدار الثاني الداخلية، لم يكن في مقدور أشعة شمس الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو الوصول إلى أي مكان في هذه البوابة، إذا ما أخذنا في الحسبان وجود المراقب في المركز الهندسي للمجمع، إلا أن ما يثير الدهشة وجود زاوية سمت محور القبر على مقربة من الخط الثاني (مركز البوابة الداخلية)؛ ما يرجح إمكانية تعمّد تطابق خطة بناء القبر مع مركز البوابة الداخلية. ولشرح هذه البيانات، فقد عمل الباحثون على التمييز بين

مرحلتين عمليتين رئيستين، تغير خلالهما دور تخطيطات الفتحات الشمالية الشرقية.

المرحلة المبكرة

في العصور القديمة، خلال النصف الأول من الألفية الثالثة قبل الميلاد، جرى العمل على تخطيط الفتحة الشمالية الشرقية الخارجية ذات الشكل الأثري بالطريقة التي تضمن تناسقها بدقة مع شروق شمس الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو، في حال نظر إليها المرء من المركز الهندسي للمجمع، وعُمل على إنشاء فتحة الجدار الأول الأبعد؛ لتكون علامة تشير إلى الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو، في حين من المحتمل أن تكون بوابة الجدار الثاني الداخلية مدخلًا للمواكب الاحتفالية.

ويشك الباحثون في أن التخطيط الشمالي الشرقي المتوافق مع الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو، قد ترافق مع ظهور عبادة تموز، واقترانه بإنانا عند السومريين. وبصورة جلية، كان يلاحظ ظهور تموز في طقوس الخصوبة السنوية للزواج المقدس (بين الإلهين)، وعندما يصبح الموت إلهًا للعالم السفلي. لقد صُمم الطقس السنوي من أجل ضمان إنتاجية الأرض وخصوبة النساء والبهائم، حيث كان يُحتفل به في مدينة أور في الشهرين: الأول والسابع، بالتوافق مع الانقلابين: الصيفي والشتوي.

وبحسب ما لاحظ إيلياد (1971: 58)، فقد قابل معنى السنة البابلية الجديدة وطقوسها نظائر لها في أرجاء المشرق القديم (وينسيك 1923)، وهو ما تدل عليه

عدة مواقع أثرية موجودة في المشرق الجنوبي، ويعد معبد عراد المزدوج، للإلهين: دموزي وإنانا، أحد الأمثلة التي تدعم هذه الفرضية، ويمكن -أيضًا- تقديم التفسير نفسه لبعض المعابد المزدوجة في المنطقة التي عاصرت تلك المرحلة، من مثل معابد بيبلوس (كمبنسكي 1972)، ويبدو أنه قد جرى إنشاء هذه المعابد من مصادر أجنبية[319]، ويمكن ملاحظة أن هذه المعابد -عامةً- تتجه باتجاه الشرق.

وبهذا نصل إلى أن وظيفة موقع رُجم الهري تتلخص في كونه مركزًا طقوسيًا أساسًا (و/أو) معبدًا كان يحضر فيه السكان الحضريون الذين كانوا يقطنون في مواقع الجولان المغلقة التي جرى اكتشافها أخيرًا، الاحتفالات والطقوس الدينية[320].

المرحلة المتأخرة

في مرحلة متأخرة، من منتصف إلى أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، لم يكن قد جرى تخطيط أيٍّ من البوابتين الشماليتين الشرقيتين، بالتوافق مع الانقلاب الصيفي في حزيران/ يونيو بالنسبة للمشاهد الموجود في المركز الهندسي للمجمع. لكن على الرغم من ذلك، فقد خُطط محور غرفة الدفن، التي يُحدد تاريخها الأثري بالألفية الثانية قبل الميلاد، بالتوافق مع بوابة الجدار الثاني الداخلية، وليس بالتوافق مع أي انقلاب فصلي. ويدل تصميم وتنفيذ التخطيطات المترافقة مع غرفة الدفن على عدم وجود علاقة مع الأحداث الفلكية؛ ما من شأنه إظهار أن إنشاء

---

(319) كمبنسكي 1987: 49.

(320) ميزراتشي 1922أ: 195-196، 228-242.

النصب الحجري المركزي، واتجاه القبر الشمالي الشرقي لم يكن متسقًا مع بقية القبور الموجودة في الموقع، فضلًا عن وجوب إرجاع جهد البناء المبذول إلى مرحلة ثقافية مغايرة من الناحيتين: الزمنية والعملية.

لقد عدّ الباحثون توجيه غرفة الدفن باتجاه شمالي شرقي تخطيط رمزي، لا يمت بصلة إلى النواحي السماوية؛ ما يعود -بدرجة ما- إلى تطور علم الكونيات (الكوزمولوجيا) (و/أو) الدين بين أولئك الذين أنشؤوا النُصب الحجري لاحقًا، ونظرائهم الذين بنوا المجمع الدائري، سابقًا.

البوابة الجنوبية الشرقية

تُعد البوابة الجنوبية الشرقية التي بُنيت ببساطة أكبر من نظيرتها الشمالية الشرقية أكثر إرباكًا؛ إذ قد يظن المرء أنها وُجّهت بالتوافق مع انقلاب كانون أول/ ديسمبر، لكن الأمر ليس كذلك، فالحد الشمالي للبوابة [أيلول/ سبتمبر 3، الخط 10] يتمركز على بعد عشرين درجة من نقطة غياب الشمس في أقصى الجنوب، ومن المرجح -كذلك- أن البنائين لم ينووا ربط البوابتين ببعضهما بعضًا، أو بمواد من فئات مماثلة، مثل الظواهر السماوية، والعناصر الطبيعية الموجودة في الموقع، إضافة إلى المواضع ذات الأهمية الثقافية. ومن المحتمل أن البوابة الجنوبية الشرقية وُجّهت إلى مكان شَهِد حادثة تاريخية مهمة للأشخاص الذين كانوا -آنذاك- يقيمون هناك، وهو ما يحاكي التقليد الإسلامي في الصلاة باتجاه حجر الكعبة في مكة، لكننا ببساطة، لا نعرف أي تقليد أو ممارسة تم ربطهما بوجهة البوابة الجنوبية الشرقية.

أحجار الاعتدال الربيعي والخريفي

تقع الصخرتان الضخمتان اللتان تتميزان بكونهما فريدتين من نوعهما (يصل ارتفاعهما إلى نحو 2 م، وعرضهما إلى 2.5 م)، في القسم الشرقي من أبعد جدار الحجر الدائري الموجودة في المجمع؛ بحيث تشكلان شقًا دائمًا بينهما، ويرجّح الباحثون أن هذا الشق مرتبط بشمس الاعتدال الربيعي (الخريفي). ويبعد التخطيط الثامن غير المصحح عن الشق بأقل من درجة ونصف، ومن اللحظة الأولى لشروق شمس الاعتدال الربيعي، لا تبتعد شمس الاعتدال الربيعي عن هذه الحجارة، إلا لثلاثة أو أربعة أيام.

يُستخدم موقع الشمس في الأفق في كثير من ثقافات العالم دلالةً على توقع التغيرات الموسمية في البيئة الطبيعية المرتبطة بالطقس وبالموارد الطبيعية، من ثَمَّ؛ من الممكن أن تعطينا هذه البيانات شيئًا ما عن التقويم الذي استخدمه المزارعون المقيمون الذين سكنوا مستوطنات الجولان المسورة، في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ويسود السنة -في هذا الجزء من العالم- نظام الفصلين (الصيف والشتاء)، ومن المحتمل أن يخلق الانتقال الحاد نسبيًا بين هذين الفصلين الحاجة إلى تقويم شمسي، يمكّن من التنبؤ -بوجه خاص- ببداية موسمي المطر والزراعة، ونهايتيهما، ويتضمن النشاط البشري جمع المياه النازلة من هضبة الجولان في برك صناعية، إضافة إلى التوقيت الدقيق لزراعة وحصاد المحاصيل، خاصةً في مدة الزراعة الجافة.

يتسم مناخ الجولان الأدنى بكونه متوسطيًا، يتراوح معدل الأمطار فيه بين 800 مم في الشمال، و400 مم في الجنوب، وبمتوسط درجات حرارة يبلغ نحو 11

درجة مئوية في كانون الأول/ ديسمبر، و27 درجة مئوية في آب/ أغسطس. وتُعد هذه المنطقة شديدة الرياح، وتهب عليها -أيضًا- سحب غبار في الصيف، وتبدأ الأمطار بالهطول أواخر أيلول/ سبتمبر، أو أوائل تشرين أول/ أكتوبر؛ إذ تكون زخاتِ مطر مفاجئةً، تتبعها أيام تتسم بطقس لطيف. وتتزايد الأيام الماطرة في كانون أول/ ديسمبر؛ حتى تصل الذروة في كانون الثاني/ يناير (22-31 بالمئة من إجمالي الأمطار)، وشباط/ فبراير (25-16 بالمئة). ويشهد هطول الأمطار تراجعًا حادًا منتصف آذار/ مارس، إلى أن تصبح نادرة جدًا في نيسان/ أبريل، إلا أن المنطقة قد تشهد بعض العواصف الماطرة في أيار/ مايو، ولكنها نادرة؛ إذ عادة ما يشكل هذا الشهر جزءًا من موسم الجفاف، ويضمن هطول الأمطار الخفيفة، في آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل، نجاح الحصاد. ويبدأ الصيف الحقيقي منتصف حزيران/ يونيو، ويستمر حتى منتصف أيلول/ سبتمبر.

ويتسم صيف الجولان بانتظامه الكبير؛ ففي كل يوم تبدأ درجات الحرارة بالارتفاع بسرعة، ما إن تشرق الشمس، لكن سرعان ما تبدأ الرياح بالهبوب من الغرب، أو الشمال الغربي، وتكون رياحًا لطيفة في الصباح، إلا أنها أكثر قوة عند نهاية الظهيرة، وبداية الليل. وتجعل هذه الرياح الجو باردًا، إلا أنها لا تحمل الأمطار، إضافة إلى أنها لا تجلب سوى مقدار ضئيل جدًا من السحاب، لكنها تتسم برطوبتها العالية التي تشكل الندى، ولا سيما في بداية ونهاية الموسم الجاف، وتمكن رؤية الندى على المزروعات في الصباح، إضافة إلى تساقطه عن أسطح المنازل؛ ما يجعله يؤدي دورًا مهما جدًا في حياة الجولان الزراعية.

وتتصف المدة الانتقالية الفاصلة بين موسمي الجفاف والمطر بقصرها، إضافة إلى اضطرابها من ناحيتي الرياح ودرجات الحرارة، ويتكرر الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية، بشدة متباينة لمدة تتراوح بين يومين وأربعة أيام، وقلما تمتد لأكثر من ذلك، وتُعرف هذه الرياح بالشرقية أو بالسيروكو، وتتسم بحرارتها ورطوبتها الشديدتين، وغالبًا ما تترافق بغبار ناعم، وتؤدي -أيضًا- إلى الجفاف، إضافة إلى أنها تميت المزروعات وتجعلها تذبل، علاوةً على أنها تجعل الأفق داكنًا، وهو ما يجعل الناس تعاني اضطرابًا ونزقًا شديدين، وبعودة الرياح الغربية، تتوقف الرياح الشرقية، وتتراجع درجات الحرارة، ويمكن أن تهطل الأمطار في المدة الانتقالية الأولى، الواقعة بين أواخر أيلول/ سبتمبر، وأوائل تشرين الأول/ أكتوبر.

ومن الناحية الزراعية المتعلقة بسكان الجولان، في الألفية الثالثة قبل الميلاد، كما هو الحال مع سكان الجولان اليوم، تتمثل النقاط المهمة في هذه الدورة الموسمية السنوية في أوقات هطل المطر لأول وآخر مرة، إضافة إلى وقت تعرض المنطقة لموجات الحرارة المدمرة التي تترافق مع هبوب الرياح الشرقية.

تكشف تحليلات البيانات المُناخية المأخوذة من محطتي أرصاد جوية، تبعد إحداها من موقع رجم الهري ثمانية كيلومترات، إلى الشمال الشرقي (محطة الخشنية)، في حين تبعد الأُخرى تسعة كيلومترات، إلى الجنوب الشرقي، أن تخطيط الاعتدال الخريفي الموجود في الموقع، قدم وسيلة ممتازة لتوقع توقيت هطل المطر الأول (تقريبًا بدقة 99 بالمئة). أما المحطة الثانية، فتشهد وحدها هطل الأمطار في أيلول/ سبتمبر بمعدل وسطي يصل إلى يوم ونصف اليوم (اليوم

الأول للأمطار في الموسم)، ما يشكل نسبة بسيطة من الأمطار تصل إلى 6 مم (1 بالمئة فقط من معدل الهطل الموسمي البالغ 553 مم). وعلى نحو مماثل، قدم تخطيط الاعتدال الربيعي في موقع رُجم الهري وسيلةً تقديرية ممتازة، قادرة على توقع نهاية الفصل الممطر (بدقة تصل إلى 99 بالمئة تقريبًا). في كلا المحطتين، تتجمع نسبة 93 بالمئة من الأمطار الموسمية بنهاية آذار/ مارس (98 بالمئة في نهاية نيسان/ أبريل). وهكذا، فقد شكل التخطيطان آلية توقع من الطراز الأول، قادرة على تخمين وصول الرياح الشرقية القاسية التي ترافق الانتقال بين موسمي الجفاف والرطوبة.

لقد كان مهمًا لسكان الجولان القدماء معرفة التوقيت الدقيق لهطل الأمطار الأولى؛ بسبب الحاجة إلى توريد الماء إلى سلسلة من المراكز البشرية الحضرية في العصر البرونزي الكبير، المعروفة بالمواقع المسوّرة. وعلى الرغم من تميز منطقة الجولان بمعدل أمطار مرتفع، إلا أنها تعاني شح المصادر المائية؛ بسبب تضاريسها الجيولوجية البركانية التي تمنع تشكل طبقات غنية من المياه الجوفية في هضبة الجولان نفسها، ولأن توريد مياه الينابيع القليلة الموجودة في الجولان، يقتصر اقتصارًا رئيسًا على أشهر الربيع، ومع سقوط الأمطار الأولى، تتشبع الطبقات البازلتية العليا، وتصبح معظم مياه الأمطار سطحية؛ ما يجعلها تتجه نحو أحواض الأنهار، وتخرج بسرعة من المنطقة.

ولجمع مياه الأمطار وتخزينها ضمن الهضبة، من المحتمل أن يكون سكان الجولان استفادوا من التحذير المسبق لبداية ونهاية موسم الأمطار.

وعلى عكس الاعتقاد السائد، فإن كمية الأمطار في الجولان، لا تقل عن تلك الموجودة في الدول الزراعية الموجودة في المناطق المعتدلة. فعلى سبيل المثال، يتلقى وسط الجولان أمطارًا في السنوات الجيدة، تعادل الأمطار التي تهطل في لندن وفي باريس، إذ لا يكمن الفارق في الكمية السنوية لهطول الأمطار، إنما في عدد الأيام الماطرة وكثافة الأمطار، ففي الجولان تهطل كمية الأمطار السنوية بكاملها في مدة تتراوح بين الأربعين والستين يومًا، في موسمٍ يمتد من سبعة إلى ثمانية أشهر، في حين تهطل الأمطار في المناطق المناخية المعتدلة على مدار 180 يومًا من السنة. وعلى سبيل المثال، فقد هطلت نسبة 60 بالمئة تقريبًا، من متوسط أمطار الجولان أواخر كانون الأول/ ديسمبر من شتاء عام 1991. وبناءً على ذلك؛ فمن الطبيعي أن يكون توقيت الأمطار الأولى بالغ الأهمية في تلك المدة الزمنية.

لقد شكل تخطيط الاعتدال الفصلي رابطًا سماويًا ممتازًا، استخدمه السكان القدامى لبناء وصيانة أحواضهم وخزاناتهم، فعندما تشرق الشمس على طول مركز حجارة اعتدال البوابة الشمالية الشرقية، يكون الوقت قد حان لظهور الماء، وفي المرة التالية التي تشرق فيها الشمس على مركز أحجار الاعتدال الفصلي، يكون الوقت قد حان لاختفاء المياه، من هذا المنظور؛ فإن تحديد شروق شمس الانقلاب الشتوي (كانون الأول/ ديسمبر)، بوصفه الموسم الممطر في أوجه، لم يكن مهمًا من الناحية العملية، فضلًا عن صعوبته الكبيرة؛ نتيجة تلبّد السماء بكثير من الغيوم في هذا الوقت من السنة، وفي الحقيقة نعلم من المصادر التاريخية أن أكثر المياه الموجودة -سابقًا- في الجولان كان مصدرها جمع مياه المطر في أحواض

صناعية، تُعرف باسم البرك، ويتراوح القطر الطبيعي لهذه البرك بين 50 و75 مترًا، في حين يتراوح عمقها بين 4 و6 أمتار.

وتخزن هذه البرك المياه لمدد السنة معظمها؛ ما يجعلها مصدر مياه بالغ الأهمية لسكان المناطق السكنية القديمة في الجولان، كما هو الحال للسكان المحليين في هذه الأيام. وتدعم البيانات الموجودة لدينا احتمال استخدام سكان الجولان الحضريين طرقًا مماثلة (ربما البرك نفسها) منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد؛ إذ لعبت تخطيطات الاعتدال الموجودة في موقع رُجم الهري دورًا رئيسًا في عملية التنبؤ.

شرح وظيفة الجُدُر الشعاعية

إن مصطلح «الجُدُر الشعاعية» الذي يدل على سلسلة من الإنشاءات نصف قطرية الشكل، تعمل على ربط جُدُر الأحجار الدائرية الموجودة في موقع رُجم الهري، لا يشير إلى أنصاف أقطار الجُدُر الحجرية الدائرية بالكامل، كون هذه الجداران لا تحمل خصائص معمارية، ويصعب شرح وظيفة الجُدُر الشعاعية؛ إذ يبدو توزيعها عشوائيًا تمامًا، ولا يظهر أنها تمتلك أي دلالة إنشائية.

لكن التحليلات الواردة أدناه، تبين أنه يمكن عدّ هذه الجُدُر أدوات تخطيط مثبتة للنواحي السماوية وغير السماوية، وهو ما تدعمه بالأدلة العملية والإحصائية والظرفية.

النظام الشعاعي

لقد أُسس النظام الشعاعي الخاص برؤية شروق شمس الانقلاب الفصلي في حزيران/ يونيو، من مركز المجمع، عبر البوابة الشمالية الشرقية، إلى خارج النطاق، بطريقة جيدة في الموقع. وعلى ضوء موازاة الجُدُر الشعاعية على جانبي بوابة الانقلاب الصيفي، لهذا الاتجاه، يعد التمديد المنطقي لهذه الطريقة اختبارًا لظواهر وأدوات سماوية أُخرى، شوهدت في الأفق.

في حقيقة الأمر، إن شعاعية بعض هذه الجُدُر، تتطابق مع منهجية الرؤية الشعاعية الخاصة بالانقلاب الفصلي الواردة أعلاه فحسب، ويضاف إلى ذلك وجود مؤشرين إلى إمكانية تخطيط موقع رُجم الهري تخطيطًا مدروسًا، في ما يتعلق بالنقاط المرجعية الخارجية: أولًا، يقع جبل الحرمون -بالضبط- في شمال مركز المجمع (انظر المناقشة الواردة أدناه). ثانيًا، تتسلسل ثلاثة جُدُر شعاعية من خارج الجدار الأول، باتجاه الأفق نحو الشمال والغرب والجنوب على التوالي (زاويا السمت 05، 268.5 و191.5 على التوالي).

وقد تتضمن هذه التخطيطات مخططًا جغرافيًا مقدسًا، تشير فيه الجُدُر إلى أجسامٍ موجودة في السماء، أو في الأرض (على سبيل المثال، النجوم والجبال)، وتظهر مسألة التخطيطات الفلكية في الثقافات الأُخرى بصورة جيدة[321]. وبما أننا لا نملك ما يوازي الموجود في موقع رُجم الهري، الذي يمكن على ضوئه اختبار الفرضيات الفلكية اختبارًا مستقلًا، تعد الطرق المطبقة في هذه الدراسة طرقًا إحصائية بالكامل، ولاختبار التخطيط الفلكي، بدأ الباحثون بتخطيطات جُدُر رُجم

---

(321) على سبيل المثال، أفيني «1990»، زويديما وأورتون «1979»، كينغ «1979».

الهري الشعاعية الأكثر تحديدًا، الأربعة والثلاثين، وبعد الإجراءات الأثرية الفلكية المقبولة، اختيرت النجوم الإثنين والعشرين، الأكثر لمعانًا (تحت حجم 1.6) التي جرت لأجلها جدولة الإحداثيات الاستوائية. لقد حوّل الباحثون زوايا سمت الجدار إلى الانحرافات التي تنطبق عليها التصحيحات المعتادة[322]، وبعد ذلك، بحثوا في الارتباطات بين تخطيطات الجدار الشعاعي، ونقاط غروب وشروق النجم.

التأريخ الفلكي للمجمّع

تظهر دراسة النواحي الفلكية في موقع رُجم الهري، أيضًا، إطارًا زمنيًا تقريبيًا للمجمع الذي يمكن عدّه طريقة تحديد للتواريخ، بديلة وقادرة على دعم تقنيات تحديد التواريخ الأثرية والتاريخية، ويعتمد إجراء تحديد التواريخ الفلكية على تقييم الترابط بين زاويا سمت العناصر المعمارية، على سبيل المثال، فتحات الجدار والجُدُر الشعاعية، على افتراض استخدام العناصر المعمارية أدواتِ مشاهدة، والظواهر/ الأجرام السماوية المختارة ضمن حقب زمنية عدة، وما إن تُحدَّد إحداثيات الظواهر/ الأجرام السماوية المختارة، عن طريق العودة إلى حقب زمنية عدة (السمت بحسب مكان الموقع)، فمن الممكن اختبار ترابطها مع زاويا سمت العناصر المعمارية، واستُخدمت الحقبة الزمنية التي تقدم أعلى درجة من الترابط مع العناصر المعمارية (أفضل حقبة زمنية) وسائلَ مشاهدة.

لقد اختُبر نوعان من التخطيطات المعمارية، من حيث درجة ترابطها مع الظواهر والأجرام السماوية في فتراتٍ متعددة (2000-4000 قبل الميلاد)، وتمثل التخطيط

---

[322] أفني 1980: 101-119.

الأول في تخطيط الشمس على البوابة الشمالية الشرقية، في حين تمثل الآخر في زوايا سمت الجُدُر الشعاعية مع الأخذ في الحسبان النجوم المختارة، ومن بين التخطيطين، يعدّ الأول مؤشرًا ضعيفًا جدًا؛ بسبب زحف الشمس عبر البوابة بمقدار 15 سم، فقط، في كل ألفية. ويقدم تخطيط الشمس مع البوابة الشمالية الشرقية تاريخًا مبكرًا جدًا، في حين تُعطي الخطوط الشعاعية تاريخًا معقولًا (3000 قبل الميلاد ± 250 سنة)، وفي حقيقة الأمر، تقدم المجموعة الثانية من الخطوط اختبارًا أكثر دقة في تحديد الفترات الزمنية؛ بسبب تحرك النجوم بصورة أسرع، إضافة إلى وجود كثير منها.

تُظهر تحاليل ترابط الجُدُر مع النجوم بصفة فردية تركيزات في 2500 قبل الميلاد و2800-3200 قبل الميلاد، أكثر مما هو متوقع؛ بسبب العشوائية، وعلى أساس هذه النتائج، ومن وجهة نظر إحصائية محض، حدد الباحثون تاريخ 3000 ± 250 قبل الميلاد من الناحية الفلكية للجُدُر الدائرية والشعاعية الخاصة بالمجمع.

إن البقايا المعمارية التي جمعوها وحفروها في المجمع تغطي المدة الزمنية الممتدة بين العصر الكالكوليتي إلى العصر الروماني البيزنطي؛ وصولًا إلى العصور الحديثة، وتشير بيانات عمليات المسح، إضافة إلى الدراسات القياسية (ليف-يادون، ميزراتشي وكوشافي) إلى أن الجُدُر الحجرية ذات المركز المتحد والبوابتين، وُجدت في منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، وفي المقابل، تُظهر حفريات النصب الحجري المركزي أنه استُخدم بشكله الحالي على نطاق واسع، وتشير جميع

الترجيحات إلى أنه بُني أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد [323]، على الرغم من توفر إمكانية وجود مرحلة بناء سابقة للنصب الحجري المركزي في هذا الوقت.

تخطيطات العناصر الطبيعية الموجودة في المنطقة

لم يُعمل على تقييد تحليلات الباحثين للعناصر المعمارية بالظواهر والأحداث السماوية، لكنهم تفحصوا -أيضًا- التخطيطات الممكنة، التي يمكن أن تتوافق مع العناصر الطبيعية في المنطقة، إضافة إلى الظواهر البيئية، لقد بدأ الاستفسار عما إذا كان موقع رُجم الهري قد أقيم ليكون ذا أهمية من الناحية الاستراتيجية المتعلقة بالمنطقة؛ بمعنى، ما إذا توفرت بعض الخصائص المتميزة الدائمة التي تحدد الأماكن المهمة، كالاتجاهات الرئيسة، أو غروب/ شروق الشمس، ضمن تواريخ مهمة خلال العام؛ ولاختبار هذه الفكرة، أخذ الباحثون القراءات التي تحتوي نقل سمت النقاط البارزة (الجدول 1: أيلول/ سبتمبر 3، أرقام 29-26 وأيلول/ سبتمبر 4 أرقام 1-5).

لقد لاحظ الباحثون أن شروق الشمس مع اقتراب الانقلاب الصيفي في حزيران (أيار/ مايو 10-30 وتموز/ يوليو 14- أب/ أغسطس 2)، يتسلق باتجاه الجنوب قبالة منحدر تل الفرس، حيث تقع على بعد 15 درجة من قمة الانقلاب الفصلي الدائمة، وفي أشهر الشتاء، يتحرك شروق الشمس باتجاه الأفق الجنوبي الشرقي الرتيب، في حين ينتقل غروب الشمس إلى حدود 5 درجات من جبل الطور [طابور] (قرب الناصرة)، مع اقتراب وصول الانقلاب الشتوي في كانون الأول

(323) ميزراتشي وزوهار 1993.

وضمن 7 درجات من قمة مستوية (لا تحمل اسمًا)؛ إذ تبلغ زاوية سمتها 307 درجة عند وصول الانقلاب الصيفي في حزيران، وهي مقطع أفقي وعر نسبيًا، يُصادَف في الفترة المتراوحة بين 19 آب/ أغسطس، والسادس من أيلول/ سبتمبر، وفي نيسان/ أبريل 7-23. كذلك يحدث غروب الشمس ضمن شق متميز في 19 أب/ أغسطس و23 نيسان/ أبريل.

ومن المحتمل أن ملاحظة غروب الشمس في آب/ أغسطس على مدى هذا الأفق؛ كانت جزءًا من رسم بياني توقعي مرتبط ببداية موسم الأمطار. وعلى الرغم من أن هذا الأمر تخميني بالكامل، فإن كثيرًا من الترابط الملحوظ يظهر في اتجاه الشمال. ويقع جبل الحرمون (2807 م)، القمة الأعلى في المكان، ضمن الدرجة 0.49 من الموقع (الجدول الأول، الثالث من أيلول/ سبتمبر 1990، رقم 5). ويُعد جبل حرمون ثاني أعلى جبل في المشرق بين تركيا إلى الشمال، واليمن وإثيوبيا إلى الجنوب. ويقع الجبل على بعد 50 كم من شمال الموقع، في حين يقع موقع رُجم الهري بفارق بسيط على طول محور شرقي- غربي. وفي حقيقة الأمر، فإن موقع رُجم الهري كان موقعه سيكون أكثر دقةً في ما يتعلق بقمة جبل حرمون لو جرى بناؤه على بعد 1-2 كم إلى الشرق من موقعه الحالي. لقد شك الباحثون قليلًا في أن هذا التخطيط المتوافق مع أعلى جبال المنطقة كان مقصودًا.

ما المعاني الثقافية والرمزية لمثل هذا التخطيط المتعمّد؟ تعد ظاهرة الجبال الكونية معروفة جدًا في الأدب المتعامل مع علم الكونيات (الكوزمولوجيا) وأصل الدين[324]. وبما أن الجبال تصل حتى السماء، فقد عُدّت مساكن للآلهة ومراكز

(324) لياد 1954: 12-15: كليفورد 1972؛ كوهن 1981.

للعالم، ففي الميثولوجيا البابلية والأوغاريتية، تولد الآلهة وتجتمع وتثبت سلالات العالم على قمم الجبال المقدسة، وتطلبت التقوى والعبادة تحديد هذا الجبل المبارك في بقعة محددة من الأرض، الأمر الذي يدعمه ترابط الحقيقة الواقعية والعبادة والأسطورة المثالية النقية الخالصة[325].

ويقدم إلياد كثيرًا من الأمثلة المتعلقة باستخدام الجبال الإلهية محورًا[326]. ومن الناحية الأثرية، يناقش تشيلي وفريدل (1990: 72-71)، وبرودا (1991) وأفني وكالنيك، وهارتونغ (1988) أهمية الجبال في كوزمولوجيا الحضارة الأميركية الهندية، ويتعامل عمل تشانغ (1983) على جبل شانغ الموجود في الصين، مع الجبال المترافقة مع علم الكونيات الآسيوي، لذا؛ اعتمد الباحثون على مواد من الشرق الأدنى ونصوص بلاد ما بين النهرين؛ لفهم موقع رُجم الهري من الجبال المقدسة.

بحسب معتقدات بلاد ما بين النهرين، يربط جبل مركزي بين السماء والأرض؛ ويدعى هذا الجبل بجبل الأراضي الذي يربط بين المناطق، ولم يحاك المظهر الطبيعي للزقورات الجبال، وإنما -أيضًا- أسماء المعابد البابلية والأبراج المقدسة نفسها هي التي تؤكد تشابها مع الجبل الكوني: «جبل المنزل»، «جبل جميع الأراضي»، «جبل العواصف»، «الربط بين السموات والأرض» وربما «معبد إنليل في نيبور، الذي أُطلق عليه «منزل الجبل» [327].

[325] دي فوكس 1965: 279-281.

[326] إلياد 1971: 12-14.

[327] أوبنهايم 1977؛ 195 ؛ إلياد 1971:14.

إن حقيقة أن جبلين من أعلى جبال المنطقة، جبل حرمون (مخطط باتجاه الشمال)، وجبل الطور [طابور] (المخطط بالقرب من الانقلاب الشتوي في كانون الأول/ ديسمبر)، لهي واضحة جدًا من موقع رُجم الهري، وقد رُبطا بالقداسة في التقاليد الوثنية، وفي التقاليد اللاحقة؛ ما يجعلهما يحملان أهمية واضحة، وبطريقة مثيرة للانتباه.

وفي الوقت الذي لا يستطيع أحد تأكيد قدسية جبل الطور [طابور] للأشخاص الذين بنوا موقع رُجم الهري، إلا أن الأمر يختلف لجبل حرمون، إذ تُغطي منحدراته وذراه بقايا كثير من المقامات التي استمر استخدامها حتى العصر الحاضر. والاسم الآخر للجبل هو جبل بعل حرمون، حيث كان بعل زعيم آلهة الكنعانيين.

في الحقيقة، إن الشكل الطبيعي للجبل ملفت للنظر. وباشتماله على الحجر الكلسي الأبيض، فإنه يتباين تباينًا كبيرًا مع البازلت الأسود لمرتفعات الجولان. إن الشكل القوي للجبل يتعزز أكثر في فصل الشتاء والربيع، عندما تكون قمته مغطاة بالثلج، ويصف كليفورد (1972:189) الجبل «يبدو جبل حرمون وكأنه الحمّال في العصور القديمة التي اعتُقد فيها بقدسية الجبال». وبحسب تحليلات الباحثين، فإن قدسية جبل حرمون تعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد[328].

[328] ميزراتشي 1992أ : 223-266.

مناقشة

إن إنجازات الألفية الثالثة في المشرق، من الناحية الهندسية والفلكية والمعمارية، كما تبدو في تحليلات موقع رُجم الهري، تلقي ضوءًا جديدًا على القدرات الثقافية وتطور سكان العصر البرونزي. إن موقع رُجم الهري موقع تقويم ومراقبة، ومع بعض الخبرة، قد يكون المستخدم المدرك قد وظف هذه الأثر للتنبؤ بأحداث مستقبلية[329]. إن نظام موقع رُجم الهري يشير إلى نقاط التحول في الدورة الموسمية التي مكّنت من وضع التقويم الزراعي.

ففي النواحي المناخية الحديثة، تُقسَّم الدورة الموسمية للبلاد إلى أربعة فصول: هي الشتاء (من تشرين الثاني/ نوفمبر إلى آذار/ مارس)، الصيف (من حزيران/ يونيو إلى أيلول/ سبتمبر)، الربيع (من آذار/ مارس إلى حزيران/ يونيو) والخريف (من أيلول/ سبتمبر إلى تشرين الثاني/ نوفمبر). ولكن فصل الربيع والخريف فصلان قصيران نسبيًا، والدورة السنوية هي في الغالب مرتبطة بفترتين مناخيتين: «أيام الشمس» و«أيام المطر»[330].

وعلى النقيض من المفهومات الأوروبية للشتاء، بوصفه فصل الموت والسبات، وهذا يعود طبيعيًا إلى الشتاء القارس في الشمال، عدّ الناس القدماء في الشرق الأدنى الشتاء موسم البرد والمطر، بعد الصيف الشرق أوسطي الشاق، ووقتًا لتفتح الأزهار والنباتات، وهو فصل يرمز إلى تجدد الحياة[331].

---

[329] أفني 1989 : 75.

[330] كاتسنيلسون 1968: ألون 1973: 45-47.

[331] ألون 1973 : 45-46 ؛ فرانكفورت 1961 (1945): 46، 174.

وعلى عكس مناطق الشرق الأدنى، حيث يتوفر إمكان الزراعة والري، على سبيل المثال، جنوب وادي النيل، فإن تحديد الهطل الأول للأمطار في المناطق الجافة هو مسألة مهمة، بالتحديد في المناطق المتاخمة للمناطق المتوسطية من الشرق، كونها أكثر حساسيةً بكثير من التقلبات الموسمية المتعلقة بكميات وأوقات الأمطار المبكرة (كاتسنيلسون 1974). إن تلك المنطقة هي جنوبي الجولان، وسهل حوران شرقَ الجولان، وهنا؛ قد يكون تحديد ظهور الأمطار الأولى مع رُجم الهري 23 أيلول/ سبتمبر (الانقلاب الخريفي) بأهمية استثنائية؛ من أجل التخطيط للسنة الزراعية.

لقد كان سهل حوران منذ فجر التاريخ المنتج الرئيس للقمح في سورية[332]، وعُرفت منطقة جنوبي الجولان (الزوية) بأرض القمح، وبما أن المزارعين العرب السابقين، كأسلافهم في العصر البرونزي، لم يكونوا قادرين على الوصول إلى التربة القاسية الجافة ما بعد الصيف، فإن السنة الزراعية بدأت مع أول الأمطار، بعد حراثة تلك الأراضي؛ من أجل تمكين الأمطار اللاحقة من إشباع التربة فحسب[333].

وما إن تُحرث الأرض وتُرشّ، ينبت البذار خلال ستة أسابيع بعد الأمطار الأولى. لقد كانت الزراعة تُتبع بحراثة عرضية للحقول؛ ما يضمن أن يكون البذار مغطى بتربة ناعمة. وبلغت مدة نمو القمح ستة أشهر بالضبط[334]. خلال هذه الفترة، هناك فترة مهمة جدًا بالنسبة إلى المحاصيل الحديثة، من منتصف آذار/ مارس،

(332) عيساوي 1988: 311-313.

(333) غال 1978: 65 ؛ روث 1984 ؛ 54-60 ؛ سهيلر 1984 ؛ فيلكس 1990: 34-38.

(334) فيلكس 1990: 184-186.

وحتى منتصف حزيران/ يونيو، تتميز هذه الفترة من السنة بموجات الحر المتقطعة التي يُطلق عليها اسم «شراف»، وعندما تتسبب بموجات الحر تلك الرياح الحارة والجافة الهابّة من الجنوب والشرق، ويُطلق عليها اسم «الخماسين»، يشعر الإنسان، والمخلوقات الأخرى ذات الدم الدافئ، بعدم الراحة؛ لأن الوظيفة العادية لتبريد الجسد معطلة. إن مزروعات فصل الشتاء، مثل حقول القمح التي تبلغ ثلاثة أشهر، يتلفها خماسين فصل الربيع؛ بسبب التبخر العالي الذي يسبب خسارة زائدة في الرطوبة، وتختفي أشجار الشتاء الخضراء. إن المناطق الجبلية، كالجولان، هي ما تتأثر -بقوة- بموجات الحر تلك، وتكشف بيانات مناخية مفصلة وحديثة، من جنوب ووسط الجولان، عن أن أكثر من 50 بالمئة من موجات الحر الخفيف، وأكثر من 75 بالمئة من موجات الحر الشديد، تحدث خلال الجزء الثاني من فصل الربيع[335]، وبداية الفترة المهمة هذه قد تتضح اتضاحًا أفضل، ويتم -من ثَمَّ- التنبؤ بها من خلال موقع رُجم الهري، ابتداءً من اعتدال آذار الربيعي.

إن الاعتدال الربيعي في موقع رُجم الهري لا يُظهر بداية موجات حر الخماسين، فحسب، وإنما تفتح أزهار النباتات البرية والمنزلية وأشجار الفواكه كذلك، وهو وقت النشاط المكثف بين الحيوانات أيضًا؛ إذ إن الزراعة المؤجلة، وأحوال المناخ المثالية، وقت مثالي لتناسل الحيوانات، وفي حقيقة الأمر، فإن معظم الثدييات، بما فيها الحيوانات المنزلية، تبدأ نشاطها التناسلي في هذا الوقت من السنة، وبعض الثدييات، مثل الأرانب البرية والخنازير البرية، تتناسل في اليوم نفسه -بالضبط- من كل عام خلال فصل الربيع.

[335] غات وباستر 1975: 39-41 ، الجدول 18.

وفي زمن الحصاد، مع الاقتراب من نهاية فصل الربيع وبداية الصيف، فإن معظم المحاصيل التي تُجمع في ذلك الوقت هي التمر والعنب، وبعد ذلك الأجاص والتفاح، وهو وقت حصاد القمح والبقول أيضًا، بعد ستة أشهر من زراعتها.

وابتداءً من منتصف حزيران/ يونيو، تبدأ درجات الحرارة بالارتفاع، بثبات، ويقل الظل، مع تموضع الشمس عاليًا في السماء بدرجة 81. ويصبح النهار أطول، نحو 14 ساعة بين شروق الشمس وغروبها، ويأتي مع هذا الوقت من العام شروق شمس الانقلاب الصيفي في بوابة موقع رُجم الهري، ومن هذا الوقت من العام؛ وحتى هطل أول الأمطار الذي يَشرع مع الاعتدال الربيعي في أيلول/ سبتمبر، يكافح الناس والحيوانات والنباتات للبقاء؛ لأن مستوى المياه في الآبار والتربة والينابيع يقل.، ومع نزول أول المطر بعد الاعتدال الخريفي تنتهي الدورة السنوية السابقة، وتبدأ الدورة الجديدة؛ إذ تُحرث الحقول من جديد ويُنثر البذار، ويعود موسم الأمطار بأمل سنة زراعية خصيبة جديدة.

لقد مكنت عملية تحديد الدورة الموسمية وضبطها من تحديد نمط النظام الزراعي، ومن ثم؛ الدورة السنوية الثقافية الأوسع لسكان الجولان في الألفية الثالثة، ومن خلال التقاط وتثبيت الدورة الموسمية في رُجم الهري، تمكن الناس من السيطرة على الطبيعة. لقد كانت السيطرة على الحياة البرية بمنزلة انتقال كبير في التاريخ الثقافي للمنطقة، وقد تضمنت معاني كثيرة تتعلق بالتطورات الأخيرة من الناحية الاقتصادية – الاجتماعية، والإيمان بثقافة الكنعانيين الأوائل. إن التفسير الأحدث لهذه المحاولة؛ من أجل تحديد والتقاط النظام الكوني، يأتي من القرن الرابع عشر الميلادي، عندما وضع الأوروبيون الغربيون الساعات الفلكية، ليس في

الخارج فحسب، وإنما داخل الكنائس أيضًا، وهي تُستخدم لمعرفة الزمن بصورة أقل من إظهار النظام الكوني الإلهي.

إن كل مجتمع كانت لديه فكرته الخاصة عن النظام الكوني، ويجب أن نكون واعين، نحن -أبناء الحضارة التكنولوجية- بضرورة ألا نفرض أفكارنا عن ترتيب الطبيعة على المجتمعات القديمة التي ندرسها، أي المجتمعات التي يكون فيها الفارق بين العمليات الطبيعية والاجتماعية واضحًا. من ثَمَّ؛ فإننا قد نكون قادرين على الاعتقاد بأن رُجم الهري هو موقع استشرافي وتقويمي لرسم تحركات الأجرام السماوية؛ وهو استشرافي لأن أي شخص يقف في المكان الصحيح ضمن الجُدُر الحجرية الدائرية يمكنه مشاهدة الأحداث في وقتها مشاهدة مباشرة؛ وهو تقويمي؛ لأن الأحجار والخطوط- يمكن أن يُنظر إليهما من خلال المراقب الذكي الذي لديه الخبرة في هذا المجال، تشكل سجلًا غير مكتوب حتى الآن، ولكن لا يمكن محوه حول تدفق الأحداث الطبيعية والاجتماعية. لقد أظهر الباحثون كيف أن الملاحظ الفطن قد استطاع توظيف معمارية موقع رُجم الهري في توقع الأحداث المستقبلية؛ فأكثر الملاحظين وعيًا بإمكانه سبر الطبيعة سبرًا أعمق، فعلى سبيل المثال، يمكن أن تُربط عبارات محددة للنباتات المحلية، وحياة الحيوانات، بأوضاع أخرى لشروق ومغيب الشمس.

لقد عرض الباحثون كيف أن نظام موقع رُجم الهري وعمرانه يتكاملان معًا، ويختلطان بالخطوط السماوية وغير السماوية، إضافة إلى الأفكار الدينية والاقتصادية. إن الدورة الزراعية، بوصفها أساسًا للنشاط الاقتصادي برمته، قد شكلت البيئة الاجتماعية؛ لأنها تحدد الدورة السنوية للنشاط البشري. إن هذا

النظام السنوي، كونه محورًا اقتصاديًا – اجتماعيًا مركزيًا، يعبّر عن نفسه في الناحية الكونية التي، وبدون وجود نظام تدوين، ما تزال تحيرناوقد كُشف عن إحدى نقاط الناحية الكونية في التحليل المتعلق بجبل حرمون، بوصفه جبلًا كونيًا. إن إدخال هذا الجبل (والفكرة الكونية) مع الخطوط السماوية الموسمية، يُظهر أكثر من أي شيء أخر مدى ترابطها الوثيق، إذ تكون التوصيلات علائقية بين المجالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية في مجتمع الألفية الثالثة.

إن غياب النظام الكتابي والافتقار الناجم عن ذلك إلى المصادر النصية، من هذه الحقبة في المشرق، قد ساهمت -بالتأكيد- في التصنيف المبكر لتلك المنطقة على أنها منطقة غير متطورة؛ موازنة مع الحضارات الرافدية والفرعونية. أما لماذا لم تتطور الكتابة قطّ، بوصفها تقنية اجتماعية، في هذه المنطقة خلال الألفية الثالثة؟ فهذا سؤال آخر.

لقد حاول الباحثون الذين درسوا رُجم الهري؛ الإشارة إلى كيفية إظهار النظام الاجتماعي - الثقافي الخصب والمعقد، الموجود في جنوبي سورية، قبل نحو خمسة آلاف سنة، في ظل غياب الدليل النصي خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد في المنطقة.

جدول رقم 1

بيانات المخططات الهندسية التي جمعت في رجم الهري

الرصد	إلى	السمت بالدرجة	السمت الموافق (للجدار رقم)
3 أيلول/ سبتمبر 1990 قبل الظهر	1- البوابة الداخلية الشمالية الشرقية في الجدار 2 (الحد الشمالي)	55.57	53.50 (2)
	2- البوابة الداخلية الشمالية الشرقية في الجدار 2 (المركز)	58.00	55.53 (2)
	3- البوابة الداخلية الشمالية الشرقية في الجدار 2 (الحد الجنوبي)	59.58	57.51
	4- المدخل الشمالي الشرقي في الجدار 1(الحد الشمالي)	70.50	68.26 (1)
	5- المدخل الشمالي الشرقي في الجدار 1(المركز)	63.14	60.50 (1)
	6- المدخل الشمالي الشرقي في الجدار 1(الحد الجنوبي)	55.39	53.15 (1)
	7-حجارة الاعتدال	86.47	83.17 (1)
	8- حجارة الاعتدال	94.21	90.51 (1)

	9- حجارة الاعتدال	110.39	(1) 107.15
	10-البوابة الجنوبية الشرقية (الحد الشمالي)	140.44	(1) 139.17
	11- البوابة الجنوبية الشرقية (الحد الجنوبي)	161.06	(1) 160.10
	12-البوابة الجنوبية الشرقية (المركز)	152.47	(1) 151.51
	13-المدخل الجنوبي الشرقي	241.01	(2) 243.18
	14- المدخل الجنوبي الشرقي	236.05 (229.5)	238.00 (4) (231.5)
	15- المدخل الجنوبي الشرقي	323.14 (319)	(321) 325.14 (2)
	16- المدخل الجنوبي الشرقي	(54) 51.10	(57) 54.10 (3)
	17- المدخل الجنوبي الشرقي	94.51	(3) 102.30
	18- المدخل الجنوبي الشرقي	133.43 (131)	(126) 128.30 (23)
	19-خط الأفق الشرقي	28.54 (h=01.47)	28.54

	20- خط الأفق الشرقي	44.38 (h=02.11)	44.38
	21- خط الأفق الشرقي	47.18 (h=02.44)	47.18
	22- خط الأفق الشرقي	49.23 (h=01.50)	49.23
	23- خط الأفق الشرقي	50.45 (h=01.38)	50.45
	24- خط الأفق الشرقي	65.58 (h=01.47)	65.58
	25- خط الأفق الشرقي	69.09 (h=01.24)	69.09
	26- خط الأفق الشرقي	149.47 (h=00.10)	149.47
	محور غرفة الدفن	58.07	58.07
4 أيلول/ سبتمبر 1990 بعد الظهر	1- خط الأفق الغربي	237.36 h=00.06»	237.36

	2- خط الأفق الغربي	248.48 (h=0052)	248.48
	3- خط الأفق الغربي	278.57 (h=0048)	278.57
	4-خط الأفق الغربي	306.33 (h=00.20)	306.33
	5-خط الأفق الغربي	359.11 (h=02.48)	359.11

*: h تشير إلى الارتفاع الزاوي لجرم سماوي فوق الأفق على خط مستقيم.

ملاحظة: كل الخطوط المستقيمة أُخذت من المركز (النقطة 79)، ولمطابقة القياسات المأخوذة من هذه النقطة، مع ما يمكن قراءته من المركز الجيومتري لغرفة الدفن، يحتاج المرء إلى استخدام التصحيحات التالية:

طرح 10 (arc) دقائق من 3 أيلول/ سبتمبر 1990 قبل الظهر، رقم 14؛ إضافة 10 (arc) دقائق لـ 3 أيلول/ سبتمبر 1990، الأرقام 16 و18؛ إضافة 15 (arc) دقيقة لـ 3 أيلول/ سبتمبر 1990 قبل الظهر، رقم 17.

*(arc): قوس أو جزء من دائرة يمثل مسار جرم سماوي.

الجدول 2:

الخطوط الشعاعية لجُدُر رُجم الهري الدائرية

رقم الدائرة	الشعاع	المضاعف لـ 4.70م	الانحراف عن 4.70م
س 1	70.6	15.02	0.1
س2	51.5	10.96	0.2
س3	32.4	6.89	0.5
س4	23.6	5.02	0.1
س5	191.1	4.06	0.3
س6	14.8	3.15	0.7
س7	9.7	2.06	0.2
س8	5.3	-	-
س9	3.8	-	-

بيت صيدا.. المدينة المفقودة

يتكرر ذكر بيت صيدا كثيرًا في العهد الجديد بأناجيله الأربعة، وكانت -على الدوام- هدفًا ومقصدًا للحجاج وعلماء الآثار والباحثين الأكاديميين على مر العصور.

وفي الأزمنة الغابرة، قطع كثير من المؤمنين مسافات شاسعة لزيارة هذه البلدة، إذ أجرى السيد المسيح عددًا من المعجزات الكبرى.

كانَ موقع بيت صيدا الحقيقي محل خلاف في الألفية الأخيرة، ومادة لجدل الرحالة وعلماء الآثار الكتابيين في القرن التاسع عشر، وقد جرى توثيق أكثر من 20 محاولة؛ لتحديد موقع المدينة من حجاج ورجال دين مسيحيين قبل عام 1800، وفي السنوات الخمس الأخيرة، توصل الأركيولوجيون، مستفيدين من المعطيات العلمية الحديثة، إلى إجماع بشأنها، حُدد موقع التل (تل الأعور أو تل عامر) في سهل البطيحة الجولاني، مكانًا وحيدًا ونهائيًا لهذه المدينة المفقودة.

موقع قديم

تمتد مدينة بيت صيدا على مساحة 20 هكتارًا، ويسود الآن اعتقاد في الأوساط الأكاديمية بأن المدينة التي عُرفت بهذا الاسم منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا قبل الميلاد، كانت عاصمة مملكةَ جيشور (الجسر) الآرامية التي يرد ذكرها -للمرة الأولى- في رسائل تل العمارنة بين الفرعونَين: أمنحوتب الرابع، ووالده أمينوفيس الثالث، خلال الأعوام (1390- 1352 قبل الميلاد.)، وحُكَّام الولايات الصغيرة

في شرق المتوسط التي كانت تحت هيمنة المصريين. ويرد ذكر جيشور في العهد القديم في أكثر من موضع؛ أهمها أن الملك داود تزوج معكة ابنة تلماي، ملك جيشور، وأنجبت له ابنه أبشالوم، وأن هذا الأخير لجأ إلى أخواله في جيشور في أثناء صراعه مع أشقائه.

لقد بلغت مدينة بيت صيدا شأوًا بارزًا في التاريخ المسيحي، عبر ارتباطها بكثير من الأحداث الرئيسة في حياة السيد المسيح وحوارييه، وقد أشار العهد الجديد إلى أن هذه المدينة التي يعني اسمها «مكان صيد السمك»، تقع إلى الشرق من نهر الأردن، أي: في الجولان، حيث التقى فيها المسيح أتباعه الأوائل؛ فيليب، وبطرس وأندراوس ابنا يونا، ويوحنا ويعقوب ابنا صياد السمك زبدي، وحيث أجرى معجزة إطعام خمسة آلاف من خمسة أرغفة وسمكتين، وكذلك معجزة علاج الرجل الأعمى، ومعجزة المشي على الماء.

محطات تاريخية

يذكر المؤرخ الروماني، جوزيفوس فلافيوس، أن فيليب ابن هيرود (أو حرد الأدومي العربي) الذي حكم الجولان من عام 4 قبل الميلاد إلى 34 ميلادية، طوّرَ قريةَ بيت صيدا عام 30 ميلادية، وجعلها «مدينة» (polis)، وقوّى تحصيناتها، وزاد في عدد سكانها، وأطلق عليها اسم «Julias»؛ تكريمًا لابنة الإمبراطور أغسطس قيصر.

لا يتضح لنا من خلال الأناجيل إن كانت بيت صيدا مدينة أم قرية عندما زارها السيد المسيح، فمتى ولوقا يصورانها مدينةً، بينما مرقص يعدّها قرية، وبالموازنة

مع قيصرية فيلبي، وهي بانياس الجولان، فإن فيها كثيرًا من معايير المدن؛ إذ تسيطر على أراض شاسعة.

أما الدليل الذي يمكن أن يدعم تصوّر بيت صيدا مدينة في عصر السيد المسيح، فهو وجود تراتب اجتماعي، إضافة إلى تعامل السيد المسيح مع المستضعفين والمرضى، ومؤازرته لهم في معظم وقته، نجد أنه تعامل -أيضًا- مع شخص ثري، هو زبدي الذي كان قادرًا على استخدام الأجراء. (مرقص1: 20)، وهذا التمايز الطبقي يؤشر إلى تركيبة مدينة، وليس قرية.

موقع المدينة الصحيح عُرف من الحجاج المسيحيين القدماء؛ حتى مرحلة حروب الفرنجة، ففي عام 530 ميلادي، حدد الإمبراطور تيودوسيوس موقع بيت صيدا إلى الشرق من كفر ناحوم بستة أميال، وعن منابع الأردن بنحو خمسين ميلًا. أما رئيس أساقفة بافاريا إيخستات الأول، فقد حج إلى المدينة المشهورة أيضًا، في عام 725 ميلادي [107 هجري]، في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ووصفها بأنها مدينة بطرس وأندراوس؛ إذ شاهد كنيسة في مكان بيتهم.

وقد غاب أي ذكر للمدينة بعد ذلك، والمؤكد أن زلزال عام 749 ميلادي [132 هجري] قد أتى على ما تبقى من هذه المدينة، مثلما فعل في كثير من المدن القديمة في الجولان، ومن غريب الاتفاقات أن هذا الزلزال وقع في العام نفسه الذي سقطت فيه الخلافة الأموية بيد العباسيين، لتبدأ مرحلة حالكة من تاريخ الجولان، وبلاد الشام عامة، تمثلت بتحولها من مركز الإمبراطورية العربية

الإسلامية إلى طرف من أطرافها، بل إلى طرف مغضوب عليه، يعاني التجاهل والإجحاف.

وفي المصادر العربية نلمح إشارة مهمة إلى المدينة التي خضعت للغساسنة، شأنها شأن بقية سورية الجنوبية، وهو ما جعل الشعراء يركزون على المواضع الجولانية في رثاء ملوك الغساسنة[336].

رحلة البحث

وقد تشوشت الصورة كثيرًا منذ حروب الفرنجة؛ وحتى القرن الثامن عشر، عندما حج ريتشارد بوكوك، وهو رئيس أساقفة أنجليكاني عام 1738 إلى شاطئ طبريا، وشكك في مكان بيت صيدا التقليدي؛ إذ كان شائعًا في ذلك الزمن أن موقع عين التينة على الضفة الغربية لنهر الأردن، هو المكان الذي يحج إليه المؤمنون على خطا السيد المسيح.

وعندما قام مؤسس علم الآثار الكتابي، البروفيسور الأميركي إدوارد روبنسون، برحلته الاستكشافية إلى الأرض المقدّسة عام 1838، تسلق التل الذي ينتصب وسط سهل البطيحة، وحدّدَ مكان بيت صيدا على مسافة ميل ونصف الميل عن

---

[336] يقول الشاعر النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث بن جبلة:

حلفت يمينا غير ذي مثنوية ولا علم إلا حسن ظني بصاحب

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيداء التي عند حـــارب

وصيداء التي يذكرها النابغة هنا هي بيت صيدا التي يمكن رؤيتها من كفر حارب، و جعلها نقطة علام؛ لكي يميز بينها وبين القرى والمدن الأخرى التي تدعى صيدا في عموم المنطقة.

شاطئ البحيرة، وبعد أكثر من عشر سنوات أكد تومسون، وهو عالم آثار كتابي آخر، أن أهالي البطيحة أخبروه أن بيت صيدا هي المسعدية، وهي إحدى قرى البطيحة، وتقع إلى الجنوب الشرقي من التل، وهذا يدل على أن الاسم ظل متداولًا ومعروفًا من أهل البلاد. وبعد نحو نصف قرن، اقترح عالم الآثار الألماني، غوتليب شوماخر، موقع المدينة في قرية العرج أو المسعدية، بحساب أن بيت صيدا كانت على الشاطئ.

المشكلة الرئيسة التي واجهت مقترح التل، بحسب ما أوضح الراهب البندكتي بارغيل بكسنر عام 1985، هي أن إنجيل يوحنا -بخلاف الأناجيل الأخرى- يذكر أن بيت صيدا تقع على الجانب الغربي لنهر الأردن. وفي محاولة لحَل المشكلة اقترح بكسنر، بالاعتماد على عمل الطوبوغرافي غوستاف دالمان، بأنّ نهر الأردن غيّر مجراه بمرور الوقت.

وفي عام في 1991 تشكل ائتلاف أكاديمي عالمي للبحث عن بيت صيدا، حيث شاركت فيه 17 جامعة وكلية من أنحاء أميركا وأوروبا جميعها، برئاسة جامعة نبراسكا أوماها وجامعة هاردفورد الأميركيتين.

حل اللغز

اتجه علماء الآثار إلى خبرة البروفسور جاك شرودر الذي ألقىَ نظرة واحدة -فقط -على الخرائط الجيولوجية للمنطقة، ثم صاغ الفرضية التي حلت اللغز في النهاية عام 2001. وملخصها أن خط شاطئ البحيرة اليوم ليس بالضرورة هو نفسه

الخط القديم. فالتل يقع فوق أحد أكثر المواقع الزلزالية نشاطًا في العالم، وهذا كان الخيط الرفيع الذي قاد إلى حل اللغز.

وقد عُثر على كائنات مائية بعيدة عن الشاطئ. ومن الواضح أن منسوب البحيرة قد تبدل في وقت ما، وتغير خط الشاطئ، إضافة إلى أن نهر الأردن قبل أن يصب في البحيرة يشكل دلتا يتجمع فيها الطمي، ونتيجة لذلك، من الطبيعي أن تبدو مساكن المدينة منتشرة داخل البلاد اليوم أكثر مما كانت عليه في العصور القديمة.

وقد أثبتت التجارب الجيولوجية صحة فرضية شرودر الأولية التي تتوافق مع نظرية بكسنر أيضًا.

فقد وُجد عند قاعدة التل طمي قديم من البحيرة، يحتوي كائنات حيّة مجهرية قشرية، تمتد عند قاعدة التل -أيضًا- منطقة مستوية، ينتشر فيها الحصى وجلاميد الصخور فوق طمي البحيرة.

وبتحليل الكاربون 14، تبين أن عظامِ ثور ومواد عضوية أخرى كانت تحت الصخور، اتضح أن تاريخها يتراوح ما بين عامي 68 و375 ميلادي. لذلك؛ اتفق علماء وخبراء الائتلاف الأكاديمي على نتيجة واحدة، تتمثل بحدث كارثي، من المرجح أنه زلزال كبير ترافق مع فيضان وقع عام 363 ميلادي، كَنَسَ كمية كبيرة مِنْ الصخور والحصى والتربة ومصنوعات يدوية عبر السهل الذي يمتد أمام التل، بحيث قطع صلة بيت صيدا عن خط الشاطئ.

وصف الموقع

* من الاكتشافات الجديرة بالاهتمام بوابة للمدينة، تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وهي من أفضل البوابات التي مازالت محتفظة بتفاصيلها في عموم المنطقة. وطبقًا للمسح الراداري؛ فإن حائط المدينة الذي مازال يحتفظ بارتفاع يبلغ أكثر من متر ونصف المتر، يعود إلى زمن أقدم من هذا التاريخ.

وعليه؛ فإن المدينة بنيت على مرحلتين، وفي جزأين: جزء مرتفع وجزء منخفض؛ الجزء المرتفع يضم الأبنية العامة والتحصينات، والجزء الأوطأ يضم الحيّ السكني.

كتلة بوابة المدينة تظهر وجود بابين، لكل منهما برجان، باب للمدخل الخارجي وآخر للداخلي، يفصل بينهما ميدان معبّد كبير، وتُظهر الأرض المرصوفة آثار عجلات العربات التي يبدو أنها كانت منتشرة بكثرة.

وعُثر على أربع غرف مليئة بالأنقاض، تعود إلى بناء عام للمدينة من المدة التي سبقت الهجوم الآشوري، والغريب أن البوابة امتصت صدمة الهجوم الآشوري، وكذلك صدمة زلزال كبير أصابها.

من الواضح أن أحجار البازلت كانت مجصصة باللون الأبيض، وهناك مقعد منخفض لشيوخ، أو لحكام المدينة الذين يستمعون إلى شكاوى العامة عبر البوّابة.

وعُثر في إحدى الغرف الأربع على شعير محروق، ورؤوس رماح وسهام، من الحملة ضدّ تغلات فلاصر، إضافة إلى دورق عليه رمز الحياة المصري عنخ (☥ ankh).

وعلى جانبي الباب الداخلي هناك كُوًى للأغراض الدينية، وعلى بعد خطوتين حوض ناعم صُنع من حجارة البازلت؛ فيه مِشعلا بخور، وكؤوس صغيرة مثقبة، بثلاث سيقان قصيرة.

حول الكوة عُثر على بقايا قطع بازلت للنُصُب الذي يمثل حددَ إله المدينة، إذ أعيد تجميعه من مسافات متباعدة، ويمثل ثورًا قوي المظهر بقرونه، متمنطقًا بسيف قصير يشبه «القاما» الشركسية، وهو نُصُب فريد من نوعه في عموم منطقة شرق المتوسط، وقد عُثر على نسختين من هذا التمثال، ولكن بحجم أصغر في تل الأشعري، جنوبي الجولان الشرقي، وفي محافظة السويداء.

البوّابة كانت تفضي إلى قصر يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ولهذا القصر دهليز يؤدي إلى غرفة رئيسة، من المحتمل أنها غرفة العرش؛ إضافة إلى ثماني غرف أخرى تحيط بها، وقد نجا هذا القصر من الهجوم الآشوري، ورُمّم مرات عدة.

وعُثر داخل القصر على تمثال صغير للإله المصري باتيكوس، إله الفنانين والحرفيين. إنّ التمثال الصغير مصنوع بحرفية رفيعة جدًا، ويصوّر قزمًا بقلادة مخرّزة متقنة، وسكينين أو خنجرين، من المحتمل أنه يقف على تمساح، كما في النسخ الأخرى منه، لكن قدمه مكسورة كسرًا متعمدًا؛ لفصل التمساح عنه، ويحتفظ هذا التمثال الصغير بآثار الخزف التركوازي تحت رقبته ويده اليمنى.

وقد عُثر في القصر -أيضًا- على نقش فخاري، من القرن الثامن قبل الميلاد لاسم عقبة، وهو اسم آرامي صرف، وعُثر -أيضًا- قرب المعبد على تمثال امرأة

وثلاث قطع عملة معدنية عليها صورة والي (تتراخ) الجولان، فيليب بن هيرود، ربما نُقشت في أثناء تغيير اسم المدينة من بيت صيدا إلى جولياس.

الحي الهلليني

جرى التنقيب في حي يعود إلى الحقبة الهيلينية (37-332 قبل الميلاد)، وتبين أنه يتضمن عددًا من البيوت الخاصة، وفي كل بيت عدد من الغرف التي تحيط بفناء مبلط، وفي شرق الفناء مكان أنموذجي لمطبخ، وإلى الشمال غرفة طعام، ويرجح فريق الآثاريين أن غرف النوم كانت في طابق ثان.

أحد البيوت يعود إلى صياد سمك، وجدت فيه أدوات تعبر عن ثقافة متطورة، ارتبطت بصناعة صيد السمك، مثل شبكة صيد مع ثقالاتها، ومراسي وإبر وصنارات صيد، وإحدى الصنارات لم تكن قد ثنيت؛ ما يشير إلى أنها صنعت في المكان، وعُثر -أيضًا- على مفتاح بيت الصياد، محتفظًا بشكله العام، على الرغم من أنه مصنوع من الحديد، وقد أُهديَت نسخة مصنوعة طبق الأصل من هذا المفتاح للبابا يوحنا بولص الثاني عندما زار الأراضي المقدسة مطلع الألفية الثالثة، وطاف بمروحية فوق موقع بيت صيدا؛ لإلقاء نظرة على هذا المكان المقدس.

وُجِد -أيضًا- ختم من الصلصال، يُصوّرُ شبكة صيد وسفينة فينيقية الطراز، ومقدمة سفينة في شكل رأس حصان؛ كل ذلك يدعم نظرية أن بيت صيدا كانت أقرب إلى الشاطئ في عهد السيد المسيح.

ووُجد -أيضًا- بيت يحوي قبوًا للتخمير، وجرار نبيذ كبيرة، وقد أُطلق على هذا المكان اسم «بيت صانع النبيذ».

ومن بين الاكتشافات -أيضًا- مجرفتا بُخور برونزيتان، تشبهان تلك المجارف المستعملة في المعابد الرومانية الأخرى، وأيضًا تشبهان مجارف بُخور ظهرت في لوحات فسيفساء الكنائس من العهد البيزنطي، كذلك عُثر على مجوهرات وسفن فخمة؛ ما زال التنقيب جاريًا.

بانياس.. قيصرية فيلبي

تقدم بانياس لوحة بانورامية فريدة من نوعها بنبعها الجميل، ونهرها الغزير، وكهفها اللغز، وموقعها الرائع في حضن حرمون، وآثارها الوثنية والمسيحية والإسلامية، وبقايا سورها وقلعتها. لقد جمعت بانياس مزيجًا ممتعًا من الطبيعة الخلابة، والتاريخ الحافل بالأحداث، والثقافة الثرية بالتنوع؛ فصارت أحد أشهر المواقع القديمة، ليس في الجولان وحده، وإنما في المنطقة برمّتها.

الموقع

تقع بانياس عند الأقدام الجنوبية الغربية لجبل حرمون (الشيخ)، وفي زاوية ملتقى واديي خشبة في الشمال، وسعار في الجنوب، مع نهر بانياس، وعلى بعد 18 كم شمال غرب مدينة القنيطرة، حاضرة الجولان، و15 كم جنوب شرق مرجعيون في

لبنان، و37 كم شمال بيت صيدا، و6.5 كم غرب بحيرة مسعدة (رام، فيالا)، وعلى ارتفاع 320 مترًا فقط، فوق سطح البحر.

الاسم

استمدت بانياس اسمها من الإله الوثني «بان» وهو إله الرعاة والغابات والحيوانات البرية والجبال عند الإغريق، وعُرفت بأسماء أخرى، خلال مراحل من تاريخها، فقد أطلق عليها فيليب بن هيرود اسم قيصرية، تكريمًا للإمبراطور طيباريوس، وأضاف إلى هذا الاسم اسمه، تمييزًا من قيصرية الساحل الفلسطيني، فصارت تعرف باسم قيصرية فيليبي.

وكذلك أطلق أغريبا الثاني اسم نيرونياس عليها، تكريمًا للامبراطور الروماني نيرون، وحصلت على لقب «المدينة العظيمة» و«مدينة الله» مع تأسيس أبرشية بانياس، وقيام أسقف عليها، وقد أطلق الفرنجة عليها اسم بيليناس؛ نتيجة جهلهم وعدم تمييزهم بين اسمي بانياس وبلنياس. غير أن الجغرافيين العرب كانوا يميزون بين بانياس التي تقع في الجولان وبلنياس التي تقع على الساحل السوري، وهذا ما نلمسه -بوضوح- لدى أبي الفداء، أما اليعقوبي فقد وصفها في القرن التاسع الميلادي بأنها مدينة الجولان، إذ احتفظت باسمها الأول، على الرغم من كل محاولات استبداله بأسماء أخرى.

شهدت بانياس ازدهارًا كبيرًا في القرن الخامس الميلادي، وهذا أمر طبيعي في السياق العام للتطور الذي بدأت المنطقة تشهده بحلول القرن الرابع الميلادي،

فقد ازداد عدد المواقع في المنطقة من 28 موقعًا في القرن الثاني قبل الميلاد، إلى 137 موقعًا في القرن الأول الميلادي وإلى 173 موقعًا في القرن الرابع الميلادي.

لقد كانت بانياس مدينة ذات شأن في العهد السلوقي، وازداد شأنها في العهدين: الروماني والبيزنطي؛ إذ جرت فيها حركة عمرانية واسعة، وحركة تجارية، وزراعية متطورة، وارتبطت بالمدن الكبرى في المنطقة، عبر طرق رئيسة منها طرق: بانياس - دمشق، وبانياس - أذرعات (البثنية -باتانيا)، وبانياس - طبريا، وبانياس - صور، وحظيت بالأمن والاستقرار، ولا سيما في العهد البيزنطي، وتوسعت حتى امتدت غربي النهر، وفي العصور الوسطى بلغت مساحة المدينة القديمة ما بين 75 و 100 دونم، وهناك من يعتقد بأنها كانت إحدى المدن العشر المعروفة بالديكابولس، وهي حلقة من المدن ارتبطت معًا؛ ضمانًا للازدهار التجاري، والدفاع المشترك.

وفي غضون حروب الفرنجة كانت بانياس ميدانًا للتنازع بين الفرنجة والعرب المسلمين.

تاريخها الديني، المرحلة الوثنية

تشير بعض الدراسات إلى أن موقع بانياس كان مقدسًا منذ حقبة عبادة البعول، وهناك من يظن بأنها نفسها موقع معبد بعل جاد أو بعل حرمون، ولكن الشائع أن السلوقيين هم أول من عزا إلى بانياس قوى ميتافيزيقية، بعد أن ذكرتهم مناظرها الطبيعية بموطنهم، لقد نقل هؤلاء أساطيرهم المتعلقة بالإله بان، إله الرعاة والصيد والغابات والحيوانات البرية والجبال المشهورة، والمعروف -أيضًا- بمزماره.

ووفق الأسطورة، يعود فضل انتصار السلوقيين على البطالمة إلى هذا الإله؛ فقد جعل «بان» فيلة الأعداء تصاب بالذعر، خلال معركة بانيون التي دارت بين الطرفين؛ من أجل السيطرة على المنطقة.

وتصف الأسطورة هذا الإله الوثني، وتقول: إن نصفه على شكل إنسان، في حين أن نصفه الآخر على هيئة تيس، وتتباين الآراء حوله، فهو يسكن في المغاور والكهوف، وطائش ومرح، ويعزف بمزماره القصبي أو مزمار الرعاة، ويسلي حوريات الماء والحيوانات، ويعشق النساء، وتعشقه الفتيات والحسناوات، ويقيم حفلات صاخبة ماجنة طوال الليل، ترقص فيها الحوريات على أنغامه، وهو -في الوقت ذاته- كائن قبيح إلى درجة مخيفة، لدرجة أن كثيرًا من الباحثين يرجح أن شكل الشيطان في المعتقدات المسيحية اقتُبس من شكل هذا الإله الوثني.

شيد الإغريق معبدًا لهذا الإله في هذا الموقع الرائع، وقرب المغارة الكبيرة التي تشكل أحد مكونات المشهد العام الأساس، وربما كان هذا المعبد -أصلًا- لبعل حرمون، وأصبح -لاحقًا- للإله «بان»، وهو معبد جمع بين المنظر الطبيعي الساحر بجماله وهيبته، وبين فنون الهندسة المعمارية والنحت، بحيث يتناسب مع الطبيعة الخاصة لهذا الإله، وهي طبيعة محببة ومخيفة في آن واحد، وأقام هيرود الكبير في بانياس هيكلًا، تكريمًا لأغسطس قيصر، وكله من الرخام الأبيض، ولعله بنى له أيضًا قصرًا.

معبد بان

لقد احتفظ معبد بان بأسراره حتى الوقت الراهن، فكل ما عُثر عليه -حتى الآن- هو بقايا عبادة هذا الإله، من أهمها مجموعة تجاويف (كوى جدارية)، تزينها كتابات إغريقية منحوتة في الصخر، ويبدو أن تماثيل الإله بان كانت توضع في هذه الكوى التي تمتد إلى يمين المغارة الكبيرة.

يقع التجويف الأول فوق مغارة قوسية صغيرة، منحوتة في الصخر، ويبدو للناظر على شكل بوابة، أو واجهة قصر، وجاء في الكتابة المنحوتة تحت التجويف: «هذا التمثال يخلد بان بن ديوس الذي يعشق انجو. الكاهن، فيكتور من أبناء ليسخموس».

ويقع التجويف الثاني إلى اليمين من الأول، ويظهر في مركزه نتوء، يُرجح أنه منصة لوضع تمثال بان عليها، وتوجد على جانبي التجويف الثالث كتابات ضمن أطر ذات «آذان». أما التجويف الرابع؛ فيقع على مسافة 15 مترًا، بين الصخور المتآكلة والجرف الصخري لبانياس، وهو أشبه بمغارة قوسية، وتوجد فوقها كتابة طويلة، لكنها محطمة، وهي كتابة تمجيد وتسبيح، جاء فيها: «مع معرفة أن فالريوس كاهن الإله بان أسهم بقربانه، من أجل خلاص سادتنا القياصرة (أي تمثال القيصر الذي يرمز إلى سلطته)، والمعبد الموجود تحت التجويف نفسه بناه (أي هو).

وهناك تجويف مربع منحوت في الصخر، فيه كتابة ضيقة وطويلة إلى جواره، وهي كتابة تسبيح من سبعة عشر سطرًا قصيرًا للحاكم أغريباس بن ماركوس وزوجه عن تفسير الأحلام على يد الآلهة، وتذكر الكتابة أسماء ثلاثة من أعضاء المجلس

(بولا)، وأسماء اثنتين من بنات الأرخون (الحاكم)، وهما أغريبينا ودومنا، وتشير الكتابة إلى تاريخ (223) الذي يوافق 279 ميلادي.

ويُقدَّر أن الكتابتين من وقت واحد، من ثم؛ ربما يكون ماركوس أورليوس (276 ـ 282 ميلادي) هو القيصر المقصود في الكتابة السفلية؛ فقد كان ماركوس أورليوس حاكم المشرق قبل أن ينتخبه جنوده؛ ليصبح قيصرًا.

وإلى الشمال من النبع، نجد ساحة رئيسة، مبنية على شكل أقواس، وتقوم على صخرة ملساء، وتتشابك في جُدُرها أعمدة، ومداميك قديمة، إضافة إلى صخرة منحوتة ملساء، تقع إلى الغرب من الساحة، وترتفع أمتارًا عدة، وقد عُثر بالقرب منها على مذبح صغير، وربما حوض تعميد، يعود إلى العهد الروماني، ويبلغ ارتفاعه نحو 80 سم، ويلاحظ في وسطه حفرة مربعة، وهو جميل جدًا، غني بالزينات المحيطة به من جوانبه كافة، وهو موجود الآن في مسجد بانياس، ويُعتقد أن هذا الحوض وهذه المساحة هما من مكونات مكان عبادة، فهل كان معبد بان في هذا المكان؟! وهل تحول مع الزمن إلى معبد مسيحي؟!

وهناك آثار مهمة جدًا في موقع على مسافة عشرات الأمتار إلى الغرب من مقام الخضر، وهي عبارة عن أجزاء من جدارين، كانا في الأصل بطول يصل إلى ثلاثين مترًا، ويمكن رؤيتهما من الطريق المؤدية إلى النبع، وتشير هذه البقايا إلى زمن تشييد هذا البناء، فالجانب الخارجي الجنوبي للجدارين متوج بحجارة مربعة، أبعادها (7.5×7.5) سم، وجرى تثبيتها في الجدار تثبيتًا متوازنًا. لقد شُيدت هذه الجُدُر في بانياس، بحسب أسلوب بناء روماني كان متبعًا في أيام القيصر أوغسطس، ومعروف بأسلوب الشبكة «أوفوس رينكولتوم»، وبالفعل تبدو هذه الجُدُر

كالشبكة، ولا يُستبعد أن تكون هذه الأجزاء من بقايا بناء عام، كالهيكل الذي بناه هيرود في بانياس، على سبيل المثال.

وتوجد بالقرب من هذه البقايا مصاطب (درجات منحوتة في الصخر)، منها صخرة كبيرة جدًا، عليها درجات منحوتة، وربما كان هذا هو الدرج المؤدي إلى المبنى المذكور آنفًا.

وعُثر على بقايا بناء كبير، مشيد بالحجارة المنحوتة الكبيرة المزدوجة، عند حافة الوادي، أو على مسافة خمسين مترًا، إلى الجنوب من الطاحونة التي تقع غربي البلدة، وفي هذا المكان أيضًا عُثر على بقايا أقواس لأنبوب فخاري، وصلت المياه إلى المبنى عن طريقه، إضافة إلى حمام، وطلاء ملون على الجُدُر، ويبدو أن هذا البناء كان منزل أحد الأثرياء. وكشفت عمليات التنقيب بقايا مبان كبيرة عدة، لها أرضيات من الفسيفساء، ودعائم قوية، وشبكات لأنابيب المياه، وتقع هذه المباني في غربي الوادي، وإلى الشمال من الطريق المؤدية إلى المكان، ويبدو أن هذا المكان كان حيًا سكنيًا للأرستقراطية.

وما يزال مدخل قلعة بانياس التي بنيت في المرحلة الفاطمية قائمًا، وكذلك بقايا السور والأبراج والجسر الذي بناه الظاهر بيبرس.، وتوجد كتابات تعود إلى عهد نور الدين الزنكي بعد أن حرر بانياس من الصليبيين.

مدينة مترامية الأطراف

وقد دلت الدراسات الأخيرة أن مدينة بانياس كانت قد شملت -في قمة مجدها- جميع المرتفعات التي تقع إلى الشمال من نهر بانياس، ووصلت حدودها شمالًا إلى منحدرات تل الأحمر، وإلى الغرب حتى نقطة تقارب خط الحدود الدولية، ومن الجنوب حتى الجروف الشمالية لنهر بانياس، حيث عُثر في المنطقة الجنوبية الواقعة قرب وادي سعار على قسم من سور المدينة الذي يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، وقد أُغلق هذا السور من الشرق باتجاه الجرف الواقع فوق نبع بانياس، كذلك عُثر في الكروم الغربية لقرية جباتا الزيت على بقايا بيوت تابعة لضاحية بانياس القديمة، وهذا يعني أن المدينة كانت قد أقيمت على مساحة تزيد على كيلو متر مربع، وامتازت مبانيها بالفخامة والاتساع، وخاصة المباني الواقعة في المنطقة الشمالية التي بدت كالفيلات المطلية بالكلس الأبيض والملون، المرصوفة أرضياتها بالفسيفساء، وبخاصة البناء الكبير ذا الطابقين الذي يقع جنوب نهر بانياس، مقابل نادي الضباط القديم؛ إذ يمكن للمرء أن يعرف من آثار هذا البناء الفخم مدى روعة البناء الذي عرفته مدينة بانياس في القدم.

ومن الجهة الأخرى، عُثر إلى الشمال الغربي من نهر بانياس، قبل سنوات عدة على بقايا حمام يتكون من برك عدة، يعود تاريخه إلى العهد الروماني الأخير، علمًا أن المصادر العربية تشير إلى أن الوزير الفاطمي، معلى بن حيدرة، هو الذي بنى الحمام في بانياس، أو على الأقل جدده.

ويُرجح أن محور مركز البلدة قد ربط المنطقة التي تربط النبع حتى نهر سعار بالمدينة الإسلامية، ذلك لأن الحجارة المنحوتة الكبيرة التي وُجدت في المدخل

تشير إلى وجود مبان ضخمة عامة، كانت في هذا المكان، على الرغم من عدم استكشافها جميعًا حتى الآن.

أما الآثار القديمة الموجودة على طول ضفتي نهر بانياس، فإنها تشير إلى وجود مبان كثيرة، منتشرة في منطقة واسعة، بدليل وجود الجُدُر والعتبات المنقوشة المزخرفة التي عُثر عليها مصادفة، وعُثر أيضًا على بقايا بناء من الحجر المنحوت في سطح من القرميد.

أما مقبرة المدينة، فقد أُحيط كلها بالجُدُر من كل الجوانب، ومع ذلك؛ نُهبت هذه القبور، واستُولي على محتوياتها في الأزمان الغابرة؛ فقد عُثر في المنطقة الشمالية من البلدة على قبور صندوقية صخرية بعمق مترين، أما في غرب البلدة وتحتها، وإلى الجنوب منها، وفي منطقة السور بالذات، فقد حُفرت مغائر القبور هناك.

وجاءت الدراسات الخاصة بآثار بانياس؛ لكي تكشف أن المناطق السكنية في ضاحيتها كانت تمتد مسيرَ ساعة أو ساعتين عن البلدة مشيًا.

وكانت مدينة بانياس ترتبط بطريق واسعة مرصوفة، عرضها نحو سبعة أمتار، ابتداءً من دمشق، وتمر بسعسع وبقعاتا وحرش مسعدة وزعورة، وكانت تدخل إلى داخل مدينة بانياس من منطقة السور الجنوبي؛ ويُعتقد أن هذه الطريق هي الطريق الرومانية نفسها التي كانت تربط دمشق بساحل البحر المتوسط، وخصوصًا سواحل صيدا وصور.

لقد كانت مدينة بانياس في العهدين الروماني والبيزنطي -ولا شك- مدينة عامرة وفخمة، وما خرائب هذه المدينة، بحجارتها من النوع المنحوت، وأعمدتها

المزدانة بالتيجان الحجرية المنقوشة، إلا خير دليل على فخامة الأبنية العامة والخاصة التي وُجدت في بانياس، على الرغم من أن ما بقي الآن من خرائب ما هي إلا جزء من أبنية هذه المدينة التي كانت لمئات السنين مدينة مهمة كسميتها قيصرية، الواقعة على الساحل الفلسطيني.

خلال العهد الفاطمي في القرن الحادي عشر بعد الميلاد، أُحيطت المدينة بالسور الذي استُخدم -أيضًا- خلال حروب الفرنجة، بعد أن بلغت مساحة المدينة في العهد الروماني، أي: في عهد قمة المجد والتطور، زهاء ألف دونم، ثم تراجعت هذه المساحة مع الزمن؛ لتصل إلى نحو 120 دونمًا، ولقد عُثر في سور المدينة، وبابها الجنوبي منذ العهد المملوكي، على غرفة استُخدمت -على ما يظهر- مسجدًا ملونًا باللون الأبلق، أي الأبيض والأسود الذي كان من ميزات الأبنية التي بناها الظاهر بيبرس.

ولقد استند سور المدينة وحصونها على حواجز طبيعية من الجنوب ومن الغرب، وبخاصة نهر سعار ونهر بانياس، ومن الشرق حُفر خندق عميق، وجرى استكشاف هذه التحصينات معظمها حتى الآن على الرغم من عدم استكشاف الجانب الشمالي من سور المدينة وتحصيناها وأبراجها.

ولقد بقيت مدينة بانياس في عهد المماليك في داخل السور وحسب، على الرغم من وجود دلائل تشير إلى سكن المنطقة خارج السور أيضًا، في العهد نفسه، بدليل العثور على خرائب يعود تاريخها إلى هذا العهد؛ نتيجة للحفريات التي جرت في المنطقة القريبة من بيت العرقاوي.

وقد عُثر -أيضًا- على لقيات كثيرة ذهبية وبرونزية ونحاسية، أشهرها تمثال أفروديت الموجود في المتحف الوطني في سورية باسم أميرة بانياس.

في تاريخها المسيحي

زار السيد المسيح بانياس زيارة خاصة بالغة الأهمية؛ إذ سلم يسوع رسوله بطرس مقاليد السلطة في الكنيسة، فقد اتخذ السيد المسيح من معبد بان الوثني في بانياس مثلًا محسوسًا، فاختار بطرس أمام هذا الهيكل الجبار، ليقيمه راعي رعاة الكنيسة، وأساسًا لها، وقد ورد في إنجيل متى [13/16 ـ 19] الآتي: «ولما انتهى يسوع إلى ضواحي قيصرية فيليبي،

ـ سأل تلاميذه، قائلًا: من ترى، ابن البشر في نظر الناس؟

قالوا: بعضهم يقولون: إنه يوحنا المعمدان، وغيرهم: إنه ايليا، وغيرهم: إنه إرميا، أو واحد من الأنبياء.

ـ فقال لهم: وفي نظركم، أنتم، من أنا؟

أجاب سمعان بطرس، وقال: أنت المسيح، ابن الله الحي.

ـ أجاب يسوع، وقال له: طوبى لك يا سمعان باريونا، فإنه ليس اللحم والدم أعلنا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك: أنت صخر، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وما تحلّه على الأرض يكون محلولًا في السماوات».

من بعد المسيح، نشط بعض الرسل وتلاميذهم في منطقة الجولان، وبشروا سكانها، منهم بولس الرسول الذي مر بالجولان، حين توجه إلى القدس (أورسالم)، بعد أن اهتدى إلى أبواب دمشق، ويرجح أنه زار بانياس خلال هذه الرحلة، وأقام فيها مدة، وذكر كيرلس البيساني، أن القديس سابا ورفيقه أغابيطوس، سافرا إلى منطقة بانياس، في النصف الأول من القرن السادس.

وقد انتشرت المسيحية في بطء بادئ الأمر، في بانياس والجولان؛ بسبب المقاومة الوثنية، واضطهادات الأباطرة وولاتهم والحكام المحليين، وبدأت المسيحية تلقى تجاوبًا متناميًا، منذ بدايات السلام الروماني الذي بزغ فجره في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير، بعد أن أطلق الحرية للدين المسيحي، وشجعه عام 313، فتحولت منطقة الجولان برمتها، من الوثنية إلى المسيحية، وتولى أمراء الغساسنة النصارى أمر المحافظة عليها وانتشارها، وازدهارها، فشيدت الكنائس والأديرة في ربوع الجولان، وحظيت مدينة بانياس بكرسي أسقفي لمنطقة الجولان.

أبرشية بانياس

سميت هذه الأبرشية باسم بانياس؛ لأن كرسيها كان في هذه المدينة، التي كانت تلقب بـ«المدينة العظيمة» و «مدينة الله»، ويرجح أن تاريخ تأسيس هذه الأبرشية، وقيام أسقف عليها، يرتقيان إلى عهد الرسل.

كانت بانياس كرسيًا أسقفيًا لأبرشية في القرن الرابع، ودخلت ضمن تبعية فينيقيا الأولى (البحرية) وقاعدتها مدينة ومتروبوليتية صور الخاضعة لبطريركية إنطاكية، في نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الخامس، واحتلت المرتبة الثانية عشرة في سلم

الأسقفيات التابعة لصور، وتميزت عن هذه الأسقفيات الاثنتي عشرة بأنها كانت الوحيدة التي لا تقع على البحر، وتظهر العودة إلى سجل إعادة تنظيم إدارة الأبرشيات، في البطريركية الأنطاكية، وفي صلاحيات هذه البطريركية في القرن العاشر (910 ـ 968م) أن بانياس كانت -أيضًا- تابعة لميتروبوليتية صور الكبرى التي بلغ عدد أسقفياتها ثلاث عشرة أسقفية، احتلت بانياس المرتبة العاشرة في قائمة هذه الأسقفيات، وذلك؛ قبل عملية تهجير المسيحيين الأرثوذكس منها، بعد سقوط مدينة طرسوس والثغور الشمالية بيد نقفور فوكاس عام 965م؛ إذ جرى توطين مهجري طرسوس والمصيصة والثغور الشمالية مكان مسيحيي بانياس.

وخلال حكم الفرنجة، ونشوء المملكة اللاتينية (ق11 ـ 13)، خضع أسقف بانياس لرئيس أساقفة صور اللاتيني التابع لبطريركية إنطاكية اللاتينية.

وقد انتشرت النزعة الآريوسية بين بعض أبناء المنطقة؛ حتى إن نرقيس أسقف بانياس، اتُّهم بها في العقد الرابع من القرن الرابع، وتأثرت الأبرشية بعض الشيء بالمونوفيسية في القرنين الخامس والسادس؛ لوقوعها تحت حكم الغساسنة، ذلك؛ على الرغم من أن الأسقفيات الجنوبية (الفينيقية الأولى) كانت خلقيدونية، بعكس الأسقفيات الشمالية (من بيروت إلى الشمال)، التي انضمت إلى المونوفيسية عنوة أو اختيارًا، ومع هذا؛ بقيت بانياس مركز مقاومة ضد المونوفيسية التي تزعمها ساويروس، بطريرك أنطاكية (512 ـ 518م).

نازفة الدم

تحدث المؤرخ مالالاس عن نازفة الدم التي أبراها يسوع، وأشار إلى أنها تحمل اسم «فيرونيكا»، بحسب إنجيل نيقوديموس المتحول [روبنسون]. كذلك أورد المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري في كتابه "تاريخ الكنيسة" نصًا يتحدث عن تمثال رفعته نازفة الدم البانياسية؛ إذ يقول: «ولدت نازفة الدم، التي أبرأها يسوع في بانياس، يقولون إن بيتها ما زال يُرى في المدينة، والنصب التذكارية المدهشة للفضل الذي منحها إياه مخلصنا ما تزال قائمة. فعلى بوابة بيتها، وعلى حجر مرتفع، ينتصب تمثال نحاسي لامرأة على ركبتيها المنحنيتين ويدها ممدودة أمامها كمن يتوسل. ومقابل هذا هناك تمثال آخر لرجل منتصب مصنوع من المادة ذاتها، ملفوف بعباءة باحتشام ويمد يده إلى المرأة. ويقولون إن هذا تمثال المسيح، وقد بقي حتى أيامنا هذه، ـ وقد رأيناه نحن أنفسنا عندما كنا نقيم في المدينة»[337]. وقد شاهد الإمبراطور يوليان الجاحد هذا التمثال، فأمر بتحطيمه، وذكر الحجاج أن نبتة طيبة كانت تنمو بجانب هذا التمثال، ويرى بعضهم أن هذا التمثال كان يمثل إيسكولاب الطبيب الشافي، فانتقل تفسير الشفاء من إيسكولاب المخلص، إلى يسوع المخلص.

ما تقدم يؤكد أن بانياس تحولت من معقل وثني إلى مركز مسيحي، لعب دورًا كبيرًا في تاريخ المسيحية، وضم كثيرًا من الرموز العبادية المسيحية، فقد شهدت هذه المدينة ازدهارًا شاملًا منذ بدايات العهد الروماني المتوسط، وأصبحت محجة، يؤمها الأكليروس للصلاة، ويقصدها الحجاج، وقد أشار المؤرخ يوسابيوس

---

[337] يوسابيوس، الكتاب 6، الفصل 18

القيصري -في تاريخه الكنسي- إلى معبدين للقديس بطرس، وإلى نقل ذخائر أشعيا النبي، في عام 443، ووضعها في الكنيسة المكرسة للقديس لورينزو. وكتب أسامة بن منقذ أن كنيسة مسيحية حُولت إلى جامع، وأشار إلى مقام ولي، بُني بمواد قديمة على الصخرة حيث النبع، وعُثر في الموقع على حوض للعماد، مربع الشكل، مزين في وجوهه الأربعة، وكذلك عُثر في موقع قريب على ناووس قبر مارجورجيوس.

لقد أهمل الآثاريون بانياس، وتأخروا كثيرًا في التنقيب عن كنوزها، ويُتوقع أن تكشف العمليات في المستقبل عن كثير من تاريخها وآثارها، لتلقي مزيدًا من الضوء على أسرارها وحضارتها.

سوسيا.. هيبوس .. قلعة الحصن

تقع مدينة سوسيا (هيبوس) شمال كفر حارب بنحو 1 كم، وجنوب شكوم بنحو 2 كم، وشرق بحيرة طبريا بنحو 1.5 كم، وغرب فيق بنحو 3.5 كم، وهي مدينة حصينة، بُنيت على أرض لها شكل مثلث متساوي الساقين تقريبًا، قاعدته في الشرق، تتصل مع سهول الزوية، ورأسه في الغرب، يشرف على بحيرة طبريا وامتداد سهل البطيحة جنوبًا، وساقه الشمالية تطل على السفح الأيسر لوادي النقيب الذي يفصل المدينة عن تل عكار في الشرق، وتل قرين جراده في الغرب، وساقه الجنوبية تشرف على السفح الأيمن لوادي الجاموس الذي يفصل المدينة عن تل أسود.

لقد شُيدت هذه المدينة في موقع استراتيجي، تتوافر فيه مقومات الأمن والازدهار وشروطهما، فالموقع محصن طبيعيًا بجروف شديدة الانحدار، من الشمال والغرب والجنوب، ويطل على بحيرة طبريا التي تتميز بثروتها السمكية، ويتصل شرقًا بسهول الزوية، المعروفة تاريخيًا بثرواتها النباتية والحيوانية، ويتحكم بطرق عدة تربط أقاليم بلاد الشام المختلفة، ويتمتع بمناخ معتدل ممطر نسبيًا.

عُرفت هذه المدينة باسم «سوسيا»، وهي كلمة آرامية، تعني الحصان، وعُرفت -أيضًا- باسم (هيبوس)، وهي كلمة إغريقية، تعني الحصان كذلك، وقد أُطلق على عموم المنطقة اسم هيبينة. أما الآن؛ فيسميها العامة قلعة الحصن (جمع حصان). ويُعتقد أن هذا المعنى الواحد للتسميات المختلفة، يعود إلى ظاهرة جغرافية في المكان، إذ يبدأ الموقع من الزاوية اليمنى كرأس حصان وعنقه، ويلاحظ في الجانب الشرقي للموقع، وجود جرف جبلي، مقوس على شكل سرج الحصان، ويُعرف باسم سرج سوسيا، ويشكل حلقة الوصل مع محيطه الشرقي.

شُيدت سوسيا في القرن الثاني قبل الميلاد، أي: في العصر الهيلنستي، وتطورت لاحقًا؛ حتى أصبحت إحدى مدن الديكابولس (المدن العشر)، ذات الطبيعة الثقافية الإغريقية، واستمرت في الازدهار خلال العصرين: الروماني والبيزنطي؛ إذ تحددت هويتها المسيحية ببناء أربع كنائس مميزة، ويُرجح أن المدينة اكتسبت قدسيتها؛ بسبب اعتقاد كثير من المؤمنين بأنها كانت آخر محطة للسيد المسيح في جولته على مدن الديكابوليس، عندما قام بمعجزة إطعام خمسة آلاف إنسان.

ذكرها المؤرخ الإسلامي البلاذري باسم سوسيا في فتوح البلدان، وحدد موقعها في جند الأردن، ومن ثم؛ كانت ضمن المدن والحصون التي فتحها شرحبيل بن

حسنة صلحًا، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم. أما ابن خرداذبة، أحد أهم جغرافيي مطلع العصر العباسي، فيؤكد أنها كورة، أي إقليم بالمعنى المعاصر، وهي إشارة واضحة إلى أن سوسيا كانت مركزًا لإقليم يأخذ اسمه منها.

حافظت سوسيا على منزلتها وطابعها المسيحي في العصر الأموي، إلى أن ضربها زلزال مدمر عام 749 ميلادي، وأسفر عن تدميرها وخرابها، ويقدر بعضهم أن عدد سكانها بلغ في ذروة ازدهارها بين 10 و20 ألف نسمة.

وقد كشفت عمليات التنقيب في الموقع عن آثار تؤكد مكانة المدينة، ومدى تطورها وازدهارها، منها ساحة مركزية مرصوفة بأحجار بازلتية، وتحيط بها أعمدة نصبت على قواعد رخامية، وحملت تيجانًا رخامية، وفيها قاعدة، يبدو أنها مخصصة لحمل تمثال لشخصية مميزة، وتعد أول قاعدة من هذا النوع يُعثر عليها في الجولان، ويُرجح أن لهذه القاعدة علاقة بالمسألة الثقافية.

وعُثر -أيضًا- على مجموعة كبيرة من النقود التي تعود إلى العصور الهيلينية والرومانية والبيزنطية والأموية المختلفة، أقدم قطعة جرى سكها عام 285 قبل الميلاد في صور، وأحدث قطعة مسكوكة في العهد الأموي في طبريا عام 734 ميلادية.

وتبدو في الموقع آثار شارع رئيس (cardo)، تتفرع عنه كل شوارع المدينة، وهو ما يعبر عن مكانة سوسيا وتقدمها العمراني، وكُشف -أيضًا- عن البوابة الشرقية للمدينة، وهي بوابة من الصخور البازلتية المنحوتة.

وهناك آثار هيكلين وثنيين يحملان طابع الهندسة المعمارية الهيلنستية: الأول يوناني، يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، والثاني روماني، يعود إلى القرن الأول الميلادي. وتمر في الموقع على بقايا أربع كنائس، بُنيت في العصر البيزنطي، تقع إحداها في الجزء الشمالي الغربي من المدينة، والأخرى في الجانب الشمالي الشرقي.

الكنيسة الشمالية الغربية

كشفت التنقيبات عن ساحة الصلاة في هذه الكنيسة، وفي هذه الساحة كُشف عن تابوت رخامي صغير، يضم عظامًا بشرية، قد تعود لقديس لم يُعرف اسمه، وكذلك عُثر في هذه الساحة على جرة من البرونز، تعود إلى العصر الأموي؛ ما يؤكد أن الكنيسة واصلت دورها حتى هذا العصر.

إن بناء الكنيسةِ الشمالية الغربيةِ يشير إلى درجة القداسة العالية التي يحظى بها هذا المكان؛

حيث أقيمت في مركز المدينة، شمال الساحة العامة، وضمن منطقة الحي الهيليني؛ إذ أراد بناة الكنيسةَ إقامتها على بقايا معبد وثني.

ويظهر مخطط الكنيسة بوضوح تام على سطح الأرض؛ حتى قبل التنقيب الذي أجراه فريق من جامعة وارسو البولندية.

بُنيت الكنيسة ورُصفت بالحجارة البازلتية المستطيلة بعناية فائقة، وفيها أربعة أروقة، لكل رواق ستة من الأعمدة التي تعلوها تيجان أيونية.

على الأرضية الفسيفسائية في الممر الجنوبي نقشان باللغة اليونانية، يخلدان أسماء المتبرعين والمبالغ التي تبرعوا بها، وهم من أهالي المدينة على ما يبدو؛ واسم أحد المتبرعين «هيليو دورا»، وآخر اسمه «بطرس».

إن التحليل المعماري للكنيسة يظهر أنها بنيت على مراحل مختلفة، والفسيفساء رُصفت -على الأغلب- في نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الخامس. أما تجديد الفسيفساء قرب المذبح الرخامي؛ فيبدو أنه جُدد في القرن السادس الميلادي؛ إذ بدت مماثلة لفسيفساء الكنيسة الجنوبية الشرقية من المدينة، وهذه الأخيرة مؤرخة في السنة 591 م، وتشبه -أيضًا- فسيفساء كنيسة الكرسي التي أُرِّختْ عام 585 م.

الكنيسة الشمالية الشرقية

تقع الكنيسة الشمالية الشرقية على مسافة 50 مترًا إلى الشرق من الكنيسةِ الشمالية الغربية. بدأ التنقيب فيها عام 2002 من جامعة كونكورديا في ولاية مينيسوتا الأميركية، برئاسة الدكتور مارك شولر، وهي مثل جارتها الغربية كانت مرئية على سطح الأرض قبل التنقيب، تتجه الكنيسة الشمالية الشرقية شرق غرب، مثلما هو الحال في الكنيسة الشمالية الغربية.

إنّ المخطط العام للكنيسة يُظهر أنها مربعة الشكل (12 × 12) مترًا، بُنيت من البازلت المنحوت. أما كسوتها الداخلية، فقد صُنعت من الرخام، يقسمها صفان من الأعمدة، أربعة في كلّ صف.

وما يلفت النظر في هذه الكنيسة، أنها الوحيدة من الكنائس العائدة إلى الحقبة البيزنطية في الجولان خصوصًا، وفي بلاد الشام عمومًا، وتضم منصة حجرية خارجية.

عُثر قرب مذبحها على قبرين، وهو أمر مفاجئ؛ لأن وجود مدفن في الكنيسة أمر نادر جدًا، وربما يعبر وجود القبور، بهذا القرب من المذبح، عن مكانة الأشخاص المدفونين فيها.

الكنيسة الملكية

لقد وُجدت في جنوب شرق المدينة كنيسة من الطراز الملكي، يفصل صفان من الأعمدة الداخلية الجناحين الجانبين من ساحة الكنيسة، ويلاحَظ -هنا- أن جزءًا من الكنيسة على شكل نصف دائري.

إن كنائس سوسيا -عمومًا- تشبه الكنائس البيزنطية الأخرى في الجولان، ولكنها تتميز عنها بمنصة رخامية داخلية نصف دائرية (apse).

يبدو أن المدينة عانت في البداية من مشكلة نقص الماء، واعتمدت على أحواض تخزين في توفير الماء اللازم، فقد عُثر في الجزء الغربي من المدينة على بركة كبيرة، وأخرى صغيرة مجصصة، ويرى بعضهم أن النافورة المعقد تصميمها، كانت في هذا المكان. وقد حلت المدينة مشكلة الماء -لاحقًا- بتقنية تنم عن معرفة دقيقة بطبوغرافية الأرض، والقدرة على توظيف المواد المحلية في نقل الماء، فقد جُلب الماء إلى المدينة من أعالي وادي العال، وعلى امتداد 25 كم، عن

طريق نحت قناة في الصخور في بعض الأجزاء، وتركيب حجارة بازلتية مجوفة قابلة للوصل في أجزاء أخرى، ورُفعت الحجارة المجوفة على أعمدة، في بعض الأماكن المقعرة. وفُتحت فتحات دائرة في القناة؛ من أجل التهوية وتخفيف الضغط على الماء الجاري، وتسهيل عملية تنظيف القناة، ويلاحظ أن القناة كانت تمتد داخل المدينة، تحت الأرصفة المرصوفة، وتملأ أحواض التخزين.

وفي الموقع بقايا خندق مائي وسور، تقع خارجه تلال تضم كهف دفن من العصر الروماني، ويشار إلى أن المدينة تطل غربًا على تل، نحتت الرياح والمياه فيه تشكيلات لافتة للنظر، وأوحت بتسميته «تل خلية النحل»، و«تل الدُّمى أو اللعب».

وتنتشر في الموقع أعمدة غرانيتية ملقاة على الأرض، وفق زوايا متماثلة، سقطت نتيجة الزلازل، وبقايا أرضية من المرمر والفسيفساء، ومبان عامة كبيرة شُيدت بأحجار البازلت المحلية، وبحجارة جيرية أُحضرت من مناطق بعيدة، وقد زُينت المباني بأنواع مختلفة من الرخام، جُلبت من مناطق مختلفة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت المدينة تزخر بتماثيل الأسود.

توضح البقايا في الموقع أن المدينة بُنيت وفق مخطط هندسي جيد، ويؤكد استخدام الرخام والغرانيت المستوردين، أن المدينة شهدت ازدهارًا اقتصاديًا، وعلاقات تجارية متشعبة مع المراكز الحضارية التي عاصرتها، وتؤكد عملية نقل الماء من مسافات بعيدة تطورًا علميًا، ولا سيما في مجال الطبوغرافية والهندسة المائية، وكذلك تؤكد كثرة المعالم الروحية - الثقافية في الموقع المنزلة الثقافية التي احتلتها هذه المدينة.

ويشار إلى أن صحيفة «عمل همشمار» الإسرائيلية، نشرت يوم 1994/11/6 خبرًا، بقلم بتسلئيل عميكام، يقول: إن أعضاء من المنظمة اليهودية المتدنية (ك. ش. ت) انتزعت التيجان في قلعة الحصن، واقتلعت الأرضيات الفسيفسائية، وشوهت تماثيل الأسود.

الكرسي.. جرسا.. جرجيسا

موقع قديم، يقع تقريبًا في منتصف الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا، وتحديدًا أكثر، جنوب مصب وادي السمك في هذه البحيرة، وهو واد كبير ينتهي بدلتا، يأخذ شكل رأس متقدم، ويضم هذا الموقع بقايا دير وكنيسة ومبان سكنية، إضافة إلى مرسى للزوارق والسفن الصغيرة.

اختلفت الآراء حول أصل اسم الموقع، فمنهم من أعاده إلى الكلمة الآرامية «كورسا»، التي تعني الكرسي، ومنهم من رأى تشابهًا بين اسم الموقع، وكلمة «خنزير» باليونانية، وربط بين اسم الموقع ومعجزة الخنازير، ومنهم من رجح العامل الجغرافي، فنسب اسم الموقع إلى جرف صخري في المكان، يبدو في هيئة كرسي، مقعد، يعلو الكنيسة، ويشار إلى أن هذا الموقع يرد في إنجيل متى باسم «كورة الجرجسيين» (نسبة إلى جرجسة)[338] .

وقد ذكرها الجغرافي ياقوت الحموي في معجم البلدان، إذ قال في مادة كرسي: «بلفظ الكرسي الذي تجلس عليه الملوك وتشديد الياء ليس للنسبة، وهي قرية

---

[338] [مت 8/ 28].

بطبريا يقال: إن المسيح جمع الحواريين بها، وأنفذهم منها إلى النواحي، وفيها موضع كرسي زعموا أنه جلس عليه عليه السلام».

وقد كشفت عمليات المسح والتنقيب التي جرت في الموقع، عن آثار وبقايا، تعود إلى العهود الرومانية، والبيزنطية، والعربية ـ الإسلامية، لعل من أهمها ما يأتي:

- بقايا دير كبير من العهد البيزنطي، أبعاده 145 × 123 م.
- سور يحيط بالدير.
- بوابة رئيسة في الجدار الغربي للسور، محمية ببرج من طابقين.
- شارع مرصوف، يمتد من البوابة الرئيسة، إلى ساحة أمام الكنيسة.
- صفوف من الأعمدة تحيط بساحة الكنيسة، يبدو أنها لم تكن مسقوفة في المرحلة الأولى، فبدت كأروقة مفتوحة، وغُطيت هذه الأروقة في مرحلة لاحقة، إلا أنها تداعت وسقطت مع الزمن، ما عدا الرواق الشرقي.
- يقع الرواق الشرقي بجوار واجهة الكنيسة، وقد تحول هذا الرواق إلى مدخل الكنيسة، وهو مدخل مرصوف، يقع على جانبيه مقر الكهنة، وغرفتان، غرفة في كل جانب.
- أقيمت قاعة الصلاة في الكنيسة على قناطر محملة فوق صفين من الأعمدة، ويضم هذا الجزء صالة وسطى، إضافة إلى رواقين جانبيين.
- كانت الغرف الواقعة على جانبي الرصيف مرصوفة بالفسيفساء، ووُجدت رقع من الفسيفساء الملون في بقية أجزاء الكنيسة.

- ضمت الأروقة تماثيل الحيوانات، وزُينت الأرضية المرصوفة بصورها، إلى جانب أشكال وصور نباتية.
- وُجدت رقعة فسيفساء، في بوابة إحدى الغرف الشمالية، تحمل صورة زوجين من الحمام يقفان إلى جوار سلة مجدولة.
- بقيت أجزاء من أرضية فسيفسائية، مع صلبان، وتماثيل، على امتداد جدار واجهة الكنيسة.
- في مدخل غرفة حوض التعميد كتابة يونانية، تعود إلى عام 585م.
- في جنوب الدير، هناك مغارة، خُصصت لدفن رهبان الدير، وقد وُجد فيها نحو ثلاثين هيكلًا عظميًا، لرجال تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثين وخمسين عامًا.
- خزان ماء.
- بالقرب من الجزء الشمالي للسور، هناك بقايا مبان سكنية، ومساحات بيوت، ومواقد، وأقنية تصريف. ويلاحظ من دراسة هذه المباني وجود ثلاث مراحل من البناء: مرحلة أقدم، تعود إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ومرحلة لاحقة، تعود إلى القرن السابع، ومرحلة أحدث تعود إلى القرن التاسع، وكانت هذه المباني محل سكن الرهبان والعاملين في الدير والحجاج.
- إلى الجنوب من الدير، هناك بقايا برج على منحدر سفح التل.
- تعرضت الكنيسة للخراب أيام الغزو الفارسي للمنطقة، عام 612 م، وجرى ترميمها في وقت لاحق، غير أنها تعرضت للحريق مطلع القرن الثامن الميلادي، وأصابها الدمار لاحقًا.

- على مسافة 600 متر غرب الدير، هناك خربة، تُعرف باسم خربة الكرسي، وهي تل قديم، كشف التنقيب فيه عن بقايا عمران من العهد الروماني، وعن بقايا خان من العهد العربي الإسلامي، كان قائمًا على رأس التل، وقد عُثر في هذا الموقع على فخاريات، تعود إلى العهود الرومانية، والبيزنطية، والإسلامية، والفرنجية، ووُجدت بقايا بناء عام، وبقايا معمارية هندسية في الشمال من هذا التل.
- مقابل موقع الكرسي، وداخل بحيرة طبريا، جرى الكشف عن مرسًى قديم، استخدمه صائدو الأسماك، وكُشف -أيضًا- عن حوض لتخزين الأسماك، ويشار إلى أن رأس الكرسي يُعدّ من أغنى أجزاء بحيرة طبريا بسمك السردين.

يُرجح أن فكرة تخليد «معجزة الخنازير» هي الدافع الأساس لإقامة الدير والكنيسة في هذا الموقع المتميز بالموقع الجغرافي، والمناخ المعتدل، وتوافر الماء والتربة اللحقية الخصبة، والثروة السمكية، وقد تحول الموقع إلى مزار للحجاج المسيحيين منذ أقدم العصور.

وتشير البقايا واللقيات إلى أن الموقع لم يكن مكان عبادة فحسب، وإنما كان مركزًا دينيًا، وحلقة وصل ما بين فلسطين والجولان، وبين العالمين المسيحي والإسلامي، ومركزًا اقتصاديًا يعتمد اعتمادًا أساسيًا على السياحة والثروة السمكية، وتؤكد هذه البقايا واللقيات الدور الحضاري الذي لعبه هذا الموقع في تاريخ المنطقة، وفي موروثها الثقافي.

إداريًا، تقع الكرسي في ناحية البطيحة، وتعد ثاني قرية في سهل البطيحة من حيث السكان، فقد بلغ عدد سكانها نحو 428 نسمة في حزيران/ يونيو من عام 1967، ووصل إلى 997 نسمة عام 1990، منهم 525 نسمة من الذكور، وشكل سكان الكرسي في هذا العام نحو 12 بالمئة من إجمالي سكان ناحية البطيحة.

الحمّة.. حمّة جدر

الحمّة من أهم المواقع السياحية في عموم المنطقة، فالمكان ساحر بمعالمه الطبيعية، وبساتينه الخضراء، وآثاره القديمة، وينابيعه المعدنية الحارة، ومميز بانخفاضه عن مستوى سطح البحر. والحمة مشتى أنموذجي، منحته الطبيعة كل مقومات جذب الإنسان، من المياه العذبة للشرب، والمعدنية الساخنة للمعالجة، والتربة الخصبة للزراعة، ولا سيما الحمضيات، والموز، وبواكير الخضراوات، إضافة إلى المناخ المعتدل شتاءً.

الموقع

تقع الحمة على الضفة اليمنى لنهر اليرموك، على بعد 2.5 كم، إلى الشرق من نهاية وادي اليرموك، وعلى بعد 10 كم -تقريبًا- جنوب سوسيا (قلعة الحصن)، وشرق نهر الأردن، وجنوب غرب فيق، ونحو 3 كم شمال غرب أم قيس الأردنية، وقد أقيمت في منبسط سهلي في قاع اليرموك، ينخفض عن مستوى سطح البحر نحو 160مترًا، ويأخذ شكلًا طولانيًا، في اتجاه شمال شرق – جنوب غرب، وتبلغ

أبعاده نحو 1500 × 750 مترًا، ويحيط به نهر اليرموك من الشرق والجنوب والغرب، في هيئة كوع نهري، مفتوح شمالًا، باتجاه تلي الوبرة والطحانات، في السفح الأيمن لوادي اليرموك، ويحيط به جرف صخري في الشمال، يعلوه مرج يعُرف بـ «مرج السطح».

الاسم

استمد الموقع اسمه من الحرارة المرتفعة لمياه الينابيع الموجودة فيه، فالحمة في الاشتقاق اللغوي تعني الحرارة العالية، وهو اسم وصفي، يعبر تمامًا عن هذه الميزة، وقد عُرفت -أيضًا- بحمة جدر، نسبة إلى مدينة جدر (جدارة، التي تقع -الآن- على الضفة الجنوبية لوادي اليرموك- الأردن، وتحمل اسم أم قيس، ويعود هذا الربط بين الحمة وأم قيس إلى عاملي القرب المكاني، والتبعية الإدارية، في العصر الروماني – البيزنطي؛ إذ كانت الحمة وأجزاء مهمة من جنوب الجولان ضمن التبعية الإدارية لجدارة التي كانت ضمن تحالف المدن العشرة (الديكابولس).

موقع قديم

وعى الإنسان القديم أهمية موقع الحمة، فاستوطنه في وقت مبكر؛ فقد وجد علماء الآثار أدلة على استيطان بشري فيه، تعود إلى خمسة آلاف عام، أي: العصر البرونزي القديم، و عثروا على بقايا في موقع تل الدوير، وهو موقع قديم يقع غرب

الحمة بنحو 3 كم، وُجدت فيه بقايا فخارية، تعود إلى العصر البرونزي القديم، وكذلك اكتشفوا مواقع أخرى، تعود بقاياها إلى العصر الحجري – النحاسي (كالكوليت)، وما بعده، ويُعتقد أن هذه التلال المرتفعة، على امتداد مدخل الحمة/ وادي اليرموك، كانت بمنزلة مواقع دفاعية؛ لحماية الحمة ومدخلها الغربي.

وتواصل الاستيطان في الموقع، في العصور اللاحقة، وبدأت الحمة تشتهر منذ العصر الهيلنستي، وذاع صيتها في العصر الروماني – البيزنطي، حتى تسابق القياصرة والولاة والحكام الرومان، على تخليد أسمائهم، في الكتابات التي نُقشت على جُدُر الحمامات، منهم القيصر أنطونين التقي (138 – 161 م) والقيصرة أندوكية (420 – 460 م).

وتحدث عن حماماتها -لأول مرة- راعي الكنيسة أوريانس (أوريجنس 222 – 230 م)، كذلك تحدث عنها المؤرخ اليوناني أونافيوس بعد زيارة قام بها للموقع في القرن الرابع الميلادي، وقال: «تأتي حمامات الحمة في الدرجة الثانية، في الامبراطورية الرومانية، بعد حمامات بايه في خليج نابولي، سواء من حيث الروعة، أم من حيث الفخامة».

وزارها الرحالة أنطونيوس في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وأشار إلى مركز صحي بالموقع، لمعالجة مرض الجذام، وكان معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية، قد رمّم الحمامات في القرن السابع الميلادي، في دلالة واضحة على استمرار أهمية الحمة ومنزلتها، ويُرجّح أنها تعرضت للدمار عام 749 ميلادي، بسبب الزلزال المدمر الذي أتى على معظم حواضر الجولان، فقد تحدث المقدسي البشاري الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، عن مياه هذه الحمامات من دون

الخوض في وصف عمارتها، أما الكاتب الكوزموغرافي الكبير ابن فضل الله العمر، فوصف الحمة في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله: «حمّة جدر، وهي تحت فيق، وعليها قبو معقود ببناء خشن طويل، وبه أحواض. يقال إن كل حوض لعلة من العلل يبرئها، بإذن الله، إذا استحمَّ منه العليل بها. قالوا: ولم تزل على هذا حتّى أتى بعض قدماء الحكماء فهدم القبو والأحواض، وجمع الماء كله إلى مجرى واحد، إلا فرعين تركهما: أحدهما لمن به ريح، والثاني لمن به جَرَب، والماء الغمر لسائر الأسقام. وماء هذه الحمّة عذب، وآثار الأبنية باقية».

وزار الحمة -أيضًا- معظم الرحالة الغربيين الذين قصدوا الجولان في القرن التاسع عشر، وأبرزهم الألماني سيتزن، والسويسري بوركهارت، والبريطانيان: إربي ومنغلز، والأميركيان دبليو تومسون وسيلاه ميريل، الذي درس الموقع بتفصيل كبير، إضافة إلى المهندس الألماني غوتليب شوماخر الذي وضع كتابًا عن الجولان 1885م.

لقد احتلت الحمة حيزًا كبيرًا من اهتمامات العصرين: الروماني والبيزنطي، ويشير ازدهارها وتطورها اللافت للنظر، ولا سيما في العصر البيزنطي، إلى أمور مهمة عدة، من أهمها:

أ – وجود حضارة مادية، تمتلك مستوى عاليًا نسبيًا من التكنولوجيا، ولا سيما في مجالات هندسة البناء، وجر المياه وصرفها، والنوافير، وغيرها من الجماليات.

ب – وجود ممولين، أدركوا أهمية الموقع؛ فأسهموا في تطويره.

ج – الإيمان بقدرة مياه الحمة على المعالجة، على خلفية عجز الطب -آنذاك- عن معالجة كثير من الأمراض.

مكونات المشهد العام

منذ أن بدأت عملية بناء الحمامات في الموقع، أضاف الإنسان جديد عصره إلى الموجود سابقًا، وأعطى للقيمة الجمالية اهتمامًا كبيرًا، فزين الموقع بالرخام والنوافير والأعمدة والتيجان والتماثيل، منها تمثال إله الطب عند الإغريق والرومان، أيسكولاب، وطور عملية الجمع بين المياه الساخنة والباردة، ووفر خدمات الإقامة المريحة، من المنامة والطعام والثقافة والتسلية؛ حتى غدت الحمة موقعًا معروفًا عالميًا.

وفي العصر الروماني – البيزنطي، ضم الموقع معالم رئيسة، منها تل صناعي، وآخر طبيعي، إضافة إلى مسرح وكنيسة ومجمع حمامات وأحياء سكنية وشوارع وأعمدة تعلوها التيجان، إلى جانب مسيلين ينتهيان إلى نهر اليرموك، وقد وجد المهندس غوتليب شوماخر حين زار الموقع أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، بقايا المعالم الصناعية، ورسم مخططًا للموقع، أوضح فيه المعالم الطبيعية وبعض المعالم الصناعية، وأكد أن الموقع كان مأهولًا بالسكان والزوار.

الينابيع

ثمة نوعان من الينابيع في هذا الموقع، ينابيع تتدفق منها مياه عذبة نسبيًا، صالحة للشرب، وأخرى تتدفق منها مياه معدنية حارة، غير صالحة للشرب.

أ – الينابيع الحلوة

هناك نبعان، يُعرف الأول باسم عين السخنة، أوعين سعد الفار، ويقع في الجزء الشمالي الشرقي، وتبلغ نسبة الكلور في مياهه نحو 75 ملغ في الليتر الواحد، وتصل غزارته إلى (1100) م 3 في الساعة، وقد تحدث شوماخر عن هذا النبع، فوصفه بأنه نبع بارد وغزير ومياهه صافية ويغذي جدولًا يأخذ اتجاه الجنوب، ثم ينعطف نحو الجنوب الغربي، وينتهي في نهر اليرموك، جنوب بركة الريح، وقد جرى تحويل قسم من مياه هذا النبع إلى مجرى يمتد نحو الجنوب الغربي؛ من أجل الاستفادة منه في الري.

ويُعرف الثاني بعين بولص (نسبة إلى بولص الرسول)، ويقع على بعد أمتار إلى الجنوب الشرقي من بركة الجرب التي تصب فيها مياهه، وتبلغ حرارة مياه هذا النبع نحو 25 درجة مئوية، وقد توحدت مياهه مع مياه نبع البلسم الساخن في السنوات الأخيرة.

ب – الينابيع المعدنية الساخنة

في الجولان مجموعة ينابيع معدنية حارة، يرتبط أصلها بالبركنة التي عرفتها هذه المنطقة، وتشهد على مرحلتها الأخيرة، فهي ينابيع قديمة، ربما كان الإنسان شاهدًا على تشكلها، وتتغذى الينابيع المعدنية الحارة من مياه تنبع من الأعماق، تكونت نتيجة تكاثف بخار الماء، المنطلق من الماغما، وتُعرف اصطلاحًا بالماء البكر.

يتسلل الماء إلى السطح عبر كسور وشقوق في الطبقة العليا من القشرة الأرضية حاملاً معه مواد معدنية، وتعود شدة ارتفاع حرارة مياه هذه الينابيع إلى الغراديان الحروري الأرضي، وتؤخذ حرارة هذه المياه مقياسًا لتقدير عمق مصدرها، أي: إنه كلما ازداد عمق منشأ هذه المياه، ازدادت حرارة المياه بمعدل درجة مئوية، لكل 33 مترًا في اتجاه العمق.

تقع الينابيع المعدنية الحارة في الجولان في موقعين: الأول في جنوبي سهل البطيحة، قرب الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا، وعند أقدام تل /جبل عدلة، وتُعرف هذه المجموعة باسم «المزفرة»، وتُعرف في المصادر الإسرائيلية باسم «عين خضرا»، ولم تنل هذه المجموعة الشهرة التي نالتها مجموعة الحمة، والثاني هو موقع الحمة، في المستوى الأدنى لوادي اليرموك، ويضم ثلاث مجموعات من الينابيع المعدنية الحارة، وتقع جميعها في النصف الجنوبي الغربي من المنبسط السهلي، وهي:

حمة الريح

نبعان في شرقي النصف الجنوبي الغربي من المنبسط السهلي، وشمال نهر اليرموك، تصل نسبة الكلور في مياههما إلى 240 ملغ/ لتر، وتبلغ حرارة مياههما نحو 37 درجة مئوية، أي أنها تعادل الحرارة الطبيعية لجسم الإنسان، وتخدم مياههما قاعتين للاستحمام.

عين المقلى

تقع إلى الغرب من حمة الريح، أقيمت عليها بركة جميلة من الحجارة البازلتية، تصل نسبة الكلور في مياهها إلى (540 ملغ/ لتر، وتبلغ حرارة مياهها نحو 51 درجة مئوية، وبذلك تكون الأكثر كلورًا وحرارة، وتُعرف هذه العين بأسماء أخرى، هي: حمة سليم، بركة الحبل، و«حمة الشيخ».

عين البلسم

وتُعرف -أيضًا- بـ «حمة الجرب»، وتقع في الجزء الشمالي الغربي، تفوح منها رائحة كبريتية قوية، وتبلغ حرارة مياهها نحو (42 درجة مئوية)، وتصل نسبة الكلور في مياهها إلى 300 ملغ/ لتر، وبذلك نجد أن هذه العين تحتل مركزًا وسطًا بين حمة الريح، وعين المقلى، من حيث الحرارة ونسبة الكلور.

تحتوي مياه هذه الينابيع على مواد كبريتية، وكلورية، وصودية، إضافة إلى مواد أخرى كالرادوم المشع بمقياس صغير، والراديوم، والهيدروجين الكبريتي، وتفيد هذه المواد في معالجة أمراض عدة، كالروماتيزم والأمراض الجلدية والنسائية وأمراض الجملة العصبية.

لقد شكلت ينابيع الحمة لغزًا حيّر الإنسان في العصور القديمة، بما تميزت من الحرارة العالية وارتفاع نسبة المواد المعدنية فيها، وخصائصها العلاجية، فعزا هذا الوضع المميز إلى قوى ميتافيزيقية، وعدّ المكان مقدسًا، واكتشف الإنسان خصائصها العلاجية بالتجربة المتراكمة، فتحولت الحمة إلى مركز علاجي ومركز للمتعة الجنسية في آن معًا، ولا سيما في العصرين الهيلينستي والروماني، لقد وجدت الوثنية في هذا الموقع مكانًا خصبًا لنموها وازدهارها، في الإطار العام لمعتقداتها وتطوراتها.

الحمامات

عُثر -حتى الآن- على سبع برك للسباحة والاستجمام، مختلفة من حيث الشكل والحجم ودرجة الحرارة ونوعية الماء، وتقع أهم هذه البرك في مجمع الحمامات، وهو مجمع كبير بني في أوائل القرن الثاني الميلادي، يحتوي قاعات عدة، تضم بركًا للسباحة، ويلاحظ أن مصمم هذا المجمع أخذ في الحسبان الأوضاع الطبيعية و المناخية والضوئية، وخصوصًا في ما يتعلق بالقاعات، وركز على مسألتين رئيستين: تتمثل الأولى في مشكلة الإضاءة، على الرغم من حلها بالإكثار من النوافذ الكبيرة في الجوانب التي تتلقى الضوء معظم ساعات النهار، في حين تتمثل الثانية في مشكلة الاستيعاب، لقد توقع المصمم ازدحامًا كبيرًا، فحل هذه المشكلة بتوسيع المداخل والمخارج والممرات إلى درجة تسمح باستيعاب أعداد كبيرة من الزوار دفعة واحدة، وبتسهيل تحركهم داخل المجمع.

في هذا المجمع قاعة رئيسة، تصل أبعادها إلى 22.6 × 10.5م، فيها صفان من الأعمدة الحجرية المتوجة بالتيجان، وبركة سباحة مدرجة في وسطها، إضافة إلى ثلاثة أحواض صغيرة، وتوجد في قسمها الشمالي منصة عالية نسبيًا، مرصوفة بأحجار ملونة، ومفصولة بممر من الأعمدة التي تحمل تيجانًا، وأسكفة عليا مقوسة ومزخرفة على النمط الروماني.

إلى جانب هذه القاعة التي تُعرف بقاعة الزخارف، هناك قاعة إضافية تُعرف بقاعة الكتابات، حيث عُثر فيها على 35 كتابة يونانية، وهي أصغر من القاعة الرئيسة؛ إذ تبلغ أبعادها (15 × 10م) فقط، وتتصل عبر ممر/ مدخل ببركة سباحة مدهونة بالكلس.

أيضًا في هذا المجمع قاعة بيضاوية، تبلغ أبعادها (24 × 12م)، فيها بركة سباحة بيضوية وبرك دائرية وأحواض صغيرة، كان كل حوض منها مخصصًا لشخص واحد، وقد أُضيئت هذه القاعة بنوافذ كبيرة في الجدار الجنوبي الغربي، منها ثلاث نوافذ في الوسط على شكل أقواس النصر الرومانية، وتصل أبعاد الكبيرة منها إلى (4.8 × 3.5م)، ويُعتقد أن هذه القاعة كانت مسقوفة بسقف مقبب يرتفع نحو عشرة أمتار.

وهناك قاعة أخرى تُعد الأروع من حيث الحجم والتصميم الهندسي، تعرف بقاعة النوافير، وتبلغ أبعادها (29.6 × 13.9 م)، وتضم جناحين ملحقين يصل طولهما إلى (3.9 م)، بذلك يبلغ طول هذه القاعة (3.5 م)، وتوجد في وسط هذه القاعة بركة سباحة، تنتصب على محيطها 32 نافورة، كانت مياهها تتساقط

من كل جانب، ويعتقد بعضهم أن هذه القاعة كانت مكشوفة، بخلاف القاعات الأخرى التي كانت مسقوفة.

حظيت هذه القاعات والحمامات باهتمام كبير، فقد غُطيت جُدُرها بالرخام وزينت بالزخارف والأعمدة المتوجة بالتيجان، وكان يعمل فيها مدلكون وكوميديون وحتى نتافو الشعر، إضافة إلى العناصر التي كانت تدسها السلطات الرومانية بين الزوار؛ لتسقّط أخبارهم ومعرفة آرائهم ومواقفهم السياسية.

المسرح

شهدت الحمة حركة ثقافية نشطة، منذ العصر الهلينستي، فقد عُثر في الموقع على بقايا مسرح، يشهد على مدى الاهتمام بالمسألة الثقافية في تلك العصور القديمة، وبُني في الجانب الشمالي الشرقي لتل صناعي يقع شمال شرق مجمع القاعات / الحمامات، وهو مسرح لافت للنظر بحجمه وسعته؛ إذ يتألف مدرجه من 15 صفًا من المقاعد، في شكل نصف دائرة يبلغ قطرها 30 مترًا، ويرتفع الصف العلوي للمدرج عن حلبة المسرح بنحو 6.60 مترًا، ويضم حلبة دائرية كانت مخصصة للأوركسترا التي كانت جزءًا من الدراما اليونانية، وفقدت جزءًا من دورها في العصر الروماني؛ حتى ألغيت لاحقًا، ويضم -كذلك- منبرًا يبلغ طوله 30 مترًا، وعرضه 6 أمتار، إضافة إلى ملحقات المسرح، منها بناء قوي ذو أقواس وأعمدة وتيجان أعمدة.

مقاعد المسرح من الحجر البازلتي، وهي مقاعد مريحة إذ يبلغ ارتفاع المقعد 45 سم، وعرضه 76.25 م، وهناك مقاعد مميزة بالمساند، ويُعتقد أنها كانت

مخصصة للأثرياء والوجهاء، ولا يزال يقوم في الموقع مبنى قديم مع ثلاث قناطر، وإلى جواره مبنى مقنطر آخر، ويشار إلى أن هذا المسرح كان يستوعب -جلوسًا- ما بين 1500 و2000 شخص.

آثار ولقيات

يقوم تل طبيعي في الزاوية الشمالية الغربية ما بين بركة الجرب في الشرق ونهر اليرموك في الغرب، ويُعرف في بعض المصادر بـ «تل باني»، وهو مفردة آرامية يُرجح بأنها من أصل يوناني وتعني الحمام، ووجدت فيه بقايا من العصر البرونزي القديم، ويبدو أن هذا التل كان موقعًا دفاعيًا.

وعُثر في الموقع على تماثيل حجرية، منها تمثال إله الطب أيسكولاب، ووجدت كوى كانت الأصنام توضع فيها، وعُثر على صلبان منحوتة على الحجارة، وأعمدة مجدولة وقواعد أعمدة، وقد تحدث شوماخر عن مغاور طبيعية في الجروف المحيطة بالموقع، يبدو أن الإنسان استخدمها في مدة ما.

رموز مسيحية

إضافة إلى الصلبان المنحوتة على الحجارة، في الموقع بقايا كنيسة تقع إلى الجنوب الشرقي من المسرح، والشمال الشرقي من مجمع الحمامات، وهذا أمر طبيعي في السياق العام لانتشار المسيحية في مختلف أنحاء الجولان، ولا سيما في العصر البيزنطي، وقد احتلت الحمة حيزًا لا بأس به في الموروث المسيحي.

في تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، أن بولص الرسول شهد في أحد حمامات الحمة معجزة انبثاق نبع بارد، عُرف -لاحقًا- بعين بولص، وفي هذه الرواية -أيضًا- أن السباحة المختلطة دفعت أحد آباء الكنيسة القدماء إلى تحذير المسيحيين من مغبة هذه السباحة، وقال: «إن الشيطان ناشط في الحمة».

وقد عبّر هذا الأب بهذا التحذير عن تداعيات خطِرة لهذه السباحة، وعن موقف الكنيسة منها وحرصها على المسألة الأخلاقية، وجاء هذا التحذير على خلفية ثقافية قديمة تعترف بمعاقبة من يتجاوز الحدود في مسألة الحياء، وتتجسد في إطلاق اسم إيروس إله الحب لدى الإغريق على أحد الينابيع، وإطلاق اسم أنتيروس، وهو اسم الإله الذي يعاقب أولئك الذين يتبادلون الحب على نبع آخر.

قلعة الصبيبة

تُعدّ قلعة الصُّبَيبة واحدة من أكبر وأفخم وأحصن قلاع بلاد الشام قاطبة، بناها العرب المسلمون في القرن السابع الهجري، لإحكام السيطرة على الأقاليم المحيطة بها من الجولان وبلاد صفد ووادي التيم وبلاد بشارة.

وكثيرًا ما خلط الباحثون والمؤرخون بينها، وبين قلعة مدينة بانياس التي تقع داخل البلدة القديمة، وضمن سورها التاريخي، ونسبها بعضهم إلى الصليبيين زورًا أو اعتباطًا، بعدّ أن العرب المسلمين لم يكونوا بهذه السوية من التطور العمراني والعسكري، الذي يؤهلهم لبناء هذا الصرح الشامخ المثير للإعجاب، والباقي على مر العصور، وقد بنى هؤلاء تخميناتهم على نص لعز الدين بن شداد في مؤلفه

الضخم «الأعلاق الخطيرة» زعم فيه خطأً، كما أخطأ في غير معلومة أخرى[339]، أن الصليبيين بنوها بعد المئة الهجرية الخامسة، علمًا أن الصليبيين لم يطؤوا بأقدامهم هذه القلعة مطلقًا، ولم تكن تحت سيطرتهم في أي لحظة من لحظات التاريخ، أما حديث المستشرقين ابتداءً بروبنسون ثم كليرمون- غانو، وماكس فان برشيم، ثم دوشامب، وأخيرًا فولفغانغ مولر- فيتز، عن وجود جُذُر صليبية وأخرى فينيقية، فهذا حديث خرافة لا يستند إلى أي سند آثاري يُعتد به؛ فتاريخ بناء القلعة واسم بانيها، الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل الأيوبي، مثبت في المصادر العربية، وترميمها كذلك، وأسماء المرممين مدرجة في المراجع، ابتداءً من الملك السعيد الحسن بن عثمان الأيوبي، والسلطان الظاهر بيبرس البندقداري، وانتهاء بالأمراء الشهابيين، بل لا يوجد في هذه القلعة أي كتابة تدل على أن شعبًا آخر غير العرب المسلمين أسهموا في بنائها، والأهم أن المعطيات الآثارية تتفق -إلى حد التطابق- مع النصوص التي تركها لنا الإخباريون العرب حول ذلك.

لقد أكد المؤرخون أن هذه القلعة لم تسقط مطلقًا نتيجة حصار أو غز، بل كانت دائمًا تسلَّم بناء على اتفاق بين القوات المحاصِرة والقوات المحاصَرة، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على دقة اختيار موقعها على صهوة جبل شاهق المنحدرات، ربما أخذت اسمها منه!، ومتانة تحصيناتها التي تُعدّ آية في عبقرية فنون العمارة الإسلامية العسكرية التي تعرضت لكثير من التجاهل، مقابل الإطناب

[339] راجع فصل الأخطاء الفادحة في مؤلفنا ((صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي- الإسلامي)) حيث يستغرب ابن شداد من أن ابن حوقل واليعقوبي لم يذكرا بانياس في كتابيهما، علمًا أنهما ذكراها بوضوح، فاليعقبوبي وصفها بمدينة الجولان وابن حوقل وضعها على خريطته الشهيرة.

في مديح التحصينات الصليبية، وتخصيص المجلدات لدراسة خصائصها ومزاياها وعبقرية بُناتها.

يحاول هذا البحث أن يقدم صورة أقرب إلى التكامل عن هذه القلعة؛ تاريخها ووصفها، كما وردا في نصوص الرحالة والمستكشفين، ويطمح إلى أن يكشف الغموض، ويزيل اللَّبس الذي أدى قرونًا طويلة إلى الخلط بينها وبين قلعة مدينة بانياس المندثرة الآن، ولم يبق منها سوى جُذُر وأبراج متداعية، وحجارة ضخمة متناثرة هنا وهناك، أما قلعة الصبيبة؛ فقد احتفظت -حتى الآن- بهيكلها العام وتفاصيلها العمرانية معظمها، على الرغم من تهدمها وإعادة ترميمها من هذا الملك أو ذاك الوالي.

ومن اللافت للنظر تمسك المستشرقين الغربيين برواية واهية لعز الدين بن شداد، لا تستند إلى أي سند آثاري أو منطقي، وقد فندناها في مكان آخر من هذه الدراسة- وإصرارهم على قيام الصليبيين ببناء أسوار في القلعة من دون توقيع بنقش أو حرف لاتيني أو غير ذلك، ومحاولات التّفاقُه باللغة العربية وحرف الكلمات الواردة في النقوش عن معانيها، وكأن اللغة العربية لغة منقرضة لا يتكلم بها أحد في ذلك الزمن[340].

[340] يحاول برشيم أن يفسر كلمة عمارة بأنها ترميم وليس إنشاء، بمعنى أن عبارة قام بعمارة هذا الثغر، تصبح قام بترميم هذا الثغر، علماً أنه لم يفهم أيضاً كلمة ثغر لا هو لا صاحبة كليرمون- غانو، ذلك المستشرق العنصري الآخر.

دلالات التسمية

الصُّبيبة لغةً، بضم الصاد وفتح الباء، تصغير للصُّبَّة، وهي جماعة من الخيل، وهذا المعنى ليس بمستغرب؛ فالعرب تطلق على القلاع والحصون في بعض الأحايين أسماء الخيل، مثل حصن الحَبيس الذي يقع الآن في جبال عجلون، والحبيس في اللغة هو الحصان الذي يوقفه أو يكرسه صاحبه للقتال في سبيل الله. أما الصَّبيبة -بفتح الصاد- فمنحوتة من الصبيب، أي الانحدار الشديد. وقد بنيت الصبيبة على صهوة جبل، وديانه شديدة الانحدار كأنها جُدُر؛ لاستوائها وعمق غورها.

أول من ذكر قلعة الصبيبة في المصنفات الجغرافية التي وصلتنا عز الدين بن شداد، المتوفى ستة 684 هجرية، في مؤلفه الكبير «الأعلاق الخطيرة»؛ وجاء فيه: إن الفرنج بنوها بعد المئة الخامسة، أي: في بداية دخول الصليبيين إلى بلادنا، وهذا قول مجاف للحقيقة لكثير من الأسباب، أولها أن أحدًا من مؤرخي الفرنج لم يذكر أنهم بنوا قلعة قرب بانياس، ولم يطلقوا عليها أي اسم إفرنجي كما هو الحال بالنسبة للقلاع التي بنوها وخلدوا أسماءها في كتاباتهم، مثل بلفورت ومونتريال وغاستون ومون فور، وثانيًا: لم يُعثر في القلعة على أي كتابة أو رسم أو رمز يشير إلى أن الصليبيين احتلوها، أو بنوا فيها حجرًا واحدًا، وإلاّ لتركوا ما يشير إلى ذلك، وثالث الأسباب أن المصادر العربية، باستثناء ابن شداد، تُجمع على أن الملك العزيز، عثمان بن الملك العادل، هو الذي بناها.

هذا إذا غضضنا الطرف عن تجاهل الرحالة الشهير ابن جبير، الذي زار بانياس في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، وجود أي حصن في الجزء الشمالي من الجولان غير حصن بانياس الذي يقع داخل سور المدينة.

وقد زار ابن جبير بانياس في عهد صلاح الدين الأيوبي، بعد أن استرد السلطان نور الدين محمود بن زنكي بانياس من الفرنجة بسنوات قليلة، وترك لنا وصفًا دقيقًا لقلعة المدينة وسورها، يتفق اتفاقًا تامًا مع وصف المؤرخين لمعركة استرداد بانياس من يد الفرنجة في عهد نور الدين[341]، ويصف ابن جبير وجود سور لمدينة بانياس، وقلعة داخل السور، ونهرًا يدور حوله، وهذا لا يتفق مطلقًا مع وصف قلعة الصُّبيبة التي تربض على قمة جبل، فضلًا عن أن وصف ابن القلانسي للمعركة يتحدث عن إحداث نُقب في سور المدينة المحاصرة، وهرب قادة الفرنجة إلى حصن المدينة، وانحصارهم فيه، ومن المستحيل أن يكونوا قد توجهوا إلى قلعة الصبيبة البعيدة عن مدينة بانياس عدة كيلومترات، والواقعة على رأس جبل[342]. والأهم من هذا وذاك أنها كانت محاصرة من جميع الجهات، لذلك؛ ولمجمل هذه الوقائع، نؤكد أن قلعة الصُّبيبة لم تكن مبينة في زمن نور الدين، ولا زمن صلاح الدين، بل بُنيت في عهد أبناء الملك العادل، حيث تراجعت شأفة الصليبيين إلى السواحل، ولم يصلوا بعد ذلك، لا إلى بانياس، ولا إلى قلعة الصُّبيبة.

---

(341) رحلة ابن جبير، ص 246-248.

(342) ابن القلانسي، ص 342 وما بعدها.

من الجغرافيين العرب الذين ذكروا الصُّبيبة شيخ الربوة، المتوفى في الربع الأول من القرن الثامن الهجري، في مصنفه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»، وذكر حصن الصُّبيبة بأنه من عمل دمشق، وقال: إن مدينة بانياس تقع إلى جواره[343].

ويقول أبو الفداء: إن الصُّبيبة اسم لقلعة بانياس، ويصفها بأنها من الحصون المنيعة[344].

أما ابن فضل الله العمري، المتوفى أواسط القرن الثامن الهجري؛ فيتحدث عن عمل بانياس، (محافظة بانياس بالمعنى المعاصر)، ويعيد تأكيد أنها «مدينة الجولان، وبها قلعة الصُّبيبة» التي يصفها بأنها «من أجلّ القلاع، مبنية في أعلى البقاع»[345].

ويتحدث القلقشندي في مصنفه الضخم «صبح الأعشى» عن «ولاية قلعة الصُّبيبة» التي يقول إنها كانت ولاية صغيرة، وبها جندي، ثم أضيفت إلى بانياس[346].

ويدغم الظاهري في كتابة «زبدة كشف الممالك» الصُّبيبة ببانياس؛ فيقول: «مدينة الصُّبيبة، وتُعرف ببانياس، بها قلعة حصينة، وهي مدينة لطيفة يُزرع بها الأرز، يُجلب منها إلى دمشق وغيرها، ولها إقليم بعضه يُعرف بالحولة، يشتمل على مئتي قرية، وهي أيضا من معاملة دمشق»[347].

---

[343] شيخ الربوة، ص 201 -202.

[344] أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 248

[345] العمري، مسالك الأبصار، مخطوطة طوبقابو سراي، السفر الثالث، الورقتان 264-265، والتعريف، طبعة عمان، الصفحة 255.

[346] القلقشندي، صبح الأعشى، م4، ص197-200.

[347] ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص 46.

لقد كانت الصُّبيبة تطغى في أهميتها على بانياس في بعض الأحيان، كما يتضح من نصوص الجغرافيين العرب، وذلك للميزة العسكرية التي تفردت بها؛ نتيجة موقعها الاستراتيجي، وقوة تحصيناتها التي جعلتها عصية على الاختراق.

وفي تلك الآونة، أي: في المرحلة الذهبية من حكم المماليك، تكنى بعض المشاهير من أبناء المنطقة بهذه القلعة؛ حتى أن عائلةً نبغ فيها أكثر من محدث وعالم في المدينة المنورة، نسبوا أنفسهم إلى الصُّبيبة، فكانت أسماؤهم ملحقة بلقب الصُّبيبي.

وصف القلعة

زار العلّامة، أحمد وصفي زكريا، قلعة الصُّبيبة في كانون الثاني/ يناير من عام 1946، ووصفها وصفًا جيدًا، غير أنه كرر بعض المغالطات التاريخية المعروفة التي تخلط بين قلعة الصبيبة وقلعة بانياس، كذلك كرر بعض الادعاءات التي تتحدث عن قيام الفرنجة ببناء أجزاء من القلعة، تماشيًا مع وجهة نظر برشيم ودوشامب التي لا تستند إلى أي سند آثاري.

ومما قاله: إن «هذه القلعة العربية قامت فوق صهوة جبل شاهق ذي منحدرات عمودية صعبة يطل على بانياس من شرقيها على علو 300 متر تقريبًا، ويستند إلى الأعضاد الأولى لجبل الشيخ. واسمها الصبيبة -بضم الصاد- ولعله تصغير كلمة صبة التي هي بمعنى القليل من الخيل أو الإبل أو الغنم، ويسميها جاهلو التاريخ قلعة النمرود اعتباطًا، من دون أن يعرفوا سبب هذه التسمية المغلوطة، ومعناها، وزمن وضعها، وتاريخ هذه القلعة مشترك مع تاريخ بلدة بانياس الذي فصلناه،

وهي قد بنيت للدفاع عن هذه البلدة، وللوقوف في وجه العدو المرتقب زحفه من أنحاء فلسطين للدفاع عن هذه البلدة، وللوقوف في وجه العدو المرتقب زحفه من أنحاء فلسطين إلى أنحاء دمشق أو بالعكس؛ لأنها ذات موقع استراتيجي مهم يشرف على طرق عامة عدة، وقد لفت هذا الموقع أنظار القدماء؛ فقام كل منهم في زمانه ببناء هذه القلعة وتحصينها، وكان أول بناتها والمخططين لها هم العرب، ولما أخذها الصليبيون بقوا فيها مدة قليلة، بنوا خلالها بعض المباني، كما فعلوا في بقية بلاد الشام، أمثال حصن الأكراد والمرقب وصهيون وبرزويه والكرك وغيرها، أي: إن أكثر التصاميم والتحصينات والمباني عربية، وتشهد بذلك الآثار والكتابات العربية الماثلة حتى الآن».

ويضيف العلامة زكريا: «رحنا نتسلق عقبة كأداء بين بقايا حراج السنديان وكروم الزيتون التي شرقي بانياس، والصخور والأحجار والأشواك التي بلغنا القلعة بشق الأنفس بعد ساعة؛ فوجدناها قلعة عظيمة هائلة المبنى رائعة المنظر جميلة التخطيط والهندسة وجديرة بأن يزورها كل متعلم في بلاد الشام؛ لأنها من أضخم القلاع الحربية، وأبدعها في هذه البلاد، لا تقل في هذه الأوصاف عن بقية القلاع التي عددناها، وهي بهذه الزيارة تعطي أقسى الدروس وأبلغ العبر عن رسوخ القدماء في فنون البناء والهندسة العسكرية، وبطولاتهم في الهجوم والدفاع والحصار والقصف بالمنجنيقات، والرمي بالنبال والقذائف اليدوية، وأمثالها من أدوات حروب تلك العصور.

تقع هذه القلعة فوق ذروة جبل مستطيل شاهق في شمالي شرقي قرية بانياس، وعلى علو 300 متر عنها، وهذا الجبل ذو منحدرات هائلة، واقفة كالجدران في

أطرافه الثلاثة، ولذا؛ لا يوصل إلى هذه القلعة إلا من طرف واحد، والقلعة قائمة على صهوة هذا الجبل التي طولها نحو 550 مترًا، وأكبر عرض فيها لا يزيد على 30 مترًا، ومن ثم، كان مخططها العام يشبه رقم8، أي إنها رفيعة في وسطها، غليظة في طرفيها.

الزائر يدخل القلعة من ثغرة في طرفها الجنوبي الغربي، من بين البرجين المؤشر إليهما بحرفي أ وع في المخطط، وفي هذا المدخل يطل على مناظر الحولة الخضراء، وفيها مستعمرات الصهيونيين، وأحواض تربية السمك التي أحدثوها في مياه الأردن، وبعدها بحيرة الحولة الزرقاء، ووراءها أرض الخيط وسلسلة جبل عامل، وفي الشمال جبل الشيخ الهائل المرأى، المكللة هامته بالثلوج، وأعضاده المتدرجة، ووادي خشبة السحيق الذي يفصل جبل القلعة عن الأعضاد المذكورة، ووراءه من القرى جباثا الزيت ومجدل شمس وغيرها. وفي الشرق والجنوب الآكام الذاهبة صُعدًا نحو القنيطرة، وفيها طريق السيارات من القرى: عين قنية وزعورة وعين فيت ووادي سعار.

وإذا دخل الزائر الثغرة المذكورة، يجد أمامه باحة عظيمة، مستطيلة من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي، أرضها غير مستوية، بل فيها تضاريس طبيعية، وهي ملآنة بأنقاض مبانٍ كثيرة، كمهاجع الجنود والمستودعات والأفران والإسطبلات والمساكن وصهاريج ماء عميقة، وأقبية واسعة»[348].

[348] أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، ج2، ص 570 وما بعدها.

وصف القلعة في «الدليل الأزرق»

في منتصف الباحة بناء (غ) مربع الشكل، يُظن أنه كنيسة، ما يزال فيها بقايا أعمدة، قواعدها مثمنة الأضلاع، ويحيط بهذه الباحة من كل الجهات سور عظيم، فالقسم الشرقي منه محتاج للدفاع أكثر، بنوا فيه ستة أبراج عظيمة، منها ما هو مربع الشكل، ومنها ما هو مدور نصف تدوير، وهذه الأبراج بعضها مرتبط ببعض بجدران ضخمة، تدعى سجوف الخط الدفاعي، عرضها لا يقل عن أربعة أمتار، وقد فتحوا فيها مرام للضرب، وملؤوا أحشاءها بأحجار غشيمة (بلوكاج)، وكسوا سطوحها بأحجار منحوتة نحتًا جميلًا، بعضها مسطح تمامًا وبعضها ناتئ (صوري)، وأكثرها من الحجم المتوسط، وقد كان في تيجان هذه السجوف زوافر بارزة للرمي قد خربت تمامًا، وعلى يمين الداخل من الثغرة المذكورة برج عظيم مربع الشكل شديد البروز (أ) متهدم، ما خلا قسم كبير من جدار مع درج وثلاثة طوابق للدفاع، ويمكن أن يصل الزائر إلى الطابق الأعلى من سطح مائل معقود، يقع وراء سجف الخط الدفاعي، فيجد نفسه وسط بهو واطئ مسقوف بعقود ذات زوايا جدرانها بارزة، وفي هذا البهو عدة منافذ، يوصل منها إلى غرفتين معقودتين، قد ثقب في جدرانهما مرامٍ، والطوابق السفلى تحتوي على الوضع نفسه، وفي جانب هذا البرج حفروا صهريجًا عظيمًا (ب) عميقًا معقودًا قد امتلأ بماء آسن، وله درج للنزول إليه، وفي الواجهة الشرقية للقلعة بعد البرج الأول يأتي البرج الثاني المربع شكله (ت)، والمدخل الأصلي للقلعة كائن في وسطه، وهو الآن مطمور، وكان هذا المدخل ذا أدراج وضيقًا وواطئًا، يعلوه قوس ذو زاوية حادة، وكان إذا ولجه الزائر يجد نفسه وسط بهو معقود، وفي سجف خط الدفاع، بين البرج الثاني

والثالث، كان ينفتح خمس كوى، عمقها متران ونصف، معقودة بعقود حادة ومثقوبة بمرمى، يطل على طريق الوصول إلى القلعة، ثم يأتي البرج الثالث (ث) المدور والبارز إلى الأمام، والمكلف بالدفاع عن المدخل الأصلي المذكور، ولم يكن في هذا البرج سوى طابق دفاعي واحد، هو بهو كثير الأضلاع، مسقوف بعقود ذات زوايا بارزة ترتكز على ركيزة متوسطة، وثمة ست كوى ذات عقود مقوسة، جُهزت بمرامي تنفتح نحو جوانب البهو المضلع المذكور، وكانت هذه الكوى تمكن من ضرب كل النقاط المجاورة لطريق الوصول إلى القلعة، وثمة درج مزدوج يوصل إلى السطح. أما تيجان هذا السطح فقد زالت بتاتًا، على أنه لايزال يضع زوافر كانت تحمل دهليز الشرفات المثقوبة، وسجوف خط الدفاع على جانبي البرج الرابع (ج) خراب بالمرة، لم يبق منها سوى قواعد جدرانها، وهذا البرج الرابع مدور يحتوي طبقة دفاعية معقودة، ولكن ليس له ركيزة متوسطة، وهو مثقوب بمرامي بقي منها اثنتان، وكان في بهو الطابق باب جانبي يوصل إلى طريق المراقبة، وهذه الطريق كانت ممتدة في كل سجوف خط الدفاع، وكانت مسقوفة بعقود، وجُعلت لأجل اتصال الرقباء بعضهم ببعض. وبعد البرج الخامس والسادس ترتفع أرض الباحة تدريجًا نحو الشمال الشرقي، وفي أرفع نقطة منها يصل الزائر إلى الحصن الكبير (س) الذي يشرف على القلعة كلها، وأكثر هذا الحصن متهدم، وأحجاره منقلبة، ومركومة شأن بقية مباني القلعة، وكان هذا الحصن يؤلف قلعة داخلية مستقلة؛ لأنه محصن من جنوبه الغربي من ناحية الباحة بخندق عريض وبرجين ضخمين مربعين (ر، ز)، ويصل الزائر إلى هذا البرج بدرج مهدوم بعضه يقع في واجهته الغربية، وأمام هذه الواجهة صهريج للماء عظيم عميق، وفي وسط الحصن بناء مستطيل الشكل، كان يؤلف الصيصة الأخيرة، وهو

أيضًا مستقل عن بقية الحصن. وكان يحتوي بهوًا كبيرًا. وتحت هذا الحصن تمتد دهاليز معقودة، بعضها يوصل إلى البرج البارز الأخير (ح) الذي يؤلف النقطة القصوى للقلعة نحو الشرق، وكان هذا البرج أقوى جميع الأبراج وأمنعها، وإذا كان قائمًا فوق قمة زاوية حادة، صار لبنائه تضرسًا عظيمًا، وطبقة الدفاع فيه بهو مثمن الزوايا، والجهات الست التي تشرف على الخارج كانت مثقوبة بست كوى مع مرامي، وفي الجهتين الداخليتين فتحوا بابين، كانا يتصلان مع سجوف خط الدفاع المجاور، ومن أحد هذين البابين كان ينفذ إلى غرفة طويلة معقودة، قد تهدمت بالكلية، وبعدها بهو كبير معقود أيضًا (ش) يقع في أقصى الشمال الغربي، وكان هذا البهو مؤلفًا من ثلاثة «بوايك» مزدوجة العقود منفصلة عن بعضها بأقواس بارزة. وكانت الأعصاب محملة على زوافر وأرجل العقود محملة على ركيزتين في الوسط، وهذا البهو لم يبق منه سوى اثنان من جُدُره مع بعض قطع من عقوده، وكان له باب سري للخروج، وله دهليز معقود يهبط في الشرق نحو الوادي، والواجهة الشمالية لهذه القلعة مبنية على شفا منحدر سحيق، يقف وقفة عمودية هائلة فوق وادي خشبة.

وهذا الوضع الموجب للاطمئنان، حمل بناة هذه القلعة على إقامة سور بسيط على الشفا المذكور، ومع هذا فقد وضعوا فيه ثلاثة أبراج الأول (ص)، وفي أسجف الحصن الذي تقدم ذكره ليحمي جدار السور الذي بين (ش) و(ص)، والثاني (ض) في نقطة متوسطة من السور، يحمي ما بينه وبين البرج الثالث، والثالث (ط) في الطرف الغربي لهذا السور، وفي خارج الواجهة الغربية للقلعة، حيث الثغرة التي دخلنا منها، ترتفع أرض الجبل، وتؤلف سطحًا يُخشى منه؛ وهذا ما حمل بناة

القلعة على أن يحفروا هناك خندقًا عميقًا، حموه بجدار عظيم عريض، أحجاره من الرضام (البلوك) المنحوتة نحتًا ناتئًا (صوريًا)، وهي من صنع العرب، وفرشها وروابطها مستقيمة تمامًا، ولا يزال قسم من هذا الجدار قائمًا. أما البقية فقد تهدمت وتدحرجت نحو الخندق المذكور، وأضحت أكوامًا من الأنقاض. وثمة قسم آخر مؤلف من رضام (بلوك) مصفوفة، وهي أيضًا من صنع العرب، ويرى الزائر هناك أيضًا مجموعة جدران مؤلفة من أحجار صغيرة قليلة الانتظام، سُدّت بها الثغرات في مختلف العهود.

وفي الواجهة العربية المذكورة -أيضًا- برج خراب مربع الشكل (ظ) جدران استناده مرممة بأحجار صغيرة، تتخللها أحجار من التي ذكرنا ضخامتها البالغة.

وفي جدار هذا البرج، وعند قاعدته، ينفتح في أرض الباحة السماوية سرداب محفور في الأرض ملآن بالأنقاض، يهبط بدرج إلى لحف الجبل، وهذا السرداب يتجه -بادئ ذي بدء- نحو الشمال ثم ينعطف فجأة نحو الشرق، ويقف بعد نحو 20-30 مترًا. وجدرانه الجانبية مؤلفة من بلوكات منحوتة نحتًا صقيلًا، مساحتها تبلغ حتى 3،30 مترًا طولًا و1،20 عرضًا. وهذه الجدران قد طليت بالإسمنت (الملاط) وصُفت صفًا غاية في الإتقان، وجُعل فوقها عقد دائري مائل بقوس حاد القمة. وفي أقصى الطرف الأسفل من هذا السرداب، حيث المنظر يأخذ منتهى روعته، ثقب محفور في الأرض مملوء بالأنقاض، ولعله كان منفذًا للاتصال مع الخارج. وهذا السرداب الغريب جدًا لابد من أنه كان بابًا سريًا يفضي إلى أحد جوانب الوادي. وعلى جانب مدخل السرداب المذكور باب مسدود كان يفضي إلى داخل البرج، حوله كتابة عربية، ولعله كان بابًا سريًا يفضي إلى الباحة

السماوية، أو كان بابًا ثانويًا للقلعة. وعلى يمين هذا الباب وفي جدار سجف خط الدفاع فتحة من الأبواب الخداعة، وفوقها قوس ذو زاوية حادة ومدخنة تمر وسط الجدار؛ حتى أضراس السجف المذكور، وفي نقطة (ع) بناء مستطيل غير منتظم خراب بالمرة[349].

كتابات ونقوش القلعة

الكتابات منقولة عن العالم الآثاري، ماكس فان برشم[350]

في الجهة الجنوبية الغربية، عند البرج الذي فيه النفق الهابط:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بعمارة هذه الثغر (؟) المحروس العبد الخاطئ، الفقير إلى رحمة الله، عثمان بن مولانا السلطان الأعظم، الملك العادل العالم المجاهد المرابط الغازي الشهيد، أبي بكر بن أيوب، تغمده الله برحمته.

كان بناء هذا البرج العبد(؟) في شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وستمئة، وتولى عمارته العبد الفقير، أبي بكر بن نصر الله بن أبي سراقة الهمذاني العزيزي.

[349] Les guides bleus. Syrie Palestine. Paris 1932

[350] المجلة الآسيوية (باللغة الفرنسية)، عدد تشرين الثاني- كانون الأول، 1888م.

وفي منتهى الطرف الشمالي الشرقي للقلعة، على أحد جُدُر السجوف المحيطة بالحصن:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بإنشاء هذه الباشورة المباركة مولانا السلطان الملك العزيز عماد الدين سيف الإسلام، أخ الملوك شمس السلاطين أبو الفتح بن الملك العالم ناصر أمير المؤمنين؛ تقربًا إلى الله؛ ردًا له، سنة خمس وعشرين وستمئة.

وعلى نافذة ممدودة في أحد الأبراج:

بسم الله الرحمن الرحيم

جدد هذا المكان المبارك الملك السعيد، مجير الدين حسن بن مولانا السلطان الملك العزيز عماد الدين، سنة سبع وستمئة.

وبين أنقاض البرج الغربي حجران كبيران، عليهما كتابات بالخط النسخي:

الأول

السلطان الملك الظاهر أبو الفتح الصالحي أميراـ ... ختو ... المولى الرجوم ملك ...

الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

شيد هذا ... سلطان الإسلام والمسلمين قا ... الحق... الألامجدي الأسعد الحلايي المخدومي النذيري ... بن أيوب أمير الأمرا.

وفي أحد الأبراج على حجر فوق مرمى:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بإنشاء هذا البناء مولانا السلطان بن مولانا السلطان الملك العزيز عثمان ... بن صلاح ... سنة خمس وعشرين وستمائة.

تاريخ موجز

تتفق المصادر العربية على أن الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان الملك العادل، أبي بكر بن أيوب، شقيق السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، هو الذي بنى قلعة الصُّبيبة.

وهناك من يخلط بين هذا الملك وابن عمه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين الذي خلف والده في حكم مصر، وتوفي عام 595 هجرية، أي: قبل بناء قلعة الصبيبة بنحو ربع قرن.

فبعد وفاة الملك العادل، أبو بكر بن أيوب، في خربة اللصوص في الجولان سنة 615 للهجرة، بحسب ما يذكر ياقوت الحموي، استقر أمر الجولان بيد ولده الملك العزيز عثمان الذي استقر في بانياس، وكانت له حصون تبنين وهونين، وأعمال ذلك، وأماكن عدة من بلد دمشق، مثل خسفين في الجولان ونوى وغيرها، وكان في خدمة أخيه الملك المعظم صاحب دمشق.

وفي رواية النويري أنه لما آلت الأمور -بعد وفاة الملك العادل- إلى ابنه الملك المعظم، أقرّ أحوال دمشق، على ما هي عليه في أيام والده بقية جمادى الآخرة.

فلما استهل شهر رجب، أعاد المكوس، وأطلق الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان إلا أن أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنجة.

ثم سار إلى بانياس، وراسل الأمير صارم الدين التبيني في تسليم الحصون التي بيده، فأجاب إلى ذلك، وسلّمها، فأخرب الملك المعظم بانياس وتبنين. وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جهاركس لأخيه الملك العزيز عثمان، وزوجه ابنة جهاركس. ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون، فأكرمهم الملك المعظم وأحسن إليهم، وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفًا من استيلاء الفرنجة عليها[351].

ويذكر الذهبي في تاريخ الإسلام في ترجمة عثمان، الملك العزيز بن العادل. أنه كان في خدمة أخيه المعظم، وهو الذي بنى قلعة الصُّبيبة، وكانت له، هي وبانياس وتبنين وهونين. ويقول الذهبي: إنه كان عاقلًا، قليل الكلام تبعًا لأخيه المعظّم. عامل بعد موت أخيه على قلعة بعلبك، وأخذها من الأمجد. وكتب إليه ولد الأمجد: قد نشرت لك باب السّر، فآت إلينا سحرًا، فساق من الصُّبيبة في أول اللّيل، وفي المسافة بعدٌ، فجاء بعلبك، وقد أسفر وفات المقصود، فنزل مقابل قلعة بعلبك، فبعث صاحبها يستنجد بالسلطان الملك النّاصر داود، فأرسل الغرس خليل إلى العزيز يقول: ارحل من كلّ بدّ فإن أبى، فارم الخيمة عليه. وعلم العزيز بذلك، فردّ إلى بلاده. فلمّا قصد الكامل دمشق، كان العزيز معه إلبًا على الناصر، وعلم الأمجد بما فعل ولده معه، فيقال: إنّه أهلكه.

---

[351] النويري، نهاية الأرب ، ج29، ص84-86.

ويقول الذهبي: إن العزيز عثمان مات ببستانه المعروف بالنّاعمة ببيت لهيا في دمشق في عاشر رمضان، ودفن بالتّربة المعظّميّة بقاسيون.

ويخبرنا النويري في نهاية الأرب أن وفاة الملك العزيز فخر الدين عثمان بن السلطان الملك العادل، سيف الدين أبي بكر بن أيوب، كانت في سنة 630 للهجرة [1223م]. وكان صاحب بانياس وتبنين وهونين والحصون. ويعود للتأكيد مجددًا أنه هو الذي بنى قلعة الصبيبة[352].

بعد وفاة الملك العزيز آل أمر الصبيبة وبانياس إلى ابنه الملك الظاهر الذي توفي سنة 631 هجرية؛ فتملك بعده شقيقه الملك السعيد الحسن بن الملك العزيز عثمان، إلى أن انتزع الصبيبة منه الصالح نجم الدين أيوب، فلما قتل المعظم، هرب الملك السعيد إلى غزة، وأخذ ما فيها، وتوجه إلى الصبيبة وتسلمها.

فلما ملك الملك الناصر الشام، أخذ الملك السعيد واعتقله في قلعة البيرة (على الفرات)، فلما دخل هولاكو الشام، وملك التتار البيرة، أخرجوه من السجن، وأُحضر عند الملك بقيوده، فأطلقه وخلع عليه بسراقوج وصار من جملتهم، ومال إليهم بكليته، وكان يقع في الملك الناصر عندهم ويحرض على هلاكه، فسلموا إليه الصبيبة وبانياس، وبقي في خدمة كتبغا نوين لا يفارقه، وحضر معه مصاف عين جالوت، وقاتل مع التتار قتالًا شديدًا، وكان بطلًا شجاعًا، فلما كُسروا، حضر بين يدي السلطان قطز. فقال: هذا ما يجيء منه خيرٌ؛ فأمر بضرب عنقه، فقُتل سنة ثمان وخمسين وستمائة[353].

---

[352] النويري، نهاية الأرب، ج29، ص 190.

[353] الصفدي، الوافي بالوفيات، المجلد الثاني عشر، ص 100-101.

ويبدو أن التتار بعد هزيمتهم في عين جالوت قد أخربوا قلعة الصبيبة، بعد أن كانت بيد حليفهم الملك السعيد، وبقيت على هذه الحال إلى أن رممها سنة 665 للهجرة [1266] الملك الظاهر بيبرس البندقداري؛ إذ كانت تحت ولاية الأمير علم الدين سنجر الحلبي الملقب بالملك المجاهد(354)، شريك السلطان في دمشق وبعلبك والصُّبيبة وبانياس.

ويروي اليونيني في تعداده لمنجزات الملك الظاهر أن التتار كانوا قد خربوا قلعة الصبيبة في الجولان، ولم يقوا منها إلا الآثار، فجددها وأنشأ لجامعها منارة، وبنى بها دارًا لنائب السلطنة، وعمل جسرًا يُمشى عليه إلى القلعة(355)

ويقع اليونيني في خطأ واضح هنا؛ إذ ينسب إلى الملك الظاهر بيبرس أنه بنى جسرًا يُمشى عليه إلى القلعة، وهذا الجسر -حقيقة- هو الجسر الذي يخص قلعة بانياس، وليس الصبيبة، وآثاره موجودة حتى اليوم في بانياس؛ لأن قلعة الصبيبة لا تحتمل بناء أي جسر للدخول إليها، وتكفي نظرة واحدة إلى المدخل الوحيد الذي يوصل إليها؛ لكي يدرك المرء أن بناء الجسر في هذا الموضع مستحيل، وربما مما يُغفر لليونيني خلطه هذا أن اسم الصبيبة كان أهم من اسم بانياس في زمنه، ومن الواضح أنه لم يزر المكان، وإلاّ لما وقع في هذا الخلط الذي وقع فيه كثيرون غيره بعد ذلك.

(354) العيني، عقد الجمان، ص287.

(355) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص 259-260.

مواقع أخرى

خسفين

ترتفع عن سطح البحر نحو 440 م وتقع على طريق القنيطرة – فيق، وبين مسيل المدح شمالًا ومسيل خسفين جنوبًا، وفي منطقة منبسطة مفتوحة على وادي السمك، مائلة عمومًا باتجاه الجنوب، وأيضًا تقع غرب الرقاد بنحو (3 كم)، وجنوب غرب تل السقي بنحو 2.5 كم، وجنوب رجم الهري 7.5 كم، وشمال شرق فيق 13 كم، وشرق بحيرة طبريا 15 كم.

في الموقع بقايا قديمة، منها أعمدة وتيجان وصلبان منحوتة وكتابات يونانية وبقايا فسيفساء، إضافة إلى ثلاث كنائس ودير، وتتكون إحدى الكتابات من ثلاثة سطور نُقشت في حجر يبلغ طوله 3.35 مترًا، وعرضه 65 سم وتذكّر أسماء أشخاص أسهموا في البناء، تخليدًا لذكرى أبيهم، وتصف المبنى بأنه مكان مقدس، وتشير إلى مساعدة الكاهن توما ورئيس الدير، وتذكر تاريخ الكتابة، حيث يرد تموز 697، ويُرجح أن هذا التاريخ يعود إلى تقويم مدينة صور ويوافق 618 مترًا أو 561 مترًا.

وعُثر في الموقع على أسكفة حجرية عليا، عليها نحت زهرات وكتابة يونانية داخل باقة ورد وأوراق عنب وعناقيد، ونخلة مع عصفور وأفعى تنتصب باتجاه النخلة، وعُثر فيه -أيضًا- على لوحات وأعمدة ضفائر هي بقايا كنيسة، إضافة إلى

تمثال من الحجر البازلتي، له وجه إنسان مميز بأنف بارز وتجويف مقعر في الرأس، ويعود هذا التمثال إلى العصر الحجري النحاسي (كالكوليت).

ويُعدّ موقع خسفين هو الأغنى -حتى اليوم- بالأدوات والمشغولات الذهبية والعاجية والبرونزية التي يحتفظ المتحف الوطني في دمشق بكثير منها، تحف زجاجية تعود إلى العصر الروماني. وتمثال فيل برونزي، وعلبة مجوهرات مربعة الشكل، يعلوها نحت بارز يمثل ربات الجمال الثلاث، وتماثيل من البرونز لأفروديت.

قلعة السنام

تقع قلعة السنام في منطقة صخرية كثيرة الجروف، بين وادي دالية ودير قروح ومزرعة القنيطرة، في جنوب الجولان، وتأخذ شكل سنام جمل، يمتد من الشرق إلى الغرب.

بُنيت هذه القلعة بناءً متقنًا خلال الحقبة الهيلّينية، وعُثر فيها على لقيات؛ تعود إلى العصر البرونزي.

يمتد سور القلعة من رأس المنحدر شمالًا؛ وحتى وادي الدالية جنوبًا على امتداد يصل إلى 350 مترًا، حيث أُغلق السور من الشرق، بينما حمت القلعة من الجهات الأخرى مناطق طبيعية منيعة يصعب سلوكها.

وجرى اكتشاف برج دائري في رأس المنحدر في طرفه الشمال شرقي، تهدم وانهارت حجارته.

كما عُثر على مبنى عام كبير الحجم، أبعاده 19 x23 مترًا، وهذا المبنى يبدو أنه المبنى العام الرئيس لهذه القلعة، وقد زعم علماء الآثار الإسرائيليون أنه كنيس يهودي؛ بسبب اتجاهه نحو الجنوب الغربي. ومن أجل ذلك جرى ترميم المبنى على هذا الأساس حيث أحيطت جُدُر هذا المبني من الداخل بمقاعد حجرية من الجهات الأربع؛ للتدليل على أن البناء كان كنيسًا يهوديًا!. وعلى الرغم من تأكيد علماء الآثار الإسرائيليين الذين نقبوا في أكثر من 15 موسمَ تنقيب في المكان، أنهم لم يعثروا على أي سند آثاري يدعم افتراضاتهم، إلا أنهم يؤكدون أن هذا المكان يتطابق مع مدينة جملا التي تحدث عنها جوزيفوس فلافيوس، وقال بأن اليهود في أثناء الثورة على الرومان اتخذوها موقعًا صمد شهرًا كاملًا، قبل أن ينفذ الرومان مذبحة، ذهب ضحيتها خمسة آلاف، وانتحر خمسة آلاف آخرون، في موقف بطوليٍّ؛ لكي لا يُقتلوا بيد الرومان!

ولكن المعضلة التي واجهت علماء الآثار الإسرائيليين، وما زالت تواجههم حتى اليوم، أن هذا المبنى الذي قيل إنه كنيس؛ بسبب توجه بنائه نحو القدس، كبير جدًا على كنيس يهودي، ولذلك قالوا إنه كان مكانًا لعقد الاجتماعات أيضًا! وعُثر على مجمع سكني صغير بالقرب من القلعة، وعلى معاصر زيتون.

إن الآثار التي عُثر عليها في المكان، جميعها ينتمي إلى الحقبتين: الهيلينية والعصر البرونزي الأول، وما أثار استغراب العلماء الإسرائيليين حتى الآن، عدم العثور على أي إشارة وأثر يعود تاريخه إلى عهد الثورة اليهودية ضد الرومان، وهذا خلق لعلماء الآثار الإسرائيليين مشكلات لم يجدوا تفسيرًا لها حتى الآن، بحسب التعبير الحرفي للباحث الإسرائيلي شمرياهو غوتمان.

ولذلك؛ لجأ علماء الآثار إلى اللعبة القديمة، وهي حكاية العثور على عملات يهودية في المكان، وهذه خدعة لا تنطلي على أحد، خصوصًا أن العملة التي يتحدثون عنها فريدة من نوعها، ولم يُعثر على مثيل لها في العالم، وهي من البرونز، وعليها عبارة «من أجل عزة أورشليم»، كُتبت بلغة عبرية قديمة (!!!)، وقالوا -أيضًا- إنهم عثروا على عملة لرمز الفيالق الرومانية التي حاربت جملا. وقد أراد المزيفون الإسرائيليون من وراء ذلك إثبات أن يهودًا كانوا يعيشون في القلعة، وأن الرومان جلبوا معهم عملة تدل على زمن تحطيم جملا. وهي لعبة قديمة كُشفت أكثر من مرة، وسببت فضائح لعلماء الآثار الإسرائيليين في العالم، وليس أدل على ذلك من مهزلة العثور على منزل الملك داوود في تل القاضي في الجولان، وقد كُتب كثير عن هذه الفضيحة. أما العملات الأخرى التي عُثر عليها، فجميعها تعود إلى الحقبة الهيلينية وبداية الرومانية، 140 و53 و67 و40 قبل الميلاد، وقد سُكَّت جميعها في صور.

وكان عالم الآثار الكتابي سيلا ميريل، قد جزم بأن موقع جملا -كما وصفه جوزيفوس- يتطابق تمامًا مع موقع قلعة الحصن، وكتب حول ذلك ما يلي: «في سرد جوزيفوس لأحداث حصار جملة نجد أن وصفه للمدينة دقيق ومحدد جدًا، إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون هناك أي إمكانية للخطأ أو الشك في المكان الذي يعنيه. (حروب 4، 1، 1 وما يليها). وهي تدعى حاليًا الحصن، وهذا يعني القلعة، وكما هو الحال غالبًا في ما يخص المدن ذات الأهمية، أعطت جملة اسمها لمقاطعة صغيرة من الواضح أنها تقع -أساسًا- إلى الشمال منها (العصور القديمة، 18، 1،5)، وقد قاد نزاع حول حدود (Gamalitis) (مقاطعة جملة) إلى

حرب بين هيرود أنتيباس وأريتاس (الحارث)، «ملك البتراء العربية» (المصدر السابق). وورد أول ذكر للمكان في زمن الكسندر ينّاي الذي دمرها. ويدور الحديث -هنا- عن «حصن ذي قوة كبيرة» (حروب، 1، 4، 8) (العصور القديمة، 13، 15، 3). وفي الحقيقة، يتحدث جيوزيفوس عنها عامة بأنها «حصن» (الحياة، 4، 1، 1، وما بعدها). ولا حاجة -هنا- لتكرار الوصف الكامل للمكان الوارد في (حروب، 4، 1، 1، وما بعدها). بعد تدميرها في الحرب اليهودية لم تذكر ثانية، بحسب علمنا، أما بالنسبة إلى جملة الواردة في المشناه «التي حصنها يوشع»، فربما كانت في الجليل، كما تذكر الجيماراه (Gemara) (القسم الثاني من التلمود) (شوارتز Schwarz) (ص150، نيوباور Newbawer ص240). ولا يرد الاسم لدى (أوزيبيوس) (Eusebius)، أو جيروم (Jerome)، ولا يرد -أيضًا- بين مدن الديكابوليس (المدن العشر) في أي من القوائم المختلفة. فضلًا عن ذلك، يقول بليني (Pliny) في وصفه لبحر الجليل: إنه محاط بمدن مبهجة. ويذكر جولياس (Julias) وهيبوس (Hippos) في الشرق وتاريشيا (Tarichea) في الجنوب وطبريا في الغرب. غير أن جملة لا تذكر، مثلما كنا نتوقع، على أنها كانت مدينة مهمة إلى الشرق من البحيرة في ذلك الوقت، وكنا نتوقع أن نرى اسم جملة بدلًا من هيبوس، وحقيقة اختفاء الاسم أمر مهم»[356].

ويتضح مما سبق سخف الاعتماد على كتب جوزيفوس وحدها، في حسم هوية مكان ما، نظرًا إلى اضطراب هذه المعلومات وانطباقها على أكثر من مكان، كما لاحظنا.

---

[356] استكشاف الجولان، تيسير خلف، ص 154-155.

الرفيد

يرتفع موقع الرفيد عن سطح البحر نحو 690 مترًا، ويقع جنوب وادي العشة وعلى طريق القنيطرة – نوى، وجنوب شرق تل الفرس بنحو 3.5 كم، وجنوب كودنة نحو 6 كم، وشمال غرب تل الجابية بنحو 3.5 كم، وغرب وادي الرقاد بنحو 3 كم، في منطقة منبسطة تميل عمومًا باتجاه الجنوب.

في جنوب الموقع كنيسة كبيرة وبسيطة، تضم قناطر كبيرة، وقد شُيدت هذه الكنيسة بجوار كنيسة أخرى أقدم، وآلت إلى الخراب، وفي الشمال الشرقي للموقع حي قديم، تتكون نوافذ بعض بيوته من حجر واحد، في شكل قوس، وفي وسط هذا الحي مبنى كبير وبوابة كبيرة مقنطرة تؤدي إلى وسط المبنى، حيث ساحة داخلية كبيرة وقاعة طولانية في الجهة اليمنى، بقيت قناطرها على الرغم من تداعي الألواح العرضانية للسقف، وفي هذا المبنى قناطر أخرى، ونوافذ وخزائن جدارية، ويبدو أن المبنى كان طابقين وأشبه بما يعرف اليوم «الفيلا» وتقع خلف هذا المبنى مبان أخرى، تظهر فيها آثار الدرج الذي كان يؤدي إلى الطوابق العليا.

يغلب الطراز الحوراني على الأبنية، وهو طراز معروف بقناطره وسقفه الحجري وعُثر في الموقع على أبنية تحت أرضية مسقوفة بألواح حجرية، ووُجدت أسكفات ونقوش على شكل الصحون وغير ذلك، إضافة إلى نقوش صلبان وورود، وكوى مربعة، ويبدو أن الموقع شيد في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، وازدهر في القرنين: الخامس والسادس الميلاديين.

الرمثانية

تقع جنوب غرب القنيطرة بنحو 11.5 كم، وشمال غرب الخشنية بنحو 2.5 كم وعند الأقدام الشمالية لتل الرمثانية، الذي يبلغ ارتفاعه نحو 868 مترًا، وفي منطقة منبسطة، تنحدر باتجاه الجنوب الغربي نحو وادي اليعربية، ويرتفع موقع الرمثانية عن سطح البحر نحو 800 متر، ويمر إلى الجنوب الشرقي منها وادي عين جريب الذي يأخذ اسم وادي الصفيات بعد الرمثانية.

في أعالي تل الرمثانية هناك موقع مسيحي، وهو كنيسة صغيرة مع نحت صليب على إحدى القناطر، وإلى جوارها غرفة محفورة في الصخر فيها تجاويف، ربما استُخدمت للدفن، وفي الموقع مبنى كبير، ربما كان الأجمل في الجولان، أبوابه تحمل أسكفة عليا مزينة بالصلبان المنحوتة وعناقيد العنب، وفي داخله قاعة قناطر واسعة ومزدوجة، وتظهر على جُدُره المنقوشة كتابات يونانية في وسطها شجرة نخيل وأرنب ونقوش مختلفة.

وفي الجزء الشمالي من القرية توجد مبان وجُدُر مبنية بحجارة كبيرة، تحمل كتابات يونانية، إحداها على أسكفة جميلة، وهناك كتابة من أحد عشر سطرًا نُقشت في حجر، إضافة إلى أسكفة تحمل نقش صليب معقوف، في وسطه صليب آخر.

الصرمان

موقع قديم، يبعد نحو 3 كم إلى الجنوب من مدينة القنيطرة، ويقع على خاصرة تل، يحمل الاسم نفسه، ويرتفع نحو ألف متر عن سطح البحر، ويشكل واحدًا من تلال وسط الجولان، مشرفًا على وادي الرقاد شرقًا، وتكبر في محيطه البرك الطبيعية والصناعية، والآبار القديمة.

في الموقع أطلال بلدة قديمة، كانت تعد واحدة من أكبر خمس بلدات في الجولان، في العصر الروماني ـ البيزنطي، ورد اسم الصرمان في الوثائق الصليبية، وكانت الصرمان واحدة من ثلاثة مواقع وقفية للسلطان الظاهر بيبرس في الجولان؛ ما يؤكد أن الموقع كان مأهولًا في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

وُجد في هذا الموقع كثير من الآثار واللقيات النفيسة التي تؤكد الازدهار الذي شهده في العصور المختلفة، منها -على سبيل المثال- كنيسة في حال جيدة، في قمة التل، يُعتقد أنها من العصر البيزنطي، تحمل جُدُرها صورًا وزخارف ملونة. ومبان رومانية ـ بيزنطية على الطراز الحوراني، استخدمها السكان؛ حتى حزيران من عام 1967، وأبواب حجرية، وأحجار منحوتة مزخرفة، وسقوف من أحجار الربد. و37 كتابة، جميعها باليونانية، ومعظمها على شاهدات قبور، وبعضها على أسكفات عليا من العصر البيزنطي. إضافة إلى مغاور قبور في تل الصرمان، وفي تلي تاوكش وبات كري المجاورين، تضم محل مغارة عدة كوى، وقبورًا من العصر المملوكي، عُثر فيها على هاونات وقبضات لهاون من البازلت، وعملات من العصر الهلينستي؛ وحتى العصر البيزنطي، والأموي. وقطعًا أثرية قديمة، تضم تماثيل

صغيرة، وعربة صغيرة تجرها الخيول، مصنوعة من الذهب. وقبور دولمن في أراضي القرية، من أنواع مختلفة، وأحجار رحى، ومعاصر زيت.

وتنتشر المغاور انتشارًا لافتًا للنظر في تل تاوكش الذي يقع شمال الموقع، بين تل الصرمان وتل القحطانية، وتمتد هذه المغاور من أسفل هذا التل إلى أعلاه، حتى أن بعضهم تحدث عن اتصال بعض هذه المغاور ببعض، فهل تمثل هذه المغاور قرية تحت أرضية، أم مقبرة كبيرة؟! وتتألف كل مغارة، من باب كبير، وثلاثة جُدُر، وسقف، وفي كل جدار عدد من الكوى، يُعتقد أنها بمنزلة قبور قديمة، من دون نفي أن تكون هذه المغاور بيوتًا لأقوام قديمة، تحولت -لاحقًا- إلى مقابر.

وتوجد خربة إلى الشرق من تل الخريعة، كانت تُعرف باسم خربة الخريعة، وتبدو هذه الخربة من مخططها، أنها كانت تجمعًا بشريًا صغيرًا، يعود تاريخها إلى بدايات تشكل القرى في الجولان، وكان للخربة مدخل واحد، يقع في الجانب الجنوبي.

إضافة إلى ما تقدم، هناك معلمان أثريان، يؤكدان التطور الذي شهده موقع الصرمان في العصور القديمة، وهما بركتان: تُعرف الأولى بالبركة الصغيرة، وتقع عند الأقدام الشمالية لتل الصرمان، وتعد البركة الصغيرة بركة صناعية، أقيمت في إطار مشروع صناعي لإنتاج الفخار، في شكل قُمع، وتقع إلى الغرب منها مباشرة قطعة أرض مليئة بقطع الفخار، وتقع إلى شمالها مباشرة بئران، استخدمتا لتأمين مياه شرب للعمال والسكان في آن معًا، وقد عرفت منطقة الجولان صناعة الفخار

في وقت مبكر. أما البركة الكبيرة، فهي بركة صناعية أيضًا، مؤلفة من سد تجميعي صغير؛ من أجل تأمين المياه للحيوانات أيامَ الحر والجفاف.

إن وجود قبور الدولمن وأنموذج القرى الأولية في محيط القرية، والمغاور في الموقع وجواره، والعمران المتطور في الموقع، واللقيات المختلفة، والكنيسة، وقطع النقد المعدنية وصناعة الفخار، وأحجار الرحى، ومعاصر الزيت، وإقامة سد، يدل هذا كله دلالة قاطعة على أهمية هذا الموقع، ودوره في تاريخ الجولان، وموروثه الثقافي، وعلى قِدم الاستيطان البشري في هذا الموقع، وتواصله عبر مراحل التاريخ المختلفة، ويُرجح أن كثيرًا من حجارة هذا الموقع تقل إلى مواقع أخرى، ولا سيما القنيطرة وعين زيوان، والقحطانية.

جويزة

موقع قديم أعيد بناؤه عام 1878، يرتفع نحو 930 مترًا فوق سطح البحر، ويقع على طريق القنيطرة – فيق، بين مَسيلين يشكلان بدايات وادي اليعربية، وعلى بعد نحو عشرة كيلومترات جنوب القنيطرة، و2.5 كيلومتر غرب بريقة.

تغطي أحراج السنديان والبلوط والزعرور شمال شرق القرية، وتوجد فيها ينابيع غزيرة نسبيًا، وقد أخذت القرية اسمها من شجر الجوز.

وقد عُثر في شرقي الموقع على بقايا كنيسة من العصر البيزنطي، فيها كتابة يونانية تؤكد أنها بنيت؛ إحياءً لذكرى القديس ماركوس.

وعُثر -أيضًا- على بقايا أسكفات عليا، وشاهدات قبور عليها كتابات يونانية، وحطام فخاري من العصر الحديدي الثاني، وما بعده.

دوير اللوز

موقع قديم، أقيم على سفح وادي سيحان الذي ينتهي في وادي الرقاد، مقابل قرية عابدبن على الضفة اليمنى للرقاد، ويُعرف في أعاليه بمسيل صرعة، ويقع شرق العال بنحو خمسة كيلو مترات، وفي منتصف المسافة تقريبًا، بين حيتل وكفر الما.

تحدث عن الموقع شوماخر؛ فوصفه بكومة صغيرة من الخرائب، غير أن المسح اللاحق لآثار الجولان أفاد بوجود كنيسة قديمة، مبنية من حجارة البازلت، وقناطر من الحجارة الكلسية، وأعمدة متشابكة، وألواح من الحجر الكلسي، إضافة إلى فسيفساء بألوان كثيرة، بينها قطع زجاجية، وبركة ماء مستديرة ذات أقواس حجرية، وغرفة دُهنت جُدُرها بالكلس.

وفي الموقع بقايا أبنية قديمة في الجانب الشمالي الشرقي، ويُرجح أن الموقع كان ديرًا بدلالة اسمه، وربما تحدث شوماخر عن خربة سيحان بالقرب من عين سيحان، وفيها بقايا أبنية حافظت جُدُرها على ارتفاع 1.5 م، وفيها -أيضًا- حطام أعمدة حجرية وقواعدها، وتعود الفخاريات التي وجدت فيها إلى العصرين: البيزنطي والعثماني.

بريقة

ترتفع عن سطح البحر نحو 900 م، وتقع عند الأقدام الشمالية الشرقية لتل عكاشة، وجنوب شرق القنيطرة بنحو 10 كم، تنحدر أراضيها نحو الرقاد، ويغطي حرج من السنديان والبلوط والبطم والزعرور أراضيها الغربية.

تقوم القرية على موقع قديم، فقد عُثر على مواد صوانية، و يبدو أن الموقع كان آهلًا منذ العصر الهلينستي، و توجد في هذه القرية حجارة منحوتة و أعمدة وكتابات يونانية وكثير من الصلبان المنقوشة على الحجارة بأشكال مختلفة، وتوجد -كذلك-حجارة تحمل نقوشًا أخرى من الورود والأشكال الدائرية وكتابات يونانية، ويبدو أن الموقع كان يضم مجمعًا دينيًا مسيحيًا، إذ نجد بقايا هذا المجمع في جنوبي الموقع وهي سليمة نسبيًا، و يضم أبنية عدة، منها بناء مقنطر، و بناء آخر ما يزال الدرج قائمًا في أحد جُدُره، وكذلك في الموقع بيوت تحت أرضية مسقوفة بألواح حجرية.

المراجع العربية والمترجمة:

1- ابن الأثير. عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، د. عمر عبد السلام تدمري (محقق)، (بيروت: 1997).
2- ابن الجيعان، القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف، د. عمر عبد السلام تدمري (محقق)، (لبنان: منشورات جروس، 1984).
3- ابن القلانسي. أبو يعلى، ذيل تاريخ دمشق، (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908).
4- ابن الوردي. سراج الدين، خريدة العجائب، (القاهرة: المطبعة العامرة الشرقية، 1898).
5- ابن إياس الحنفي. محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (المطبعة الأميرية ببولاق، 1311 هـ).
6- ابن تغري بردي. جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، محمد حسن شمس الدين (تقديم وتعليق)، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية 1992).
7- ابن جبير، رحلة ابن جبير، سلسلة ادب الرحلات، (بيروت: طبعة دار التراث 1388 هـ).
8- ابن حوقل. محمد، صورة الأرض، (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1979).
9- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، (هولندا: ليدن، 1889).

10- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، محمد محي الدين عبد الحميد (محقق)، (القاهرة، 1948).

11- ابن شاهين الظاهري. غرس الدين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، بولس راويس (مصحح)، (باريس: 1894).

12- ابن شداد. بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، أحمد إيبش (محقق)، (دمشق: دار الأوائل للنشر والتوزيع، 2003).

13- ابن شداد. عز الدين، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام، د. سامي الدهان (محقق)، (دمشق: منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1962).

14- ابن صصرى. محمد بن ابن محمد، الدرة المضيّة في الدولة الظاهرية، وليم برينر (محقق)، (د.م: منشورات جامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأميركية، 1963).

15- ابن طولون. شمس الدين، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، محمد مصطفى (محقق)، (القاهرة، 1962-1964).

16- ابن عساكر. أبو القاسم، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضائلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، علي شيري (محقق)، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995).

17- ابن قاضي شهبة الدمشقي. تقي الدين، تاريخ ابن قاضي شهبة، عدنان درويش (محقق)، (دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية،1977).

18- ابن كثير. أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية، الشيخ علي محمد مسعوفي والشيخ عادل أحمد عبد الموجود (توثيق)، أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وآخرون (واضعو الحواشي)، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994).

19- ابن منظور. محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق، روحية النحاس، وآخرون (تحقيق)، (دمشق: دار الفكر، 1984م).

20- ابن منقذ. أسامة، كتاب الاعتبار، قاسم السامرائي (تحقيق وتقديم)، (الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، 1987).

21- ابن واضح الإخباري. أحمد بن يعقوب، تاريخ اليعقوبي، (النجف: المكتبة المرتضوية 1358هـ).

22- أبو الفداء. عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، ط1، (المطبعة الحسينية المصرية، د.ت).

23- -أبو الفداء، تقويم البلدان، رينود والبارون ماك كوكين ديسلان (محققان)، (باريس: المطبعة الملكية، 1840).

24- أبو شامة. شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، إبراهيم الزيبق (محقق)، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997).

25- أبو عساف. أمين، ذكرياتي، (دمشق، 1996).

26- أبو فخر. فندي، تاريخ لواء حوران الاجتماعي 1840-1918، (دمشق، 1999).

27- الأرناؤوط. محمد موفاكو، معطيات جديدة عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، (دمشق: دار الحصاد، 1993).

28- الأصفهاني. أبو الفرج، خزانة الأدب، (د.م: د.ت).

29- الأصفهاني. أبو الفرج، الأغاني، (د.م: د.ت).

30- الأندلسي. أبو عبيد الله، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، جمال طلبة (محقق)، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، 1998).

31- الإييش، أحمد، وقتيبة الشهابي، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، (دمشق: وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية 1998).

32- البشاري. شمس الدين، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، (هولندا: ليدن، دي خوييه، 1906).

33- البغدادي. صفي الدين، مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، لصفي الدين البغدادي، (بيروت: دار المعرفة، 1954).

34- البلاذري. أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، صلاح الدين المنجد (محقق)، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1956-1957م).

35- البيطار. عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، محمد بهجة البيطار (محقق)، (دمشق: مطبعة الترقي، 1961، 1963).

36- الحسين. محمد غالب، ثورة الجولان ضد الاحتلال الفرنسي، (دمشق، 1999).

37- الحلاق. أحمد البيديري، حوادث دمشق، محمد سعيد القاسمي (منقح)، أحمد عزت عبد الكريم (محقق)، ط2، (دمشق: دار سعد الدين دمشق، 1997).

38- الحموي. ياقوت، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، (هولندا: مرغليوث ليدن 1907-1926).

39- الحموي. ياقوت، معجم البلدان، (طهران: مكتبة الأسدي، 1965).

40- الحميري. عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، د. إحسان عباس (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1975).

41- الحنبلي. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (القاهرة: 1350-1351 هـ).

42- الحنبلي. قطب الدين، ذيل مرآة الزمان، ط1، (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1954، 1955، 1960، 1961).

43- الدبس. يوسف، تاريخ سورية، د. مارون رعد (مراجع)، (د.م: دار نظير عبود، 1994).

44- الدوادار. مهدي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك، محمد أحمد دهمان (محقق)، (دمشق: دار الفكر 1986).

45- الذهبي. شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، د. عبد السلام تدمري (محقق)، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت).

46- الراسي. سلام، الأعمال الكاملة، ط1، (بيروت: مؤسسة توفل ش م م، 1987).

47- الزركلي. خير الدين، الأعلام، ط2، (القاهرة: مطبعة كوستاتوماس، 1954-1959، وبيروت: 1969).

48- السحار. عبد الحميد جودت، المسيح عيسى بن مريم، كتاب الهلال، ع:190، (1967).

49- السخاوي. شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، (د.م:1957، 1958).

50- السخاوي. شمس الدين، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، بشار عواد معروف وآخرون (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1995).

51- الشابشتي. أبو الحسن، الديارات، كوركيس عواد (تحقيق)، (بغداد: مطبعة المعارف، 1951).

52- الشامي. صلاح الدين، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، (الإسكندرية: 1979).

53- الشهابي. أحمد، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني (ضبط وتقديم)، (د.م: منشورات المكتبة البولسية، 1984م).

54- الشهرستاني. أبو الفتح، الملل والنحل، محمد سيد كيلاني (محقق)، (بيروت: دار المعرفة 1961).

55- الشيرازي. علي بن جعفر، مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني، (هولندا: ليدن، 1885).

56- الصالحي. محمد بن كنان، يوميات شامية، أكرم حسن العلبي (محقق)، (دمشق، د.ت).

57- الصفدي. أحمد بن محمد، تاريخ الأمير فخر الدين المعني، د. أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني (ضبط وتقديم)، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1936).

58- الصفدي. خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (بيروت: المعهد الألماني، 1949-1979).

59- الصفدي. خليل بن أيبك، أعيان العصر وأعوان النصر، علي أبو زيد ونيل أبو عمشة ومحمد موعد ومحمد سالم محمد (محققون)، (دمشق: دار فهارس، ودار الفكر، 1998).

60- الطبري. أبو جعفر، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، محمد أبو الفضل إبراهيم (محقق)، (مصر: دار المعارف 1966).

61- العباسي، معاهد التنصيص، (د.م: د.ت).

62- العسقلاني. ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، (الهند: المطبعة العثمانية، 1349-1350 هـ).

63- العسلي. د. كامل جميل، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، (عمان، 1992).

64- العظمة. د. بشير، جيل الهزيمة: مذكرات، (لندن: رياض نجيب الريس للكتب، 1998).

65- العمري. ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد زكي باشا (محقق)، (القاهرة، 1924).

66- العمري. ابن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف، د. سمير الدروبي (محقق)، (الأردن: جامعة مؤتة الأردنية، 1992).

67- العيني. بدر الدين، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، محمد محمد أمين (محقق)، (القاهرة: مركز تحقيق التراث 1988،1987، 1990، 1992).

68- الغزي. محمد نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، جبرائيل سليمان جبور (تحقيق)، ج1، (بيروت: المطبعة الأميركانية، 1945)، ج2،

(جونية: مطبعة المرسلين، 1949)، ج3، (حريصا: المطبعة البولسية، 1959).

69- القاياتي. محمد بن عبد الجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، (مصر: مطبعة جريدة الإسلام، 1319هـ).

70- القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، أحمد حطيط وفهمي سعيد (محققان)، (بيروت: عالم الكتب، 1992/ بغداد: مطبعة الزوراء، 1282هـ).

71- القزويني. زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار صادر، 1960).

72- القزويني. زكريا بن محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، فاروق سعد (محقق)، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1987).

73- القلقشندي. أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: دار الكتب السلطانية القاهرة 1913 و1920).

74- القيصري. يوسابيوس، تاريخ الكنيسة، مرقس داود (مترجم)، (القاهرة: مكتبة المحبة).

75- الكتبي. ابن شاكر، فوات الوفيات، إحسان عباس (محقق)، (بيروت: دار صادر، 1973-1974).

76- اللقيمي. مصطفى أسعد، موانح الأنس في رحلتي لوداي القدس، مخطوطة مكتبة الأسد الوطنية (أ) 126 ورقة منسوخة في حياة المؤلف عام 1164، رقمها المتسلسل 9297. والمخطوطة (ب) 123 ورقة منسوخة عام 1183 رقمها المتسلسل .5248.

77- المبارك. محمد، الجولان عربي الأرض واللسان، (دمشق، 1999).

78- المحبي. محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (مصر: المطبعة الوهبية، 1284 هـ).

79- المرادي. محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (مصر: مكتبة بولاق 1301 هـ).

80- المسعودي. علي بن الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت: دار المعرفة، 1982).

81- المقريزي. تقي الدين، السلوك لمعرفة الدول والملوك، د. سعيد عبد الفتاح (محقق)، (القاهرة: كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، 1942- 1958).

82- المنجد. صلاح الدين، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1967).

83- المهلبي. الحسن بن أحمد، المسالك والممالك (الكتاب العزيزي)، (دمشق: دار التكوين، 2006).

84- النابغة، ديوان النابغة الذبياني، (د.م: طبعات عدة).

85- النابلسي. عبد الغني، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، أكرم حسن العلبي (محقق)، (بيروت: دار المصادر، 1990).

86- النعيمي. عبد القادر، الدارس في تاريخ المدارس، جعفر الحسني (محقق)، (دمشق: إصدار مجمع اللغة العربية 1948-1951).

87- النويري. شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، محمد محمد أمين وآخرون (تحقيق)، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

88- الهروي. أبو الحسن، الإشارات إلى معرفة الزيارات، جانين سورديل (محقق)، (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1953).

89- الهمداني. الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (هولندا: ليدن، 1884م).
90- الوتري. أحمد بن محمد، روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين، عبد الواحد الطوبي وعمر حسين الخشاب (تدقيق)، ط1، (مصر: المطبعة الخيرية، 1306 هـ).
91- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، (هولندا: ليدن، 1892).
92- إيلان. تسفي، أرض الجولان، دليل الجوال وصاحب الاهتمام، أسعد نصرت (مترجم)، (تل أبيب: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، 1980).
93- باغ. د. أديب، الجولان: دراسة في الجغرافيا الإقليمية، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب 1983).
94- بالنثيا. آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، حسين مؤنس (مترجم)، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1955).
95- جلبي. أوليا، سياحتنامة سي، (إيللك طبعى، در سعادت 1314 هـ).
96- جلبي. كاتب، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (دمشق: دار الفكر).
97- حسن. زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، (مصر: دار المعارف، 1945).
98- حميدة. د. عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط2، (دمشق: دار الفكر 1984).
99- خلف. تيسير، صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي الإسلامي. (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004).

100- خلف. تيسير، الجولان في مصادر التأريخ العربي، (دمشق: دار كنعان، 2005).

101- خلف. تيسير، وعز الدين سطاس، المسيح في الجولان، (دمشق: دار كنعان، 2006).

102- خلف. تيسير، استكشاف الجولان من 1805 حتى عام 1885، (دمشق: دار التكوين، 2006).

103- خلف. تيسير، وثائق عثمانية حول الجولان، (دمشق: دار التكوين، 2006).

104- خلف. تيسير، كنسية العرب المنسية، (دمشق: دار التكوين، 2008).

105- د.م، التفسير التطبيقي للكتاب المقدس. (القاهرة: د.ت).

106- د.م، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الحياة، د.ت).

107- د.م، كتاب وقف فاطمة خاتون، (دمشق، 1925).

108- د.م، كتاب وقف الوزير مصطفى لالا باشا، (دمشق، 1925).

109- د.م، كتاب وقف القاضي عثمان بن أسعد المنجا الحنبلي، صلاح الدين المنجد (محقق)، (دمشق، 1949).

110- 118- (د.م)، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي (ضبط وتصحيح)، (بيروت، 1966).

111- (د.م)، تاريخ الأمير يشبك الظاهري، عبد القادر أحمد طليمات (محقق)، (القاهرة: دار الفكر العربي القاهرية، 1973).

112- د.م، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، رجاء محمود السامرائي (محقق)، (بغداد، عام 1969-1980).

113- (د.م)، الخراج وصناعة الكتابة، الدكتور محمد حسن الزبيدي (شرح وتعليق)، (بغداد: وزارة الإعلام العراقية، دار الرشيد، 1981).

114- رافق. د. عبد الكريم، الموسوعة الفلسطينية: فلسطين في العهد العثماني، ج2، الدراسات التاريخية، (د.م: د.ت).

115- رستم. أسجد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، (د.م: المكتبة البولسية 1988).

116- زكار. سهيل، تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر، (دمشق: دار التكوين، 2006).

117- زكريا. أحمد وصفي، الريف السوري، (دمشق، 1374هـ).

118- زكريا. أحمد وصفي، عشائر الشام، (دمشق: دار الفكر، 1984).

119- زيادة. نقولا، العرب والمسيحية، ط4، (دمشق: دار قدمس، 2002).

120- سلطان. علي، تاريخ سورية 1918-1920، (دمشق: دار طلاس 1987).

121- سوسة. د. أحمد، الإدريسي في الجغرافيا العربية، (بغداد: منشورات نقابة المهندسين، د.ت).

122- سيل. باتريك، الأسد- الصراع على الشرق الأوسط، (د.م: د.ت).

123- شوماخير. غوتليب، الجولان، منير كنعان (مترجم)، (لندن: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية 1888).

124- شيخ الروبوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ميهرن (محقق)، (لايبزغ، 1923).

125- عبيدات. محمود، أحمد مريود قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن، (لندن: دار رياض نجيب الريس، 1997).

126- عفاش. فضل، مجلس الشعب في سورية 1928-1988، (دمشق: دار ابن هانئ، 1988).

127- عنبر وشيلر، هضبة الجولان، (دمشق: مؤسسة الأرض 1987).

128- كراتشكوفسكي. إغناتي يوليانوفيتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، صلاح الدين عثمان هاشم (مترجم)، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1965).

129- كوخافي. موشي، استعراض أثري لمنطقتي السامرة والجولان، (مترجم)، (د.م: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية).

130- لفني. ميخا، الجولان عشرون عامًا حتى عام الألفين، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية (مترجم)، (د.م: معهد دراسات الجولان، 1989).

131- مال الله. علي محسن، أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، (بغداد: مطبعة الإرشاد 1987).

132- (مجموعة من المؤلفين)، التقرير الزراعي عن البطيحة وقرى الجولان، (دمشق: الشركة الزراعية السورية المساهمة، 1934).

133- مجموعة من المؤلفين، سلسلة «الجغرافية الإسلامية»، (ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت الألمانية، 1992).

134- مجموعة من المؤلفين، وحدتنا والجيش الأول: نشرة دعائية صادرة عن الفرع الثقافي العسكري، (د.م: د.ت).

135- مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، ط1، (هولندا: دار نشر بريل ليدن، 1913).

136- محمدين. محمد محمود، التراث الجغرافي الإسلامي، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، 1984).

137- معلوف. لويس، المنجد في الأعلام. ط12، (د.م: د.ت).

138- نصار. نجيب، رسائل صاحب الكرمل، (الناصرة، 1992).

المراجع باللغتين الإنكليزية والفرنسية:

- Abel.F.M. Geographie de la Palestine, 2 vol., (Paris, Lecoffre, Gabalda & Cie, 1936).
- -B.Lewis, An Arabic Account of the Province of Safad, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, (Vol. XV.PP.477-487).

  G. Schumacher, THE JAULAN, (London, 1888).
- Amiran. Ruth, Some Observations on Chalcolithic and Early Bronze Age Sanctuaries and Religion, (Temples and High Places in Biblical Times. A. Biran, ed, 1981).
- Jerusalem, The Nelson Glueck School of Biblical Archaeology of the Hebrew Union College-Jewish Institute of Religion.
- Aveni. Anthony F,Skywatchers of Ancient Mexico. (Austin and London: University of Texas 1980)
- Archaeoastronomy, in Advances in Archaeological Method and Theory, 1981
- M. Schiffer, The Thom Paradigm in the Americas: The Case of the Cross Circle 1988 Designs, in C. L. N. Ruggles, ed., Records in Stone, Papers in Memory of Alexander Thom. (Cambridge: Cambridge University Press).

- Empires of Time: Calendars, Clocks, and Cultures. (New York: Basic Books 1989).
- The Lines of Nazca. Philadelphia: American Philosophical Society, 1990.
- Aveni. Anthony F., E. Calnek, and H. Hartung

  1988 «Myth, Environment, and the Orientation of the Templo Mayor of Tenochtitlan»
- Boehmer, J.

  1935 Der Gottesberg Tabor, Biblishe Zeitschrift XXIII: 333-341.

  Britnell, W., and H. Savory
- 1984 Gwernvale and Penywyrlod: Two Neolithic Long Cairns in the Black
- Mountains of Brecknock. Cardiff: Cambrian Archaeological Association.
- Broda, Johanna

  1991 The Sacred Landscape of Aztec Calendar Festivals: Myth, Nature and Society, in D. Carrasco, ed., To Change Place. Niwot, Co.: University
- Press of Colorado, 74-120.

  Chang, Kwang-Chin

- 1983 Art, Myth and Ritual: The Path to Political Authority in Ancient China. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Clifford, Richard J.
  1972 The Cosmic Mountain in Canaan and the Old Testament. Harvard Semitic Monographs 4. Cambridge, MA: Harvard University.
- Cohen, Rudolph
  1985 Archaeological Survey of Israel: Map of Sede-Boqer - West (197) 10-03.
  Jerusalem:
- Cohn, Robert L. 1981 The Shape of Sacred Space: Four Biblical Studies. The American Academy of Religion Studies in Religion No. 33. Chico, CA: Scholars Press.
- Dilke, O. A. W.
  1987 Mathematics and Measurement. London: British Museum.
- Eissfeldt, O.
  1934 Der Gott Tabor und Seine, Verbreitung Archiv fur Religionwissenshaft
  XXXI 14-41.
- Eliade, Mircea
  1954 The Myth of the Eternal Return or Cosmos and History. Chicago: University of Chicago Press.

- Epstein, Claire

  1977 The Chalcolithic Culture of the Golan. Biblical Archaeologist. 40: 57-62.

- Epstein, Claire

  1985 Dolmens Excavated in the Golan. Atiqot 17: 20-58. (Hebrew)

- Epstein, Claire, and Shmaria Gutman

  1972 The Golan, in Moshe Kochavi, ed., Judaea, Samaria and the Golan, Archaeological Survey 1967-1967

- Ezrahi, Yaron

  1990 The Descent of Icarus: Science, and the Transformation of Contemporary Democracy. Cambridge, MA.: Harvard University Press.

- Foster, Sally M.

  1989 Analysis of Spatial Patterns in Buildings (Access Analysis) as an Insight into Social Structure: Examples from the Scottish Atlantic Iron Age

- Antiquity 63: 40-50.

  Frankfort H., H. A. Frankfort, J. A. Wilson, and T. Jacobsen

  1961 [1946]

- Before Philosophy: The Intellectual Adventure of Ancient Man. Baltimore: Penguin Books.

- Hadingham, Evan

  1984 Early Man and the Cosmos. Norman: University of Oklahoma Press.

- Heggie, Douglas C.

  1981 Megalithic Science: Ancient Mathematics and Astronomy in North-West Europe. London: Thames and Hudson.

- -Hillier, Bill, and Julienne Hanson

  1984 The Social Logic of Space. Cambridge: Cambridge University Press.

- Issawi, Charles

  1988 The Fertile Crescent 1800-1914: A Documentary Economic History. New York: Oxford University Press.

- Jaffe, Samuel

  1988 Climate of Israel, in Eitan Tchernov and Y. Yom-Tov, eds., Zoogeography of Israel. Dordrecht: Dr. W. Junk Publishers.

- Katsnelson, Jacob

  1974 Eretz-Israel Rainfall in the Biblical and the Talmuudic Sources Examined

- in Light of Modern Climatology, Teva Vaaretz 17: (1): 4-9.

- Kochavi, M

  1989 The Land of Geshur Project: Regional Archaeology of the Southern Golan

(1987-1988 Seasons), Israel Exploration Journal 39 (1-2): 1-17.

- Kraus, H. J.

  1966 Worship in Israel. Richmond: John Knox.

- Krupp, Edwin C.

  1983 Echoes of the Ancient Skies: The Astronomy of Lost Civilizations. New York: Meridian.

- Lev-Yadun, Simcha, Yonathan Mizrachi, and Moshe Kochavi.

  1996 Lichenometric Studies of Cultural Formmation Processes at Rogem Hiri, Golan Heights, Israel, Israel Exploration Journal Vol. 46, 196-207.

- Lewy, J.
- Mizrachi, Yonathan

  1992a Rujm el-Hiri: Toward an Understanding of a Bronze Age Megalithic Monument in the Levant. Ph.D dissertation, Harvard University, Cambridge, MA. Ann Arbor: University Microfilms.

- 1992b Mystery Circles on the Golan, Biblical Archaeology Review 18 (4): 46-57.
- 1996 Rujm el-Hiri, The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. New York: Oxford University Press.
- Mizrachi, Yonathan, and Mattanyah Zohar

1993 Rogem Hiri (Rujm el-Hiri), The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land. Jerusalem: The Israel Exploration Society and Carta Publishers, Inc.

- Mizrachi, Yonathan, Mattanyah Zohar, Moshe Kochavi, Vincent Murphy, and Simcha Lev-Yadun

  1996 The 1988-1991 Excavations at Rogem Hiri, Golan Heights, Israel Exploration Journal Vol. 46 169-175.
- Mouterde, R.

  1951 Antiquities de l'Hermon et de la Beqa, Melanges de l'Universite S. Joseph

  (Beirut) XXIX: 22-37.
- Oppenheim, Leo A.

  1977 Ancient Mesopotamia: Portrait of a Dead Civilization. Chicago: University of Chicago Press.
- Retso, Jan

  The Arabs in Antiquity, Their history from the Assyrians to the Umayyads, Psychology Press, 2003.
- Urman, Dan

  1985 The Golan: A Profile of a Region During the Roman and Byzantine Periods, BAR International Series 269, Oxford: B.A.R.
- Urton, G.

1981 Animals and Astronomy in the Quechua Universe, Proceedings of the American Philosophical Society. 125 (no. 2): 110-127.

- de Vaux, Ronald

  1965 Ancient Isreal: Social Institutions (Vol. 1) , Religious Institutions (Vol. 2).

  New York: McGraw-Hill.

- Wensinck, A. J.

  1923 The Semitic New Year and the Origin of Eschatology, Acta Orientalia I:

  158-199.

- Wood, John E.

  1978 Sun, Moon and Standing Stones. Oxford: Oxford University Press.

- Zohar, M

  1989 Rogem Hiri: A Megalithic Monument in the Golan, Israel Exploration Journal 39 (1-2): 18-31.

- Zuidema, R. T., and G. Urton

  1979 La Constelación de la Llama en los Andes Peruanos, Allpanchis Phuturinqa 9: 59-119.

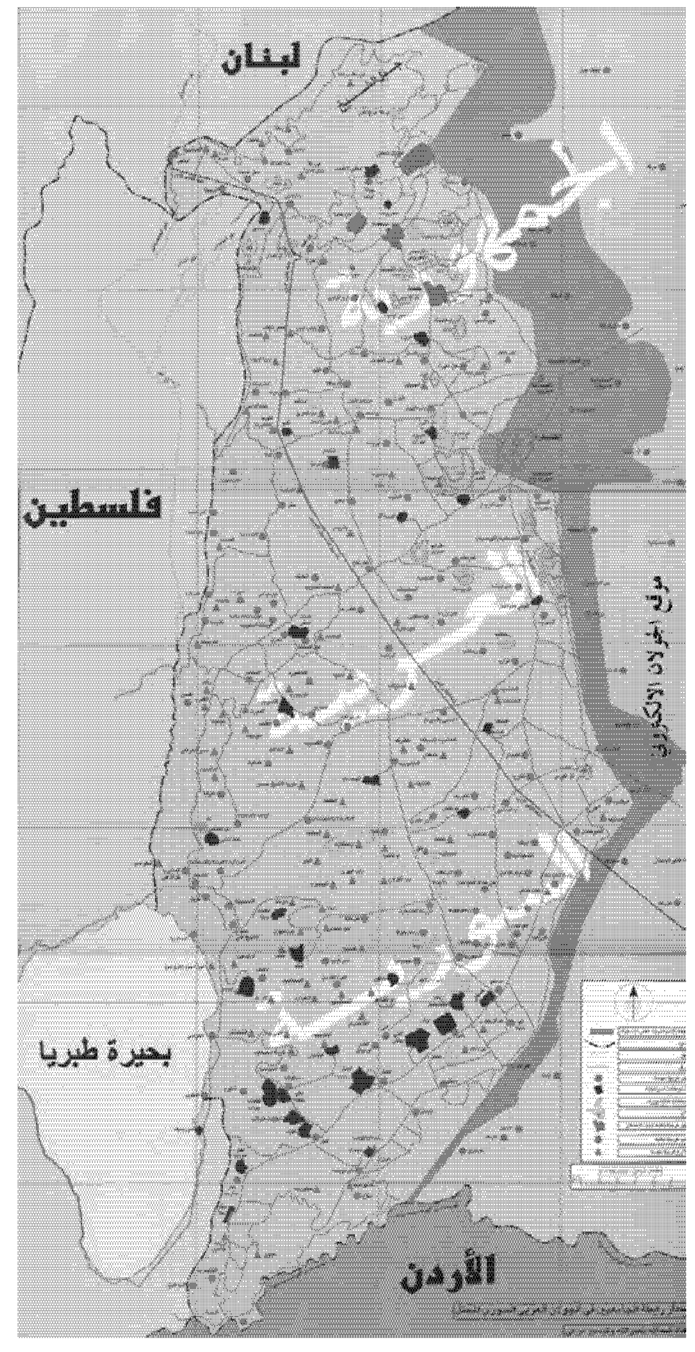
- E. ROBINSON and E. SMITH, BIBLICAL RESEACHES IN PALESTINE AND IN THE ADJACENT REGIONS. A JOURNAL OF TRAVELS IN THE YEAR 1838. LINDON, 1860
- G. SCHUMACHER, THE JAULAN. LONDON 1888.
- W.M. THOMSON, D.D., LAND AND THE BOOKP. LONDON 1874.
- Bethsaida Excavation Update:2001 Season. Excavation of Iron Age gate area reveals outer city gate. By Professor Rami Arav, University of Nebraska at Omaha Bethsaida, 2003.
- BETHSAIDA EXCAVATIONS PROJECT. THE SEASON OF 2004.FIELD REPORT, RAMI ARAV
- BETHSAIDA EXCAVATIONS PROJECT. THE SEASON OF 2005. FIELD REPORT, RAMI ARAV
- Three Seasons of Excavations at Hippos [Sussita]. Arthur Segal Zinman Institute of Archaeology, University of Haifa
- The Geometry and Astronomy of Rujm el-Hiri, a Megalithic Site in the Southern Levant, Anthony Aveni & Yonathan Mizrachi, Revised 15 November 1997

- Hippos. Third Season of Excavations July 2002, Arthur Segal University of Haifa
  Jolanta Mlynarczyk Polish Academy of Sciences, Mariusz Burdajewicz National Museum, Warsaw. Mark Schuler Concordia University, St. Paul. Zinman Institute of Archaeology University of Haifa. November 2002
- Yerasimos, Stephane, Les Voyageurs Dans L,empire Ottoman (XIVe-XVIe siecles). Ankara 1991.

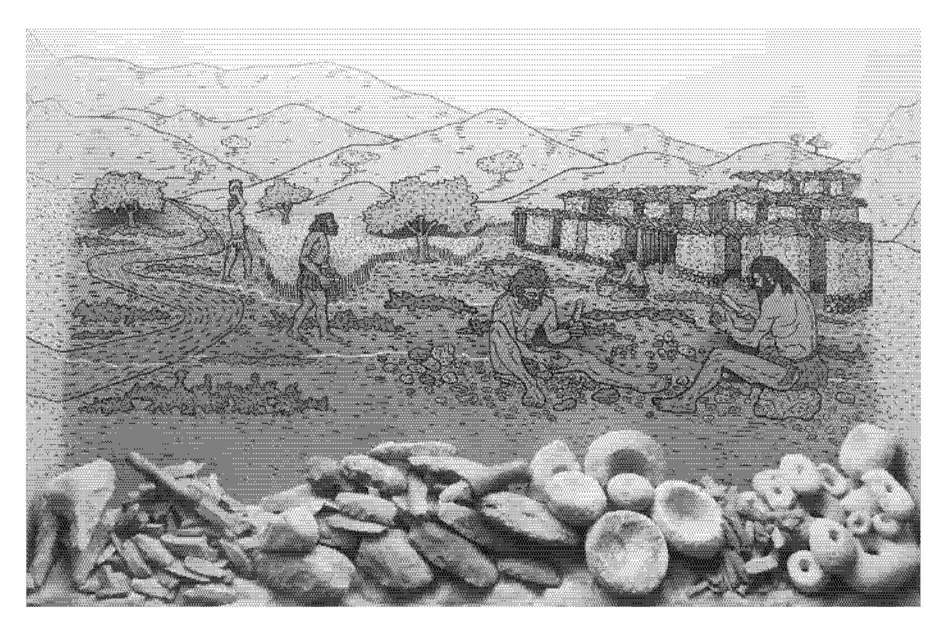
ملحق الصور



خريطة الجولان عام 1884 كما رسمها شوماخر



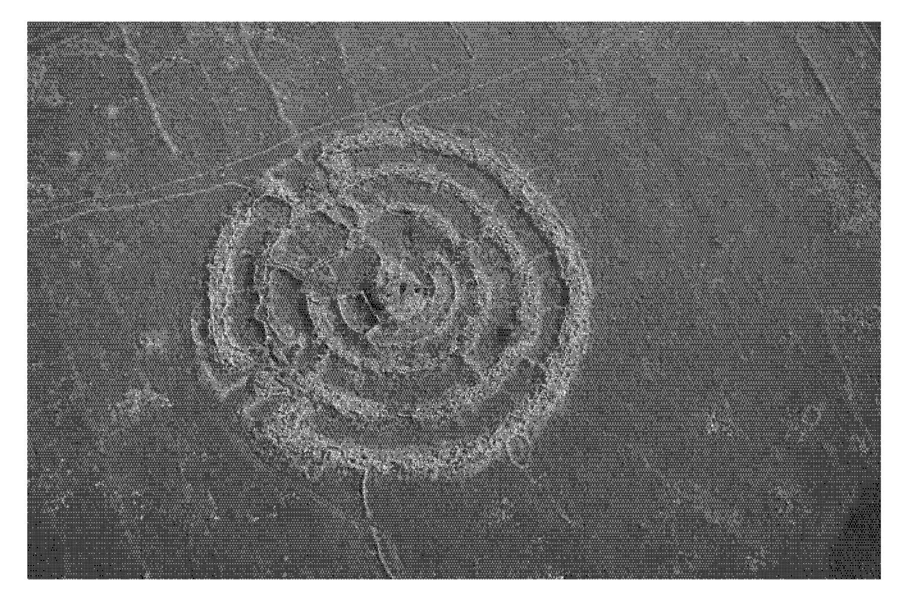
خريطة الجولان السوري المحتل



الثقافة اليرموكية في جنوب الجولان



تماثيل الأم العظيمة من الثقافة اليرموكية



رجم الهري



من قبور الدولمن في الجولان



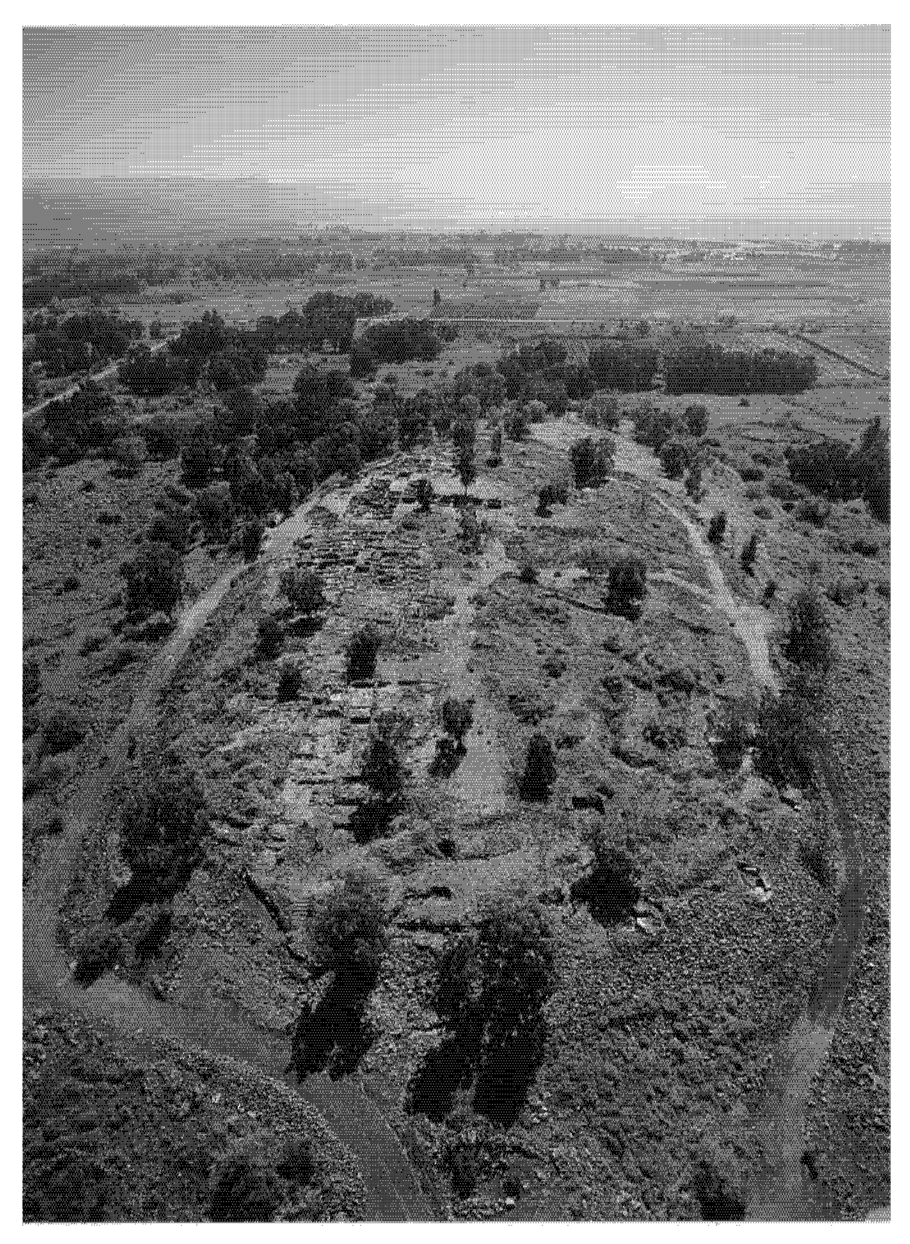
تمثال الإله شدرفة في قرية كفرالما



تفصيل من واجهة معبد في سوسيا - هيبوس



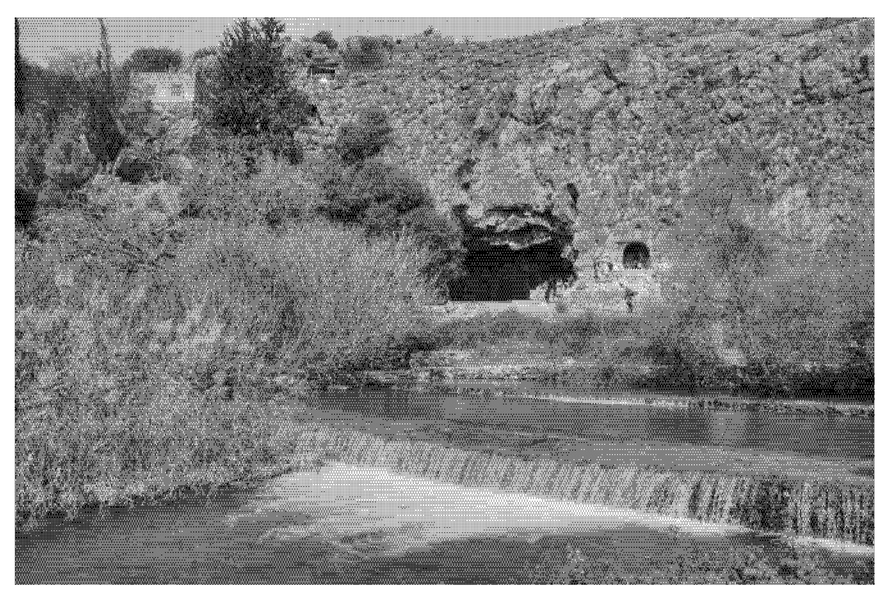
أفروديت بانياس



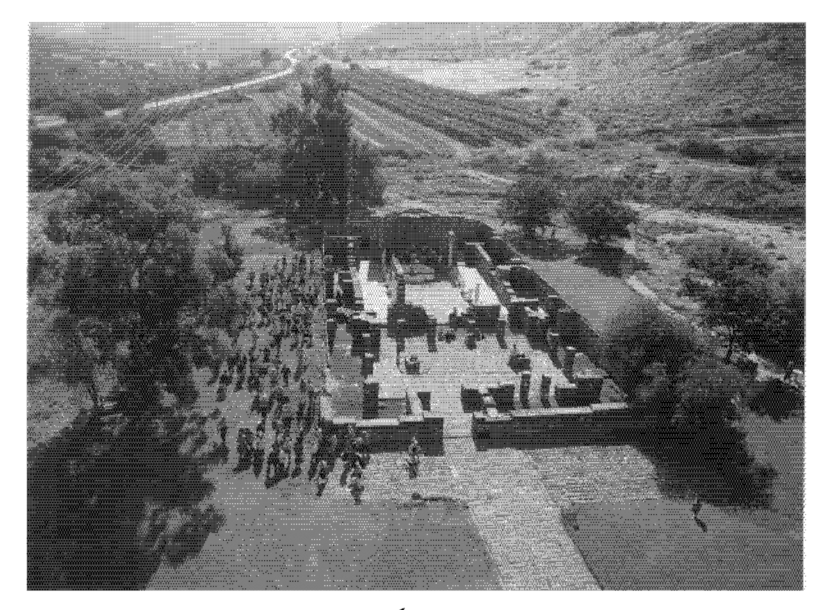
البطيحة- بيت صيدا



بوابة قلعة مدينة بانياس



كهف بان في مدينة بانياس



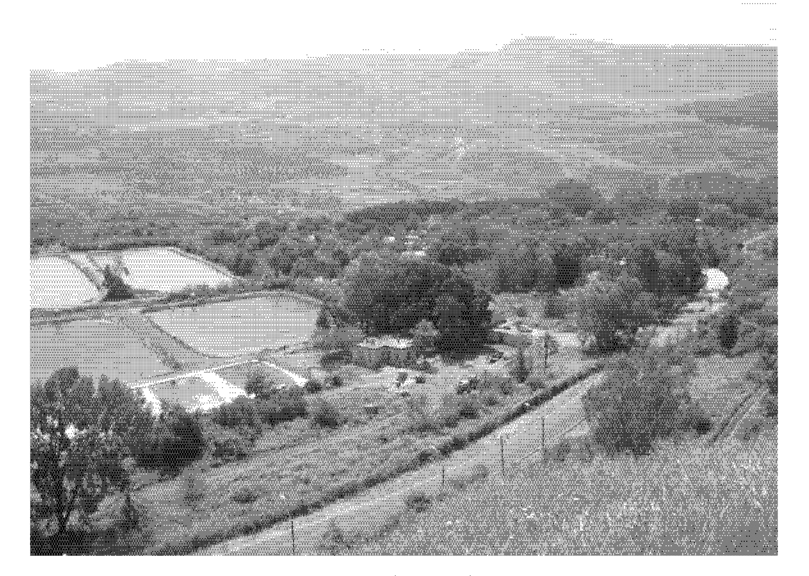
كنيسة الكرسي



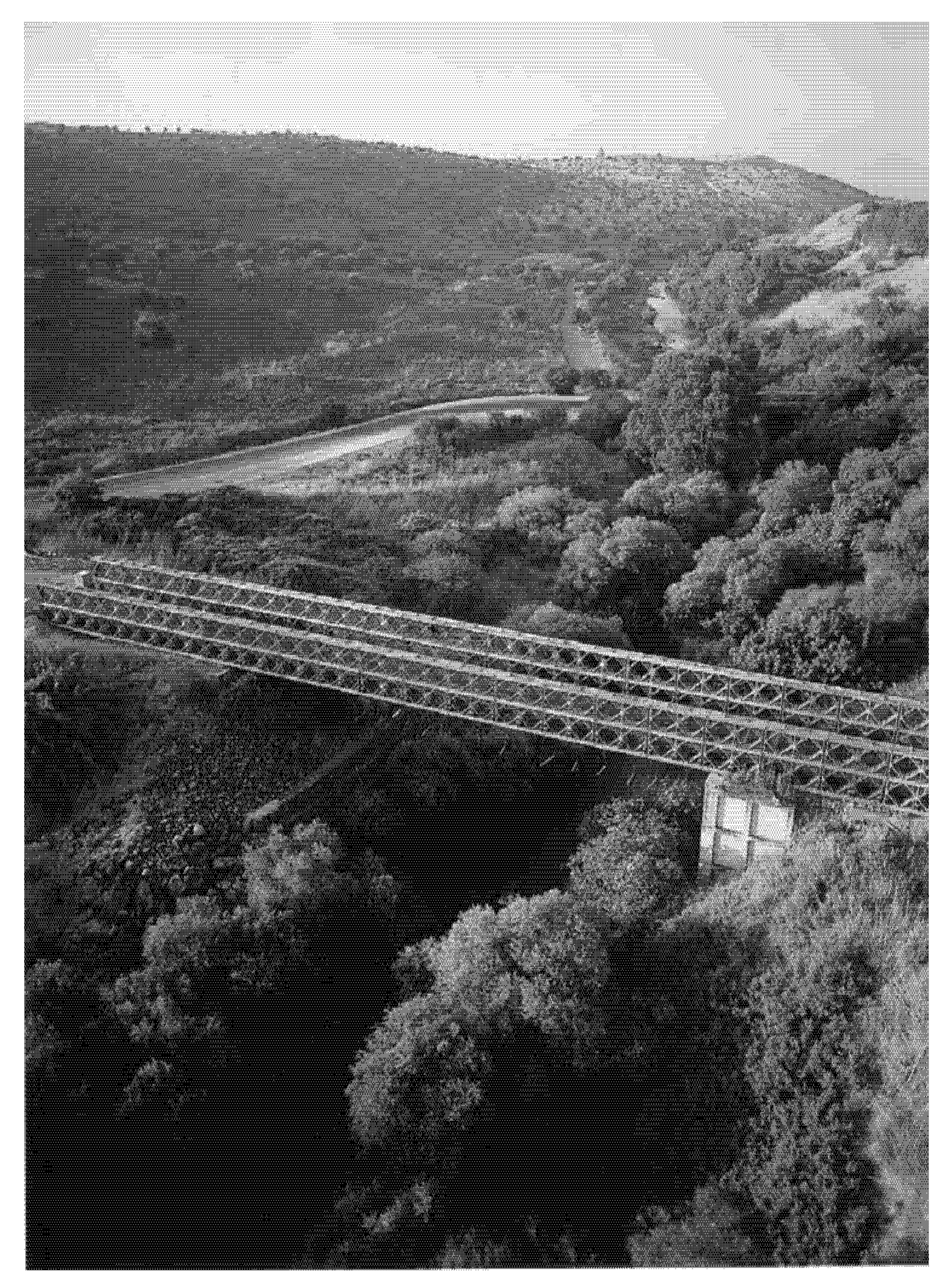
حلي من سوسيا- هيبوس



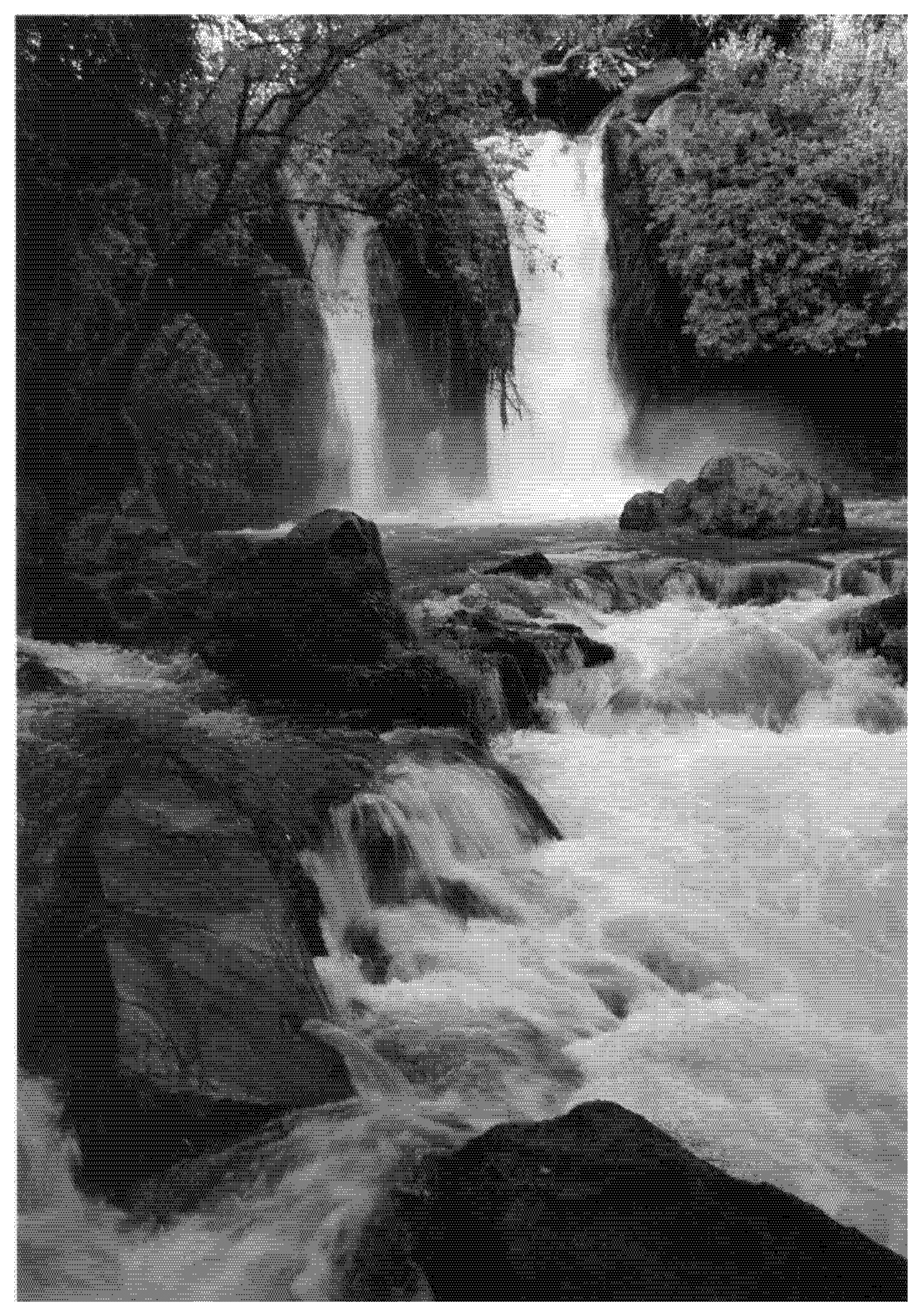
قلعة الصبية



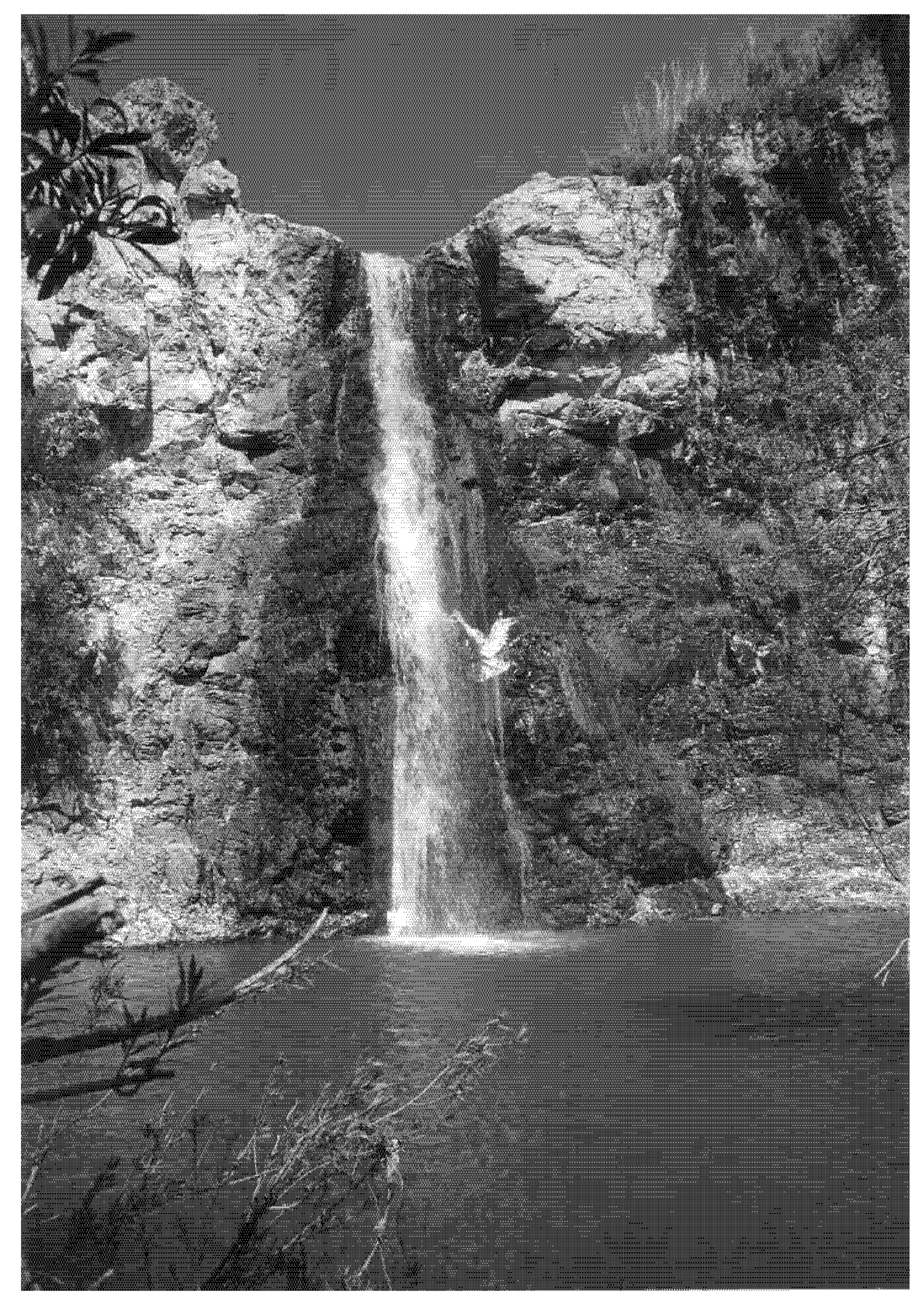
الحمة السورية



جسر بنات يعقوب



شلال بانياس



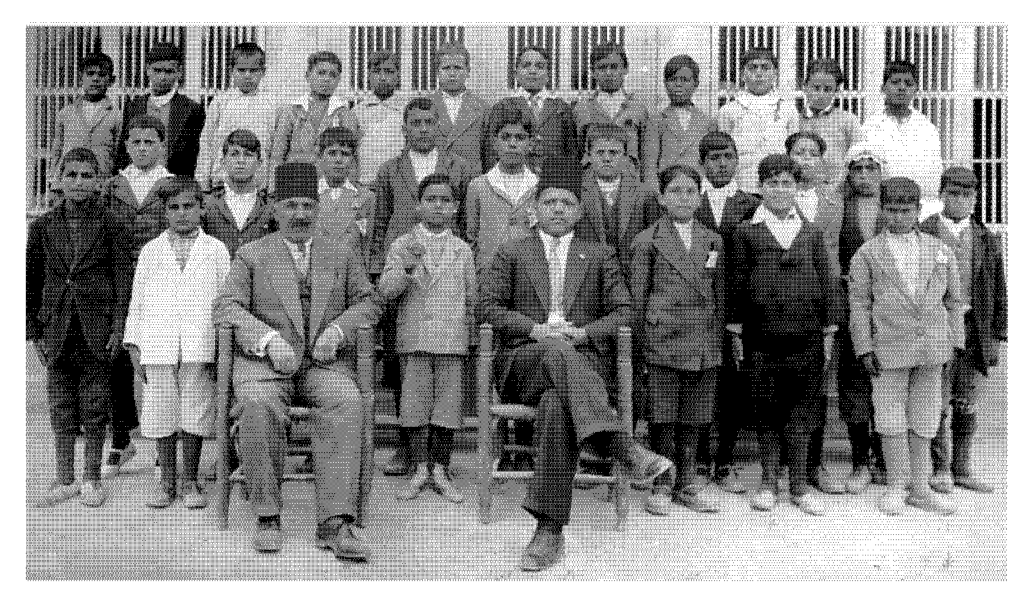
شلال العال



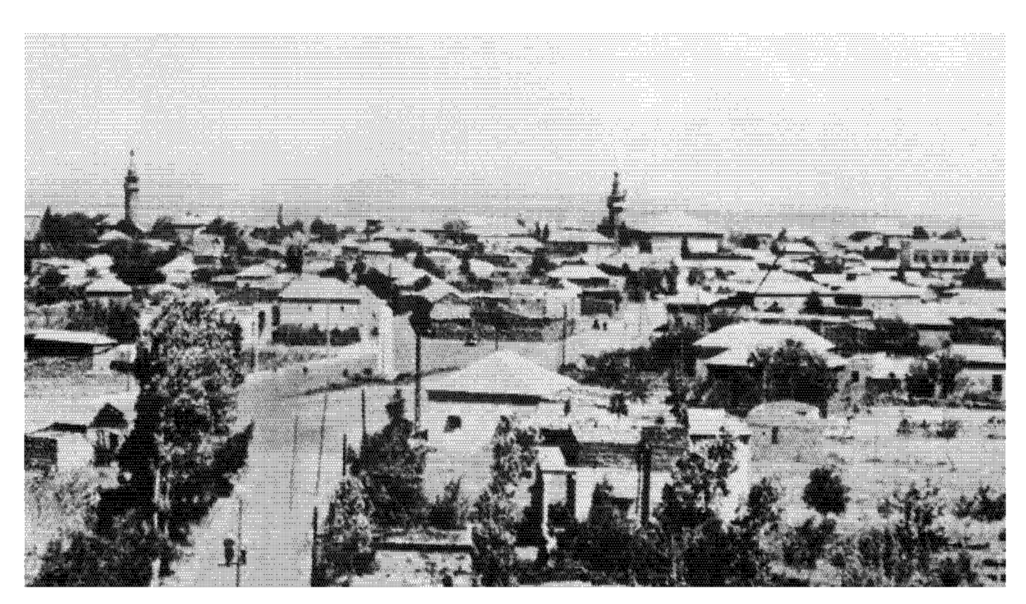
كفر حارب



وادي السعار شمال الجولان



مدرسة القنيطرة الإعدادية عام 1926



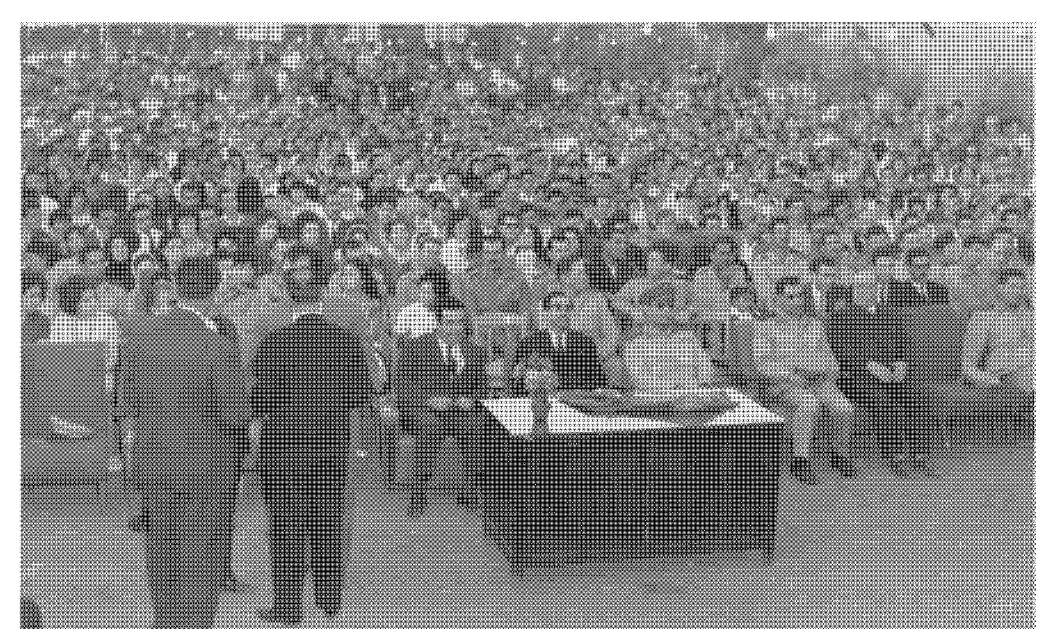
مدينة القنيطرة في الخمسينيات



ساحة مدينة فيق مطلع الخمسينيات



نساء من قرية سكوفيا عام 1954



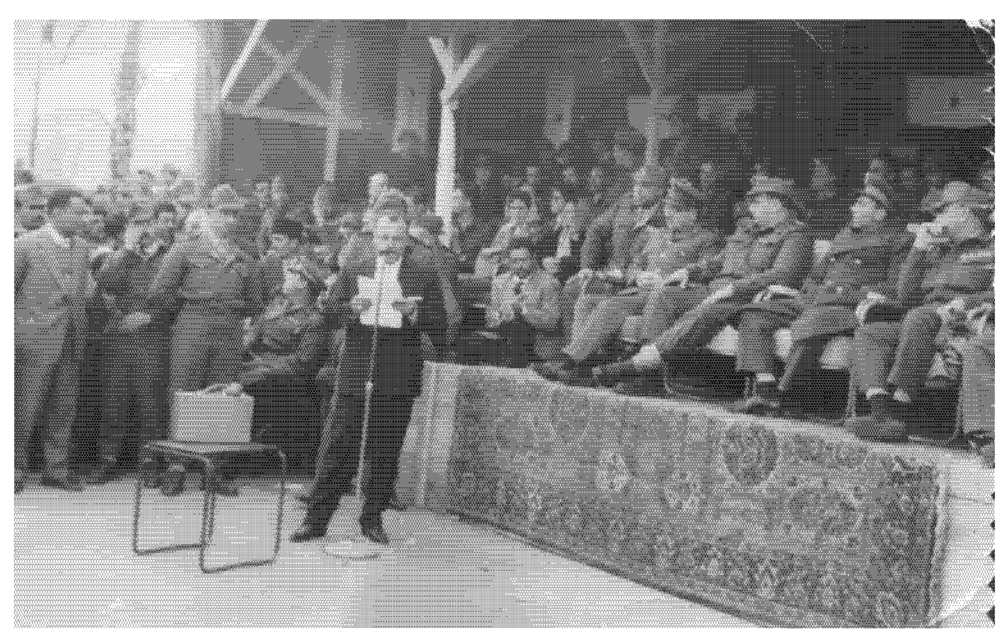
مهرجان التفاحيات في القنيطرة عام 1965



جمعية النهضة النسائية في القنيطرة 1958



احتفالات الوحدة في القنيطرة عام 1960



احتفال وطني في القنيطرة عام 1964



فريق الجولان لكرة القدم مطلع الخمسينيات

فهرس الأعلام

أ

أ

ا

أ

ا

أ

ا

أ

إ

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ن

ه

و

ي

هذا الكتاب

"تاريخ الجولان المفصّل" واحد من كتب التاريخ المهمة في موضوعه، يفصّل فيه المؤلف تاريخ الجولان منذ العصر الحجري إلى يومنا هذا، محيطًا -في سعة- بمناحيه الحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، إنسانًا وعمرانًا، سلمًا وحربًا، متوسلًا بما اكتشفه علماء الآثار في منطقة تُعدّ ملتقًى الحضارات السورية والرافدية والفرعونية والإغريقية والرومانية والفارسية والعربية، المسيحية والإسلامية، مستضيئًا بما دوّنه عن الجولان الثقات من الرحّالة والرواة والإخباريين والمؤرخين في عصور وأحقاب وعهود وأطوار مختلفة.

فأعطى لكل عصر وحقبة ومرحلة حقها من البحث والتقصي والسرد والوصف والتوثيق والمحاكمة العلمية للمستند، مقارنًا الوثيقة بالوثيقة، والخبر بالخبر، والرواية بالأخرى؛ والمدوّنة بأختها؛ لبلوغ التيقن، وإجلاء الحقيقة، وتبيان ما لحق بها من حيف، كل ذلك في منهج علمي موضوعي رصين، لا يدّخر فيه المؤلف أداة من أدوات البحث والكشف والتعيين إلا واستخدمها؛ خدمةً للحقيقة، وتحقيقًا للموضوعية في كتابة التاريخ.

ولأنه على تلك الصورة من الدقة والثراء، فإننا نضع هذا الكتاب بين يديك، القارئة العزيزة، والقارئ العزيز؛ ليكون مُعينًا، ومصدرًا موثوقًا، ومرجعًا أنى احتجت إليه.



تيسير خلف

باحث وروائي، له عدد كبير من المؤلفات الروائية والبحثية.
مواليد مدينة القنيطرة في الجولان، 24 نيسان/ أبريل 1967.
خريج كلية الآداب قسم الصحافة/ جامعة دمشق.
درس ماجستير تاريخ الفن في جامعة فريبورغ السويسرية.
عمل محررًا ومراسلًا في عدد من الدوريات العربية منذ عام 1988 وحتى 2015 مثل: مجلة الحرية الفلسطينية، وجريدة الرأي العام الكويتية، والقدس العربي، ومجلة الوسط اللندنية، والراية والشرق القطريتين والجولان السورية والبيان الإماراتية.
عمل مع بعض مراكز الأبحاث العربية، مثل مركز الشرق في دمشق، ومركز أورينت فيجين في دبي، ومركز الشرق للدراسات والأبحاث في دبي.

السعر: 20 دولارًا



